التدوين التاريخي

عند المسلمين

مقدمة في دراسة نشأة علم التاريخ وتطوره
حتى بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

الدكتور فاروق عمر فوزي

مركز زايد للتراث والتاريخ

التدوين التاريخي

عند المسلمين

رقم التصنيف : ديوي ٩٥٣ ـ التاريخ العام للعرب والإسلام
المؤلف ومن هو في حكمه : د. فاروق عمر فوزي
عنوان الكتاب : التدوين التاريخي عند المسلمين
الموضوع الرئيسي : العناية بالتاريخ بعد الإسلام
ـ مراحل الكتابة التاريخية
ـ التدوين التاريخي عند المؤرخين غير المسلمين
ـ المعرفة التاريخية في كتب التراث العربي الإسلامي
الناشر : مركز زايد للتراث والتاريخ ـ العين ـ الإمارات العربية المتحدة
توصيف الكتاب : قياس الكتاب ١٧×٢٤، عدد الصفحات ٥٠٦
قيد الكتاب : تم قيد الكتاب في سجل الإيداع النوعي بقسم الملكية الفكرية وحقوق المؤلف بوزارة الإعلام والثقافة تحت رقم (أ م ف ٤/٣٤٦ ـ ٢٠٠٤) تاريخ ٦/١٠/٢٠٠٤م.
ملتزم الطبع : دار البارودي للطباعة والنشر، ص.ب: ٤٢٨٦٠ أبو ظبي
الرقم الدولي : ISBN 9948-06-108-x

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

مركز زايد للتراث والتاريخ

مركز زايد للتراث والتاريخ
ZAYED CENTRE FOR HERITAGE AND HISTORY

ص.ب 23888 العين- الإمارات العربية المتحدة- هاتف: 7615166-3-971+، فاكس: 7615177-3-971+
P.O. BOX 23888 ALAIN-U.A.E-TEL:971-3-7615166, FAX:971-3-7615177
E-mail:zc4hh@zayedcentre.org,ae

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

يعدُّ التدوين التاريخي للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والمنجزات الحضارية المختلفة التي مرّ بها المجتمع الإسلامي في العصور الماضية من أهم ألوان التأليف عند المفكرين العرب والمسلمين.

ويشكل موضوعُ جهود المؤلفين العرب القدامى، ومصنفاتهم، وتحليل رواياتهم، من حيث السند والمتن، وبيان أهميتها يشكّل أهمّ القضايا التي ما تزال بحاجة إلى البحث والدراسة، لنتمكن من إضاءة كثير من جوانب حضارتنا العربية الإسلامية، وفق منهج علمي دقيق.

وتمثل هذه الدراسة المعنونة بـ "**التدوين التاريخي عند المسلمين**" محاولة جادة، نهض بها الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي، وسعى من خلالها إلى تقديم نظرة شاملة لمسيرة حركة التدوين التاريخي عند العرب، منذ بدايتها في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي حتى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

وقد بنى الباحث دراسته على ثلاثة أقسام متصلة، هي: البدايات، والنضوج، والتدهور، وقد حرص على بيان سمات كلّ مرحلة، وعلى تقديم أشهر أعلامها من المعنيين بالتدوين التاريخي، وكاشفاً عن أهمية مصنفاتهم، ودورها في حركة **التدوين التاريخي**.

ولا شكّ أن نشر هذه الدراسة العلمية تُمثّل إسهاماً من المركز في الكشف عن جانب مهمّ من جوانب حركة التأليف التاريخي عند العرب.

د. حسن محمد النابودة

مدير مركز زايد للتراث والتاريخ

المحتويات

الملاحق

نماذج من مقدمات المؤرخين لمؤلفاتهم والتي توضح منهجهم في التدوين:

- مقدمة محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) لكتابه المغازي.
- مقدمة ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، لكتابه عيون الأخبار.
- مقدمة اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) لكتابه التاريخ.
- مقدمة الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م) لكتابه تاريخ الرسل والملوك.
- مقدمة المؤيد في الدين الشيرازي (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) لمذكراته.
- مقدمة مسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) لكتابه تجارب الأمم.
- مقدمة السهمي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) لكتابه تاريخ جرجان.
- مقدمة أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) لكتابه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.
- مقدمة البيروني (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) لكتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية.
- مقدمة الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) لكتابه تاريخ بغداد مدينة السلام.
- مقدمة الأمير عبدالله (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) لمذكراته الموسومة (التبيان).
- مقدمة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) لكتابه معجم الأدباء.
- مقدمة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) لكتابه معجم البلدان.
- مقدمة ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) لكتابه الكامل في التاريخ.
- مقدمة بهاء الدين بن شداد(ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) لكتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

- مقدمة ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م) لكتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء.
- مقدمة ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) لكتابه وفيات الأعيان.
- مقدمة ابن العبري (٦٨١هـ/ ١٢٨٦م) لكتابه تاريخ مختصر الدول.
- مقدمة ابن عذاري (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) لكتابه البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.
- مقدمة الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) لكتابه تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام.
- مقدمة ابن واصل (ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٨م) لكتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.
- مقدمة ابن القنفذ القسنطيني (ت ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) لكتابه الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.
- مقدمة المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) لكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.
- مقدمة المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) لكتابه درر العقود الفريدة.
- مقدمة ابن حجر السعقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) لكتابه الإصابة في تمييز الصحابة.
- مقدمة ابن حجر السعقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) لكتابه الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة.
- مقدمة ابن قاضي شهبة (ت ٨٧٤هـ ت/ ١٤٦٩م) لكتابه الكواكب الدرية في السيرة النبوية.
- مقدمة السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) لكتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ.
- مقدمة ابن رزيق (ت ١٢٧٤هـ/ ١٨٧٣م) لكتابه الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين.
- المصادر الأصلية والمراجع الحديثة والبحوث.

* * *

المقدمة

«إنه لم يخل زمن من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه علماء محقون قد طالعوا كتب من تقدمهم ودارسوا أهلها ومارسوا الموافقين لهم وعانوا المخالفين عليهم فمخضوا الحكمة وعجموا عيدانها ووقفوا على حدود العلوم فحفظوا الأمهات والأصول وعرفوا الشرائع والفروع ففرقوا ما بين الأشباه والنظائر وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ووصلوا بين المتجاور والمتوازي واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البين».

رسائل الجاحظ ١ / ٣٣٨

النظرة إلى التاريخ

ما هو التاريخ؟ وهل يمكن تعريفه بصيغة واضحة محددة؟. بداية نقول لقد استأثر مفهوم التاريخ باهتمام العديد من المفكرين منذ القدم وحتى يومنا هذا، وقد ألفينا أنفسنا أمام أجوبة كثيرة اختلفت في تحديد معنى التاريخ مصطلحاً ولغة وميداناً، ظهرت في مجموعة كبيرة من البحوث ويكفي أن أشير إلى بعضها الذي ظهر في عصرنا الحاضر لا بين هذا الكم الوافر من المراجع التي بحثت في الموضوع : فقد كتب ادوارد كار كتاباً سماه "ما هو التاريخ؟" ليلفت الانتباه إلى ضرورة إيجاد الجواب المناسب من بين الأجوبة العديدة وليحاول وضع نهاية للمشادة، وكتب جوزف هورس كتاباً بعنوان "قيمة التاريخ" وهناك كتاب "فكرة التاريخ" لكلولنجوود، و"كيف نفهم التاريخ" لجوتشلك، و"فائدة التاريخ" لراوس، و"علم التاريخ" لهورنشو، و"المدخل إلى الدراسات التاريخية" تأليف لانجلوا وسينوبوس، وأخيراً وليس آخراً "لماذا لا نتعظ من التاريخ" لمؤلفه ليدل هارت.

ولم يكن المؤرخون العرب المحدثون أقل باعاً من زملائهم الأجانب في هذا الشأن فقد كتب قسطنطين زريق كتابه "نحن والتاريخ" وكتب أسد رستم كتاباً بعنوان "مصطلح التاريخ" وظهر كتاب "نشأة علم التاريخ عند العرب" لعبدالعزيز الدوري. الذي شارك مع صالح أحمد العلي وآخرين في إصدار كتاب آخر عن "تفسير التاريخ" وكتب زكي صالح "محاضرات في أصول التاريخ" وفاضل حسين" في مفهوم التاريخ" ونوري جعفر "التاريخ مجاله وفلسفته" وأحمد صبحي محمود في "فلسفة التاريخ".

والواقع أن التاريخ كان من أوائل العلوم التي اهتم بها العرب المسلمون في العصر الإسلامي الوسيط فرووا أخباره وتدارسوه ودققوا فيه، وقد عني بعض الباحثين من عرب ومستشرقين بدور المؤرخين المسلمين في تطور علم التاريخ فكانت محاولة وستنفلد ١٨٨٢م من أوائل المحاولات ثم جاء كتاب بروكلمان "عن تاريخ الأدب العربي" وتلته محاضرات ماركليوث سنة ١٩٣٢م عن المؤرخين العرب ثم مقالة هاملتون جب عن التاريخ عند المسلمين إضافة إلى ما كتبه بعض المستشرقين الآخرين.

إلا أن كتاب "علم التاريخ عند المسلمين" الذي ألفه فرانز روزنثال كان من أهم الكتب التي عالجت تطور علم التاريخ ودور المؤرخين المسلمين في الكتابة التاريخية وتدوين الحوادث وحفظها، وبحث موضوع علم التاريخ عند المسلمين نخبة من المفكرين العرب أيضاً فقد كتب عبدالعزيز الدوري آنف الذكر "نشأة علم التاريخ عند العرب" وألف نور الدين حاطوم وزملاؤه "المدخل إلى علم التاريخ" وكتب سيد عبدالعزيز السالم عن "التاريخ والمؤرخون العرب" وألف شاكر مصطفى عن "التاريخ العربي والمؤرخون" كما ألف حسين نصار عن "نشأة التدوين التاريخي عند العرب" إلى جانب باحثين آخرين كثيرين.

تجاه هذا الخضمّ الهائل من المؤلفات، تواجهنا جملة تعريفات حول مفهوم التاريخ والنظرة إليه، فقديماً نظر المؤرخ اليوناني هيرودتس (عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) إلى التاريخ ورأى أنه يشتمل على البحث والتحقيق في أحداث الماضي وتسجيلها، ولم يكتفِ بذلك بل رحل وشاهد بنفسه الأحداث المعاصرة له والتي كتب عنها وخاصة الصراع مع الفرس، ولكن كتابات اليونان عامة كانت أسطورية لم يكن فيها من التاريخ إلا القليل ومن الخيال الشيء الكثير والتي حولت أسبارطه إلى معسكر تفوح منه رائحة الحرب والدم. وكانت نظرة الرومان أكثر واقعية مما جعلهم يعنون بتفسير الوقائع وهذا بارز في كتاب "حياة العظماء" لمؤرخهم بلوتارك (ت حوالي ١٢٠م) حيث لم يكتف بسرد أحداث الماضي بل علق عليها وبذلك كان تاريخه حافزاً ومصدراً للعظة والاعتبار، وهذا ما يسمى بالتاريخ الحافز.

فإذا ما انتقلنا بعد هذا إلى المفهوم الإسلامي للتاريخ الذي مثله مجموعة من المؤرخين، نلاحظ الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) وهو يحث على تدوين الأخبار بقوله: " لولا الكتابة لاختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين وإنما اللسان للشاهد لك والقلم للغائب عنك وللماضي قبلك...".

ثم يأتي تعريف ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) المشهور للتاريخ ذلك الموضوع الذي يحدث الإنسان عن حقيقة الإنسان حيث يقول: "التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعدّ في علومها وخليق".

ويؤكد كل من محمد بن سليمان الكافيجي (ت ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) في كتابه "المختصر في علم التاريخ"، والسخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ" على أن التاريخ علم موضوعه الإنسان والزمان وبذلك يؤكدان على حد قول روزنثال على كونه دراسة علمية تختص بأعمال الإنسان، وأنه يخضع للعقل بمعنى أن المعلومات التي يقدمها تستند على أسس هي المصادر والوثائق.

وحينما ننتقل في هذا الاستعراض الموجز إلى قضية أخرى هي المفهوم الحديث للتأريخ ونطاقه نلاحظ الاختلاف حول النظرة إلى التاريخ ومفهومه على أشده. يقول صالح أحمد العلي: "نقصد بالتاريخ دراسة نشاط الإنسان الذي يعيش في المجتمع وتطور هذا النشاط في الماضي" ويضيف: فأساس التاريخ "الإنسان في المجتمع ولا يدخل فيه أحواله المتصلة بذاته مما لا علاقة له بالمجتمع، كما أنه لا يدخل فيه ماضي كثير من جوانب الكون كالأرض والفلك والفيزياء إلا بقدر ما له علاقة بالإنسان في المجتمع وبصرف النظر عن مستوى ذلك المجتمع من الازدهار والركود".

ولكن نظرة حسين مؤنس إلى التاريخ واسعة جداً فلم يعد التاريخ ينحصر بالماضي بل غدا يمثل "حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض وما

تتبعه هذه الحركة الدائمة من تغيير دائم"، ويضيف مؤنس: "أن التاريخ يشمل الماضي والحاضر والمستقبل".

ولوجهتي النظر مؤيدون ومعارضون... فكان تعريف قسطنطين زريق يؤيد وجهة النظر الأولى فالتاريخ ما هو إلا "السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه".

بينما تبنى زكي صالح المفهوم الواسع للتاريخ فهو يشمل جميع شؤون البشر الماضية متداخلة أو منفردة، وكذلك أثر البيئة في حياة الإنسان.

وهكذا يتبين لنا أن الاتجاهات تختلف في النظرة إلى التاريخ فالبعض يعتبره مجرد البحث عن الحقائق وتدوينها، وهناك من يرى فيه تفسير هذه الحقائق وربطها، وقد أوضح زكي صالح نفسه هذه النظرة الأخيرة بقوله: إن التاريخ يحاول الإجابة عن خمسة أسئلة هي:

من الفاعل؟ ما هو الفعل؟ أين وقع؟ متى وقع؟ ولماذا حدث بالشكل الذي حدث فيه؟ ولكن بعض المؤرخين يترددون في الإجابة على التساؤل الأخير ويرون أنه ليس من واجبات المؤرخ أن يفسر الأحداث، فالمؤرخ الألماني رانكه (ت ١٨٨٦م) زعيم المدرسة العلمية في التاريخ يقول: إن المؤرخ مرآة صافية تنعكس عليها صورة الحوادث دون أن يكون له أي تأثير فيها، فالتاريخ لا يصور إلا ما حدث بالضبط ولا مبرر للمجازفة والتطرق إلى التساؤل لماذا حدث بالشكل الذي حدث فيه. فإن العديد من تفاسير التاريخ مثل تفسير البطل في التاريخ والتفسير الاقتصادي والمادي للتاريخ كانت محاولات للإجابة على هذا السؤال؟ بل إن هناك من المؤرخين المحدثين من تمادى في الإجابة على سؤال آخر وهو إلى أين؟ أي محاولة التنبؤ عما يحدث في المستقبل، ومنهم المؤرخ شبنكلر والمؤرخ مومسن الذي قال: "إن التاريخ لا يكتب ولا يصنع بدون حب أو كراهية".

وهناك من المؤرخين المحدثين من يقع وسطاً بين هاتين الرؤيتين المتناقضتين في تقرير وظيفة المؤرخ ونطاق التاريخ ويُعدّ توينبي من المؤرخين الذين تبنوا موقفاً

وسطياً معتدلاً فهو وإن وضع قواعد عامة أثرت في مسيرة التاريخ البشري فإنه لم يقرر حتميتها في التأثير على المستقبل.

والملاحظ أن النظرة إلى التاريخ شهدت مزيداً من التطرف على يد المؤرخ الإيطالي المعاصر كروتشه حين قال: "إن التاريخ كله تاريخ معاصر" بمعنى أن التاريخ هو رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله وأن عمل المؤرخ هو التقييم وليس مجرد الجرد والتدوين، فالتاريخ إذن يقرأ في مصادره ووثائقه ولكنه يفهم ويكتب بعقلية الحاضر لأن المؤرخ ابن بيئته ونتاج عصره. وهذه النظرة إلى التاريخ تختلف عن النظرة التقليدية التي ترى دراسة الماضي سبيلاً لفهم الحاضر، فالحاضر من وجهة النظر هذه، هو امتداد للماضي. وقد تابع المؤرخ البريطاني كولينكوود خطى كروتشه فهو يعيب على من سبقه من المؤرخين تشبثهم بالوثيقة أو المخطوط بوصفها شيئا مقدساً وعدم إدراكهم جملة مسائل منها: أن حقائق التاريخ لا يمكن أن تصل إلى المؤرخ بصورة بحتة مجردة لأنها لا توجد بهذه الصورة أولاً وأن المؤرخ إذا أراد أن يفهم ماضي فترة من الفترات فعليه "أن يعيش ذلك الماضي" أي أن يشعر بالشعور السائد آنذاك ويتفاعل مع الظروف التي كانت سائدة في ذلك الوقت. إن تقويم المؤرخ لحادثة ما بدون هذا الفهم سيكون ناقصاً مهما كانت قيمة الوثائق التي بين يديه ثانياً. فالمؤرخ إذا أراد أن يعي الماضي فلا يكون ذلك إلا من خلال الحاضر. ويضرب المؤرخ أمثلة على ذلك بقوله وهكذا كان القديس أوغسطين في كتابه (مدينة الله) يطرح رؤية من خلال منظار المسيحي المؤمن، وهذا ما فعله كيبون في كتابه "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" حين قدم رؤية من زاوية الإنجليزي الذي عاش في القرن الثامن عشر. ونظر هيوم في كتابه "تاريخ إنكلترا" من وجهة نظر مؤرخ محافظ مستخدماً كتابه وسيلة للدفاع عن حزب المحافظين، وهذا ما يفعله كل مؤرخ لأنه مرغم على الاختيار فالرؤية المعاصرة واللغة المعاصرة يمنعانه من أن يكون حيادياً على حد قول المؤرخ كولينكوود.

ولكن هذه النظرة إلى التاريخ لاقت انتقاداً قوياً في حينه فقد قال أحد النقاد الأمريكان في مراجعته لكتاب كيبون آنف الذكر "أن المؤرخين الإنجليز حتى حينما

يتناولون تاريخ الرومان واليونان يهبطون به إلى مستوى الصحافة الحزبية الإنجليزية" . هذا من جهة ومن جهة أخرى فصحيح أن المؤرخ يجب ألا ينظر إلى الوثيقة بوصفها شيئاً مقدساً ولكن صحيح أيضاً أننا ينبغي أن نهتم بالوثيقة ولا نهملها لأنها في حالات كثيرة تصبح الأساس في حكم التاريخ فقد شيعت جماهير باريس ميرابو خطيب الثورة الفرنسية إلى مقبرة العظماء ولكنها عادت ونبشت قبره بعد أن أثبتت وثائق القصر الملكي الفرنسي تآمره ضد الثورة.

وبعد هذا التعميم ننتقل إلى التخصيص فنتساءل ألم يأت الوقت لنفحص نظرتنا ـ نحن العرب ـ إلى التاريخ؟ هل تمكنا من فهم الحاضر بدراسة الماضي؟ أم أننا بحاجة ـ كما يقول عبدالعزيز الدوري ـ أن ننطلق من الحاضر وهمومه ثم نتعمق في فهم جذوره؟ ويعدد الدوري نفسه بعض المعوقات التي تقف بيننا وبين فهم تاريخنا بالشكل الصحيح أو أقرب ما يكون إلى الصحيح، فيشير على نظرة المؤرخين العرب الانتقائية التي تختار ما تريد من فترات التاريخ وتهمل أو تتجاهل الفترات الأخرى، كما وأن هذه النظرة عاطفية / رومانسية تبحث عن الصفحات اللامعة في تاريخ الأمة وتبرزها إن لم تضخمها أو تبالغ فيها. إن مثل هذه النظرة العربية إلى التاريخ قد تفضي إلى غرور أجوف وإلى خداع للذات من جانب أو قد تؤدي إلى الإحباط واليأس من جانب آخر، ثم أي تاريخ نريد؟ هل التاريخ السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي أم الفكري وهنا نكون قد جزأنا التاريخ فأضفنا معوقاً جديداً هو التجزيئية إلى الانتقائية والعاطفية.

والواقع إن موضوع التاريخ ينفرد بالنسبة لنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ بأهمية خاصة سواء كان في تقديمه على شكل دراسات منتقاة مختارة في المدارس أم في تدريسه بصورة علمية شمولية تخصصية في الجامعات. فالتاريخ لا يعرفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسب بل إنه عملية توجيه وتوعية متكاملة للنابتة أو للأجيال الجديدة في مجتمعنا.

فدراسة التاريخ العربي الإسلامي يفترض فيها أن تؤكد استمرار هذا التاريخ

ووحدته في الزمان وفي الحضارة وترابطه وتبحث عن عناصر الحيوية فيه عبر العصور وإبراز أصالته وتأكيد صفته الإنسانية/ العالمية التي أفادت واستفادت من شعوب أخرى خارج نطاق هذا الوطن وعبر عملية التثاقف الحضاري.

ونحن إذا أردنا للتاريخ أن يكون أداة توجيه وتوعية فلا بد من إبراز القيم والمظاهر الإيجابية وبذلك نبرز دور الماضي في تكوين الشخصية السوية للفرد. وحين نؤكد على مواقف تاريخية معينة فردية أو جماعية فهدفنا من ذلك تكوين أنماط سلوكية إيجابية، فالمعرفة التاريخية في المدارس ـ على عكس الجامعات ـ لا بد ن تكون انتقائية أي مختارة لتلائم الأهداف التي نرتضيها في إبراز القيم الرائدة والتي تعبر عن تطلعات الأمة ورؤيتها المستقبلية. وعلى هذا الأساس يكون التأكيد على المنعطفات والرموز المهمة في تاريخ الأمة لا بدافع الإنصاف فحسب بل من أجل الأحياء، من أجل الجيل المعاصر الذي يحتاج لأمثلة ونماذج يقتدى بها.

إن دراسة التاريخ هي من الوسائل المهمة في عملية تحليل الحاضر الذي نعيش فيه، فنحن ندرس الماضي لنضع أيدينا على الخيوط التي ينسج منها الحاضر... ثم إن الأمر لا يتوقف في دراسة التاريخ عند حد معرفة الحاضر ولكن يتعداه إلى توضيح الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الأمة نحو مستقبلها. فالحاضر كما هو معروف ليس ثابتاً ولكنه متطور ومتغير وهو مفترق طرق لعدد كبير من المستقبلات، ومن الضروري أن تتبين الأمة أي اتجاه تسير فيه ـ وهنا يلعب التاريخ دوره البارز والمهم.

إن من أهداف العملية التاريخية في مجتمعنا هو إعداد المواطن لا ليعيش في حاضر دائم بل في حاضر متطور نحو مستقبل أفضل، هذه هي الوظيفة القومية للتاريخ وهي وظيفة لا يمكن أن يؤديها غير التاريخ من العلوم الإنسانية الأخرى، فالمؤرخ أي مؤرخ ينتمي إلى أمة وعليه أن يكون مخلصاً لأمته موالياً لها مثل ولائه للحقيقة والإنسانية وعلى المؤرخ تقع مسؤولية تبصير مواطنيه بقضايا أمته وأن يقف إلى جانب أمته منذراً ومبشراً. إن المؤرخ يستطيع أن يكون عاملاً مساعداً في خلق الشخصية الإيجابية

في المجتمع، والمقصود بالشخصية الإيجابية هي تلك التي تقوم على الولاء للوطن والإخلاص لأهداف الأمة والعزيمة التي تدفع إلى الإسهام في هذا التحقيق. إن ذلك كله لا يتم دون معايير، والتاريخ هو سجل الخبرات البشرية وهو مصدر تلك المعايير، وهذه إحدى فوائد التاريخ العامة فكما يقول المؤرخ راوس في كتابه (التاريخ أثره وفائدته): "إذا لم تفهم الدنيا التي تعيش فيها فما أنت إلا لعبتها ويجوز أن تكون فريستها".

ونحن إذا ما استعرضنا المؤلفات الحديثة في تاريخ العرب والإسلام نلاحظ أن أغلبها دراسات انتقائية عاطفية تجزيئية لا تهتم إلا قليلاً بالمظاهر الاجتماعية والحضارية ولا تبرز العوامل التي تحدد الأهداف المشتركة للأمة، وتهمل الروابط والصلات وما فيها من اتجاهات مشتركة ولا تعنى بالتطور العام للأمة أو تنظر إلى أحداثها نظرة شمولية ويتبنى بعضها دراسات استشراقية ينقصها الفهم الداخلي للمجتمع الإسلامي والشعور بروح التاريخ العربي الإسلامي. إن آخر ما نريده هو إخضاع تاريخنا إلى فرضيات ووجهات نظر بعيدة عنه ولا تنطبق عليه بل الأجدر أن تكون تفسيراتنا منبعثة من ذاتنا محاولة تفهم تاريخنا مع عدم الانغلاق عن آراء الآخرين فينا.

لقد تبنت بعض المدارس التاريخية الأوربية التفسير العنصري أو القومي أو المادي الدايلكيتكي أو التفسير البطولي، ونظر بعضهم إلى التاريخ نظرة متشائمة فرأى أنه عديم الفائدة وأنه ليس أكثر من قصة يقرؤها كل من يرغب، بل إن بعضهم تطرف فادعى أن تعليمه مضر لأنه يزرع في الطلبة روح الغرور، ولم ير نابليون بونابرت فيه "أكثر من خرافة متفق عليها" ذلك لأن التاريخ وقف حجر عثرة في وجه طموحاته السياسية والشخصية.

ونظر آخرون إلى التاريخ نظرة متفائلة فاعتبروه "خير ضمان للخلاص والتحرر" وأنه صوت يدوي عبر الزمن ينقل قوانين الحق والباطل وبهذا يمكن أن يفيد في اتخاذ العبر فهو كنز حقيقي لخبرات الحياة يمكن الانتفاع عن طريقه من خبرات الجنس

البشري بتزويد الفرد أو الجماعة بفرصة للاستفادة من عثرات أو نجاحات الآخرين. وهنا لابد أن نقرر بأننا كعرب لم نبلور بعد نظرة شمولية أو تفسير متكامل للتاريخ هذا مع أننا لا ننكر وجود محاولات جادة على الطريق وروادها قلائل لم ينجحوا بعد في تكوين مدرسة تاريخية واضحة المعالم.

والواقع أنه لا يمكن بلورة نظرة إلى تاريخنا العربي الإسلامي إلا من خلال استحضار المخاطر التي تعرض ويتعرض لها مجتمعنا والسبل والوسائل التي استخدمت لمجابهة هذه المخاطر. وسنقتصر في هذا المجال على نموذج واحد هو الهوية الثقافية العربية الإسلامية. وبدءاً لابد أن أشير إلى الخطر الذي لعبته الشعوبية في العصر الإسلامي الوسيط (العباسي بالذات) والتي مثلتها فئة من الموالي لا كلهم حيث سعت إلى هدم الكيان العربي الإسلامي من خلال ثقافته متوسلة بوسائل عديدة منها التشكيك بدور العرب التاريخي وتشويه مساهمتهم في بناء الحضارة الإنسانية. وقد أدرك الشعوبيون أهمية التاريخ لأنه الموضوع الذي يؤكد على وحدة واستمرارية وترابط الأمة عبر العصور ولأنه البوتقة التي تحافظ على قيم المجتمع ومؤسساته وفكره، فعمدوا إلى محاولة تشويهه وكانوا "أخطر داء أفسد التاريخ الإسلامي". وكان الصراع الفكري مع الشعوبيين صراعاً لتقرير مصير ثقافة المجتمع واتجاهاته، ذلك لأن هدف الاختراق الثقافي الشعوبي كان وضع البديل الساساني الفارسي محل الأصل العربي الإسلامي. لقد انبرى أنصار النزعة العربية ـ الإسلامية يؤكدون على وحدة تاريخ الأمة الثقافي بحيث بات كل عصر متمم للآخر وامتد جهد المفكرين ليشمل التاريخ السياسي فأثبتوا وحدة التطور التاريخي للأمة وأبانت كتب الفتوح والأنساب دور العرب في السياسة والإدارة والحرب. وأكدت كتب التراجم دور العرب قبل الإسلام وبعده وكياناتهم الحضارية التي هي مظهر من مظاهر الأمة الواحدة ذات الخصائص المشتركة. أن فشل محاولة الاختراق الشعوبية يعود إلى تلك النزعة المرنة والتوفيقية التي مثلها أنصار الثقافة العربية الإسلامية متمثلة في كتابات جملة من المفكرين أمثال الجاحظ وابن قتيبه والتوحيدي والثعالبي والغزالي وغيرهم. إن هذا الموقف المنفتح الذي يدعو

إلى التفاعل والتبادل والأخذ والعطاء أفقد الشعوبيين فاعليتهم. يقول المؤرخ جب عن الجاحظ وهو أحد أعمدة النزعة العربية الإسلامية: "وغمز الجاحظ بما كتبه من سعة أفق ... ما كانت تصدره مدرسة الكتّاب الشعوبيين من سقط المتاع في الأدب. وكان أدبه موضع إقبال شديد من الجمهور ومن المشايعين للشعوبية أنفسهم". وهكذا فشلت النزعة الشعوبية.

وبعد ألا يصلح هذا النموذج الذي قدمناه حول منهج المفكرين المسلمين الرواد في الرد على الاختراق الشعوبي مشروعاً للنقاش يساعد على إنارة الطريق أمام المؤرخ العربي المعاصر ليبلور نظرة جديدة إلى التاريخ في مجتمعنا، نظرة تؤمن بالحوار والتثاقف الحضاري والموضوعية وتعترف بمساهمات الشعوب الأخرى في صنع الحضارة وتحارب التفرقة والتشكيك في المجتمع الواحد.

ولم تختلف الحركة الاستشراقية ـ والتي مثلتها فئة من المستشرقين لا كلهم ـ في موقفها من تاريخنا عن النزعة الشعوبية آنفة الذكر، بل ربما يعدها بعض الباحثين امتداداً لها في وسائلها وأهدافها. فقد أكدت هذه الفئة من المستشرقين أن سيادة العرب وحكمهم كان خطأً عابراً في مجرى التاريخ الإنساني وأنهم لم يقدموا للحضارة من الإنجازات شيئاً يذكر. إن هذه الفئة من المستشرقين هي حصيلة اتجاهات ومفاهيم سادت المجتمع الأوربي عبر عصور خلت وأثرت بصورة مباشرة وغير مباشرة على الفكر الأوربي وأوقعته في أخطاء منهجية وتاريخية وكانت النتيجة ظهور فئة من المستشرقين تحمل فكراً لا يؤمن إلا بالقهر والسيادة والاستلاب الثقافي والتمييز العرقي والهيمنة الثقافية دون الاعتراف بالتبادل الفكري والأخذ والعطاء. فقد غدا الإسلام ـ في نظر هذه الفئة ـ دين العرب الساميين الذين أجبروا الشعوب الآرية وغيرها على قبوله بالقوة وغدا الحكم العربي حكماً تسلطياً قهرياً تجاه البلاد المفتوحة وهكذا كانت حصيلة تاريخنا من هذه التفسيرات وغيرها "مجموعة من الأحكام المسبقة تطبق بقسرية بالغة وقراءة تعتمد الانتخاب المقصود للنصوص أو تحميلها معاني لا تحتملها...".

ومرة أخرى ألا يصح أن تكون هذه النزعة الاستشراقية المنحازة حافزاً أمام مؤرخنا المعاصر ليبلور نظرة وموقفاً من التاريخ يرد به على هذه الفئة رداً موضوعياً خالياً من التشنج والتعصب. صحيح أن العمل التاريخي الجاد في المجتمع العربي بحاجة إلى البناة (المؤلفين) والمؤرخين المفكرين وأن ما ينشرونه من كتب هو في حد ذاته رد على هذه النزعة في الاستشراق، ولكن الصحيح أيضاً أن العملية النقدية والرد على كتب المستشرقين عملية مطلوبة وجديرة بالممارسة. إن الردود النقدية والمراجعات التي يكتبها المؤرخون العرب لن تكون حواراً بيزنطياً أو واجهة سلبية تتسم بروح الانفعال بل على العكس تعتبر جزءاً من الإنجاز البنائي للمؤرخ العربي وربما تكون حافزاً يساعد على بلورة منظور عربي للتاريخ يقدم قناعات موضوعية تدحض التزوير. وقد ظهر بالفعل في الوقت الحاضر مؤرخون عرب بارزون كانت نتاجاتهم موضع تقدير وهي لا تقل في حقل اختصاصها عن أفضل ما كتب في الموضوع. ويعلق أحد النقاد المتابعين على هذه الظاهرة بقوله: "إن كتابات هؤلاء المؤرخين (العرب) معترف بها عالمياً.. ولا يمكن التشكيك حتى من جانب الغربيين في أن هؤلاء مؤرخون أصلاء لا يقلون أهمية عن أفضل مؤرخي الغرب. ومع ذلك فهم قلة ويجدون صعوبة في تكوين مدرسة تاريخية".

وبعد فإن الاستشراق وأفكاره مستمد من ضعفنا واستمرار الاستشراق مشروط بعجز العالم العربي / الإسلامي عن إفراز مؤرخين ومفكرين يساعدون مجتمعهم في التعرف على ذاته. وبمعنى آخر فإن الاستشراق في وضعه الحاضر دليل وصاية فكرية.

وأخيراً ومع بدايات التاريخ الحديث تأتي المواجهة بين الغرب والعرب والتي اتخذت أشكالاً عدة لعل أخطرها محاولة محو الشخصية (الهوية) العربية الإسلامية وربطها بتوجهات الثقافة الغربية. ولا بد لنا أن نذكر بأن الثقافة العربية الإسلامية في علاقاتها التاريخية مع التراث الحضاري الأجنبي كانت ثقافة توفيقية مرنة تؤمن بالأخذ والعطاء وهذا ما يعبر عنه بالاستمداد الثقافي. إن هذا الانفتاح كان قائماً على النظرة المتكافئة والاعتراف المتبادل ونزعة إنسانية يعبر عنها الكندي (في رسائله) بقوله: "ومن أوجب الحق ألا نذم من كان أحد أسباب

منافعنا الصغار الهزيلة فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الجدية وينبغي ألا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى وأنى أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا. فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق".

وتقف الثقافة الأوربية المعاصرة عكس هذا الموقف تماماً فهي تتبنى موقفاً لا يؤمن بالتواصل بل بالتضاد والتصادم. وقد ظهرت كتب وبحوث عديدة تؤكد محاور التناقض بين الثقافتين وتخلق صورة مشوهة عن الإسلام والغرب وتظهر الإسلام بصورة الخطر الجديد على أوربا المسيحية. إن أوربا لا تريد أن تتنازل عن دورها باعتبارها مسؤولة عن دراسة تاريخ العرب والشرقيين وتكوين النظريات حولهم ثم تثقيفهم وتوجيههم الوجهة التي تريدها. إن هذا هو الغزو الثقافي أو الاختراق الثقافي بعينه والذي يهدف إلى ترويج ثقافة غربية / عالمية من خلال علاقة غير متكافئة. وهذه الهيمنة لا تقتصر على جانب واحد بل تشمل جوانب عدة. يقول جاك بيرك المفكر الفرنسي: "إن الاستعمار فرض شكلاً معيناً من الثقافة في نفس الوقت الذي فرض فيه شكلاً معيناً من الإدارة".

لقد أبدى الجيل الجديد ردود فعل مختلفة وأحياناً متناقضة تجاه هذا الوضع فقد ظهرت عند البعض ظاهرة ازدراء كل ما هو وطني أو قومي وهذه ظاهرة لا تقتصر على مستويات ثقافية عادية بل تظهر في أعلى المستويات الجامعية. وأدى الغزو الثقافي عند البعض الآخر إلى حالة من الاغتراب قد تدفعه إلى اللاعقلانية التي تبعده عن الواقع وتقدم له البديل الخيالي للمحافظة على تقدير الذات فينضم إلى طرق صوفية فيعتزل المجتمع أو قد ينكفىء على نفسه ويدعو إلى محاربة كل أشكال الثقافة الأجنبية (العنف والتطرف) أو قد يتشبث الفرد بالتراث دون فرز لمكونات هذا التراث ومعرفة الغث من السمين والصالح من الطالح. إن كل هذه المواقف أو ردود الفعل غير صحيحة وعقيمة فالدعوة إلى وقفة تجاه الثقافة الغربية لا تعني بأي حال من الأحوال إيقاف التفاعل الثقافي والتواصل الحضاري مع أوربا لأن ذلك من شأنه أن يزيد من تخلفنا إلا أن هذا الانفتاح على الحضارة الحديثة يجب أن يكون سبيلاً لإغناء الذات لا طمسها.

ومرة ثالثة وأخيرة ألا يصح أن تكون محاولات الهيمنة الثقافية الأوربية تحت ستار العولمة حافزاً لإعادة قراءة دور التاريخ والنظرة إليه في مجتمعنا العربي. فدور المؤرخ العربي لا يوصف بكونه إيجابياً أو بالمستوى المطلوب. بل إن الاستقراء يشير إلى وجود هوة واسعة بين الواقع والطموحات. فإذا ما عدنا إلى التاريخ الإسلامي الوسيط نلاحظ أن الغزالي وابن رشد وابن حزم وابن خلدون لم يكونوا غريبين عن مجتمعهم المعاصر لهم، وكذلك فلاسفة الثورة الفرنسية أمثال فولتير وروسو وديدرو، أو أقطاب الحركة التنويرية التي مهدت للثورة (الدعوة) العباسية التي شملت نخبة من الفقهاء والمحدثين والقدرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم أن هؤلاء كانوا يعكسون أفكار شطر كبير من مجتمعهم. أما المفكر أو المؤرخ العربي المعاصر فهناك قطيعة بينه وبين مجتمعه وقد جعلته الأحداث المعاصرة يفر إلى نفسه وعزلته ويهاب المواجهة والاتصال والتفاعل.

إن المطلوب بلورة نظرة إلى التاريخ "لا تتغنى بالصفحات اللامعة أو تردد الآراء الجميلة" بل تؤكد في انطلاقها من مشاكلنا المعاصرة وتدرجها باتجاه الماضي تؤكد على الموضوعية والشمولية وقبول الرأي الآخر. وقبل هذا وذاك نظرة تدعو إلى محبة الحقيقة ومجابهتها مهما كانت صعبة. فالذي يروض على الجرأة في تقبل الحقيقة لا يخشى عليه من التحول والالتواء أثناء الأزمات. فليكن شعارنا "الأمانة التاريخية مهما صعبت من أجل إجلاء الحقيقة التاريخية مهما كانت مرة غير متقبلة".

❖ ❖ ❖ ❖

يتناول الكتاب الذي بين أيدينا التدوين والكتابة التاريخية عند المسلمين أو (تأريخ علم التاريخ عند المسلمين) خلال الفترة الإسلامية الوسيطة، حيث بدأت الكتابة التاريخية المنظمة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ونضجت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ثم أخذت بالتراجع في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وحتى نهاية الفترة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

بعد المقدمة التي نظرت إلى التاريخ من حيث طبيعته وأهميته ومنهجه يبدأ الكتاب بمعالجة نشأة علم التاريخ وتطوره خلال القرون الإسلامية الأولى ممهداً بنبذة عن الوعي التاريخي عند العرب قبل الإسلام. ثم يتطرق الفصل الأول إلى العناية بالتاريخ بعد الإسلام ودوافع ذلك. ويأتي الفصل الثاني ليفصل في المرحلة الأولى من مراحل الكتابة التاريخية وهي مرحلة النشأة التكوين حيث برزت مدرسة الحجاز التي اهتمت بالمغازي والسيرة النبوية الشريفة ومدرسة العراق التي أكدت على الأخبار والأنساب. كما ظهرت في هذه المرحلة أوائل كتب الحوليات والفتوح والأنساب.

ويعالج الفصل الثالث المرحلة الثانية من مراحل الكتابة التاريخية: وهي مرحلة النضج والاكتمال حيث تطورت وتنوعت أنماط التدوين التاريخي عند المسلمين. وغدا لكل نمط خصائصه الواضحة وسماته المتمثلة بعدد من مؤرخيه البارزين. فكان هناك نمط التاريخ العام العالمي ونمط التاريخ في إطار النسب وفي إطار الفتوح ونمط التاريخ في إطار الأسر والسلالات الحاكمة والتاريخ في إطار التراجم الذي ينقسم بدوره إلى عدة أقسام. وأخيراً وليس آخراً نمط التاريخ المحلي الذي يهتم بالمدن والبلدان والأقاليم.

أما الفصل الرابع فيتطرق إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التدوين التاريخي عند المسلمين : وهي مرحلة التدهور والتراجع في الكتابة التاريخية. وكان لهذه المرحلة سماتها البارزة ومنها بروز ظاهرة تراكم المعرفة (الموسوعات) والتدوين التاريخي من خلال الجمع بين الأحداث والتراجم وكثرة ظهور السير الذاتية والمذكرات الشخصية. هذا بالإضافة إلى تبلور النظرة إلى (علم التاريخ) باعتباره موضوعاً للبحث والعمل على تأريخ علم التاريخ.

أما الفصل الخامس فيعالج ظاهرة التدوين التاريخي بلغات الشعوب الإسلامية (غير العربية) مثل الفرس والترك والموريسكيين وكذلك التدوين التاريخي عند غير المسلمين في دار الإسلام.

ويتناول الفصل السادس المعرفة التاريخية في كتب التراث العربي الإسلامي المتنوعة والتي تعد من المصادر الرافدة للتاريخ بالكثير من الأخبار والمعلومات التي تساند أو توضح الروايات التاريخية في كتب التاريخ .

وينتهي الكتاب بخاتمة توجز النتائج التي توصل إليها البحث في الموضوع الذي عالجه.

أما ملحق الكتاب فيتضمن نماذج من مقدمات المؤرخين الأوائل لبعض المؤلفات البارزة التي كتبوها والتي توضح منهجهم في التدوين التاريخي والأسباب التي دعتهم للكتابة في هذا النمط أو ذاك دون غيره من الأنماط التاريخية.

ويضم الكتاب في آخره فهرساً لمختارات من المصادر الأولية والمراجع الثانوية والبحوث للاستشارة أو الاستزادة في تفاصيل المعلومات التي أشير إليها.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

التمهيد

«... أما بعد فإن علم التاريخ علم عظيم المقدار رفيع المنار، شهدت بفضله الآيات والأخبار، واعتنى بنقله الأثبات والأخيار، وأنفقوا في ذلك نفايس الأعمار، وارتكبوا بسابس الأخطار، حتى حصلوا من ذلك أسفار الفوائد وفوائد الأسفار، وبلغوا في ذلك غايات المنى ونهايات الأوطار، فكشفوا عن الأمة كل غمة بما رووا من الأخبار وجلوا غياهب كل ظلمة بنيران الآثار، شكر الله سعيهم المختار وعم بواسع مغفرته جميعهم إنه هو الرحيم الغفار».

ابن الديبع : قرة العيون، ص ١.

العرب والوعي بالتاريخ قبل الإسلام

إن المعرفة التاريخية الجديرة بالثقة فيما يتعلق بفترة ما قبل الإسلام ليست كثيرة.. أما التحريات الأثرية فقد اكتشفت مجموعة من النقوش المهمة ولكنها لا تزال محدودة وتتعلق بموضوعات معينة، كما عثر على مجموعة من السجلات والوثائق وخاصة عن اليمن قبل الإسلام.

إن هذه الحالة تجعل الباحث يتحرى الأخبار عن عصر ما قبل الإسلام في مصادر عصر الرسالة وصدر الإسلام والتي دونت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي واعتمدت غالباً على روايات شفوية نقلها القصاص والرواة والأخباريون. ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن ندرس ما قبل الإسلام بمعزل عن تاريخ صدر الإسلام، والعكس صحيح فلا يمكننا فهم نصوص وروايات إسلامية عديدة دون الرجوع إلى التراث العربي قبل الإسلام وخاصة الأدب والشعر الزاخر بالمثل والقيم والتقاليد والعادات التي شاعت في ذلك العصر ثم امتدت إلى العصر الإسلامي.

لقد عُدّت اللغة من أهم عناصر الوحدة الثقافية عند العرب إذ تمخض التطور التاريخي عن لغة عربية موحدة هي اللغة الفصحى كان بإمكان جميع العرب أن يفهموها قبيل الإسلام بحوالي القرنين من عصر الرسالة وهي اللغة المشتركة. وقد أصبحت اللغة وآدابها من أبرز صور التعبير الثقافي والفكري، وبالتالي الوعي السياسي بالعروبية. وبرز أدباء وحكماء عبروا عن مشاعرهم بهذه اللغة فغدا الأدب والشعر "ديوان الأدب" وخزانة المعرفة.

من أجل ذلك جاء التأكيد من الفقهاء وأهل الفكر على ضرورة تعلم اللغة العربية لمن أراد فهم الإسلام فهماً صحيحاً. وفي هذا السياق يقول ابن تيمية: "إن الله لما أنزل الكتاب والحكمة باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به لم يكن سبيل ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان وصارت معرفته من الدين"(١). واستمر علماء الأمة جيلاً بعد جيل يؤكدون التوجه نفسه(٢). وبتأكيد القرآن الكريم في أكثر من آية على اللسان العربي الذي نزل به جعل اللغة العربية وبمرور الزمن هي المعيار في تحديد التاريخ العربي العام بامتداداته إلى شعوب وأراضي غير عربية(٣).

إن كثرة إشارات القرآن الكريم إلى القراءة والكتابة وأدواتها يجعل عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة في مدن الحجاز وباقي أقاليم شبه الجزيرة العربية يفوق ما ذكرته بعض البحوث الحديثة(٤). كما وإن مهنة التجارة التي مارسها أهل الحجاز كانت تتطلب القراءة والكتابة. وأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي دون في عصر الرسالة والراشدين وهو خير معين لمعرفة حياة العرب في تلك المرحلة، مما حدا ببعض الباحثين لدراسة عصر النبي ﷺ من خلال القرآن(٥). ثم أن القرآن من جهة أخرى يعبر عن المستوى الثقافي العالي لأهل الحجاز لأنه لو لم يكن كذلك لتعذر عليهم فهمه والإيمان به والمجادلة حول بعض قضاياه. وتشير رواية تاريخية(٦) إلى أن الرسول ﷺ التقى سويد بن الصامت وكان بيده صحف. فقال له الرسول ﷺ: ما الذي معك. قال مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان ـ وعرضها عليه فقال له: إن هذا كلام حسن والذي

---

(١) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، بيروت، ص١٧٩.

(٢) راجع: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١٩٧٣م، ج١، ص ١٨٢.

(٣) راجع على سبيل المثال لا الحصر: القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية ١٢، سورة الشعراء، الآية ٢٩٥، سورة الزمر، الآية ٢٢٨.

(٤) صالح أحمد العلي، كتابة تاريخ عام للعرب. أهميتها وبعض مشاكلها، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، عدد ٥١، ١٩٩٥م.

(٥) محمد عزة دروزة، عصر النبي، بيروت، ١٩٦٤م.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص ٥٣.

معي أفضل منه. هذا قرآن أنزله الله عليّ هو هدى ونور. وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ حين تحدث مع وفد عبدالقيس في المدينة المنورة قال وهو يروي كلام قس بن ساعدة: "فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام.. يخطب الناس وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا. من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً. مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تغور، وأقسم قسماً حقاً لئن كان في الأمر رضى ليكون بعده سخط، إن لله لديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا..." (١).

هذه الأفكار تدل على أن الأمة كانت تمر بأزمة روحية وفكرية هيأت الطريق ومهدتها للدعوة الإسلامية. كما وإن هذه الأزمة نفسها أرهفت الوعي العربي وأكدته باتجاه تبلور الهوية لدى العرب. وإن العروبة كشعور وإحساس كان ينمو ويتزايد باتجاه تأكيد الذات العربية قبيل الإسلام ثم جاء الإسلام ليؤكد هذه الاتجاهات التي تلتحم فيها العروبة مع الإسلام ولا تتناقض معها.

لقد كان الاهتمام بالتاريخ والعناية به أحد الوسائل التي اعتمدها العرب في التأكيد على هويتهم وإبراز شخصيتهم بين الشعوب. فمنذ عصر ما قبل الإسلام كان هناك قصّاص يروون "أيام العرب وأخبارها" ويحفظون "أنسابها" ويفاخرون بها بين بعضهم. وقد لاحظنا أن التدوين في الصحف وفي النقوش لم يكن معدوماً حيث تضمنت أخبار ملوك اليمن ودولهم وهجراتهم وحروبهم مع الأحباش وعلاقاتهم بالفرس. ولكن الرواية الشفوية بقيت الغالبة وكان أسلوبها قصصياً ولذلك سمي رواتها بالقصاص، ومنهم كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمي. ورغم تحيز هؤلاء القصاص إلى تاريخ اليمن ومبالغتهم فيه فإن المؤرخين الذين ظهروا في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي نقلوا منهم فيما يتعلق بتاريخ العرب قبل الإسلام. وقد دخل

---

(١) الجاحظ، المصدر السابق.

من خلال كعب الأحبار ووهب بن منبه الكثير من الأخبار والإشارات التي تتعلق بالعرب قبل الإسلام وأخبار الأنبياء السابقين مما عرف باسم "الإسرائيليات"[١].

إن إيراد المؤرخين المسلمين لروايات "أيام العرب وأخبارها" ولما ورد في وثائق ونقوش اليمن في كتبهم جعل من هذه الأخبار جزءاً لا يتجزأ من الكتابة التاريخية العربية الإسلامية الأولى. وقد أشار عبدالعزيز الدوري إلى صفات هذه الروايات فقال[٢]: "كانت قصص الأيام مجموعة روايات شفوية قبلية جماعية، وهي ملك مشترك للقبيلة وبقيت كذلك حتى منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حين جمعت وصنفت.. كما وإن روايات الأيام مرتبكة من ناحية التوثيق ولا تخلو من عصبية وتمثل جانباً واحداً. وينقصها التآلف والسبك وليست فيها فكرة تاريخية. ومع ذلك فإنها تحوي بعض الحقائق التاريخية".

* * *

(١) الهمداني، الأكليل، ج١٠، ص٤. جب، دراسات في حضارة الإسلام، (مترجم) بيروت، ١٩٦٤، ص ١٣٤-١٤٧. عبدالعزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند المسلمين، بيروت، ١٩٧٨م، ص١٣-١٧. نور الدين حاطوم ورفقاؤه، المدخل إلى التاريخ، دمشق، ١٤٠٢ه، ص ١٤٢-١٥٢.

(٢) عبدالعزيز الدوري، المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

الفصل الأول

«.. ولقد رأيت جماعة ممن يدّعي المعرفة والدراية، ويظن في نفسه التبحر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها ويعرض عنها ويلقيها، ظناً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار. ومن رزقه الله طبعاً سليماً وهداه صراطاً مستقيماً علم أن فوائدها كثيرة ومناقبها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة».

ابن الأثير، الكامل في التاريخ

العناية بالتاريخ بعد الإسلام

لعل ازدياد اهتمام العرب المسلمين بالكتابة التاريخية بعد الإسلام يعود إلى جملة عوامل[1] ساعدت على ذلك وأهمها:

أولاً: العناية بسيرة الرسول ﷺ ومغازيه وأحاديثه وأخبار عصره مما دفع إلى نشوء هذا الفرع من التاريخ الإسلامي الذي سمي بالسيرة والمغازي واختصر أحياناً باسم "المغازي".

ثانياً: ظهور مشاكل جديدة بعد الفتوحات الإسلامية تتعلق بالإدارة السياسية والمالية في الأقاليم المفتوحة.

ثالثاً: الخلاف حول مسألة "الخلافة" التي ظهرت كأهم مشكلة في خضم الأحداث إلى جانب مواضيع خلافية فكرية ومذهبية واجتماعية عديدة.

رابعاً: كان لتأسيس ديوان الجند "الديوان" وهو السجل الذي تسجل فيه أسماء المقاتلة وعيالهم أثراً في دفع عملية التدوين والاهتمام بأخبار القبائل وأنسابها.

خامساً: وضع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) التقويم الهجري الجديد فكان

---

(١) عالج عدد من المؤرخين المحدثين موضوع دوافع الكتابة التاريخية عند المسلمين، راجع على سبيل المثال: جب، المرجع السابق، ص ٤٧ فما بعد. عبدالعزيز الدوري، المرجع السابق، ص ١٣١-١٣٦. حاطوم، المرجع السابق، ص ١٧٦-١٨٤.

تقويماً ثابتاً شجع على توقيت الأحداث أي تاريخها مما شجع الكتابة في التاريخ. ويرى بعض المؤرخين احتمال أن يكون لفكرة التاريخ الثابت (التقويم) لدى اليمانية أثر في أحداث تاريخ ثابت (التاريخ الهجري) لدى المسلمين[١].

سادساً: استخدام الورق وصناعته داخل العالم الإسلامي ابتداءً من العصر العباسي الأول (القرن ٢ هـ/ ٨م).

سابعاً: تشجيع الخلافة العباسية على تدوين التاريخ لدوافع عديدة رسمية أو شخصية، خاصة وإن العباسيين كانوا من آل البيت وهم أحوج ما يكونون لدعم سلطتهم السياسية إلى التاريخ الذي يروي إنجازات الرسولﷺ وذريته من آل بيته وإثبات حقوقهم في القربى والحرمة وما إلى ذلك. بالإضافة إلى ما يمنحه التاريخ لقارئه من ثقافة عامة وسعة اطلاع وخاصة لفئة الموظفين والكتاب في الدواوين الرسمية.

ثامناً: الشعور لدى العلماء بأن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي يخدم العلوم الدينية الأخرى ويتممها ويوضحها خاصة وإن العديد ممن اهتم بالتاريخ من الأوائل كانوا محدثين أو مفسرين أو فقهاء، فكان الغرض من تدوين التاريخ هو الحفاظ على الشريعة. ومن هنا جمع عديد من الفقهاء والعلماء بين الفقه والتاريخ. وكان العمل بعلم المغازي والسيرة النبوية مكملاً للفقه. والحالة نفسها تنطبق على علم الطبقات والتراجم فهو من ضرورات المؤرخ والفقيه في آن واحد، لأهميته في توثيق الأخبار من خلال الثقة أو عدم الثقة بالرواة. وقد جمع العديد من العلماء بين التاريخ الإسلامي وعلوم الشريعة لإدراكهم بحتمية التلازم ومنهم الطبري وابن كثير والذهبي وابن عساكر والسخاوي وغيرهم كثير.

---

(١) السيوطي، الشماريخ في علم التاريخ، بغداد، ١٩٧١م. عبدالعزيز الدوري، المرجع السابق، ص ١٦.

ويرى السخاوي أن علم التاريخ "فن من فنون الحديث النبوي، وزين تقر به العيون، حيث سلك فيه المنهج القويم المستوى، بل وقعه من الدين عظيم ونفعه يتعين فيه الشرع"[1].

ويرى أكثر علماء المسلمين ضرورة الاشتغال به، لا كعلم في ذاته، ولا لاكتساب براعة في معرفة الأخبار بل لخدمة الغرض الديني، وحتى يكون علم التاريخ علماً مساعداً ورادفاً لفهم الفقه والشريعة على أكمل وجوههما ورافداً لهما. فهو من هذه الناحية أداة لخدمة الدين ووسيلة إليه[2].

تاسعاً: الرغبة العلمية المحضة ذلك أن الدافع العلمي كان مُحفزاً قوياً في الكتابة التاريخية عند المسلمين وقد ساعد على ذلك سهولة التنقل بين إقليم وآخر وبلد وآخر "الرحلة في طلب العلم" كما ساعد على ذلك ازدهار حركة الترجمة من الثقافات الأخرى إلى العربية وخاصة في بيت الحكمة البغدادي تحت رعاية وإشراف الدولة. فكانت الرغبة في المعرفة لذاتها هاجسهم حيث عبر عنها البيروني بقوله: "إنما يخدم العلم للعلم".

عاشراً: التجارة والحج : إن النشاط التجاري وكذلك مواسم الحج تستدعي معرفة البلدان والمسالك وهذا ما حفز الكتاب على الكتابة في صفة هذه الأقاليم وأحوالها وطبائع شعوبها مما أوجد معيناً لا ينضب من الأخبار التاريخية وغيرها.

أحد عشر: أما السفارة فقد ازدهرت في العصر العباسي ولدينا بعض الأخبار عن السفارات التي تبودلت بين الدولة العباسية والبيزنطيين أو الخزر والبلغار والصين وشمالي الأندلس وفرنسا. وقد نتج عن بعض هذه السفارات

---

(١) السخاوي، الأعلام بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ، ضمن كتاب روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين (مترجم)، بغداد، ١٩٦٣م.

(٢) راجع الفصل الخاص بتأريخ علم التاريخ عند المسلمين من هذا الكتاب الفصل الرابع المبحث الرابع).

مذكرات طريفة تتعلق بمشاهدات هؤلاء السفراء أمثال ابن فضلان في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى بلاد البلغار وإقليم الفولجا ومناطق بحر قزوين وكذلك أبي دلف الخزرجي إلى الصين في القرن الرابع الهجري أيضاً وفي هذه المذكرات وغيرها مثل مذكرات لسان الدين ابن الخطيب الكثير من المعلومات التاريخية.

ثاني عشر: قدم الأمة العربية في التاريخ وامتداد رقعة تواجد العرب فقد ذكروا في النقوش الأثرية والكتب السماوية قبل الإسلام. أن هذا الإدراك والوعي عند العرب جعلهم يهتمون بتناقل أخبارهم ومآثرهم قبل الإسلام وامتد هذا الاهتمام بعد الإسلام.

ثالث عشر: وأخيراً وليس آخراً تاريخية الإسلام ـ على حد قول شاكر مصطفى[1]ـ فالإسلام يحمل فكرة تغوص في أعماق التاريخ أنها عقيدة إبراهيم عليه السلام، وقد أعطى الإسلام تصوراً تاريخياً واضحاً للكون منذ الخليقة حتى البعث، وتحدث عن أساطير الأولين وأنباء القرى وحفّز على الرغبة في معرفة تفاصيلها وتدوينها. أن التاريخ نشأ من خلال دراسات الحديث ودخل رديفاً شرعياً للتفسير ثم كان ضرورة أكيدة لاستنباط الأحكام الشرعية (الفقه). فوضحت قيمته كجزء أساسي من المعرفة البشرية الموصلة إلى الله تعالى.

* * *

---

(١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، د.ت، ج١، ص ٥٧ فما بعد.

الفصل الثاني

«وأشترط على نفسي أن لا أتعرض لذكر ما أعتمده فيما أجده مخالفاً لما أعتقده، فإن التقرير غير الرد والتفسير غير النقد».

فخر الدين الرازي

«التاريخ علم بمعنى أن له منهجاً للبحث العلمي ولهذه المنهجية ضوابط، أما إذا كانت طريقة أو أسلوب الكتابة نوعاً من الأدب فهذا ما يزيد التاريخ قيمة وشفافية لدى القارئ».

عبدالعزيز الدوري

مراحل الكتابة التاريخية[1]:
مرحلة النشأة والتكوين

من القرن ١ هـ/ ٧م - أواخر القرن ٣ هـ/ ٩م

رغم غلبة الأخبار والروايات التاريخية المتداولة شفوياً في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي عن طريق القصاص والرواة والأخباريين استمراراً لما كانت عليه الحالة في فترة ما قبل الإسلام، فإن التدوين التاريخي بدأ مبكراً. ومن الرواد في الكتابة التاريخية حبر الأمة وترجمان القرآن الكريم عبدالله بن العباس (ت ٧٠هـ/ ٦٨٩م) حيث انشغل كذلك بأيام العرب وأنسابها وبديوانها (الشعر)[1]. وأشارت بعض الروايات أنه كان يحتفظ بألواح يكتب عليها. وكان عند موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ/ ٧٥٨م) عدد من "كتب" ابن عباس وضعها عنده مولى ابن عباس. وكان عبيد بن شرية الجرهمي معاصراً لابن عباس وتوفي في السنة نفسها التي توفي فيها وكان ملازماً لمعاوية بن أبي سفيان في بلاد الشام يروي له الأخبار عن العرب وغيرهم قبل الإسلام، وكان الخليفة معاوية يأمر غلمانه بتدوينها حيث جمعت تحت عنوان (كتاب الملوك وأخبار الماضين)[2]، وبذلك كانت هذه المحاولات البدايات المبكرة للكتابة التاريخية المنظمة.

تأثرت الكتابة المنظمة للتاريخ في الفترة الإسلامية بمنهج البحث في الحديث النبوي الشريف، ذلك أن المحدّثين وضعوا قواعد متشددة للتأكد من المتن والسند لكل رواية من روايات الحديث النبوي ويطلق على هذه القواعد (علم الجرح والتعديل)[3]

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص ٣٦٧.

(٢) ابن النديم، الفهرس، ص ١٣٧ فما بعد.

(٣) ألف المسلمون في علم الجرح والتعديل كتباً عديدة منها: مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) والغزالي (ت ٥٠٥هـ) وابن الصلاح الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ) راجع: صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، بيروت، د.ت، ص ١٢٦. فما بعد.

الذي انتقل بدوره إلى التاريخ لأن العديد من المحدّثين كانوا مؤرخين في الوقت نفسه.

ومن الملاحظ أن الكتابة التاريخية المنظمة بالإضافة إلى كونها مبكرة فإنها بدأت في مراكز المعارضة للأمويين في الحجاز (المدينة المنورة) والعراق (الكوفة والبصرة) وقد سار التدوين التاريخي في اتجاهين رئيسين:

(١) الاتجاه الإسلامي في مدرسة الحجاز وتضم في الغالب أهل الحديث الذين أكدوا على مغازي الرسولﷺ وسيرته.

(٢) الاتجاه القبلي في مدرسة العراق والتي تضم الأخباريين والنسابة الذين أكدوا على أيام العرب وأخبارها وفتوحها وأنسابها.

وليس معنى ذلك انعزال المدرستين عن بعضهما بل كان هناك تبادل بين روايات أهل المدينة وأهل الكوفة. كما ظهر من يهتم بالمغازي في العراق ومن يهتم بالأخبار والفتوح في الحجاز.

بدأ التدوين في فترة مبكرة من عصر صدر الإسلام على صحف متفرقة، كانت موجودة في العصر العباسي حيث يؤكد ابن خلكان[١] أنه رأى كتاب وهب بن منبه عن اليمن. ولا بد من الوقوف عند الإخباري وهب بن منبه اليماني[٢] الذي ولد في صنعاء في خلافة عثمان بن عفان وتوفي في اليمن بين سنة ١١٠هـ ١١٤هـ/ ٧٣٢م. ويبدو أن أصله من الأبناء الفرس الذين جاءوا إلى اليمن. وكان وهب إخبارياً قاصاً عالماً بالفقه، تولى القضاء في صنعاء في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ/ ٧٢٠م).

كان وهب بن منبه ذا ثقافة واسعة اطلع على كتب الأولين وإليه ترجع (الإسرائيليات)

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٨٨.

(٢) راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١٩، ص ٢٥٩ فما بعد. ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص٨٨. الدوري، نشأة الكتابة التاريخية، ص١٤-١٦. حاطوم، المدخل، ص ١٤٦ فما بعد. تيسير الزواهرة، وهب بن منبه مؤرخاً، مجلة جامعة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٩، عدد ٢، ١٩٩٤م، ص ١٤-٣٤.

وهي الأخبار المنتشرة في الكتب العربية المستقاة من مصادر وأحاديث أهل الكتاب القديمة، وله اطلاع على الشعر وأخبار الجاهلية، كما أنه كان يجيد العبرية والسريانية والحميرية إضافة إلى العربية ولا شك أن هذه المعرفة وسعت من آفاق فكره ومعرفته بأخبار الأقدمين وفترة ما قبل الإسلام.

وقد كتب وهب بن منبه كتباً عديدة منها: المغازي، حيث عثر على قطعة منه، ولعل أهمية العثور عليها يدل بأن السيرة النبوية كانت تدون منذ أواخر القرن الأول الهجري على الأقل. ثم كتاب المبتدأ الذي يبدؤه ببدء الخلق ويتناول فيه قصص الأنبياء وتوالي الرسالات وأحاديث الإسرائيليات وقصص فترة ما قبل الإسلام. وله كذلك (أخبار الملوك المتوجه من حمير) وقد وصلت أجزاء منه ضمن كتاب (التيجان في ملوك حمير) لعبدالملك بن هشام الحميري (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م) وينسب إليه كتاب في القدر. ولابد من الإشارة إلى أن هذه الكتب لم تصلنا كاملة بل وصل إلينا قطع منها في كتب التاريخ التالية له.

وتعود مصادر معلومات وهب بن منبه إلى منابع متنوعة منها كتب أهل الكتاب القديمة والإسرائيليات والشعر العربي والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بالإضافة إلى جهوده في جمع الأخبار من الرواة ومنهم بعض الصحابة مثل عبدالله بن عباس وأبي هريرة ومعاذ بن جبل.

ويلاحظ أن عدداً كبيراً من تلاميذه رووا عنه مما جعل تيسير الزواهرة[١] يقرر بأنه "قد شكل مدرسة خاصة به هي مدرسة القصص التاريخي. وإذا كانت هذه المدرسة ملائمة لفترة صدر الإسلام أثناء مرحلة الفتوح.. فإن هذه المدرسة لم تعد تناسب مرحلة الاستقرار التي اتسمت بالتمحيص والنقد اللتين أفضتا إلى التدوين المنظم".

ويمكن القول من مجموع كتبه أن وهب بن منبه حاول كتابة تاريخ عالمي[٢] على

---

(١) تيسير الزواهرة، المرجع السابق، ص ٣٠ فما بعد.

(٢) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، ص ١٥٥.

أساس تسلسل موضوعي منذ الخليقة حتى عصر النبوة، كما حاول أن يكتب تاريخاً لملوك اليمن ومن هنا جاء اتهامه بالعصبية اليمانية وهي تهمة ليس لها أساس متين خاصة وأن الأخبار تشير إلى تقواه وورعه ونزعته الإسلامية الغالبة وكونه من الفقهاء، هذا بالإضافة إلى كونه فارسي أصلاً، ومهما يكن من أمر فقد تباينت الآراء حول وهب بن منبه فقد امتدحه الهمداني والمسعودي وانتقد بشدة السخاوي وعدّه شاكر مصطفى نموذجاً للأخباري الذي ساق رواياته بأسلوب القصص ولذلك لم يأخذ العلماء كتبه مأخذ الجد.

لقد أشرنا سابقاً أن المادة التي جمعها وهب بن منبه وغيره من القصاص والأخباريين لم تصلنا على شكل كتب متكاملة بل أخذت من قبل العلماء في العصر العباسي وأدمجت في كتبهم في التاريخ والحديث في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. يقول الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) في تاريخ الإسلام[١] "وكثر تبويب العلم وتدوينه ورتبت ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة فسهل ولله الحمد تناول العلم فأخذ الحفظ يتناقص فلله الأمر كله".

المبحث الأول: مدرسة الحجاز

أما مدرسة الحجاز[٢] (المدينة المنورة) فكان أبان بن عثمان بن عفان (ت ٩٥هـ/ ٧١٣م) وعروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هـ/ ٧١٢م) وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ/ ٧٤٠م) وعبدالله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٢٠هـ/ ٧١٧م) من رموزها. وظهر من هذه المدرسة نخبة من المحدّثين المؤرخين المشهورين على توالي العقود صنّفهم الباحثون إلى طبقات متعاقبة من أشهرهم:

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٩، ص ١٣.

(٢) يعد الدوري عروة بن الزبير (مؤسس) مدرسة المدينة المنورة، المرجع السابق، ص٢١.

- محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١ م).

- محمد بن إسحـق (ت ١٥١هـ/ ٧٦١ م).

- عبدالملك بن هشـام (ت ٢١٨هـ/ ٨١٣ م).

- محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢ م).

- محمد بن سعـد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤ م).

وقد وصلنا من كل هؤلاء المهتمين بالسيرة وغيرهم ثلاثة كتب هي: سيرة ابن إسحق إما مباشرة أو عن طريق ابن هشام ومغازي الواقدي والطبقات الكبرى لابن سعد. ويلاحظ تطور واضح في الكتابة التاريخية من خلال قراءة هذه الكتب ففيها دقة في استعمال الأسانيد التي تعود إلى شاهد عيان، كما يلاحظ بروز ملكة النقد لدى المؤلف من خلال الرواة وترجيح بعض الروايات على غيرها، كما يلاحظ الأمانة في نقل الخبر. على أن منهم من جامل بعض أصحاب السلطة في حذف بعض الروايات أو انتقائها كما فعل الزهري[١] حتى قيل فيه: "أي رجل الزهري لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك". وبالغ محمد بن إسحق في اعتماده على الشعر وعلى "الإسرائيليات" حتى انتقده ابن سلام بشدة في (طبقات الشعراء) وقال فيه ابن النديم في (الفهرست): "كان يُعمل له الأشعار ويؤتى بها ويسأل أن يدخلها في كتابه السيرة فيفعل .. وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه. فكان يحمل عن اليهود والنصارى .. وأصحاب الحديث يضعّفونه ويتهمونه"[٢].

ولكن ابن إسحق نال تقدير المؤرخين المحدثين وثقتهم مثلما نالها كتابا الواقدي وابن سعد. وسنعالج بشيء من التفصيل هؤلاء الأعلام الثلاثة.

---

(١) اعتبر الزهري (المؤرخ الأول) في مدرسة المدينة المنورة، فقد جمع رواياته وانتقدها وسبكها في إطار تاريخي وخطة واضحة وأعطى السيرة مصطلحها المتميز وقد تناولت خطته مادة قليلة عن فترة قبل الإسلام تتصل بحياة الرسول ﷺ ثم تكلم عن الفترة المكية والمدنية حتى وفاة النبي ﷺ كما عالج في دراساته عصر الراشدين، وكذلك أنساب العرب. راجع: الدوري، المرجع السابق، ص٢٢-٢٥. كذلك راجع البحث المفصل الخاص به في المرجع نفسه.

(٢) راجع ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، (مقدمة) الجزء الأول، صفحة س.

أما أولهم فهو محمد بن إسحق بن يسار أبو عبدالله المدني[1]، وكان مولى لقريش. ولد بالمدينة وتوفي حوالي (١٥١هـ/ ٧٦٨م). إلا أن ابن إسحق تنقل في مدن عديدة مثل الإسكندرية بمصر حيث درس الحديث على جماعة من أهل مصر. ثم رحل إلى الكوفة والحيرة بالعراق والري بإيران وإقليم الجزيرة الفراتية حتى استقر به المقام في بغداد في مطالع العصر العباسي في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور الذي طلب منه أن يصنّف كتابا في السيرة لولي عهد محمد المهدي.

لقد كان محمد بن إسحق عالماً مقتدراً. ورغم الانتقادات التي وجهت له من قبل بعض معاصريه كالإمام مالك بن أنس فإن آخرين منهم محمد بن شهاب الزهري وسفيان الثوري يوثقونه ولا يتهمونه. أما الباحثون المحدثون في تاريخ علم التاريخ فيرون أن لابن إسحق مكانة رفيعة في تثبيت أسس رصينة في المغازي بحيث غدا مرجعاً لمن بعده. يقول جب عن ابن إسحق "أنه كان نتاج مؤثرات عربية صحيحة وأنه اتبع قواعد علم الحديث".

أما كتابه (السيرة) فقد قسّمه إلى ثلاثة أقسام: المبتدأ ويتناول تاريخ ما قبل الإسلام ابتداءً من الخليقة معتمداً على كتابات وهب ابن منبه والإسرائيليات. ثم المبعث ويتناول سيرة الرسول ﷺ إلى السنة الأولى للهجرة. أما القسم الأخير فهو المغازي ويتناول باقي السيرة النبوية.

وقد وجه بعض العلماء النقد إلى هذا الكتاب وأخذوا عليه مآخذ عديدة لخصها عبدالعزيز الدوري بقوله[2]: "ينتقد ابن إسحق لاعتماده على أهل الكتاب في الرواية، ولإيراده كثيرا من الشعر الموضوع ولأخطائه في الأنساب، ولأنه لا يمحص في مصادره،

---

(١) ابن إسحاق، السير والمغازي، ج١، دمشق، ١٩٧٨م (مقدمة) المحقق سهيل زكار. كذلك ابن هشام، السيرة النبوية (مقدمة) المحقق في الجزء الأول. هورفتش، المغازي الأولى ومؤلفوها، مترجم، مصر ١٩٤٩م، ص٩٥ وما بعدها. جب، المرجع السابق، ص١٤٨-١٤٩. الدوري، المرجع السابق، ص٢٧-٣٠. حاطوم، المرجع السابق، ص١٩٠، ص١٩٣-٢١٠.

(٢) الدوري، المرجع السابق، ص ٢٩.

ولأنه ينقل مباشرة من الكتب دون السماع من أصحابها". إلا أن محققي كتاب السيرة[1] دافعوا عن ابن إسحق وردوا معظم الانتقادات التي وجهت إليه مستندين في ذلك على دفاع الخطيب البغدادي[2] عنه، معترفين في الوقت نفسه أن هناك أشعارا منحولة أدخلها في كتابه وأن هذا "مأخذ على ابن إسحق إن لم يكن في طريقة النقل والتحمل فهو مطعن على مقدار علمه بالشعر[3]".

ومهما يكن من أمر فقد بقيت سيرة ابن إسحق مرجعاً مهماً عن تاريخ ما قبل الإسلام وتاريخ صدر الإسلام، وامتدحها العلماء فاستند عليها الإمام مسلم والإمام البخاري وقال ابن عدي عنه: "ولو لم يكن لابن إسحق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء للاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبتدأ الخلق، فكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحق[4]". ويبدو أن ابن إسحق جمع بين أساليب المحدثين وطرق القصاص في الكتابة التاريخية. فاحتوى كتابه الأحاديث النبوية والروايات التاريخية والوثائق المكتوبة والقصص الشعبي والإسرائيليات وكثير من الشعر الذي لا يعرف مصدره. ولم يخل كتابه من النقد فقد كان يظهر الشك في بعض الروايات وكذلك ببعض الأشعار. ورغم أنه لم يرتق إلى مستوى المحدّثين في دقة الإسناد إلا أنه نجح في تقديم الخبر متكاملاً من خلال استخدامه الإسناد الجمعي.

لقد نالت سيرة ابن إسحاق عناية واضحة من قبل المؤرخين فكتب عنها حاطوم والدوري وبروكلمان وجب. كما عالجها هوروفيتش معالجة مستفيضة. وقد اتهم ابن إسحاق بنزعات دينية سياسية متناقضة منها أنّه كان قدرياً يؤمن بحرية الإرادة أو أنه كان متشيعاً يحابي عبدالله بن الحسن المحض وابنه محمد النفس الزكية من رواياته. أو أنه كان يميل إلى العباسيين ويتزلف إليهم فيما يرويه من أخبار. ويرد هورفيتس هذه

(١) ابن هشام، المصدر السابق، (المقدمة). بقلم مصطفى السقا

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص ٢١٤-٢٣٤.

(٣) راجع مثلاً: حاطوم، المرجع السابق، ص ٢٠٥. كذلك (مقدمة) مصطفى السقا لسيرة ابن هشام، الجزء الأول.

(٤) المصدر السابق.

التهم ويوضح أن مادة كتاب السيرة جمعت في الحجاز وفي مصر وليس في العراق. ويرى الدوري أن هذه التهم إن صحّت تعكس أثر التيارات السياسية والفكرية في تلك الفترة.

ومن الواضح أن ابن إسحاق استند على روايات شيخه محمد بن مسلم بن شهاب الزهري حيث كانت أحاديثه أساساً لكتب المغازي آنذاك. ويعد الزهري أول من دمج أحاديث مختلفة الإسناد في رواية واحدة، وقد تابعه تلميذه ابن إسحاق في مروياته التاريخية فاستخدم (الإسناد الجمعي) كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل.

يتفق الباحثون المحدثون على أن لابن إسحاق كتاباً آخر بعنوان (تاريخ الخلفاء) ذكره ابن النديم في الفهرست، واقتبس منه الطبري. ويرى الدوري[١] أن ابن إسحاق بمجموع تآليفه بما في ذلك (تاريخ الخلفاء) عبر عن فكرة التاريخ العام العالمي، ومن هنا يطلق عليه حاطوم لقب العلم الرائد بين المؤرخين المسلمين الأوائل.

لقد وصلتنا سيرة ابن إسحاق منقحة ومختصرة بواسطة عبدالملك بن هشام (ت ٢١٨هـ/ ٨١٣م) برواية زياد البكائي. فقد هذب ابن هشام السيرة وحذف الأقسام الضعيفة وكذلك الشعر المنحول، وبدت السيرة بعد تنقيحها أكثر قبولاً من قبل المحدّثين كما هو واضح من تعليقات الحافظ الذهبي وابن كثير عليها. ولكن سيرة ابن إسحاق الأصلية قد عثر عليها وحققت من قبل سهيل زكار في دمشق سنة ١٩٧٨م.

❖ أما ابن هشام الذي هذّب سيرة ابن إسحق وغلب اسمه عليها فهو عبدالملك بن هشام الحميري من أهل اليمن هاجر إلى مصر وكانت نشأته الأولى في البصرة توفي حوالي ٢١٨هـ. كان إماماً في النحو واللغة والشعر إلا أنه عرف بتهذيبه واختصاره كتاب السيرة لابن إسحاق. ويتضح منهجه في مقدمته لكتاب السيرة[٢]:

"وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد

---

(١) الدوري، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) ابن هشام، السيرة، (المقدمة).

رسول الله ﷺ من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ، وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ، وتارك بعض ما يذكره ابن اسحق في هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقص إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به".

ومعنى ذلك أنه حذف من سيرة ابن إسحق تاريخ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم، وغير هذا من ولد إسماعيل، ممن ليسوا في العمود النبوي، كما حذف من الأخبار والأشعار ما لم يثبت لديه.

ويشير مصطفى السقا وزملاؤه محققو كتاب السيرة إلى أن هذا الكتاب تناولته أيد عديدة بالجمع والتهذيب والاختصار والنظم شعراً فقد عني عبدالرحمن السهيلي (ت ٥٨١هـ) بالكتاب "وتناوله على نحو جديد ونهج آخر، هو بمنزلة الشرح والتعليق عليه. فوضع كتابه "الروض الأنف" في ظل مجهودي ابن إسحق وابن هشام، يتعقبهما فيما أخبرا بالتحرير والضبط، ثم بالشرح والزيادة، فجاء عمله هذا كتابا آخر في السيرة بحجمه، وكثرة ما حواه من آراء، تشهد لصاحبها بطول الباع، وسعة الاطلاع.

وعلى شاكلة مجهود السهيلي جاء –فيما يظن– مجهود بدر الدين محمد ابن أحمد العيني الحنفي، فوضع عليه كتابه "كشف اللثام"، وكان فراغه منه سنة ٨٠٥هـ. وليس بين أيدينا من هذا الكتاب نسخة حتى نحكم لصاحبه، ونتعرف عمله.

ثم لا ننسى مجهود أبي ذر الخُشَنِيّ، فقد تصدى للكتاب، فشرح غريبه، ولم ينس أن يعرض لما فيه من أخطاء، فجاء عمله مع عمل السهيلي متممين لمجهود عظيم، سبق به ابنُ إسحاق وابنُ هشام.

ولم نر بعد هؤلاء رجلاً في علمهم تناول الكتاب بجديد في الشرح والتعليق، بل رأينا الهمم تنصرف من هذا إلى الاختصار، فجاء برهان الدين إبراهيم بن محمد المرحّل الشافعي، فاختصر كتاب السيرة، وزاد عليه أموراً، ورتبه في ثمانية عشر مجلساً وسماه: "الذخيرة في مختصر السيرة" وكان فراغه منه سنة ٦١١هـ.

ثم جاء بعده عماد الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن الواسطي، فاختصره في كتاب سماه: "مختصر سيرة ابن هشام" وفرغ منه – فيما يقال- سنة ٧١١هـ.

ثم رأينا بعد هؤلاء فئة النظامين الذين لم يكن همهم إلا أن يصبوها في قالب جديد هو الشعر. فنظمها أبو محمد عبدالعزيز بن محمد بن سعيد الدميري الديريني المتوفى في حدود سنة ٦٠٧هـ، وأبو نصر الفتح بن موسى ابن محمد نجم الدين المغربي الخضراوي المتوفي سنة ٦٦٣هـ، كما نظمها أبو بكر محمد بن إبراهيم ابن محمد النابلسي المعروف بابن الشهيد، والمتوفى سنة ٧٩٣هـ وغيرهم.

فابن إسحاق هو عمدة المؤلفين الذين اشتغلوا بوضع السير بعده، حتى يمكننا أن نقول : ما من كتاب وضع في السيرة بعد ابن إسحاق إلا وهو غرفة من بحره. هذا إذا استثنينا رجلاً أو اثنين كالواقدي وابن سعد"[١].

❖ أما محمد بن عمر الواقدي (المتوفى ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م)[٢] وهو مدني لقب بالأسلمي لانتمائه بالولاء إلى بني أسلم من قبائل المدينة المنورة. عاش في العصر العباسي الأول وتوفي في بغداد ودفن في مقابر الخيزران. وقد تولى الواقدي القضاء ببغداد في أيام الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون[٣].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر الواقدي، كتاب المغازي، تحقيق: مارسون جونز، ج١، (المقدمة) ط٣، ١٩٨٤م.

(٣) عن ترجمة الواقدي انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٧، (٢)، ص ٧٧. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج١، ص ١٧. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٤. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص ٣٤٨. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٢، ص ١٨.

درس الواقدي الحديث في المدينة المنورة وتميز بين علمائها الذين جمعوا الحديث والفقه والتاريخ وقد اشتهر كتابه (المغازي) أي غزوات الرسولﷺ وسراياه لاهتمامه بالتاريخ الإسلامي رغم أن أخباره يغلب عليها الفقه والتشريع، ومع ذلك فإن (المغازي) كما يقول هوروفيتس[١]: " أغنى في أخبار الفترة المدنية من كتاب ابن إسحق". وكان الواقدي يحرص على معاينة المواضع التي وقعت فيها وقائع الإسلام الأولى ويشاهدها بنفسه وهذا ما أكسبه صفة المحقق الدقيق.

أما منهج الواقدي فتميز على محمد بن إسحاق في الزيادة من التحقق من الحوادث والتقليل من الشعر والقصص الشعبي واستخدام الإسناد الجمعي مما يدل على أنه استند على روايات مدرسة المدينة المنورة ثم أضاف إليها روايات أخرى وصلت إليه بطرق أخرى. كما عزز رواياته التاريخية بآيات من القرآن الكريم ذات العلاقة بالأحداث موضوع البحث[٢].

وفيما عدا كتاب (المغازي) ألف الواقدي كتاباً سماه (التاريخ الكبير) الذي عالج تاريخ الخلفاء حتى عصر الخليفة العباسي الرشيد. كما ألف في الطبقات كتاباً سماه (تاريخ طبقات المحدثين في الكوفة والبصرة)، وربما كان الأساس الذي اعتمد عليه محمد بن سعد في كتابه (الطبقات الكبرى).

ومثلما اختلف العلماء في موقفهم من ابن إسحق كذلك اختلفوا في رأيهم بالواقدي حيث امتدحه بعضهم وجرّحه البعض الآخر. ولم تكن علاقته جيدة بالإمام أحمد بن حنبل في بغداد. كما أشار ابن النديم إلى ميول الواقدي العلوية[٣] إلا أن الأخبار التي أوردها لا تثبت ذلك. وتظهر ميزة الواقدي في التاريخ من شهادة ياقوت الحموي حيث يقول: "وهو مع ذلك ضعفه طائفة من المحدثين... ، أما في أخبار الناس والسير والفقه وسائر الفنون فهو ثقة بإجماع"[٤].

---

(١) هورفيتس، المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢، ص١٢٣ فما بعد.

(٢) الدوري، المرجع السابق، ص٣٠-٣١. حاطوم، المرجع السابق، ص٢١٠.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص١٤٤.

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٨، ص٢٨١ فما بعد.

❖ ثم جاء محمد بن سعد بن منيع البصري[1] المتوفى سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م وكان من موالي العباسيين من بني هاشم. وكان يلقب بـ(كاتب الواقدي) وذلك لملازمته لشيخه محمد بن عمر الواقدي. وقد درس ابن سعد على الشيوخ اللامعين في زمانه في علم الحديث ورحل من أجل ذلك إلى العديد من المدن الإسلامية مثل المدينة المنورة والكوفة وبغداد التي استقر فيها وغدا من أكابر فقهائها في عهد الخليفة العباسي المأمون.

وكان محمد بن سعد يدقق ويتحرى في اختيار شيوخه وممن أخذ العلم منهم وقد ذكر الخطيب البغدادي شيوخه فقال: "... سمع سفيان بن عيينه وإسماعيل بن علية ومحمد بن أبي فديك وأبا حمزة أنس بن عياض... ومن بعدهم، وكان من أهل الفضل والعلم"[2]. وهؤلاء الشيوخ (الأساتذة) العدول الثقات الذين تلقى ابن سعد العلم منهم هم الذين أكسبوا ابن سعد المنزلة الرفيعة التي وصل إليها. وقال عنه ابن خلكان "كان صدوقاً ثقة[3]"، وأكد ذلك ابن حجر بقوله: "أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرين"[4]، وقد اهتم ابن سعد إضافة إلى الحديث والأخبار والسير بالفقه واللغة والنحو والقراءات وكان واسع الاطلاع في علم الأنساب. وكان انتقال محمد بن سعد إلى بغداد مقر الخلافة الإسلامية كما فعل قبله محمد بن إسحق ومحمد بن عمر الواقدي إشارة على تحول مركز الثقل لمدرسة المغازي والسيرة من الحجاز إلى العراق. وقد نشط هؤلاء وغيرهم في ظل الخلافة العباسية ووجدوا الحظوة لدى الخلفاء.

---

(١) عن ترجمته راجع : ابن النديم، الفهرست، ص ٩٩. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٥، ص٣٢١. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٧٣. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٨٨. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص١٢. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج٩، ص١٨٢. وفي المراجع انظر: مقدمة إحسان عباس في الجزء الأول لطبقات ابن سعد، طبعة بيروت. جب، دراسات، ص ١٤٩-١٥٠. الدوري، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٣. حاطوم، المرجع السابق، ص٢٣١. هورفتس، المرجع السابق، ص١٢٦-١٣٢. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج١، ص١٣٦. مادة (ابن سعد) في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة بالإنجليزية.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٥، ص ٣٢١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٤٧٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج٩، ص ١٨٢.

ألف ابن سعد كتابه (الطبقات الكبرى) مستفيداً من أستاذه الواقدي الذي ألف كتاباً بالعنوان نفسه في سيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، غير أنه كان أكثر تنظيماً لمادته وأكثر استفادة من الوثائق من الواقدي ويكون بذلك يضع اللمسات الأخيرة لهيكل السيرة.

أما عن محتويات كتاب (الطبقات الكبرى) فقد أثرنا أن ننقل نص إحسان عباس في مقدمته للكتاب حيث يقول[1]: "وبعد أن انتهى ابن سعد في أكثر الجزأين الأولين من سيرة الرسول، أضاف فصلاً عن الذين كانوا يفتون بالمدينة على عهد الرسول، ثم أخذ يترجم للصحابة والتابعين فشغل بذلك جميع الأجزاء الباقية من كتابه، ما عدا الجزء الأخير الذي خصصه للنساء، وقد راعى في التراجم عنصرين: عنصر الزمان وعنصر المكان، أما عنصر الزمان فقد تدخل في بناء الطبقات من أولها إلى آخرها، وكانت السابقة إلى الإسلام هي المحور الأكبر فيه، سواء اتصلت بالهجرة إلى الحبشة ثم بموقعة بدر أو وقتت بما قبل فتح مكة، أو غير ذلك من النقط الزمنية التي وجهت التقسيم في ذلك الكتاب. ومن ثم بدأ بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين ثم بمن أسلم قديماً ولم يشهد بدراً وإنما هاجر إلى الحبشة أو شهد أُحداً (فالبدريون مفضلون على من عداهم) ثم من أسلم قبل فتح مكة وهكذا. ونلاحظ في هذه القسمة أن ابن سعد احتذى فيها شيئاً شبيهاً بما صنعه الخليفة عمر بن الخطاب عندما دوّن الدواوين. وبعد هذا تدخل العنصر المكاني فأخذ يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأمصار التي نزلوها فسمي من كان بالمدينة ومكة والطائف واليمن واليمامة، ثم من نزل الكوفة، ثم من نزل البصرة، ومن كان موطنه بلاد الشام ومصر وغيرهما. وفي أثناء هذا التقسيم التفت إلى تقسيمات جزئية مؤسسة على الرواية، وظل العامل الزمني معتبراً أيضاً أثناء التقسيمات المكانية، وبخاصة عند الحديث عن التابعين لأنه ترجم لهم في طبقات، والطبقة في العادة تساوي جيلاً أو عشرين سنة أو عشر سنين، وهي تساوي في كتاب ابن سعد عشرين سنة تقريباً، فمثلاً تراوح نهاية الطبقة الثالثة بين

---

(٢) راجع: (المقدمة) كتاب الطبقات الكبرى، المجلد الأول، بيروت. بقلم إحسان عباس.

سنتي ١٠٨-١١٣هـ وتتراوح نهاية الطبقة الرابعة بين سنتي ١٢٦-١٣٢هـ.

وقد أظهر هذا التقسيم عيباً واحداً في الكتاب، إذ قد يكون أحد الأشخاص داخلاً في غير موضع واحد في هذا المنهج الكبير، أي قد يكون أحد الناس بدرياً، ممن يفتي أيام الرسول ﷺ، ثم هاجر إلى مصر من الأمصار وعلى هذا فلا بد له من ثلاث تراجم، غير أن ابن سعد كان على وعي بهذا ولذلك ففي مثل الأحوال تجده يطيل الترجمة في موطن واحد ويوجز في المواطن الأخرى. وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتماد الكلي على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التي تهم ابن سعد الرواية عنها من جميع النواحي، أخذت الترجمة تتضاءل وتقل قيمتها، وبدلاً من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيضة لمن عاصرهم، نجده اكتفى في هذا بقولة موجزة وأفاض كثيراً في تراجم الصحابة وكبار التابعين وبلغ من الدقة حداً يجعل من كتابه وثيقة بالغة القيمة".

وأكثر من ذلك فإن القارئ المتمعن للكتاب يلاحظ قلة تعليقات ابن سعد على الروايات إلا أن هذا القليل يدل على قابلية في النقد. كما وأنه يستعين بالشعر وخاصة في الأجزاء الخاصة بالسيرة[(١)].

ولما كان كتاب الطبقات هذا من أوائل ما ألف في الموضوع حيث ليس هناك من كتاب قبله إلا طبقات شيخه الواقدي، فإن كتاب ابن سعد أثر في عدد من المؤرخين بعده وخاصة البلاذري في فتوحه وأنسابه، كما تأثر به ونقل عنه أبو نعيم الأصفهاني في (حلية الأولياء). وكان الكتاب مصدراً لابن عساكر في (تاريخ دمشق) والذهبي في (سير أعلام النبلاء) كذلك نقل عنه ابن حجر العسقلاني وابن كثير وغيرهم ممن كتبوا في السيرة.

أما أهمية الكتاب وفائدته فكبيرة للمختصين والمهتمين بفترة السيرة النبوية وتاريخ الإسلام في القرنين الأول والثاني الهجريين وفيه معلومات جمة عن الحياة

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٠.

الاجتماعية والمهن والتجارة وعن مظاهر الحياة الثقافية والفقهية والصراع الديني السياسي[١].

المبحث الثاني: مدرسة العراق

أما (مدرسة العراق) والتي ركزت على الأخبار والأنساب القبلية فقد حظيت بجملة من الإخباريين والنسابة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[٢].

(أ) فالإخباريون الأوائل في العراق الذين يمثلون خط الدراسات التاريخية هم:

- عوانه بن الحكم (ت ١٤٧هـ/ ٧٦٤م).
- أبو مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م)
- سيف بن عمر (ت ١٨٠هـ/ ٧٦٩م)
- نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م)
- الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ/ ٨٢١م)
- علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥هـ/ ٨٣٩م)

(ب) أما النسابة الرواد فمنهم:

- أبو اليقظان (ت ١٩٠هـ/ ٨٠٥م)
- محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ/ ٧٦٣م)
- هشام بن محمد بن السائب الكلبي(ت ٢٠٤ه/ ٨١٩م)
- المصعب بن عبدالله الزبيري (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)
- الزبير بن بكار (ت ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م)

لقد برزت الكتابات التاريخية التي اهتمت بالأخبار والمآثر القبلية والأنساب في

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣-١٧.

(٢) راجع تفاصيل مدرسة التاريخ في العراق في: الدوري، المرجع السابق، ص٣٣-٤٨. كذلك سيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، مصر ١٩٨١م، ص ٦٦-٧١. جب، دراسات، ص ١٥٠ فما بعد، بينما لم يشر حاطوم إليها.

العراق بصفة خاصة ومحددة وكان ذلك في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أي في عصر العباسيين الأوائل، مع أننا لا ننكر فضل الأمويين في المبادرة إلى تشجيع هذه الدراسات.

لقد مثّل الإخباريون الذين أشرنا إليهم خط الدراسات التاريخية وتركز نشاطهم في أمصار العراق (الكوفة والبصرة) وهذا ما أعطى ثقلاً للرواية أو القصة العراقية، وهذا لا يعني بطبيعة الحال عدم الإفادة من روايات مدرسة المدينة المنورة وخاصة عن العصر الراشدي وكذلك الاستفادة من وثائق دواوين الدولة مثل ديوان الجند وديوان الخاتم وديوان الخراج وغيرها.

لم تصلنا مؤلفات الإخباريين والنسابة الأوائل ومع ذلك فيمكننا أن نحكم عليها من خلال ما تضمنته كتب المؤرخين مثل الطبري وغيره من نقول ومقتطفات منها.

لقد أوجز هاملتون جب[١] خط الدراسات التاريخية الأولى الذي مثله الإخباريون وأبان أهمية المادة التاريخية فيه بقوله: " وكان من أبرز هذه المواد روايات القبائل العربية في العراق؛ ومن هذه قبيلة الأزد التي جمع رواياتها (مع روايات أخرى) أبو مخنف، ورواها هشام الكلبي، وهي تعرض رواية الكوفة المؤيدة لعلي ابن أبي طالب والمعارضة للأمويين. وفي رواية بني كلب التي يمثلها عوانه بن الحكم (المتوفى عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤ أو ١٥٨هـ/ ٧٧٥م) - وقد رواها هشام الكلبي أيضاً- نزعة معارضة لعلي ومناصرة بالأحرى للشاميين. أما الرواية الثالثة، وهي رواية تميم، وقد روجها سيف بن عمر (توفي حوالي ١٨٠هـ/ ٧٩٦م) في صورة قصص تاريخية عن الفتوحات، واستندت في الغالب إلى أشعار كانت صلتها بالنثر تكاد تكون نفس الصلة بين هذين الفنين في قصص الأيام، وهناك أجزاء من روايات قبلية أخرى مثل رواية باهلة عن حروب قتيبة بن مسلم، وبين هذه الروايات بما فيها من تفاصيل تنبض بالحياة وعرض جريء للأحداث، وبين حوليات ذلك الزمن والأزمان التالية تباين شديد. لكن على الرغم

(١) جب، دراسات، ص ١٥٠-١٥٣.

من تحيزها وكونها تمثل جانباً واحداً فإن قيمتها التاريخية مما لا يصح إغفاله. على أنه ينبغي أن نلاحظ مرة أخرى أن هذه الروايات من الناحية الشكلية، أي من ناحية التزامها الدقيق بمبدأ الإسناد، تتصل بعلم الحديث (والحق أننا نجد هذا اللون من النشاط يقترن بالشعبي الذي توفي عام ١١٠هـ/ ٧٢٨م، وهو شيخ محدثي الكوفة) ولا تكشف عن وجود أثر لمؤثر خارجي في أسلوبها أو موضوعها".

ولابد لنا من تبيان أهمية بعض الرواد من الإخباريين العراقيين في مرحلة البدايات:

❖ فالإخباري عوانه بن الحكم[1] من الكوفة ولكنه يميل إلى الأمويين وله معرفة عميقة بأحوالهم. ويرى عبدالعزيز الدوري[2] أن ما جمع من مقتطفات عن كتبه يشير إلى أنه يقدم الرواية الأموية مقابل الرواية العراقية في كتابيه حيث عالج في الأول (تاريخ الخلفاء الأمويين) بتسلسل حولي وتناول في الثاني (التاريخ الإسلامي) في القرن الأول الهجري، مع عدم استغنائه عن الروايات العراقية والمدنية، ونجد روايات عوانة في تاريخ الطبري منقولة عن طريق ابن الكلبي والمدائني والهيثم بن عدي.

❖ أما الإخباري الكوفي الثاني فهو أبو محنف لوط بن يحيى[3] فيمثل وجهة النظر العراقية مقابل وجهة النظر الشامية ونزعته شيعية علوية معتدلة. كما يظهر ميلاً لروايات قبيلته الأزد مما يعكس اعتزاز القبائل بالأمصار والأقاليم التي استقرت فيها. ومهما يكن من أمر فيظهر من كتبه عن الفتوح وعن الردة وعن الخوارج والمعارك أنه استفاد من الروايات الكوفية والقبلية الأخرى فبدت أخباره بصورة عامة بعيدة عن التحيز. وفي الوقت الذي يرى فيه جب الإخباري الشيعي الواضح في ميوله العلوية يعده

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٦، ص ٩٤. ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٤.

(٢) الدوري، المرجع السابق، ص ٣٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٦، ص ٢٢٠-٢٢١. ابن النديم، الفهرست، ص ٩٣. سيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ٦٩. الدوري، المرجع السابق، ص ٣٦. جب، دراسات، ص١٥١-١٥٣. بينما يرى روزنثال أن لعوانه كتاباً عن (سيرة معاوية وبني أمية) كتبه على منهج تواريخ الدول والأسر الحاكمة، انظر: علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٢٨.

عبدالعزيز الدوري من "أميز الإخباريين في العراق". ومهما يكن من أمر فإن أبا مخنف يختلف عن الإخباري الكوفي نصر بن مزاحم الذي تظهر نزعته الشيعية بصورة جلية في كافة كتبه مثل موقعة الجمل وصفين، ومقتل الحسين ومناقب الأئمة وغيرها.

❖ ويعد سيف بن عمر الإخباري الكوفي الثالث ونزعته قبلية إقليمية فهو يستند على روايات قبيلته تميم مع ميل إلى وجهة النظر العراقية[١].وليس معنى ذلك عدم استفادته من روايات المدينة المنورة. واشتهر بكتابيه (الردة) و(الفتوحات). وتعود شهرة سيف بن عمر إلى أن الطبري اختار كتبه كمصدر رئيسي عن أخبار القبائل واستقرارها في الأمصار، والقبائل التي شاركت في الفتوحات. ويؤكد سيف على دور زعماء تميم وبطولاتهم في الحروب التي دارت. وقد شك في رواياته بعض علماء الحديث والجرح والتعديل واتهموه بالكذب وبالزندقة التي ظهرت في العصر العباسي الأول. ومن الباحثين الذين انتقدوه مرتضى العسكري حيث اتهمه باختلاق الأخبار والرواة ووضع أخبار في فم الثقات من الرواة وذلك لنشر الشكوك في أخبار صدر الإسلام. ولعل السبب في اتهام العسكري له يعود إلى غموض صورة الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عنده وإيراده روايات مبهمة لا تميل إلى العلويين، ويتضح ذلك من خلال بناء هيكل روايات سيف بن عمر في تاريخ خليفة بن خياط والبلاذري والطبري وأبي الفرج الأصفهاني.

❖ وتستمر سلسلة الإخباريين في خط الدراسات التاريخية حتى تصل الذروة عند علي بن محمد المدائني[٢] البصري الذي عاش في بغداد. وقد اشتهر المدائني بكتابه

---

(١) انظر ترجمة سيف بن عمر في: الذهبي، ميزان الاعتدال، . ابن حجر، تهذيب التهذيب. ابن النديم، الفهرست. أما المراجع فانظر: جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٠-١٩٥١م. الدوري، المرجع السابق، ص٣٧. دونر، مقالة في دائرة المعارف الإسلامية عن (سيف بن عمر) سيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ٦٨.

كذلك: E.L. Tasseron. Syf b. Umar. in Islam. 1990. I.Conrad ed. History and Historiography in early Islamic Times. Prineton. 1995.

(٢) راجع: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٣٠٩. ابن النديم، الفهرست، ص١٠٢. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٢، ص٥٥. الدوري، المرجع السابق، ص٣٨-٣٩. سيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ٦٩-٧٠.

(أخبار الخلفاء الكبير) الذي يبدو غناه بالأخبار التي استقاها من الأخباريين الذين سبقوه، وكذلك من روايات مدرسة المدينة المنورة البصرة وبذلك غدا مصدراً رئيساً لمؤرخي القرن الثالث الهجري/ الثامن الميلادي الذين جاءوا بعده. أما كتابه آنف الذكر فيبدو من المقتطفات التي جمعت عنه أنه تناول المدة من بداية الخلافة الراشدة مروراً بالخلافة الأموية ثم العباسية حتى عهد المعتصم بالله. ويعد المدائني ثقة في أوساط علماء الحديث لدقته ونقده للروايات. ويشار إلى أنه غزير التأليف حيث أن مجموعة دراساته عالجت موضوعات من سيرة الرسول ﷺ حتى نهايات العصر العباسي الأول.

وقد لخص هاملتون جب[1] خصائص الدراسات التاريخية في مرحلة التكوين هذه التي انتهت بالإخباري علي بن محمد المدائني فجلب الانتباه إلى أنه رغم معاداة الفقهاء الأوائل للدراسات التاريخية فالملاحظ أن غالبية جامعي الروايات التاريخية كانوا من الفقهاء والمحدثين واللغويين مما يدل دلالة لا لبس فيها أن المجتمع دخل مرحلة الوعي التاريخي وأن التاريخ - حتى من وجهة النظر الدينية - يعبر عن صورة التجلي للفعل الإلهي والمشيئة الإلهية في تسيير شؤون البشر، وبمعنى آخر فإن دراسة تاريخ الأمة الإسلامية هي تتمة ضرورية ومكملة لدراسة الوحي الإلهي المتمثل بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وهكذا صار التدوين التاريخي جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية. وأضاف عبدالعزيز الدوري[2] إلى هذه الخصائص تأكيد الدراسات التاريخية للإخباريين الأواخر على خبرات الأمة المتراكمة عبر الأحداث والوقائع واعتبارها ضرورية جداً ومن الواجب أن يطلع عليها المجتمع.

أما الخط الثاني في المدرسة العراقية لكتابة التاريخ فهو خط دراسات الأنساب فقد اهتم المجتمع والدولة بالأنساب في العصر الإسلامي لأسباب عديدة منها: إدارية ومنها بشرية ومنها اجتماعية، هذا إضافة إلى دوافع التنافس القبلي بين العرب أنفسهم من جهة والصراع بينهم وبين الشعوبيين من جهة ثانية.

---

(١) جب، دراسات، ص ١٥٢.

(٢) عبدالعزيز الدوري، المرجع السابق، ص ٤٨.

وإذا كان النسابة أبو اليقظان (ت ١٩٠هـ/ ٨٠٥م) أول من كتب في الأنساب فإن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ/ ٧٦٢م) وابنه هشام (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) كانا من أبرز النسابة الأوائل[١]. ولدينا مخطوطة هشام الكلبي الموسومة (جمهرة النسب) ويبدو أنها نسخة موسعة ومنقحة لكتاب والده في النسب. وتحوي معلومات عن الرجال في مختلف المجالات، كما تتناول موضوعات تاريخية عن أيام العرب قبل الإسلام وفي التاريخ الإسلامي وتاريخ الفرس. واستقى هشام معلوماته من مصادر شتى منها قصص شعبية وكتب أهل الكتاب وترجمات فارسية.

وممن برز في دراسة الأنساب مصعب الزبيري (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) ولديه كتاب (النسب الكبير) مفقود وكذلك (نسب قريش) موجود ويحوي أخباراً تاريخية ضمن الأنساب وبعضها مفصل ومهم، ومن مصادره إضافة إلى الرواة، الشعر والروايات التي أخذها شفاهاً.

ويظهر في كتاب (تاريخ الأشراف الكبير) لمؤلفه الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ/ ٨٢١م) النموذج الواضح الأول في الجمع بين التاريخ والأنساب، ولعله الأول من نوعه في كتابة التاريخ في إطار النسب قبل البلاذري. وللهيثم بن عدي اهتمامات أخرى عدا الأنساب يعد رائداً فيها كذلك فقد كتب في (طبقات الفقهاء والمحدثين) كما كتب تاريخاً حولياً للإسلام بعنوان (كتاب التاريخ على السنين[٢]).

ولابد من الإشارة أن فئات أخرى شاركت في تدوين التاريخ خلال هذه الفترة المبكرة ومن هذه الفئات اللغويون وعلى رأسهم أبي عبيدة معمر بن المثنى[٣] (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م) الذي كتب عدداً من كتب التاريخ وتميز بما دونه في موضوعات محددة منها المعارك والخوارج وأيام العرب وأخبارها وكذلك في المثالب والمفاخر. كما

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص١٤٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٦٢٧. الدوري، المرجع السابق، ص٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٤١-٤٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص٥٣. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٦، ص١٦٥. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٣، ص٢٥٢. الدوري، المرجع السابق، ص٤٤-٤٥.

شاركت الحركة الشعوبية في دراسة التاريخ العربي ولكن بطريقة سلبية حيث حاولت التشكيك بتاريخ العرب ودورهم الحضاري، وكان أبو عبيدة آنف الذكر وكذلك عبدالله بن المقفع[(١)] (١٤٤هـ/ ٧٦٠م) من أبرز ممثليهم في الصراع الثقافي والفكري ضد العرب. فقد كتب الأول (كتاب الموالي) وكذلك كتاب (فضائل الفرس) بينما قام الثاني بترجمة عدد من الكتب الفارسية عن الفهلويه منها كتاب خداينامة أو (سير الملوك) ويتناول تاريخ إيران من خلال الفئة الحاكمة.

وقد شهدت مرحلة التكوين هذه بدايات كتب التاريخ الحولي (أي الكتابة على السنين) ولكنها كانت مقتصرة على بلد واحد أو إقليم واحد أو قبيلة واحدة، فكتب الهيثم بن عدي تاريخاً حولياً هو التاريخ على السنين نقل عنه البلاذري والطبري. وكتب المدائني في تاريخ البصرة وخراسان ونقل عنه الطبري كثيراً. وكتب الإخباريون اليمانيون في تاريخ اليمن، وكتب أبو مخنف لوط بن يحيى في أخبار الأزد في العراق وعوانه بن الحكم في أخبار كلب في بلاد الشام وسيف بن عمر عن تميم وأخبارها، ونظمت هذه الكتب على أساس حولي يستند على التقويم الهجري.

لقد كانت هذه المحاولات بداية لكتب متكاملة في التاريخ الحولي العام حيث انتظمت فيما بعد على يد مؤرخين ـ محدّثين أمثال خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وأبي زرعة الدمشقي (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) وغيرهما.

كما شهدت مرحلة التكوين هذه بدايات تيار آخر اهتم بالفتوح وأخبارها وعهودها[(٢)] وكان أمرها يهم السلطة في العصرين الراشدي والأموي لأمور تتعلق بالإدارة والعطاء والخراج والجزية وما إليها، ولهذا اشتهرت بكتب الفتوح كل من المدينة المنورة ثم تلتها بلاد الشام في العصر الأموي فكان رواد الكتابة التاريخية في الفتوح في هذين المصرين يمثلون الغالبية وهذا لا يعني عدم وجود من اهتم بها في الأمصار الأخرى،

---

(١) فاروق عمر فوزي، عبدالله بن المقفع في تخليط المؤرخين، مجلة المورد، بغداد، العراق، ١٩٧٤م.

(٢) الدوري، المرجع السابق، ص٤٨. حاطوم، المرجع السابق، ص٢٥٢-٢٦٤. جب، المرجع السابق، ص ١٥٧. السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص ١١٥-١١٦.

وخاصة الكوفة والبصرة، وكتب الإخباريون الأوائل في الفتوح نذكر منهم أبا مخنف لوط بن يحيى وسيف بن عمر التميمي الذي كان له كتاباً بعنوان "كتاب الفتوح الكبير والردة". وللمدائني كتب في الفتوح عديدة منها أمر البحرين، أمر عمان، فتوح الشام، فتوح مصر، فتوح الجزيرة الفراتية، والعراق وأرمينية وبرقة... إلخ. ثم غدت معلوماتنا التاريخيـة عن الفتوح أكثر دقة وتنظيماً وتماسكاً في كتب مثل فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م) وفتوح مصر وأخبارها لابن

عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) وابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) في كتابه الفتوح إلا أن ذلك حدث في المرحلة التالية من من مراحل الكتابة التاريخية وهي مرحلة النضج والازدهار كما سنرى.

* * *

الفصل الثالث

«إن القارئ إذا تأمل ما فيه من الفَقَر ونحوها لم يزل متنقلاً من فائدة إلى فائدة، ومنصرفاً منها بين جد وهزل، وآثار وأخبار، وسير وأشعار، متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها، وتحتاج الأحداث إلى دراستها ».

أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج١، ص ٥.

«إن لكل شيء من العلم ونوع من الحكمة وصنف من الأدب سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتاً ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار وضم كل جوهر نفيس إلى شكله وتأليف كل نادر من الحكمة إلى أهله بطلت الحكمة وضاع العلم وأميت الأدب ودرس مستور كل نادر. ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ونقرهم آثار الأوائل في الصخر لبطل أول العلم وضاع آخره».

الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ص٣.

مراحل الكتابة التاريخية[٢]:
مرحلة النضج والاكتمال

من أوائل القرن ٤ هـ/١٠م حتى ٧ هـ/١٣م

تبلورت هذه المرحلة في العصر العباسي، وتميزت بنظرة شمولية تراجعت فيها المفاهيم القبلية والإقليمية وتأكدت المفاهيم الإسلامية وبرز مفهوم الأمة، ومال بعض المؤرخين إلى تاريخ الثقافة والحضارة. وقد سلك المؤرخون في هذه الفترة أنماطاً متنوعة في التدوين التاريخي، ولعل السبب في تنوع الكتابة يعود إلى مشاركة فئات جديدة خلال هذا العصر في الكتابة التاريخية منها فئة الكتّاب (موظفو الدواوين) وفئة الأدباء وفئة الفقهاء إضافة إلى المحدثين. وقد ظهر في هذه الفترة مؤرخون كبار ساهموا بصورة متميزة في رقي مستوى الكتابة التاريخية شكلاً ومضموناً.

والواقع فإن الباحث لا يمكنه حصر الأنماط المتنوعة للتدوين التاريخي الإسلامي في فترة النضج هذه بسبب تعددها وتداخلها مع بعضها أحياناً، ومن الصعب كذلك أن نقرر أياً من الأنماط كان الأول فإذا كان ابن سعد (ت٢٣٠هـ) قد كتب طبقاته في فترة مبكرة، فإن أحمد بن علي بن المنجم والهيثم بن عدي (ت ٢٠٧هـ) قد كتبا قبله كتباً على نمط التاريخ الحولي في تاريخ سني العالم للأول والتاريخ على السنين للثاني، رغم أنها لم تصلنا كاملة. وكذلك فعل علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥هـ) في كتابه (أخبار الخلفاء الكبير) الذي ضم الفترة بين الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق والخليفة العباسي المعتصم. أما خليفة بن خياط (٢٤٠هـ) فقد ألف كتابين الأول في التاريخ والثاني في الطبقات. ويبدو من هذه الأمثلة أن هذين النمطين (الطبقات والتاريخ الحولي) من الكتابة التاريخية ظهرا في وقت متقارب أو كانا معاصرين. ومع ذلك سنذكر أنماطاً

رئيسية من الكتابة التاريخية وصلنا منها مؤلفات متكاملة وعلى النحو التالي:

(١) الكتابة التاريخية على نمط التاريخ العام العالمي وينقسم إلى أنواع ثلاثة:

أ- التاريخ على السنين (الحولي).

ب- التاريخ على الموضوعات.

ج- التاريخ الحضاري (الثقافة والنظم).

(٢) الكتابة التاريخية في إطار الفتوح.

(٣) الكتابة التاريخية في إطار النسب.

(٤) الكتابة التاريخية في إطار التراجم: وتنقسم إلى خمسة فروع رغم أن بعضها تتداخل أحياناً مع البعض الآخر.

أ- التراجم على الطبقات.

ب - التراجم على الحروف المعجمية.

ج - التراجم على الوفيات.

د - التراجم على البلدان.

هـ - التراجم على القرون.

(٥) الكتابة التاريخية في إطار الأسر والسلالات الحاكمة.

(٦) التاريخ المحلي (تاريخ المدن أو الأقاليم أو البلدان).

ولابد لنا قبل أن نسترسل في إيراد التفاصيل عن هذه الأنماط الرئيسة أن نلخص مميزات مرحلة النضج هذه، فقد لاحظ شاكر مصطفى[١] أن تطوراً ملحوظاً حدث في علم التاريخ عند المسلمين في فترة النضج والازدهار ابتداءً من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده. وأشار إلى ثلاثة محاور: الأول في تدوين المادة والثاني في

(١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، ١٩٧٨م، ج١، ص٣٧٨-٤٤٥.

تنظيم المادة والثالث في تطور الفكر التاريخي وفلسفته.

- **أما في تدوين المادة فتبدو التطورات فيما يلي:**

١ـ **سقوط الإسناد:** حيث لم يهتم المؤرخون بسلسلة الرواة كثيراً، وهذا لايعني عدم ذكر السند مطلقاً بل كان المؤرخون يحاولون الإبقاء على إشارات موجزة إلى المصادر وفي مقدمة الكتاب كما فعل اليعقوبي وابن أعثم الكوفي والمسعودي وهو ما يسمى بالإسناد الجمعي. أو عزو كل خبر إلى المؤلف أو الكتاب الذي أخذ منه مثل أبو شامة. ولا بد أن نستدرك ونقول بأن المنهج الحديثي لم ينقرض خاصة عند المؤرخين المحدّثين مثل الخطيب البغدادي وابن عساكر غيرها. وعلى ذلك يمكن القول عموماً بأن الطبري كان آخر ممثل للطريقة الحديثية وأن المسعودي كان أول ممثل للطريقة اللاسندية الجديدة.

ويرى شاكر مصطفى أن عوامل عديدة ساعدت على هذه الظواهر منها انتشار الورق وظهور المخطوطات المكتوبة، ثم عدم ترتّب أمور فقهية على التاريخ المدون، ورغبة المؤرخين في الاختصار وعدم مطالبة الناس عموماً بسند للخبر التاريخي. وبذلك بدأت الصلة تضعف بين علم التاريخ وعلم الحديث وبدأ التاريخ يستقل عن الحديث ولكن دون أن يهمل التوثيق تماماً.

٢ـ **تزايد الاعتماد على الوثائق:** والوثائق هي السجلات الرسمية في المحفوظات الديوانية وهي ذات قيمة سياسية وتشكل عنصراً من عناصر الموضوعية في الكتابة التاريخية وهي لم تجعل من المؤرخ مؤرخاً رسمياً للدولة أو السلطة الحاكمة بل مؤرخاً دقيقاً في توثيقه للحدث التاريخي. ويبدو هذا واضحاً في مؤلفات مسكويه والصولي والصابئ والعماد الأصبهاني، وابن شداد والقاضي الفاضل وغيرهم.

٣ـ **اهتمام المؤرخ بالعلوم الأخرى والتأريخ لرجالها:** فقد سجل المؤرخون تطور

الثقافة والفكر الإسلامي بمختلف أنواعها لا كعلوم ولكن كرجال علم معين وتسجيل سيرهم وآثارهم. وفي محتوى كتب التراجم هذه تسجيل لتاريخ الحياة الفكرية والاجتماعية لعصور هؤلاء الرجال المتميزين. فقد ظهرت مؤلفات عن طبقات الأطباء والحكماء والنحويين والشعراء والمتصوفة والأدباء وأهل المذاهب المتنوعة والمحدثين وقد أوضح ذلك التاريخ الحضاري للأمة بأجلى صورة.

٤ ـ **التطور في أسلوب تدوين المادة التاريخية**: فالمعروف أن الكتابة التاريخية الأولى لم تهتم كثيراً بالأسلوب قدر اهتمامها بالخبر وهي التي اصطلحنا عليها بأسلوب الإخباريين، حيث وصلتنا بعض كتبهم أو نقل عنهم المؤرخون من الجيل التالي أمثال الطبري والبلاذري. أما في القرن الرابع الهجري فيمكن أن نميز أسلوبين في الكتابة التاريخية، أولهما الأسلوب المرسل العادي مثل أسلوب الطبري والمسعودي وابن الأثير والخطيب البغدادي وابن الجوزي، وثانيهما الأسلوب الأدبي المتأنق ويظهر في كتب مسكويه والتنوخي وزاد بعضهم في البلاغة والبديع مثل الصابئ والعماد الأصبهاني والمقرّي.

أما في تنظيم المادة التاريخية فقد ظهرت أنماط عديدة ومتنوعة في التدوين التاريخي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل، حيث تنوعت الكتابة في التاريخ العام العالمي وظهرت الكتابة في التواريخ البلدانية والإقليمية وتطورت كتب الطبقات والتراجم ورتبها مؤلفوها على مناهج عدة تعتمد على رؤية المؤلف ومنطلقاته الفكرية. وقد أشار الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) إلى هذه الظاهرة بقوله: "أما كتب المحدثين والحفاظ والرواة وكتب الجرح والتعديل والأنساب والمعاجم فإنها شيء لا يحصره حد ولا يقصره عد ولا يستقصيه ضبط".

وقد ظهرت تراجم على الطبقات أو على الحروف الأبجدية أو على الوفيات أو على القرون أو على البلدان. والملاحظ بروز ظاهرة الذيول والتكملة وصلة التكملة. كما

تراجع الاهتمام بالنسب القبلي وحل محله النسبة إلى المكان أو الحرفة أو المذهب أو الشهرة. كما برز مؤرخون آخرون في كتابة السير أو المذكرات الشخصية التي تحتوي على خلاصة تجاربهم في الحياة.

أما التطور الذي حدث في الفكر التاريخي فقد لاحظ شاكر مصطفى المظاهر التالية:

١ - أصبح علم التاريخ جزءاً أساسياً من الثقافة العامة الإسلامية، ولنا أن نتصور أهمية التاريخ بالنسبة لثقافة الفرد والمجتمع من عدد من المؤرخين ومؤلفاتهم. فقد قدرهم شاكر مصطفى في مرحلة النضج هذه بأكثر من خمسة آلاف مؤرخ كتبوا أكثر من اثني عشر ألف كتاب وكل كتاب يتألف من عدة أجزاء أو مجلدات.

٢ - غدا التاريخ مادة أساسية في ثقافة الجهاز الوظيفي (الكتّاب) فظهرت كتب في أدب الكاتب، وخصص قدامة بن جعفر ثلث كتابه (الخراج وصنعة الكتابة) لإيراد معلومات تاريخية. وخصص ابن حمدون جزءاً كاملاً من تذكرته المؤلفة من اثني عشر جزءاً للتاريخ.

٣ - أضحى التاريخ جزءاً مهماً في علم المحدثين والفقهاء يستندون على أخباره وأحداثه في حججهم وأسانيدهم وتشريعاتهم في الفقه والحديث والعقيدة.

٤ - دخلت النزعة التاريخية بعد الإسلام لدى الشعوب التي لم يكن لديها تاريخ مكتوب، أو أن نزعتها التاريخية كانت محدودة تقتصر على القصص والأساطير وباتت شعوب في المشرق وأفريقيا تدون تاريخها بعد انضمامها إلى (دار الإسلام).

٥ - استقرت معالم الفكر التاريخي الإسلامي وباتت لها ثوابت فلسفية محددة، فقد غدت صورة العصر النبوي والراشدي مستقرة في الأذهان على أنها صورة العصر المثالي النموذجي الذي يحتذى به. كما أكد المؤرخون على وحدة

تجارب الأمة وخبراتها ودورها في تماسك الأمة وصيانتها من الضياع وضرورة تعرف الناس عليها. وأكدت كتابات المؤرخين على أن التاريخ الإسلامي هو استمرار للنظام الإلهي الذي أراده الله تعالى وأنه يسير بمشيئته تعالى. وقد اهتمت كتب التاريخ بأهل السيف والقلم مع عدم إهمالها بقية فئات الناس وخاصة الرجال المتميزين في مختلف نشاطات الحياة.

٦ - غالباً ما نظر المؤرخون إلى التاريخ من وجهة النظر الإسلامية مع اعتراف الأمة في هذه الفترة بالأمم الأخرى التي تعايشها.

٧ - لم يعد الحدث التاريخي كما كان في عهد النبي ﷺ تشريعاً يحتذى به بل غدا مجرد حدث سياسي له أسبابه ونتائجه وقيمته: وهكذا لم يعد التأثير الديني قوياً على الكتابة التاريخية. وقد لعبت طبقة الكتّاب دوراً في صبغة التاريخ باللون الدنيوي. وبمعنى آخر أصبح هدف التاريخ تعليمياً سياسياً تربوياً أخلاقياً أكثر منه دينياً، ويتضح ذلك في كتاب مسكويه (تجارب الأمم) وفي كتب التراجم التي شملت البارزين والمتميزين في كل المجالات وليس في مجال العلوم الدينية فقط، كما شملت ذلك غير المسلمين.

٨ - ظلت كتب التاريخ تقدم المادة بشكل وصفي تقريري، وكان عدد المؤرخين المفكرين الذين اتصفت كتاباتهم التاريخية بالتحليل والتفسير والحكم قليلاً.

٩ - أدرك المؤرخون في أواخر فترة النضج هذه سمو الحضارة العربية الإسلامية بجميع معالمها، وأنها في الوقت نفسه بدأت بالتدهور والأفول فأحسوا بضرورة تسجيل كل شيء فشهد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي نشاطاً تاريخياً واسعاً حيث يقدر شاكر مصطفى عدد المؤرخين بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجري بحوالي ثلاثماية وخمسة وعشرين مؤرخاً كتبوا أكثر من ستمائة كتاب في التاريخ بعضها يتألف من أجزاء عديدة.

المبحث الأول

(١) الكتابة التاريخية على نمط التاريخ العام العالمي.

لقد كانت المادة التاريخية اعتباراً من بدايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي غزيرة، فقد اعتمد مؤرخو فترة النضج هذه على مواد متنوعة منها ما كتبه الإخباريون في التاريخ والسيرة النبوية (المغازي) وكذلك السجلات الرسمية الموجودة في دواوين الدولة وما ترجم من اللغات الأجنبية، حيث عملوا على دمجه في صورة متماسكة ابتداءاً من الخليقة حتى العصر الذي عاشوا فيه. ويظهر أثر الثقافات الجديدة التي دخلت في الثقافة العربية الإسلامية في هذه المؤلفات.

أ- أما أهم مؤرخي التاريخ العام الحولي: خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) في كتابه التاريخ، وأبو زرعه الدمشقي (ت ٢٨٠هـ) في كتابه التاريخ، والطبري (ت ٣١٠هـ) في كتابه تاريخ الرسل والملوك، وحمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠هـ) في تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) في الكامل في التاريخ، وأبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) في المختصر في أخبار البشر. وتستمر هذه السلسلة من المؤرخين خلال القرون الإسلامية المتعاقبة حتى تصل إلى ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) في كتابه العبر والسيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء.

❖ أما خليفة بن خياط الليثي العصفري فهو محدث قبل أن يكون مؤرخاً، ولذلك فإن اهتماماته في كتابة التاريخ اختلفت بعض الشيء عن المؤرخين. فقد اهتم بالشهداء في الإسلام واهتم بأسماء موظفي الإدارة والدواوين. ويعد كتابه أقدم كتاب وصلنا عن تاريخ الإسلام، خاصة وأن موارده متنوعة وثرة مثل: ابن إسحاق وابن سعد والمدائني

وأبي عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم.

ولد خليفة بن خياط في البصرة، وتعلم فيها، ولم يرحل عنها ولذلك فإن أكثر شيوخه من البصرة[1]، وولد في عائلة مثقفة فقد كان أبوه وجده ثقة في علم الحديث. ومن شيوخه سفيان بن عيينة وهشام الكلبي وعلي بن محمد المدائني ويزيد بن زريع الذي كان أقرب الناس إليه وأخذ عنه الميول العثمانية التي يمكن أن نجدها في مؤلفاته. لا يذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ويوصف بأنه محترم ومستقيم وثقة. ومن تلاميذه البخاري وأحمد بن حنبل وبقيع بن مخلد.

ومن مؤلفاته كتاب التاريخ[2] الذي يمتد حتى ٢٣٢هـ/ ويبدأ من ٨٤٦م من ولادة الرسول ﷺ وينتقل إلى الفترة المدنية ويترك الفترة المكية. والملاحظ أنه يؤكد على الفترة الأموية ولا يعطي بصورة عامة أهمية للأحداث الداخلية الرئيسية بينما يفصل في العلاقات الخارجية. ورواياته تعطي وجهة النظر المحلية والرسمية، ويجهزها بقائمة للعمال والولاة والقادة وأصحاب الدواوين في كل عهد من عهود الخلفاء، وهنا تكمن أهميته الكبيرة.

ولا يقل كتابه (الطبقات[3]) عن كتابه (التاريخ)، ويعد كذلك أقدم كتاب من نوعه في الطبقات، ذلك لأن طبقات ابن سعد رغم أنها أقدم من طبقات خليفة بن خياط ولكنها غير متكاملة. وهو يعتمد في الطبقات على ابن سعد والبخاري وابن أبي حاتم الرازي.

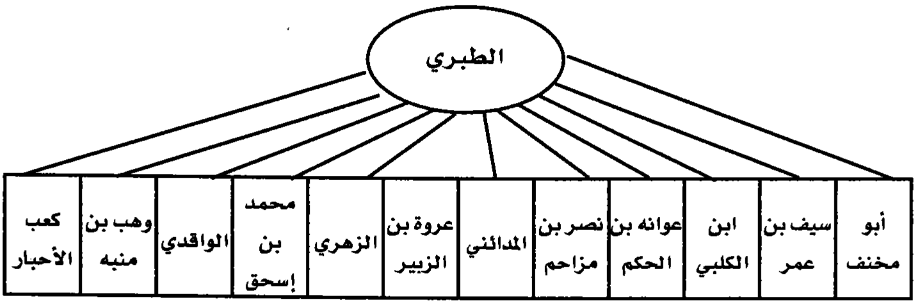
---

(١) عن خليفة بن خياط راجع: البخاري، التاريخ الكبير، بيروت، ١٩٨٦م، مجلد ٣، ج٢، ص١٩٢. ابن النديم، الفهرست، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٨٣. السمعاني، الأنساب، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص٤٢٧، ج٤، ص٢٠٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، بيروت، ١٩٧٨م ، ج٢، ص٢٤٣-٢٤٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، ١٩٨٤م، ج١١، ص٤٧٢. المؤلف نفسه، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، ص٤٥٧.

(٢) خليفة خياط، تاريخ، تحقيق أكرم العمري، بيروت، ١٩٧٧م، وقد حققه سهيل زكار كذلك، دمشق، ١٩٦٧م (راجع مقدمة المحققين في الجزء الأول من النسختين).

(٣) خليفة بن خياط، الطبقات، تحقيق أكرم العمري، الرياض، ١٩٨٢م، (المقدمة). فاروق عمر فوزي، خليفة بن خياط مؤرخاً، بغداد، ١٩٨٨م، ص١٤ فما بعد. انظر كذلك دائرة المعارف الإسلامية، [2] (ص).I. مقالة (خليفة بن خياط).

ويعد أبو جعفر محمد بن جرير الطبري القمة في الكتابة التاريخية العربية- الإسلامية ممثلاً بتاريخه الذي يتضمن تاريخ ما قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي حتى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م. وكان الطبري فقيهاً ومحدثاً ومفسراً وقد ظهرت ثقافته هذه في منهجه في الكتابة التاريخية حيث حرص أشد الحرص على ذكر الأسانيد (سلسلة الرواة) لكل رواية تقريباً ضمنها كتابه، معتبراً السند هو الحكم على الرواية. وقد استقر الطبري في بغداد بعد رحلة طويلة في طلب العلم جاب فيها العديد من البلدان فرحل من الري إلى بغداد ثم البصرة ثم الكوفة والفسطاط ثم عاد إلى بغداد واستقر فيها. وقد أثبت الطبري في تاريخه مجموعة كبيرة من الروايات أخذها من عدد كبير من الرواة والأخباريين والمؤرخين. ففي تاريخ صدر الإسلام مثلاً أخذ الطبري من:



واتبع الطبري منهجاً في الكتابة غلب عليه ذلك أنه في الموضوع الواحد يعتمد على كتاب واحد يوثقه ويعده الأساس ثم يكمله بروايات فردية أخرى. كما ر جع الطبري إلى السجلات والوثائق المحفوظة في الدواوين. ويعد كتاب الطبري أول كتاب كامل وصل إلى أيدينا مكتوباً على طريقة الحوليات (توالي السنين).

وبالنظر لأهمية الطبري وكتابه (تاريخ الرسل والملوك) أو كما يسمى أحياناً (تاريخ الأمم والملوك[1]) فقد رأينا أن نفصل في سيرته وثقافته ومنهجه في التدوين التاريخي. ولم نجد أفضل مما قدمه محققو الكتاب في طبعته المصرية وفي طبعته اللبنانية. فقد

(١) طبع تاريخ الطبري طبعات عدة منها طبعة ليدن ١٨٧٩م، والطبعة المصرية ١٩٦٧م، واللبنانية ١٩٨٩م.

أشار المحققون أن مولد الطبري كان في مدينة آمل بطبرستان، وقد رعاه أبوه وعني بترتيبه. وما لبث أن رحل إلى الري وأخذ عن شيوخها ثم درس الفقه والمغازي والحديث والقراءات في العراق وخاصة الكوفة.

ثم عاد الطبري إلى بغداد، وأخذ في دراسة علوم القرآن، وانقطع إلى أحمد بن يوسف التغلبي المقرئ زماناً، ثم جنح إلى دراسة فقه الشافعي فاتخذه مذهباً، وأفتى به سنوات.

وفي طريقه إلى مصر عرج على بلاد الشام، وأطال أيامه في بيروت على الخصوص، حيث التقى العباس بن الوليد البيروتي المقرئ، قضى منها سبع ليال بالمسجد الجامع، حتى ختم القرآن برواية الشاميين تلاوة عليه، وتابع مسيره إلى الفسطاط حتى بلغها في سنة ثلاث وخمسين ومائتين. وكان أول من لقيه بها أبو الحسن السراج المصري، وكان أديباً متصرفاً في فنون الآداب. وكل من دخل الفسطاط من أهل العلم يتلقاه ويتعرض له، فحينما لقي أبا جعفر، سأله عن فنون من الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر فوجده عالماً في كل ما سأل، آخذاً من كل علم بنصيب وافر.

وطالت أيامه بمصر سنوات، ذهب في أثنائها إلى بلاد الشام، ثم عاد فأخذ من فقه الشافعي عن الربيع والمزني، وأبناء عبدالحكم، ومن فقه مالك عن تلاميذ ابن وهب، وفي مصر أيضاً التقى بيونس بن عبدالأعلى الصدفي، شيخ الإقراء بها فأخذ عنه.

ثم عاوده الحنين إلى بغداد فعاد إليها بعد رحلة طويلة، وعزم على أن ينقطع للدرس والتأليف، وأن يمتنع عن كل ما يصرفه عنهما. ثم ابتنى لنفسه داراً برحبة يعقوب في بغداد، وزع فيها نفسه بين العبادة والقراءة والإملاء والتصنيف، وعاش بها، رضي النفس مرموق المحل، مهيباً من الخلفاء والولاة، رفيع المنزلة والمكانة إلى أن مات يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة، ودفن يوم الأحد بالغداة في داره، قال الخطيب في تاريخ بغداد: "واجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله، وصلى على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب".

وقد جال ابن جرير في نواحي كل فن، وضرب فيها جميعها بسهم، حتى أصبح إمام عصره غير مدافع، قال عبدالعزيز الطبري في شأنه: "كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً على غيرها".

ولكن كان أكثر ما اشتهر به من هذه العلوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات. أما الفقه فقد درس المذاهب جميعها، وفقه الشافعي على الخصوص، واتخذه مذهباً له وأفتى به في بغداد عشر سنين، وقد أدى به البحث إلى الاجتهاد واختيار مذهب انفرد به.

وأما التفسير فإنه قد أفضى بعلمه فيه إلى كتابه الكبير "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" قال أبو جعفر: حدثتني به نفسي وأنا صبي. واشتهر هذا التفسير وطار ذكره في الآفاق، حتى روي عن أبي حامد الإسفراييني الفقيه أنه قال: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً".

وأما في الحديث فقد عده الذهبي من رجال الطبقة السادسة، وذكر النووي أنه في طبقة الترمذي والنسائي، ومن أشهر ما صنف فيه كتاب (تهذيب الآثار).

أما القراءة فقد تلقى حروف القرآن على شيوخ الإقراء في بغداد والكوفة والشام ومصر، وأخذ بقراءة حمزة، تلقاها عن يونس بن عبدالأعلى بمصر، كما أخذ عليه قراءة ورش، ثم لم يلبث أن اتخذ لنفسه قراءة لم يخرج بها عن المشهور.

وكان أيضاً شاعراً، وذكره القفطي في كتاب "المحمدين من الشعراء"، وقال: "كان له رحمه الله شعر فوق شعر العلماء" وأورد له:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي — واستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي — ورفقي من مرافقتي رفيقي

وكان حسن الرأي جميل الطريقة، لا يخلي ليلة من تلاوة القرآن، ولم يقصد فيما ألف حاجة من سلطان.

أما مؤلفاته فكثيرة منها:

١ - آداب المناسك.

٢ - آداب النفوس.

٣ - اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام.

٤ - أحاديث غدير خم.

٥ - البصير في معالم الدين.

٦ - تاريخ الرسل والملوك.

٧ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري).

٨ - الجامع في القراءات.

٩ - صريح السنة، وهو رسالة ذكر فيها مذهبه.

١٠ - كتاب الفضائل.

١١ - كتاب الوقف.

والذي يهمنا في موضوع التدوين التاريخي هو كتاب "تاريخ الرسل والملوك" الذي يعد أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، وساقه في طريق استقرائي شامل، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة، أكمل ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبي والبلاذري وابن سعد، ومهد السبيل لمن جاء بعده، مثل ابن الأثير وابن خلدون وغيرهما.

وقد جاء في تاريخه: "وقيل أقوال في ذلك قد حكينا منها جملاً في كتابنا المسمى "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" فكرهنا إطالة الكتاب". وهذا يعني أنه ألف التاريخ بعد التفسير.

ومن خلال ما ذكر ياقوت في كتابه معجم الأدباء، يكون قد أملى تاريخه بعد سنة تسعين ومائتين، أما انتهاؤه منه فقد ذكر ياقوت أنه فرغ منه سنة ثلاث وثلاثمائة، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة.

بدأ أبو جعفر تاريخه بذكر الدلالة على حدوث الزمان، وأول ما خلق بعد ذلك القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً، على ما وردت بذلك الآثار، ثم ذكر آدم، وما كان بعده من أخبار الأنبياء والرسل، على ترتيب ذكرهم في التوراة، متعرضاً للحوادث التي وقعت في زمانهم، مفسراً ما ورد في القرآن الكريم بشأنهم، معرجاً على أخبار الملوك الذين عاصروهم وملوك الفرس، مع ذكر الأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى مبعث الرسول عليه السلام.

أما القسم الإسلامي فقد رتبه على الحوادث من عام الهجرة حتى سنة ثلاثمائة واثنتين، وذكر في كل سنة ما وقع فيها من الأحداث المذكورة والأيام المشهورة، وإذا كانت أخبار الحوادث طويلة جزأها على حسب السنين، أو يشير إليها بالإجمال ثم يذكرها في الموضع الملائم.

وترجع قيمة الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال ونصوص الشعر والخطب والعهود، ونسق بينها تنسيقاً مناسباً، وعرضها عرضاً رائعاً رائقاً، ناسباً كل رواية إلى صاحبها، وكل رأي إلى قائله، كما أنه أودع كتابه فصولاً صالحة ونتفاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا في هذا الكتاب. ويحتل تاريخ الطبري مكانة عالية في نظر المؤرخين المحدثين فقد

قال عنه هاملتون جب[1]: "ذلك الصرح الشامخ الذي بلغ به التدوين التاريخي ذروته... ولا نجد بعده مصنفاً يأخذ على عاتقه من جديد جمع المواد عن تاريخ صدر الإسلام والنظر فيها، وإنما المصنفون بعده إما نقلة للروايات من تاريخ الطبري (يكملونها أحياناً من كتب البلاذري) وأما مؤرخون يبتدئون من حيث انتهى الطبري". أما عبدالعزيز الدوري[2] فيقول عن كتاب الطبري أنه "يمثل قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب. وقد كان طالب علم لا يعرف الكلل، وعبر في كتابه عن فكرتين أساسيتين في التاريخ: وحدة الرسالات السماوية من جهة، وأهمية خبرات الأمة واتصالها عبر الزمن من جهة أخرى". أما نور الدين حاطوم[3] فيؤكد أن "ثمة إجماع على اعتبار الطبري من أعظم مؤرخينا إن لم يكن في طليعتهم".

ومصادر الطبري في هذا التاريخ هي كل ما سبقه من المواد التي عرفها العرب والمسلمون من قبله وأخذ من كل متخصص في فنه، أخذ التفسير عن مجاهد وعكرمة وغيرهما، ممن نقل عن ابن عباس، ونقل السيرة عن إبان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد وموسى بن عقبة وابن إسحاق، وروى أخبار الردة والفتوح عن سيف بن عمر الأسدي، وحوادث يومي الجمل وصفين عن أبي مخنف والمدائني، وتاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم، وأخبار العباسيين عن كتب أحمد بن أبي خيثمة. وأخذ أخبار العرب قبل الإسلام من عبيد بن شرية الجرهمي ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منبه، وأخبار الفرس من الترجمات العربية من كتب الفرس ولا سيما ابن المقفع وابن الكلبي.

والطريقة التي سار عليها الطبري في كتابه هي طريقة المحدثين، بأن يذكر الحوادث مروية، ويذكر السند حتى يتصل بصاحبه، لا يبدي في ذلك رأياً في معظم

---

(١) جب، دراسات، ص ١٥٦.

(٢) الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص ٥٥.

(٣) حاطوم، المدخل إلى علم التاريخ، ص ٢٩٠ فما بعد. عن الطبري راجع: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص١٨، ص٤٩ فما بعد. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٢، ص ١٦٤. فما بعد. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ١٨، ص ٣٥٦.

الأحيان، وهذه الطريقة التي سلكها في معظم الكتاب، وفيما عدا ذلك ينقل من الكتب، فيصرح باسم الكتاب أو ينقل عن المؤلفين من غير تعيين الكتاب الذي نقل عنه.

وقد كان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين، قالوا: إن سياقة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد البصير، وربما كان عذر الطبري في ذلك هو عذر رواة الحديث، فيذكرون الحديث بطرقه ورجاله، تاركين الحكم للقارئ أمانة للعلم وبراءة للذمة.

هذا وقد أشار الطبري إلى منهاجه هذا والسلوك الذي سار عليه في تاريخه في مقدمة كتابه بنص صريح يقول الطبري: "... وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه.

إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس.

فما يكون من كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى من الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت من ذلك من قبلنا وإنما من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أودي إلينا".

وقد وقع لهذا الكتاب كثير من التكملات والمختصرات والترجمات، ولعل أول من ذيل عليه هو الطبري نفسه؛ قال السخاوي: "وله على تاريخه المذكور ذيل بل ذيل على الذيل أيضاً".

أما الترجمة، فكان أول من قام بها أبو علي محمد بن عبدالله العلقمي إلى الفارسية،

ثم نقلت هذه الترجمة من الفارسية إلى التركية. كما ترجم من الفارسية إلى الفرنسية وطبعت سنة ١٨٧٤م. وقد باشر عدد من المستشرقين في بريطانيا وأمريكا بترجمته إلى الإنجليزية.

ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن مؤلفه تتابع الوراقون في نسخه وتنافس الأمراء والملوك في اقتنائه وعمرت به خزائن الكتب ودور العلم.

- أما عز الدين ابن الأثير الجزري(١) فهو مثال آخر للمؤرخ الذي دون في التاريخ الحولي العام في كتابه (الكامل في التاريخ(٢)). وكان ابن الأثير هو الآخر عالماً بالحديث وبأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم. بدأ كتابه منذ بداية الزمن وينتهي بسنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. اعتمد فيه على الطبري وغيره في الثلاثة قرون الأولى، وانفرد بمعلومات لم يذكرها الطبري. أما في القرون الثلاثة الثانية فقد شمل إضافة إلى المشرق معلومات هامة عن تاريخ المغرب والأندلس. ويوضح ابن الأثير منهجه في مقدمة كتابه الكامل فيقول: " أما بعد فإني لم أزل محباً لمطالعة كتب التاريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها، فلما تأملتها رأيتها متباينة في تحصيل الغرض يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض... فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتباً متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال..". ثم يقول: "إني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه.. فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من

---

(١) عن ابن الأثير راجع: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٦، ص٣٢٨ فما بعد. ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم ٤٣٣، ٥٢٤. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ص٢٦٠ فما بعد. السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، (في روزنثال، علم التاريخ). بروكلمان، المرجع السابق، ج١، ص٣٥٧.

Lewis and Holt. Historians of the Middle east. 88-90. 98 f f.

(٢) طبع كتاب (الكامل في التاريخ) عدة طبعات أقدمها الطبعة الأوربية سنة ١٨٥١ و ١٨٧١م، وصدر في بيروت، ١٩٧٠م في ثلاثة عشر جزءاً.

غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء في مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه". ويستطرد ابن الأثير في كلامه ذاكراً منهجه في الكتابة التاريخية.

يعرف ابن الأثير بالجزري نسبه إلى جزيرة ابن عمر في أعالي نهر دجلة فوق الموصل وتنسب الجزيرة إلى يوسف بن عمر الثقفي والي الأمويين على العراق.

ولد ابن الأثير في عائلة ذات مستوى اقتصادي واجتماعي جيد، فكان أبوه يعمل في الديوان على عهد الزنكيين ويمتلك أراضي وبساتين في إحدى القرى في المنطقة ويعمل بالتجارة، ثم انتقل مع عائلته إلى الموصل وسمع من عدد من الشيوخ هناك. كما قدم بغداد مراراً وسمع من شيوخها في الفقه والتصوف. ثم رحل ابن الأثير إلى دمشق والقدس، وسمع من جماعة من المشايخ، عاد بعدها إلى الموصل وتوفر على النظر في العلم والتصنيف. وكانت له منزلة رفيعة عند الناس وعند السلطان، توفي في الموصل سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م.

لقد ساعد ابن الأثير على تميز كتابه في التاريخ سهولة اطلاعه على السجلات والوثائق، وأخذه كذلك من الموظفين العاملين في دواوين الدولة الزنكية آنذاك. ولذلك امتاز ابن الأثير بشدة التثبت من الحدث ونقده لبعض مصادره ورغم أنه اعتمد في الأجزاء السبعة الأولى على الطبري ولكنه أضاف إلى كتاب الطبري معلومات مثل أخبار الخوارج استمدها من كتب ذكر بعضها ولم يذكر الأخرى فقد ذكر ابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي، كما أنه كان يذكر في آخر كل سنة من توفي فيها من المشهورين من علماء وفقهاء وأعيان وفضلاء وضبط الأسماء المؤتلفة والمختلفة.

وقد طبع كتاب الكامل في التاريخ عدة طبعات، كانت أولها الطبعة الأوربية ما بين سنتين ١٨٥١-١٨٧١م في اثني عشر جزءاً بإشراف المستشرق كارلوس يوهنس تورنبرغ معتمداً حينذاك على عدة مخطوطات محفوظة في باريس وبرلين ولندن واستانبول. وقد استفادت طبعة دار بيروت لكتاب الكامل من الطبعة الأوربية وأضافت إليها وأصدرتها في

ثلاثة عشر جزءاً سنة ١٩٧٠م. ولابن الأثير مؤلفات أخرى في تاريخ الأسر وفي الأنساب سنأتي على ذكرها في أماكنها.

- وقد لخص المؤرخ إسماعيل أبو الفداء الأيوبي (ت ٧٣٢هـ) كتاب ابن الأثير في كتاب سماه (المختصر في أخبار البشر[١]) ثم تابع بعد سنة ٦٢٨هـ فأكمل بقية السنوات حتى ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م وهي سنوات عاصرها أبو الفداء ومن هنا جاءت أهميتها واعتمد فيها على موارد جديدة من المشرق والمغرب. ومع أنه أصبح (صاحب حماة) وحاكماً لها من قبل الملك الناصر فقد استمر في تحصيل العلم والكتابة فيه حيث كتب عدة مؤلفات عدا كتابه آنف الذكر.

- ويعد عبدالرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ) من أواخر المؤرخين الذين كتبوا على نمط التاريخ العام الحولي. وينتسب ابن خلدون[٢] إلى أسرة عربية من حضرموت باليمن، شارك بعض رجالاتها في فتح الأندلس. وقد اتصل ابن خلدون بالعديد من الحكام وذوي النفوذ في المغرب والمشرق الإسلاميين وتقلد مناصب سياسية مهمة، وسجن مرتين بسبب اشتغاله بالسياسة وتقلباتها.

لقد كان ابن خلدون محظوظاً حيث اعتنى به أبوه فحفظ القرآن وتفقه بالقراءات السبع ودرس التفسير والحديث والفقه. درس النحو واللغة على أساتذة تونس المشهورين. وقد ربطت ابن خلدون صداقة بالمؤرخ والأديب الأندلسي الشهير لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر في غرناطة ثم لم تلبث أن ضعفت، فرحل إلى بجاية ثم إلى تلمسان ولم تكن علاقته ودية مع حكامها حيث عانى من النفي والاعتقال فعزم على الاعتكاف في قلعة ابن سلامة حيث انكب على القراءة والتأليف وكتب المقدمة والكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)[٣].

---

(١) عن إسماعيل (أبو الفدا) وكتابه راجع: الذهبي، تاريخ الإسلام، ليدن، ص ٧٦٥. الكتبي، فوات، ج١، ص٧٠. ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧١-٣٧٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٥٨-٦٢.

(٢) عن سيرة ابن خلدون انظر: كتاب ابن خلدون الموسوم (التعريف بابن خلدون) الذي يعد ملحقاً بكتابه العبر. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، الدار البيضاء، ١٩٧١م. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، القاهرة، ١٩٢٥.

(٣) طبعت المقدمة والكتاب عدة طبعات. راجع: مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبدالواحد وافي، الجزء الأول، بيروت.

وفي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م قصد ابن خلدون مكة المكرمة بغية الحج، وتوقف في مصر وفيها مارس التدريس بالأزهر وتقرب إلى السلطة المملوكية ونال منصب قاضي المالكية بالقاهرة. وقد رافق السلطان المملوكي فرج إلى دمشق مع العديد من القضاة للتصدي للغزو المغولي الثاني بقيادة تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ/١٤٠٠م حيث التقى بتيمورلنك ثم عاد بعدها إلى القاهرة وتولى القضاء ومات في السنة التي عاد فيها ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م وهو قاض.

أما مؤلفاته فكان أهمها بالنسبة لموضوعنا كتابه في التاريخ الموسوم (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وظل ابن خلدون ينقحه ويزيد عليه حتى أوصل حوادثه إلى أواخر القرن الثامن الهجري. وترجع أهميته إلى عمقه في شؤون المغرب والبربر بشكل خاص بالإضافة إلى ذكره أخبار المشرق الإسلامي.

وقد اشتهرت (المقدمة) أي مقدمة الكتاب آنف الذكر أكثر من الكتاب نفسه، وكان ابن خلدون نفسه مدركاً أهمية المقدمة منذ أن كتبها خلال خمسة أشهر في قلعة ابن سلامة عند قبيلة بني عريق في الجزائر ثم نقحها بعد ذلك. حيث يقول في أهمية المقدمة: "ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم، نبهت عين القريحة من سُنّة الغفلة والنوم، وسمت التصنيف في نفسي، وأنا المفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتاباً رفعت به عن أحوال الناشئة حجاباً وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً".

كما أشار ابن خلدون في مكان آخر إلى خصوصية مقدمته هذه وعدها حالة إلهام حين يقول: "ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً". ولا شك فإن تجربته السياسية الغنية والفذة والطويلة من جهة وولعه بالقراءة والكتب والعلوم هي التي جعلت منه مبدعاً فيما جاء به من أفكار في المقدمة. ورغم أنه كان يقول: "في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها فقد زاول السياسة والعلم وتردد بينهما سبع مرات".

أما كتاب ابن خلدون الآخر فهو (التعريف بابن خلدون) ويعد كذلك ذيلاً أو ملحقاً بكتاب العبر. وقد ذكر سيرته ورحلاته ومذكراته حتى ٨٠٧هـ أي قبيل وفاته، ويشير صديقه لسان الدين ابن الخطيب في ترجمته لابن خلدون أن له كتباً ورسائل آخرى.

لقد اهتم العديد من الباحثين بمنهج ابن خلدون وفكره التاريخي، كما ظهر ذلك واضحاً في مقدمته، وقد عدّ ابن خلدون التاريخ علماً يعتمد على التعليل والتحليل فيقول: "أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق في القرون الأولى... وهو في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق".

تبدأ مقدمة ابن خلدون بخطبة الكتاب العامة وتليها المقدمة الأصلية لكتاب العبر ويذكر فيها فضل علم التاريخ ومذاهبه، وما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام. وتحتوي المقدمة على عدة أبواب:

الباب الأول: في العمران البشري على الجملة.

الباب الثاني: في العمران البدوي.

الباب الثالث: في الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية.

الباب الرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران.

الباب الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع.

الباب السادس والأخير: في العلوم وأصنافها وطرق التعليم.

الخاتمة ويذكر فيها تاريخ تأليف الكتاب والمدة التي استغرقها في ذلك.

وفي كل أبواب الكتاب يستشهد ابن خلدون بآيات القرآن الكريم وبالشعر العربي وبالأمثال والحكم ويشيد بفضل علم التاريخ من حيث قيامه على البحث العميق والفكر

الدقيق ويعدّه من علوم الحكمة ويؤكد على أهميته بالنسبة إلى كل من يفكر في شؤون المجتمعات. ويرى ابن خلدون أن على المؤرخ أن يكون حذراً عند نقله للأخبار لأن مجال الوضع والتشويه واسع والنفس الإنسانية سهلة الانخداع لما يعتريها من ضعف.

يشيد ابن خلدون ببعض المؤرخين الذين سبقوه مثل المسعودي والطبري، ويعطي أهمية كبيرة لعملية التحقيق والتثبت من الحوادث، وأن أهم ركن من أركان التحقيق هو العلم بطبائع العمران والقوانين الاجتماعية التي تسير الحوادث بموجبها سيراً منتظماً. ويوضح ابن خلدون ذلك بقوله: "إن على المؤرخ أن يتأكد أولاً أن الخبر ممكن وفق قوانين الكون والاجتماع ثم بعد ذلك يبحث في راويته ومدى صدقه من كذبه".

وقد أشار فهمي جدعان[1] إلى أهمية ما جاء به ابن خلدون حول العمران البشري وأطوار الحضارة الإنسانية والأدوار التي تمر بها الدول، ويرى أن ذلك كله لا يمكن فهمه وتقديره حق قدره إلا في ضوء الأخطار التي تعرض لها العالم العربي الإسلامي آنذاك. وقد اعتمدناه عند الكلام عن آراء ابن خلدون في تكوين وانهيار الدول والحضارات. "لقد تمثل أول هذه الأخطار في الحملات الصليبية التي مهد لها بصورة مباشرة أو غير مباشرة زحف ممالك إسبانيا المسيحية بعد انهيار خلافة بني أمية القرطبيين سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م على جنوب الأندلس الإسلامي. ولقد أدى انقسام ملوك الطوائف ـ الذين لا يشفع لهم شيء ـ من ناحية، والضغط المسيحي المدعوم من البابوية من ناحية ثانية إلى سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. وعلى الرغم من أن المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين استطاعوا، في سهل الزلاقة، أن ينزلوا بقوات قشتالة وليون هزيمة قوية ويوقفوا التقدم المسيحي، إلا أن الأمم المسيحية، بقيادة البابوية، عادت لتجمع أمرها وتوسع نطاق هجمتها بشكل أشد ضراوة وعنفاً ولتوجه جيوشها هذه المرة إلى مشرق العالم الإسلامي بحجة الاستيلاء على بيت المقدس والمقدسات المسيحية، وذلك في الوقت نفسه الذي استمر فيه الزحف على الأندلس. ولقد دخلت قوات الصليبيين أرض

---

(١) فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، عمان، ١٩٨٨م، ص ٨١ فما بعد.

العرب والإسلام في خريف عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، فاكتسحت أرض الشام في شعبان ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، ثم اقتحموا أسوار بيت المقدس لترتكب أشنع الجرائم وأفظعها، حتى لقد قيل أنها قتلت سبعين ألفاً من المسلمين ـ ثم لتنشيء بعد ذلك أربع إمارات صليبية في بلاد الشام وشمال غرب العراق، في وقت كان فيه الإسلام وجماعاته مشتتين ودولهم وأمراؤهم سادرين في أهوائهم متقاعسين. ولم يصبح النهوض لحرب الصليبيين بشكل منظم فعال ممكناً إلا مع عماد الدين زنكي أمير الموصل وحلب الذي استرجع عام٥٣٩هـ/ ١١٤٤م إمارة الرها.

وقد واصل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حرب الصليبيين بشجاعة فائقة بين عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م وعام ٥٦٤هـ/١١٦٩م حتى أمكن له توحيد الموصل والشام ومصر بحيث جعل منها جبهة واحدة تاركاً لصلاح الدين الأيوبي عامله على مصر السير في الجهاد والتحرير حتى النهاية وذلك بعد وفاته عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م. وبالفعل تمكن صلاح الدين من جمع معظم بلاد الإسلام تحت لواء واحد اكتسح به قوات الصليبيين، وفي لحظة فذة من لحظات التاريخ. أما الخطر الثاني المتمثل بالزحف المغولي فقد استمر يرافقه التخريب والدمار. لكن المسلمين بقيادة سيف الدين قطز المملوكي ما لبثوا أن ألحقوا بالمغول هزيمة عظمى عند (عين جالوت) قرب بيسان في فلسطين في عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، أي بعد عامين من سقوط الخلافة العباسية. غير أن (أباقا) الذي أصبح حاكم المغول في إيران منذ سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، جند من جديد بعد وفاة هولاكو، جيشاً سار إلى بلاد الشام فدخل حلب وخربها. لكن قواته ما لبثت أن اصطدمت بقوات سيف الدين قلاوون سلطان مصر فاندحرت أمامها اندحاراً ساحقاً عند (حمص) سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م وفر (أباقا) على بغداد ليموت فيها. وعاد الإسلام من جديد ليمتص ـ سلمياً هذه المرة ـ خصومه الذين حطموا عمرانه ومؤسساته وذلك حين انتهى قادة المغول في إيران وتركستان من أحفاد (شغتاي) و(تكودار) و(غازان) إلى اعتناق الإسلام، فزال خطر المغول عن الإسلام عند نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

أما الخطر الثالث فقد جاء من جماعات أتراك ومغول يقودها تيمورلنك (الأعرج)، طرقت أبواب آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). ولم يكن تيمورلنك هذا بأقل نزوعاً إلى التخريب والتدمير من المخربين المغول، فقد بدأ بدولة إيلخانات فارس الذين كانوا من أحفاد جنكيز خان المسلمين وقضى عليها. ثم دخل العراق وخرب بغداد سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م وأنزل بالناس في تكريت مذبحة رهيبة مقيماً هرماً من جثث القتلى. وقد قضى خمس سنوات في بلاد العرب، رحل بعدها إلى روسيا حيث احتل موسكو ثم عاد إلى حلب ليقتل ألوفاً من أهلها، ثم إلى دمشق ليحرق البيوت فيها والمساجد رغم زعمه أنه قد اعتنق الإسلام على المذهب الشيعي. ثم اتجه نحو آسيا الصغرى وهزم السلطان العثماني بايزيد وجيش الإنكشارية الفتي سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م. لكنه ما لبث أن مات بعد سنتين ٨٠٥هـ/ ١٤٠٤م فتداعى ملكه من بعده. أما الترك (العثمانيون) فقد كانت دولتهم في أول عنفوانها، فانطلقوا ينظمون قواهم، حتى إذا ما جاء محمد الثاني فاتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م كانت الدولة البيزنطية قد زالت لتصبح الدولة العثمانية هي قطب الرحى إلى خمسة قرون تالية.

أما بلاد العرب فقد ظلت مثقلة الهموم تشكو التخريب والدمار الذي عفا على عمرانها، وعلى مجدها.

لقد اطلع ابن خلدون على أحداث هذا التاريخ وشهد بنفسه بعض هذه الأحداث حين دخل تيمورلنك دمشق وهو فيها. واطلع كذلك على التاريخ السياسي والاجتماعي لدول الإسلام في المشرق والمغرب متابعاً فيها مراحل البداية والصعود والهبوط. ولقد أذهله حقاً "ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة، من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار

والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن (..) وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة" . ورأى أن هذا التبدل للأحوال جملة يشبه أن يكون "خلقاً جديداً ونشأة مستأنفة وعالماً محدثاً" . وأنه حقاً لمنعطف كوني عظيم يحوج لمؤرخ يدون لهذا العهد أهوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها بحيث يقفو مسلك المسعودي لعصره فيكون أصلاً يقتدي به من يأتي بعده من المؤرخين.

لم يكن ابن خلدون إلا هذا المؤرخ عينه الذي أحوج إليه هذا التطور الكبير في تاريخ العمران. وعلى الرغم من هذا الثناء الصريح على المسعودي، إلا أن ابن خلدون قد وعى تميزه عن كل المؤرخين الذين سبقوه وأحسن بأصالته الشخصية، كما أدرك الفارق العظيم بينه وبينهم، وهو فارق يتمثل في نزعتهم إلى مجرد الإخبار النقلي وهماً أو صدقاً، وفي نزعته هو إلى أن يجعل من التاريخ علماً ذا مبادئ، أي قائماً على بيان علل الأحداث وقوانينها، يقول: ".. فأنشأت في التاريخ كتاباً رفعت به عن أحوال الناشئة حجاباً، وفصلته في الأخبار والاعتبار باباً باباً، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللاً وأسباباً (...) واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعة وأسلوباً، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها حتى تنزع من التقليد يدك وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك" .

ومهما يكن من أمر فإن هذا العلم المستنبط النشأة الذي لم يقف ابن خلدون عليه لدى أحد من الخليقة قبله، والذي ألهمه الله إليه وأعثره عليه، يدور على العمران البشري والاجتماع الإنساني ويتحد بالتاريخ: "أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال: مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال" .

أما العمران فهو "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش".

وللعمران أحوال، كما أن للتاريخ حركة خفية متبدلة قد يذهل عنها الكثير من الناس. وذلك لأن تبدل الأحوال بتبدل الأعصار ومرور الأيام لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة لا يكاد يتفطن لها إلا الآحاد من أهل الخليقة. إن الحقيقة هي "أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول – سنة الله التي خلت في عباده".

ويوحد ابن خلدون بين العمران وبين الاجتماع البشري أو الإنساني، ويرى أن هذا الاجتماع الإنساني ضروري وطبيعي، وما قول الحكماء "إن الإنسان مدني بالطبع" إلا إشارة إلى أنه لا بد للإنسان من الاجتماع المدني الذي هو العمران. فإذا تم هذا الاجتماع وحصل للبشر عمران العالم به كان لا بد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعضهم وذلك "لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم"، أو كما سبق أن قال الطرطوشي لما جبلوا عليه من "حب الانتصاف وعدم الإنصاف"، ولما ثمة من شبه بينهم وبين الحيتان في البحر "يزدرد الكبير منها الصغير". ويستبعد ابن خلدون أن يكون السلاح صالحاً لأن يمثل هذا الوازع، لأن السلاح يمكن لجميعهم، ويرى أنه لا بد أن يكون واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة ويمنع عدوان أحدهم على الآخر، ومن هنا كان الملك غاية للعصبية.

أما وقد أصبح للاجتماع البشري ملك أو دولة هي غاية للعصبية والغلبة فإنه يستطيع بعد ذلك أن يدخل في التاريخ ويستوفي خطواته فيه متنقلاً على وجه التحديد بين طورين عظيمين طبيعيين: هما طور البداوة وطور الحضارة. وطور البداوة في الدولة هو أول الطورين، ويمتاز بالخشونة والشدة والغلبة والبأس. وأصحابه ينتحلون

المعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام ويقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، يقصرون عما فوق ذلك من الحاجي أو الكمالي ويتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر. ذلك أن حصول الترف والنعمة لأهل العمران يدعوهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها. والحضارة هي "التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل مما لا يحتاج إليه طور البداوة. فمن الضروري إذن أن يتبع طور الحضارة في الملك طور البداوة، تماماً كما يلزم الرفه للملك. إذ أن أهل الدول يقلدون أبداً غيرهم ممن كانوا في طور الحضارة قبلهم.

ومن المؤكد في رأي ابن خلدون أن أهل البدو هم أقرب إلى الخير من أهل الحضر، لأن نفس البدوي هي على الفطرة الأولى تتقبل ما ينطبع فيها أولاً من خير أو شر. إن أهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه. أما أهل البدو، وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم، إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عن مذمومات الخلق وعما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها، وهذا يجعل علاجهم أسهل من علاج الحضر. وبكلمة أن "خشونة البداوة قبل رقة الحضارة"، وأن "التمدن هو غاية البدوي"، وأن الحضارة هي "نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر والبعد عن الخير".

هذا هو الإطار العام للتطور الذي يعتري العمران وينتهي به إلى الفساد، لكن ابن خلدون لا يكتفي بهذا الإطار وإنما يقترب اقتراباً أعظم من واقع العمران لينظر في الدولة، التي هي صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة، ويلاحظ أن لها أعماراً محددة وأطواراً لا تتخطاها؛ يقول: "أعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في

الطور الآخر، لأن الخلق تابع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار:

الطور الأول: طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع، والاستيلاء على الملك وانتزاعه، من أيدي الدولة السالفة قبلها، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة بقومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية، لا ينفرد دونهم بشيء، لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب، وهي لم تزل بعد بحالها.

الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك لجدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه. فهو يدافعهم عن الأمر ويصدهم عن موارده ويردهم على أعقابهم (..) فيركب صعباً من الأمر".

الطور الثالث: طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت، فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه، واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وأنصافهم في أعطياتهم لكل هلال حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة، فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة. وهذا الطور آخر أطوار الاستبداد من أصحاب

الدولة لأنهم في هذه الأطوار كلها مستقلون بآرائهم بانون لعزهم، موضحون الطرق لمن بعدهم.

الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بنى أولوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلداً للماضين من سلفه فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء. ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده.

الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخدان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منهاه – مستفداً الكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته (...) فيكون مخرباً لما كان سلفه يؤسسون، وهادماً لما كانوا يبنون. وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برء، إلى أن تنقرض.." .

هذه أطوار للدولة تتحدد بصفاتها الذاتية المميزة: الأول منها ذو طابع عسكري والثاني سياسي قوي، والثالث اقتصادي عمراني قوي، والرابع سياسي ضعيف، والخامس اقتصادي عمراني هرم. لكن هذه الأطوار جميعاً التي تمثل العمران كله من بداوة وحضارة تمتد أيضاً في الزمان امتداداً محدوداً هو أشبه ما يكون بامتداد الإنسان نفسه فيه. بتعبير آخر للعمران البدوي والحضري عمر محسوس "كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً" . وفي رأي ابن خلدون، كما يقول فهمي جدعان، أنه قد "تبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها، وأنه

إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط". وكذلك الحضارة لها في الغالب أجيال ثلاثة لا مزيد عليها، كل جيل منها لا يعدو في عمره متوسط أجل الإنسان:

الجيل الأول: لم يزل أهله على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون.

والجيل الثاني: تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة، من الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى الانفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحماية، فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونون على رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم.

وأما الجيل الثالث: فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبّسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها. فإذا جاء المطالب لهم

لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء، حتى يتأذن الله بانقراضهم، فتذهب الدولة بما حملت.

فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها، ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع.

ويستطرد فهمي جدعان: "وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه الأجيال وتلك الأطوار هي من الأمور التي يمكن تلافيها بشكل أو بآخر، وأن الهرم عند الجيل الثالث أو في نهايته هو مرض حاد لكنه غير مزمن وليس من شأنه أن ينتهي بصاحبه إلى الموت. والواقع أن هذه الأطوار والأجيال هي كلها عند ابن خلدون أمور طبيعية تحدث للدولة بطبعها، أي أن تبدل الدولة وتطورها خاضع خضوعاً لا مفر منه لهذه الأحوال، فنحن بإزاء حتمية صارمة لا سبيل إلى الإفلات منها بأية حال من الأحوال. وهرم الدولة والعمران هو من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها". أما الحضارة فهي "سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة"، ولم يغفل ابن خلدون عن أن كثيراً من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة قد رأى ما نزل بدولته من عوارض الهرم وظن أنها مما يمكن رفعه، فأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاحها حاسباً أن ما لحقها هو من تقصير من قبله من أهل الدولة و غفلتهم. لكن الحقيقة هي أن الأمر ليس كذلك وأن هذا الهرم هو أمر طبيعي للدولة. وينبغي ألا ينخدع أحد بما قد يحدث في بعض الأحيان عند آخر الدولة من قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ومن إيماضة لذبالها، فتلك ليست في الواقع إلا إيماضة الخمود والانطفاء.

أما ما يمنع من تلافي الأمور فيرجع إلى قوة العوائد وضرورة "المحافظة على التقاليد" التي يفرضها المجتمع: "فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في

المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس، إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه، ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة، خشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه".

بتعبير آخر قد يكون تلافي السقوط ممكناً بالرجوع عن طور الحضارة إلى طور البداوة، لكن هذا الرجوع نفسه أمر غير ممكن لأن قسر "العادات" السلطانية والاجتماعية يحول دون ذلك. وإنه لأمر ضروري أن ننبه هنا إلى أن طرح ابن خلدون لهذه المشكلة بالذات ينطوي على نظرة قابلة للمناقشة، وهي إن صدقت على بعض الدول التي عرفها فإنها لا تصدق على أخرى غيرها فضلاً عن تلك التي لم يعرفها. هذه النظرة هي التي يمكن أن ترد إلى العبارة التالية: "الناس على دين ملوكهم"، وهي عبارة استعملها ابن خلدون نفسه حين قال أن "السبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الأمثلة الحكمية: "الناس على دين الملك"، ومعنى ذلك، بحسب هذه النظرة، أنه يكفي، لتغيير طور متأخر من أطوار العمران أو لتلافي الطور الأخير من أطوار الدولة، أن يغير السلطان نفسه عوائده ويلزم المجتمع بها فيتغير الطور أو يتلافى الخطر. لكن لما كانت "العادة" طبيعة ثانية في الإنسان، وفي السلطان بالذات، فقد أصبح أمراً ممتنعاً القيام بعملية التغيير أو الرجوع عن عادات تؤذن بالخراب إلى أخرى ترد إلى الدولة شبابها.

وبمعنى آخر: حيث لا يبدو أن للحتمية البيولوجية أو الاقتصادية أو التاريخية تأثيراً حاسماً، تأتي هذه الحتمية من جانب "العادات" أي تكون حتمية سيكولوجية — اجتماعية من طراز خاص. وفي كل الأحوال تظل جميع الطرق مسدودة، وتكون حركة العمران قد تقدمت فعلاً نحو الأسوأ، ويكون على الدولة أن تفسح لغيرها مكانها في التاريخ. وبطبيعة الحال يكون انقراض الدولة مؤذناً، مبدئياً ، بخروجها إلى من يكون له عصبية قريبة أو بعيدة من عصبية أهل الدولة السابقة، أو من يكون له الغلب لجميع العصبيات، اللهم إلا أن يقع في العالم "تبديل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته، فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل

كما وقع لمضر حين غلبوا على الأمم والدول وأخذوا الأمر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقاباً". إن سير الدولة في طريقة العمران ينتهي بها بصورة لا راد لها إلى أن تكون:

كدود القز ينسج ثم يفنى بمركز نفسه في الانعكاس

لكن ما هي الأسباب الحقيقة للانحطاط أو الفناء؟

إن ابن خلدون يتجنب تماماً تقديم تعليل أحادي لظاهرة الانحطاط وسقوط الحضارة، ومن البين أن تفكيره الواقعي قد ألجأه إلى إيثار كثرة العلل في التفسير على أحاديتها: ونحن نستطيع أن نتبين في المقدمة ثلاثة من الأسباب أو أربعة تفسّر هذا المصير:

السبب الأول اقتصادي: يتمثل في انسياق الدولة إلى الترف والخلود إليه. والواقع أن حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم ليس من عوائق الملك فحسب، وإنما هو مؤذن تماماً بفساد العمران. وهذه قضية يلح عليها ابن خلدون إلحاحاً عظيماً بحيث أنها قد تبدو أخطر أسباب انهيار العمران. ذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران جلبا معهما بالطبع مذاهب الحضارة والتخلق بعاداتها، فتنكسر حدة العصبية وتضعف شوكة الناس ويزداد الإنفاق فترتفع المكوس وتغلو الأسعار وتكسد الأسواق فيختل نظام الدنيا والدين ويفسد حال المدينة على العموم وعلى الخصوص وهذا معنى ما يقال من" أن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب"، إذ أن البساتين وإجراء المياه هما من "توابع الحضارة" الضرورية. أما غرس النارنج والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة فهو من "غاية الحضارة"، وليس يقصد بها في البساتين إلا "أشكالها فقط" كما أنها لا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف، وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه.

السبب الثاني أخلاقي: "إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين

الفساد، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته إما عجزاً لما حصل من الدعة أو ترفعاً لما حصل له من المربى في النعيم والترف. وكلا الأمرين نعيم. وكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري بما فقد من خلق الإنسان بالترف والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضاً بما فسدت به العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس من مكانتها (...) وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة". ويضيف ابن خلدون إلى ذلك القول أن الانهماك في الشهوات والتفنن فيها وارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها يجر إلى فقد الفضائل السياسية، ولا تزال هذه الفضائل في انتقاص حتى يخرج الملك من أيدي أصحابه إلى أيدي آخرين هم خير منهم ـ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾. (سورة الإسراء: ١٦)

السبب الثالث اجتماعي ـ سياسي، حاصل، كالسبب الثاني الأخلاقي، عن السبب الأول الذي هو الترف في العمران، ومرجع هذا السبب الاجتماعي السياسي إلى انكسار سورة العصبية أو انقراضها. فالقبيل الغالب بعصبية إذا ما استولت عليه النعمة ينجر إلى أخلاقها "فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة" ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء".

السبب الرابع سياسي، مرده إلى الاستبداد والظلم، والانفراد بالمجد واستئثار الواحد به هو مما تقتضيه طبيعة الملك في رأي ابن خلدون، لكن استعمال الملك لأغراض دنيوية ونبذ الدين وأحكامه الشرعية وعدم تحري القصد واعتماد الحق في سياسة الرعية هي أمور لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الدعوة لدولة جديدة تحل مكان الدولة القائمة. وكذلك فإن انفراد واحد من ذوي العصبية الكثير بالمجد بحيث "يقرع عصبيتهم

ويكبح أعنتهم ويستأثر بالأموال دونهم فيتكاسلون ويعتادون المذلة والاستعباد" يؤدي بالدولة، عند الجيل الثاني، إلى الهرم. ذلك أن العصبية قد فسدت بذهاب البأس من أهلها. وأخطر من هذا كله "إرهاف الحد" والظلم فكلاهما طريق إلى الفساد والزوال.
وفي نص مشهور سيتناقله الكثيرون ممن جاؤوا بعد ابن خلدون، ومن فصل بعنوان: " في أن الظلم مؤذن بفساد العمران"، يقول صاحب (المقدمة): " اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك. وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب. فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك، لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران وفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الأيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر وخلت دياره وخربت أمصاره وأخل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة (...) ولا تحسبّن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه (....) واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة: من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع – لما أدى إليه من تخريب العمران – كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهماً، وأدلته من القرآن والسنة أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر".

لا شك أن هذه الأسباب التي يرد إليها ابن خلدون فساد العمران وخرابه هي أسباب قريبة أو مباشرة وهي مترابطة فيما بينها ترابطاً قوياً بحيث أن بعضها يتفرع مباشرة عن بعضها الآخر. غير أن علينا أن نتذكر باستمرار أن ثمة وراء هذه العلل الفاعلة ظاهرة كبرى هي ظاهرة التاريخ الصائر المتحول الذي لا يبقى على حال ولا يقف عند مآل. وما "سن الوقوف لعمر العالم في العمران أو الدولة" الذي تمثله حضارة ما إلا نهاية دورة يجعل التاريخ بعدها من نقطة النهاية نقطة بداية لدورة جديدة. فالصيرورة الكونية الشاملة إذن مستمرة على الرغم من أنها لا بد أن تقف، على مستوى خاص، بالنسبة للدول والعمرانات. ثمة، لدى ابن خلدون، وبحسب تعبيره هو نفسه، داخل تيار الصيرورة العام، "انقلابات" عظيمة أو تحولات كونية تزول معها حضارات وأمم وتولد حضارات وأمم غيرها. وهذا الحال صارم كل الصرامة لا سبيل على فك عقدته. فكل عمران إذن وكل دولة أو مجتمع مدني أو تمدّن محكوم في لحظة ما أن يصل إلى غايته، هي عمره أو أجله الطبيعي: طور النشأة البدوية، ثم طور التوسع والنظام والسعة والقوة، وأخيراً طور التحضر والترف والإنتاج الاستهلاكي المنذر بالاضمحلال والانقراض.

أثار منهج ابن خلدون ونظريته ردود فعل متباينة بين الباحثين المحدثين واهتم به المفكرون الأوربيون منذ ١٦٩٧م وترجمت المقدمة إلى اللغات الأوروبية كما نشرت بنصها العربي في أوربا. وكرست له (دائرة المعارف البريطانية) ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة. وأشار محمد عابد الجابري[١] إلى أن "الظاهرة الخلدونية" قد مست قضايا لا تزال حية في وقتنا الحاضر، فالخلدونية يمكن أن ينظر إليها كعناوين لواقع نعيشه ولا نتحدث عنه، ورأى المستشرق فون كريمر في ابن خلدون مؤرخاً لحضارة الشعوب الإسلامية لأنه أول من درس النظم السياسية وأنواع الحكم. أما حاطوم[٢] فيرى أن ابن

---

(١) محمد عابد الجابري، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية، الدار البيضاء،١٩٧١م، ص١٥٨. عن كريمر راجع: حاطوم نور الدين، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الهلال، دمشق، ١٩٨٢م، ص٣٢٧.

(٢) نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص ٣١٢ فما بعد. جب، الجذور الإسلامية...، في دراسات في الحضارة الإسلامية، (مترجم)... (e.I.1) (التاريخ).

خلدون "كان أسبق مؤرخي العالم أجمع إلى النظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدراسة..". ويرى هاملتون جب في مقالته في (دائرة المعارف الإسلامية) أن من المستحيل أن نفي تاريخ ابن خلدون الذي طبقت شهرته أنحاء العالم حقه من المعالجة.

ب- أما النوع الثاني من كتب التاريخ العام العالمي فهو التاريخ المكتوب على الموضوعات، ولعل أبرز من يمثله في هذه الفترة عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه المعارف والدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) في الأخبار الطوال واليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) في التاريخ والجهشياري (ت ٣٣١هـ) في الوزراء والكتاب.

أما ابن قتيبة فقد كان قاضياً في دينور، ثم انقطع إلى التدريس في بغداد، وقد اختلف مع المعتزلة في آرائهم فاتهموه بالزندقة. أما منهجه في التاريخ والذي يظهر في كتابيه المعارف وعيون الأخبار فالأول سرد لحوادث التاريخ العالمي انتهاءً بأيام الخليفة المعتصم العباسي (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) على شكل موضوعات وتبسيطها لكي يعتبر بها ويتعلم منها الناس في عصره وخاصة فئة الكتاب والمثقفين، وهدفه تزويدهم بثقافة واسعة من كل المعارف. وابن قتيبة ينقد مصادره ومعلوماتها ويعطي رأيه الخاص أحياناً. وتتصف مادته بالحياد. ولابن قتيبة مؤلفات أخرى منها أدب الكاتب وينسب إليه كتاب الإمامة والسياسة.

أما أبو حنيفة الدينوري فقد أكد في (الأخبار الطوال) على دور العرب والفرس مستفيداً من التراث الفارسي، مثلما استفاد من التراث العربي والإسرائيليات. ويبدو اهتمامه واضحاً بالفرس وآل ساسان وأخبار خراسان وما إلى ذلك. وقد أكد على موضوعات من التاريخ وفصل فيها دون أخرى.

ويعد كتاب التاريخ لليعقوبي من المؤلفات المهمة التي أكدت على فكرة التاريخ العالمي. ومع إبرازه موضوعات معينة فقد راعى التسلسل التاريخي للحوادث مبتدأ بخلق العالم ومنتهياً في عهد الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٩هـ/٨٧٢م) مستخدماً الإسناد الجمعي، منتقداً العديد من الروايات ذات الطابع الاسطوري وخاصة في التاريخ

الساساني. أما كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري فهو المؤلف الوحيد الذي بقي من مؤلفاته. ويعد من أهم الموارد عن الوزراء وكتاب الدواوين منذ بدء الدولة الإسلامية حتى ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م. وقد استفاد الجهشياري من موقعه في الإدارة العباسية فاعتمد على سجلات الدواوين والوثائق الرسمية. وقد استفاد عدد من المؤرخين المتأخرين مثل ابن خلكان وياقوت الحموي والصفدي من كتاب الجهشياري.

وسنكتفي بإيراد تفاصيل عن اثنين من هؤلاء المؤرخين وهما: اليعقوبي والجهشياري.

أما اليعقوبي[١]: فهو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح الأخباري العباسي، وقد لقب بالمصري والأصبهاني والكاتب اليعقوبي. ومن ملاحظة هذه الألقاب نرى أنها جاءت إما نسبة إلى قطر معين كمصر، أو إلى مدينة كأصبهان، أو جاءت من مهنته التي اشتهر بها وهي الكتابة. أما لقبه اليعقوبي، والذي عرف به فربما جاءه عن أبيه أبي يعقوب إسحاق. ومن المحتمل أن اسم أبي يعقوب تحول بمرور الزمن إلى اليعقوبي. ولشهرته العلمية وشهرة عائلته في مجال السياسة غلبت عليه هذه التسمية. ولقب أيضاً بالإخباري نسبة إلى تعاطيه الأخبار.

وقد عرف اليعقوبي بكنى عديدة، فهو يكنى بابن واضح نسبة إلى جده الأعلى واضح الذي كان من موالي الخليفة المنصور العباسي، والذي شغل منصب إداري أيام المنصور والمهدي والهادي.

ويحمل اليعقوبي نسب العباسي نسبة إلى البيت العباسي الحاكم. وجاء هذا النسب عن جده واضح الذي كان من موالي المنصور، ومن المقربين إليه. وكان قد تقلد مناصب إدارية إذ عين والياً على أرمينيا وأذربيجان، كما عين أيضاً على مصر في عهد الخليفة المهدي العباسي.

---

(١) عن ترجمة اليعقوبي راجع: ياقوت الحموي، إرشاد الأديب، ج٢، ص ١٥٦. دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة) مادة (Yaqubi). مارجليوث، محاضرات، كلكتا، ١٩٣٠م، ص ١٣٥ فما بعد (بالانجليزية).

نشأ اليعقوبي في بغداد وترعرع في كنف عائلة كانت ذات شأن في المجال السياسي والإداري، وكان أفرادها من المقربين للأسرة العباسية الحاكمة. ولذا فإن عائلة اليعقوبي كانت تعيش في مستوى معاشي جيد. وقد انعكست آثار هذا المستوى على أفراد العائلة. لذلك يكون اليعقوبي والحالة هذه قد عاش في بيئة متنعمة أولته الرعاية والاهتمام. وأولى مجالات العناية هي التعليم، خاصة وأن عصره الذي عاش فيه كان للعلم المكانة المرموقة في المجتمع. وقد أثمر ذلك الجهد فيما بعد في اليعقوبي حيث أصبح اسمه لامعاً في المجتمع.

أولى العباسيون عائلة اليعقوبي ثقة كبيرة حيث أناطت بأفرادها أهم المراكز الإدارية، كإدارة الأقاليم ومهمات البريد، وشمل ذلك اليعقوبي، كما انعكس ذلك أيضاً في ثقة المعلومات التي أوردها. خاصة الإحصائيات والكتب الرسمية والوثائق التي لا يمكن أن تصدر إلا من قبل موظف له اطلاع مباشر على أسرار الدولة وسجلاتها.

لم يمكث اليعقوبي في بغداد كثيراً حيث غادرها إلى أرمينيا في خدمة الطاهريين، وربما كانت مغادرته المبكرة بغداد لتبلور فكرة التعرف والاطلاع على أخبار البلاد لديه، وربما أذكى هذا الشوق عنده قصص والده عما صادفه وما لاقاه في أثناء قيامه بوظيفة (عامل البريد)، وحديثه عن أوضاع المناطق التي كان يصفها مما حرك الرغبة عند اليعقوبي برؤية تلك الأماكن. وقد يكون أيضاً صاحب والده في بعض تلك المهمات التي كانت تناط به بحكم وظيفته في نقل الأخبار بين مركز الخلافة وبين الولايات الإسلامية. كل ذلك نمى عند اليعقوبي الرغبة في السفر للسياحة وطلباً للمعرفة من مظانها وذلك من وقت مبكر، لذلك نرى اليعقوبي يقول في مقدمة كتابه البلدان: "إني عنيت في عنفوان شبابي، وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان"، مما يدل على أنه كان كثير السفر والترحال.

واضحاً أن الجد الأعلى لليعقوبي كان متشيعاً، حتى أنه ضحى بحياته نتيجة لذلك، فحين كان مسؤولاً عن بريد مصر قام بتهريب إدريس بن عبدالله ابن الحسن العلوي إلى

المغرب، وقد دفع حياته ثمناً لهذه المساعدة. وظلت تلك الميول في اليعقوبي لكنها كانت معتدلة. ونستطيع أن نلاحظها من خلال كتاباته فتكون أكثر وضوحاً في تاريخه، حيث نجده قد أسهب في ذكر أقوال الأئمة العلويين عند ذكر وفياتهم، وحيث تطرق إلىٰ إسلام الإمام علي فصل فيه. ولما مر بخبر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر ذكر بأن الأمر كاد يتم لعلي لأقدميته في الإسلام ولأفضلية بني هاشم على غيرهم. وتطرق أيضاً إلى خبر جمع القرآن من قبل علي، وأقوال علي في نزول القرآن، وفصل في وفاة الحسين بن علي، كما استدل بعضهم من خلال بعض أقواله على وجود ميول معتزلية عند اليعقوبي، وقد تولد هذا الاعتقاد من وصف اليعقوبي لمذهب المعتزلة (بالتوحيد) وذلك حين يقول: وامتحن الخليفة الواثق في خلق القرآن.... وأن لا يجيزوا إلا شهادة من قال بالتوحيد". وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة.

ولكن دراسة تاريخية توضح أنه لم يؤيدهم بل ربما كان يتعاطف معهم، لدعوتهم إلى حرية الإرادة والرأي ولوجود علاقة بنيهم وبين مذهبه في التشيع.

ويمكننا أن نقول بأن منهج اليعقوبي من خلال مؤلفاته في التاريخ كان يمثّل بالنسبة لعصره نهجاً جديداً سواء في اختياره المادة التاريخية أو في تنظيم معلوماته. ويرى حسين عامي أن اليعقوبي[1] "رسم بداية متواضعة في الاتجاه الرامي إلى منح التاريخ نوعاً من الاستقلالية عن علم الحديث والفقه..".

لقد اتسع اليعقوبي في تاريخ المظاهر الحضارية والثقافية، وابتعد عن الإسناد لكل رواية من الروايات، وإنما جمع مصادره في أول الكتاب. وكانت خطته في الأخبار هو الإيجاز والابتعاد عن الإطالة، كما اقتصد في إيراد الأشعار وأبدى اهتماماً ملحوظاً في الجوانب الثقافية والجغرافية والفلكية متخذاً في كل تلك "الموضوعات" أساساً في تنظيم مادته وخاصة في تاريخ ما قبل الإسلام وفي صدر الإسلام. أما في تاريخ العصرين الأموي والعباسي فقد سار على تتابع العهود لكل خليفة مختاراً كذلك موضوعات محددة.

---

(١) حسين عامي، اليعقوبي، عصره وسيرته، بيروت، ١٩٩٢م.

أما أسلوبه في تاريخه وسائر كتبه فيتميز بالطراوة ويخلو من التزويق اللفظي والصنعة البيانية والبلاغية اللتان تبعدان الكاتب عن الدقة. إن أسلوب اليعقوبي واضح كاسمه (ابن واضح) دون استطراد في ذكر الأحداث.

أما مؤلفاته فكثيرة لأنها كانت نتاج ثقافته الواسعة والمتنوعة وصبره على البحث. وقد أورد ياقوت الحموي في معجمه قائمة نختار منها: التاريخ والبلدان ومشاكلة الناس لزمانهم، وله كتاب مفقود في (فتح إفريقية).

وقد أشرنا إلى منهجه في كتابه (التاريخ[1]) وما احتواه من معلومات تاريخية قبل الإسلام وبعده بحيث غدا في مصاف كتب التاريخ العام العالمي. ونشير هنا إلى كتابه الثاني في التاريخ وهو (مشاكلة الناس لزمانهم)، وهو كتاب صغير على شكل رسالة تمثل نظرة مقتضبة حول عهود الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتى الخليفة العباسي المعتضد. وقد قدم اليعقوبي فيها نماذج مختلفة من التقاليد التي سار عليها الناس، وكان الأصل فيها تقليد الخلفاء. وفي ذلك يقول اليعقوبي: "فأما الخلفاء وملوك الإسلام فإن المسلمين في كل عصر تبع للخليفة يسلكون سبيله ويذهبون مذاهبه ويعملون على قدر ما يرون منه ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله".

واليعقوبي كعادته لم يستخدم الإسناد في هذه الرسالة حين يتناول تقاليد الخلفاء التي اتبعت، لذلك يتعذر معرفة أصول هذه النقول.

ويعود الفضل في معرفة هذه الرسالة إلى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية الذي ذكرها في فهرس المخطوطات المصورة. وكانت إحدى رسائل ثلاث تضمنها مجموع محفوظ في مكتبة مراد ملا وتبدأ بالصفحة (٧٩ب) وتنتهي بصفحة (٨٦ ب).

ويعود تاريخ هذه الرسالة إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). على

(١) وقد طبع تاريخ اليعقوبي عدة طبعات منها الطبعة الأوربية. كما طبع في النجف بالعراق وفي بيروت ١٩٦٠م.

الأرجح، وقام بتحقيقها المستشرق وليم ملورد، وتحتوي الرسالة على إحدى وأربعين صفحة من ضمنها المقدمة في اللغة العربية وفهرس الأعلام والأماكن مع مقدمة بالإنجليزية تضم ست صفحات وصدرت عن دار الكتاب الجديد في بيروت ١٩٦٢م.

أما وفاته فقد اختلفت الأقوال في تحديدها، فقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه أنه توفي سنة أربع وثمانين ومائتين للهجرة، واعتمدت معظم المراجع الحديثة هذا التاريخ. والملاحظ أن اليعقوبي اختتم (تاريخه) بالخيفة العباسي المعتمد على الله ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م وأنه أنجز كتابه البلدان ٢٧٨هـ/ ٨٩١م ولكن اليعقوبي اختتم كتابه (مشاكلة الناس لزمانهم) بالخليفة المعتضد العباسي ٢٨٩هـ/٩٠٢م. وأرفقت الطبعة الأخيرة لكتاب البلدان ملحقاً ذكر فيه اليعقوبي شعراً نظمه بعد سقوط الطولونيين في مصر مما جعل بعض المؤرخين يقولون أنه توفي ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م.

أما الجهشياري فهو النموذج الثاني الذي اخترناه ضمن هذا النمط[1]. وهو أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري من طبقة محمد بن جرير الطبري والمسعودي، ومن أبرز المؤرخين الذين أكثر المؤلفون في النقل عن كتابه (الوزراء والكتاب).

نشأ الجهشياري بالكوفة وتلقى العلوم هناك، ثم انتقل إلى بغداد وانتظم في وظائف الدولة العباسية ودواوينها. وكانت الإدارة العباسية قد دخلت مرحلة التدهور بسبب تدخل القادة العسكريين الترك في إدارة الدولة وجباية الضرائب، وبسبب تسلط النساء على الخلفاء وخاصة في عهد الخليفة العباسي المقتدر. وقد أدى ذلك كله إلى قيام الاضطرابات والفتن الداخلية.

ولما كان الجهشياري واحداً من موظفي الإدارة وكتابها فقد ناله من آثام تلك السياسة الفاسدة ما نال موظفي الدولة من اعتقال ومصادرة للأموال، خاصة وأن أباه كان كذلك موظفاً كبيراً في الدولة ومن صنائع وزراء ذلك العهد. كان الجهشياري من أرباب القلم والسيف، وقد اعتمد عليه وزراء أمثال علي بن عيسى آل الجراح وابن مقله

---

(١) عن ترجمة الجهشياري راجع (مقدمة) كتاب الوزراء والكتاب، القاهرة، ١٩٨١م.

وغيرهم في مسؤوليات كبيرة مثل إمرة الحج وقيادة الحملة ضد القرامطة[١].

أما مكانته العلمية والأدبية فيقول المسعودي عنها في (مروج الذهب)[٢]: "وقد صنف أبو عبدالله بن عبدوس الجهشياري أخبار المقتدر في ألوف من الورقات.. وأخبرني غير واحد من أهل الدراية أن ابن عبدوس صنف أخبار المقتدر في ألف ورقة".

وقد عده ابن النديم في الفهرست[٣] أحد الكتاب المترسلين وله من الكتب كتاب الوزراء والكتاب وكتاب ميزان الشعر والاشتمال على أنواع العروض. ويستطرد ابن النديم قائلاً إن الجهشياري ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من (أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم) كل سمر قائم بذاته بجزء واحد لكل ليلة فاجتمع له أربع مائة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة أقل أو أكثر، ولكن المنية عاجلته قبل استيفاء ما في نفسه من تتمة ألف سمر.

أما كتاب (الوزراء والكتاب) فهو من أقدم المصادر التاريخية وأشهرها، ركز فيها على الوزراء في الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وقد نقل عنه العديد من المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الصولي في الأوراق وابن النديم في الفهرست وابن الأثير في الكامل ثم ياقوت الحموي وابن خلكان والصفدي في تراجمهم. ويرى المحققون أن القسم الذي نشر من الكتاب ربما يكون ناقصاً وأن الكتاب بأكمله لم يعثر عليه بعد، وينتهي الكتاب مع نهاية العصر العباسي الأول تقريبا في عهد الخليفة المأمون العباسي وقد ضاع قسم منه بما في ذلك عهد الخليفة المقتدر.

يبدأ الجهشياري مقدمته على الشكل التالي: "قال أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتابه المصنف في أخبار الوزراء والكتاب: "روي عن كعب الأحبار أنه

---

(١) راجع: (مقدمة) المحققين لطبعة الوزراء والكتاب للجهشياري، القاهرة، ١٩٣٨ وطبعة ١٩٨١م.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، بيروت، ١٩٧٣م.

(٣) ابن النديم، الفهرست، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

قال: أول من وضع الكتاب السرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاث مئة سنة، ثم كتبها في الطين، ثم طبخه، فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من الغرق، وجد كل قوم كتابهم فكتبوه، فكان إسماعيل وجد كتاب العرب.

ورُوى : أن إدريس أول من خط بالقلم بعد آدم.

ورُوى أن أول من وضع الكتاب بالعربية إسماعيل بن إبراهيم؛ وكان أول من نطق بالعربية، فوضع الكتاب على لفظه ومنطقه".

إن نظرة نقدية لكتاب (الوزراء والكتاب) تكشف أهميته الاستثنائية، فهو يعطينا نظرة من الداخل للإدارة العباسية والبلاط مستقاة من موظفين مسؤولين وكذلك من خبراته هو في الإدارة والسياسة. وعدا أهميته الإدارية الواضحة فهو يعطينا كذلك معلومات عن الأحوال السياسية وخاصة التكتلات والقوى السياسية والمؤامرات والصراع بين العرب والموالي والخراسانية والصحابة يمكننا من خلالها أن ندرك بأن العديد من الوزراء سقطوا بسبب هذه الدسائس التي حيكت ضدهم.

والكتاب بعد ذلك واحد من الكتب التي كتبها موظف في الإدارة العباسية حيث شغل هو وأبوه مناصب في تلك الإدارة، ولذلك فإن رواته غالباً ما يختلفون عن رواة الطبري وأكثرهم من الوراقين والكتّاب (الموظفين)، إلا أنه يأخذ معلومات من مؤرخين وأدباء سبقوه أمثال المدائني والجاحظ.

ج- أما النوع الثالث من كتب التاريخ العام العالمي فهي الكتب التي اهتمت بالتاريخ الحضاري (تاريخ الثقافة والنظم) وإبراز مظاهره وجعلت الناس محور اهتمامها، فقد كانت فئة من هؤلاء المؤرخين من الموظفين الكبار في الدولة أو ضمن حاشية الخليفة أو رجال السلطة، فاستفادوا من وثائق وسجلات الدواوين الرسمية بحكم مركزهم ومنهم المسعودي ومسكويه وإبراهيم بن هلال الصابي والبيروني والصولي.

أما المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) فكان كثير الرحلة والسفر إلى بلدان دار

الإسلام، ألف بعدها كتباً عديدة منها (أخبار الزمان وما أباده الحدثان) في ٣٠ مجلداً لم يبقى منه إلا الأول، والتاريخ الأوسط الذي ضاع ، ثم التنبيه والأشراف، ومروج الذهب. ويعد كتابه الأخير نموذجاً لمنهجه في الكتابة التاريخية فقد وضع تاريخاً عالمياً على شكل دوائر سماها أبواباً منذ الخليقة حتى سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م وضمنه العديد من الأمور الجغرافية والبشرية والفلكية والطرائف والخوارق فهو موسوعة تاريخية. وقد أعجب ابن خلدون بالمسعودي وعدّه "إمام الكتاب والباحثين".

ويأتي مسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) ضمن هذه الفئة التي اعتنت بالتاريخ الحضاري للإنسان عاش في الفترة البويهية واتصل بالوزير المهلبي وابن العميد وابنه أبي الفتح وكلهم وزراء للملوك البهويهيين. وكتابه (تجارب الأمم) يهتم بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، واعتنى بالأخلاق والحكمة التي أخذها عن العرب والفرس والهنود واليونان.

وكان الصولي (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) نديماً لخلفاء عباسيين متتابعين لما تمتع به من ثقافة واسعة ومتنوعة وقد ألف كتابه الموسوم (الأوراق) ركز فيه على سياسات الحضرة الخلافية وما يدور خلف الكواليس، كما اهتم بالنشاط الأدبي لكبار شعراء وأدباء تلك الفترة.

أما إبراهيم الصابي (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) فقد شغل وظيفة كاتب الإنشاء للخليفة العباسي وللملك البويهي ثم تقلد ديوان الرسائل. وقد كتب كتابه (التاجي) بناءاً على طلب عضد الدولة البويهي. وله كذلك كتاباً باسم (منشئات) الصابي وهي الرسائل والتوقيعات والمنشورات الرسمية التي كتبها للمسؤولين في الدولة. ولا يزال الكتاب مخطوطاً في دار الكتب المصرية.

واهتم البيروني (ت ٤٤٠هـ/ ١٠١٣م) في كتابيه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) و(تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) بتاريخ الثقافة إضافة إلى اهتمامه بالفلك والرياضيات والنجوم. ويعد البيروني متنوع المعرفة ورجع إلى مصادر

سنسكريتية، حيث قضى في الهند ما يناهز الأربعين سنة وقد انتقد المسعودي لأنه أخذ بعض رواياته من الناس شفاهاً ودونها في كتبه، مما يدل على أن البيروني كان محققاً يتثبت من مصادره بدقة وحرص.

ورغم أنه جاء متأخراً فيمكن أن نشير إلى المقرّيزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) ضمن مؤرخي التاريخ الحضاري من خلال كتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) والذي يسمى أحياناً بالخطط المقرّيزية. وهذا الكتاب يمثل الذروة في تدوين خطط مصر وسككها وأحيائها والتطورات التي طرأت عليها منذ تأسيس الفسطاط المصر الأول ثم بناء العسكر في العصر العباسي الأول ثم القطائع في زمن الطولونيين ثم القاهرة الفاطمية. كما يتناول الحياة الاجتماعية وما طرأ من عمران وخراب وفيضانات ومجاعات وأمراض في هذا الإقليم. وقد عده هاملتون جب ضمن المجموعة العظيمة من المؤرخين المصريين الذين ظهروا قبل القرن الأخير من عصر المماليك. على أننا سنفصل في هذا المحور الكلام عن ثلاثة من المؤرخين الأوائل البارزين وهم: المسعودي ومسكويه والبيروني.

والمسعودي هو أبو الحسن علي بن الحسين[1] وقد اكتسب لقبه هذا لكونه من ذرية عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ولد ببغداد وهو من أتباع المنهج التاريخي الجديد الذي يؤكد على التاريخ الحضاري للأمم من العرب والأعاجم، ويستخدم المعلومات الجغرافية جنباً إلى جنب مع الأخبار التاريخية، كما أنه اكتفى بذكر قائمة بالأخباريين الذين أفاد منهم وحذف الأسانيد. وقد حاول المسعودي أن يقدم فلسفة للتاريخ والكون في كتابه (التنبيه والأشراف).

كان ابن خلدون أكثر المؤرخين المعجبين بالمسعودي وقد مدحه في مقدمته، أما المؤرخين المحدثين فقد عده فون كريمر[2] (هيرودوت العرب) بسبب حبه للمعرفة

---

(١) عن ترجمة المسعودي راجع: ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٩٤. ابن النديم، الفهرست، ص٢١٩. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٢، ص٣٧١. انظر كذلك: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، ص٣١٣.

(٢) فون كريمر، عن حاطوم، المرجع السابق، ص٢٩٥ فما بعد.

وتحمل التعب والرحلة من أجل جمع المعلومات وتدوينها. وقال شاكر مصطفى[١] أن المسعودي يمثل خلاصة الفكر العربي الإسلامي في أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نتيجة ثقافته الموسوعية وعقله الملحاح في الاطلاع. ويرى فيه حاطوم[٢] أنه في طليعة المؤرخين الذين اعتمدوا على الجغرافية حيث يلتقي فيه المؤرخ والجغرافي فهو ينظر إلى الأمور بعين المؤرخ ويتأملها في الوقت نفسه بلواحظ الجغرافي. أما هاملتون جب فيقول: "ومن حق المسعودي أن يعد من أعظم المؤرخين العرب ولكن ضياع مؤلفاته الأصلية المسهبة التي لم يصلنا منها إلا مختصرات يجعل من العسير علينا أن نكون فكرة دقيقة عن منهجه"[٣]. ويرى فرانز روزنتال فيه المؤرخ المعبر "عن نظرة تاريخية عالمية بحق"[٤].

لا نعرف عن السيرة الشخصية للمسعودي إلا الشيء القليل فقد نشأ في بغداد ثم سافر إلى مصر. ثم رحل في طلب العلم ورغبة في التعرف على أحوال البلدان فطاف فارس وكرمان، ثم قصد الهند إلى ملتان ثم سرنديب ـ سيلان ـ ثم ركب البحر إلى الصين ثم طاف في البحر الهندي إلى مدغشقر ثم عمان، ثم ذهب إلى أذربيجان وجرجان، ثم عاد إلى بلاد الشام وفلسطين وأنطاكية واستقر أخيراً في مصر ونزل الفسطاط وتوفي فيها.

أما أشهر مؤلفاته فهي:

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر: هو أشهر من أن يعرف لشيوعه، وقد طبع مراراً في جزءين، وصف في الأول منهما الخليقة وقصص الأنبياء مختصراً، ثم وصف البحار والأرضين وما فيهما من العجائب، ويدخل في ذلك تواريخ الأمم

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٥٤. راجع كذلك: نشأت الخطيب، التصور التاريخي عند العرب المسلمين حتى سقوط بغداد، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٨٩.

(٢) حاطوم، المرجع السابق، ص٢٩٥. حسين عاصي، أعلام مؤرخي العرب والإسلام، بيروت، ١٩٩٣م، ص٤٦.

(٣) جب، دراسات، ص ١٥٥.

(٤) روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، (مترجم)، بغداد، ص١٨٧-١٨٨.

القديمة من الفرس والسريان واليونان والرومان والإفرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وأوابدهم وأطوال الشهور والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرها، ثم عطف على تاريخ الرسالة الإسلامية من ظهور النبي إلى مقتل عثمان، وذكر في المجلد الثاني تاريخ الإسلام من خلافة علي إلى أيام الخليفة المطيع لله العباسي.

ويظهر مما جاء في مقدمته أنه نقل هذا الكتاب عن عشرات من الكتب التاريخية وغيرها كانت موجودة في أيامه لم يصلنا منها إلا بضعة قليلة كتاريخ الطبري وفتوح البلدان للبلاذري، وأما الباقي فقد ضاع، وفيه عشرات من كتب التاريخ والسياسة والاجتماع، وفي خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لا نجدها في سواه، ولذلك فقد عني المستشرق بار بيه دي مينار بنقله إلى اللغة الفرنسية، وطبع في باريس سنة ١٨٧٢م في تسع مجلدات. وقد انتقد هذه الترجمة عبدالله المراكشي في مجلة الضياء "سنة ٢". ونقله إلى الانجليزية سيرنجر، وطبع الجزء الأول من ترجمته في لندن سنة ١٨٤١م.

(٢) كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الغابرة والممالك الدائرة: وهو كبير طويل مثل اسمه، يدخل في ٣٠ مجلداً، وقد أكثر المسعودي من الإشارة إليه في مروج الذهب – إذا اختصر الكلام في باب قال: "وقد فصلنا ذلك في كتابنا أخبار الزمان" – لكن هذا الكتاب ضائع الآن، وليس منه إلا الجزء الأول في مكتبة فينا.

(٣) الكتاب الأوسط: هو وسط بين الكتابين المتقدمين، وقد ضاع أيضاً، ولكن في مكتبة أكسفورد نسخة يظنون أنها هو، ويظن بعض الباحثين أنه وقف على شيء منه في بعض مكاتب دمشق.

(٤) كتاب التنبيه والإشراف: أودعه لمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها، وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها

والرياح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها، والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان، وحدود الأقاليم السبعة والعروض والأطوال ومصاب الأنهار، وذكر الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم، والروم وأخبارهم، وجوامع تواريخ العالم والأنبياء، ومعرفة السنين القمرية والشمسية، وسيرة النبي وظهور الإسلام، وسير الخلفاء وأعمالهم ومناقبهم إلى سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م وفيه أشياء كثيرة لا توجد في غيره من كتب التاريخ، وقد طبع في ليدن سنة ١٨٩٤م في سلسلة المكتبة الجغرافية في ٥٠٠ صفحة، كما طبع بعد ذلك في مصر مرتين.

وللمسعودي كتب تاريخية أخرى ولكنها مخصصة للإمام علي بن أبي طالب وآل البيت[(١)]. من هنا يمكننا تصنيف مؤلفاته إلى محورين:

الأول: يضم كتباً ذات طبيعة معرفية ثقافية حضارية شمولية في إطار تاريخي جغرافي وهي الكتب التي أشرنا إليها سابقاً.

الثاني: كتب تاريخية مخصصة لآل البيت وتضم مؤلفات من أمثال: كتاب الزاهي في علي بن أبي طالب، والفتنة، وكتاب حدائق الأذهان في أخبار أهل بيت النبي وتفرقهم في البلدان وغيرها.

والمسعودي يعتز بكتبه ويحرص عليها ولذلك نراه ينهى عن التصرف بها تحريفاً أو تصحيفاً فيقول: "فمن حرف شيئاً من معناه أو أزال ركناً من مبناه أو طمس واضعه من معالمه أو ألبس شاهده من تراجمه أو غيره أو بدله أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سواه وافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفواح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحاوله صبره وجعله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين"[(٢)].

(١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، ١٩٧٨م، ج١، ص٤٠٤. أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٠٦.

(٢) راجع (مقدمة) المحقق، مروج الذهب، بيروت، ١٩٨٨م.

أما موارد المسعودي التي اعتمد عليها في تأليف كتبه، فلعل أولها المعلومات الثرة التي حصل عليها من رحلاته المتواصلة شرقاً وغرباً براً وبحراً، وهي أخبار تصدر عن شاهد عيان فيها الكثير من دقة الملاحظة. أما ثانيها فهي ما تحصل عليه من طريق شيوخه وعلمائه أثناء شبابه في العراق، وكذلك العلماء الذين قابلهم أثناء رحلاته. أما ثالثها فهي الكتب الكثيرة والمتنوعة التي قرأها واقتناها فقد رجع إلى الكتب الدينية المقدسة وإلى المصنفات اليونانية لمختلف العلوم العقلية والتي نقلت إلى اللغة العربية من قبل النقلة ابتداءاً من مطالع العصر العباسي وكذلك المؤلفات العربية في التاريخ والفلك والجغرافيا وغيرها. وكان يأخذ منها المعلومات والأخبار التي تتعلق بالحضارات وتعاقبها لأن الموضوع الحضاري كان هدفه في التدوين التاريخي سواءاً كان ذلك في اختيار مادته التاريخية أو في تنظيمها، وأكثر من ذلك فقد كان يذكر الأحداث بالسنة والشهر واليوم وكثيراً ما استخدم هذه الطريقة في التاريخ الإسلامي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا كان المسعودي لم يأخذ بطريقة الإسناد لضمان صحة الخبر كما أشرنا إلى ذلك من قبل فإنه ذكر مصادره في مقدمة كتبه، كما وأنه أشار في مقدمته إلى من ألف في التاريخ قبله وعلق على مكانتهم في علم التاريخ فساعدنا بمعرفة أسماء مؤرخين وكتبهم لم نكن نعرفها من قبل. "فأصاب البعض وأخطأ البعض وكل قد اجتهد بغاية إمكانه"، وقد انتقد بعض الباحثين[(١)] المسعودي لتدوينه القصص الشعبي والأساطير والخرافات، إلا أن تدوينه لها لا يعني أنه قبلها بل أنه يذكرها لأنها غير مألوفة أو أنها كانت شائعة بين الناس، فهو نفسه ينتقد الجاحظ لذكره قصصاً غريبة عن الحيوانات ويقول "لست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ.."[(٢)]. كما تعرض المسعودي لكتاب عبيد بن شرية الجرهمي المتداول بين الناس آنذاك فقال عن بعض الأخبار الواردة فيه: "إن هذه الأخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٦.

للملوك بروايتها.." [1].

- أما مسكويه (ت ٤٢١هـ) فهو أبو علي محمد بن يعقوب المؤرخ والفيلسوف[2]، عاش في عصر النهضة الإسلامية أي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في ظل ملوك البويهيين ووزرائهم وخاصة الوزيرين المهلبي وابن العميد. وقد شمل علمه الطب والكيمياء والفلسفة والتاريخ والأخلاق حيث اطلع على مجاميع من حكم وأمثال الهنود والفرس والإغريق والعرب وكان يعرف العربية والفارسية.

ولد مسكويه في مدينة الري في بلاد فارس وكان أباؤه على الديانة المرذكية ثم دخلوا الإسلام، عمل سكرتيراً للوزير المهلبي ومديراً لمكتبته المشهورة وواصل عمله في فترة الوزير أبو الفتح بن العميد بين٣٤٠-٣٦٦هـ، وكان معاصراً للنخبة المثقفة العربية الإسلامية وعلى علاقة وثيقة بهم مثل أبو حيان التوحيدي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني وأبي بكر الخوارزمي، كما كانت علاقته وثيقة بالارستقراطية الحاكمة من عربية وفارسية.

درس مسكويه كتاب الطبري في التاريخ وبذلك فهو يعد تلميذ غير مباشر للطبري ويفسر ولعه بالتاريخ العام العالمي وكتابه (تجارب الأمم[3]) في التاريخ العالمي من الطوفان وبدأ الخليقة حتى ٣٦٩هـ/ ٩٨٠م. ويعتمد على الطبري بعد حذف الأسانيد أما الأصيل فيه فيبدأ مع البويهيين، ولا يهتم إلا ما كان تدبيراً بشرياً وما كان فيه عظة وعبرة ويستفاد من تجاربه. ويعالج تاريخ الأمم القديمة السابقة للإسلام مثل البابليين والسريان والإغريق والفرس والروم ثم العرب قبل الإسلام، ثم تاريخ الإسلام إلا أنه يترك نصف قرن من حوادث عصره لم يعالجها، وكان أسلوبه واضحاً وسهل الفهم خاصة حين يشرح النتائج الاجتماعية والاقتصادية للسياسة البويهية.

---

(١) حسين عاصي، المرجع السابق، ص١٠٨.

(٢) عن ترجمة مسكويه راجع: ياقوت، إرشاد، ج٢، ص ٨٩ فما بعد. القفطي، طبقات الحكماء، ص ٣٣١. التوحيدي، الإمتاع، ج١، ص٣٥-٣٦. مارجليوث، محاضرات عن المؤرخين العرب، ص١٢٨-١٣٧.

(٣) راجع مسكويه، تجارب الأمم، لندن ١٩٢٠م، (المقدمة). كما طبع في طهران ١٩٨٧م.

أما مصادره في (تجارب الأمم): فقد أشرنا إلى أنه يعوّل على الطبري في الفترة الإسلامية الأولى أي عهد الرسول ص والعصر الراشدي والأموي والعباسي الأول. ولكن مسكويه أورد في تاريخه نصوصاً إيرانية مهمة لا نجدها في الطبري ولا عند غيره. ولا شك بأن عمله في خزانة الكتب أفاده في جمع معلومات مهمة فقد أخذ عن تاريخ ثابت بن سنان في الفترة بين ٢٩٥-٣٤٠هـ وكذلك أخذ عن أبي إسحق هلال الصابي. ومن مصادره السماع من الأصدقاء والساسة وأصحاب الدواوين والمشايخ، وكذلك الكتب المترجمة عن الفارسية والإغريقية والهندية، إضافة إلى كونه شاهد عيان. وقد اتفق المؤرخون وأصحاب التراجم على عنوان الكتاب إلا أنه ورد بزيادة "وعواقب الهمم" على العنوان عند الروذراوري والسخاوي وغيرهما.

والتاريخ عند مسكويه كما يتضح من تجارب الأمم يشتمل على أحداث تفيد الإنسان في حياته وعلاقته بالمجتمع حين يدرك قيمتها ويتخذها عبرة يقتدى بها تجعله يحذر مما ابتلى به قوم ويتمسك بما سعدوا به، ذلك لأن أحوال الدنيا متشابهة وأمورها متناسبة، إلا أن مسكويه لاحظ أن تلك الأخبار التاريخية مغمورة بالأسماء والخرافات والأساطير ولذلك لا بد من نقدها واستخراج ذات القيمة منها. وأكد مسكويه على ما كان للأنبياء من تدابير بشرية ليست مقرونة بالإعجاز، ذلك لأن المعجزات ليست تجربة أنسية يستطيع الجميع أن يمارسوا مثلها، وهذا بطبيعة الحال لا يعني عدم اعترافه بالنبوة ومعجزات الأنبياء السالفين بل على العكس فقد كتب كتاباً في صفات الأنبياء السالفين.

يظهر مسكويه في كتابه بأنه نهج منهج الاستدلال الفلسفي ممزوجاً بنظرة أخلاقية عملية، كما وأنه شق الطريق إلى ما سمي فيما بعد بفلسفة التاريخ تلك الفلسفة التي طورها ابن خلدون والكافيجي والسخاوي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. وقد كمل أبو شجاع الروذراوري كتاب تجارب الأمم وسماه (ذيل تجارب الأمم) وطبع عدة طبعات في أوربا والشرق.

على أن شهرة مسكويه كفيلسوف[1] لم تقل عن شهرته كمؤرخ وربما فاق ذلك عند بعض الباحثين، وباعتباره فيلسوفاً اشتهر مسكويه بمعالجة موضوع الأخلاق ethics وكتب رسالة عنوانها "تهذيب الأخلاق وتطوير الأعراق" ورسالة أخرى بعنوان "الحكمة الخالدة " The eternal Wisdom وأعطى صورة الفضيلة والشر مؤكداً أن الأعمدة الأربعة للفضيلة هي: الحكمة، الشجاعة، العدالة، التسامح (المرونة). وحين يتكلم هاملتون جب عن مسكويه يضعه مع المؤرخ هلال الصابي وهما المؤرخان اللذان كشفا عن الالتزام في التدوين التاريخي بأمور الدنيا متخذين المسوغ الأخلاقي أي تخليد ذكر الأعمال الصالحة والسيئة لتكون عبرة للأجيال المقبلة، حتى لكأن التاريخ غدا عندهما فرعاً من فروع علم الأخلاق.

لقد طبعت رسالة (تهذيب الأخلاق) عدة مرات في بيروت والقاهرة، والرسالة كما أشرنا في الفلسفة الأخلاقية والتوجيهات السلوكية جعلها مسكويه في سبع مقالات رجع فيها إلى مصادر عديدة ومتنوعة وخاصة كتب أرسطو اليونانية. وذكر مسكويه غرضه من هذه الرسالة فقال: "غرضنا من هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال الجميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي. والطريق في ذلك أن نعرف نفوسنا أولاً ما هي؟ ولأي شيء أوجدت فينا؟ أعني كمالها وغايتها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العليا. وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتفلح وما الذي يدسيها فتخيب فإنه عز من قائل يقول: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) صدق الله العظيم.

إن مسكويه من خلال كتابه تهذيب الأخلاق وضع أسساً رئيسية لبناء الفرد داخل مجتمعه، ويمكن أن نلخصها بالتالي:

(١) الثقة بالإنسان حيث عد الفرد كتلة من الإمكانات والطاقات يمكنها من خلال

---

(١) راجع (مسكويه) في دائرة المعارف الإسلامية (e.I.2)

التوجيه أن تصل إلى أفضل الخيرات، وبعكسه يمكن أن ينزلق إلى أحط الشرور.

(٢) أن الفضيلة لا يصل إليها الإنسان بالاعتزال عن المجتمع والهرب من العمل في سبيل الإصلاح بل يتعين عليه مواجهة المفاسد والسعي للإصلاح من خلال المجتمع محاولاً إصلاح ما يمكن إصلاحه.

(٣) احترام ميول الإنسان وقواه وتقدير قيمتها، مع اعتبار العقل السيد الموجه لسائر القوى النفسية وبالتالي الموجه للحياة الاجتماعية.

وبالنظر لأهمية الكتاب فقد نقله نصير الدين الطوسي إلى اللغة الفارسية وسماه (أخلاق ناصري) كما نقل الكتاب إلى اللغة الانجليزية والفرنسية، كما ترجم ماركليوث كتاب (تجارب الأمم) إلى الانجليزية.

والمعروف أن مسكويه توفي بعد أن جاوز عمره المائة سنة وعاش أزهى فترة من فترات الحضارة الإسلامية وهو عصر النهضة كما أطلق عليه آدم متز.

- أما البيروني (ت ٤٤٠هـ /١٠٤٨م[١]) فهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي. عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حيث بدأت الدولة العباسية بالتدهور سياسياً وإدارياً ولكنها كانت تمر بنهضة حضارية كبيرة. عاش البيروني تحت نفوذ السامانيين، وأهدى بعض كتبه لأمرائهم. كان كثير الترحال في المشرق من بلد إلى آخر واضطر بعد وقوع موطنه خوارزم تحت سلطة الغازي سبكتكين أن يرحل إلى الهند وبقي هناك أربعين سنة حيث ساح في الهند باحثاً ومؤرخاً. فكانت فرصة سانحة له للاطلاع ثم تأليف الكتب في مجالات العلوم والتاريخ. وبعد عودته إلى خوارزم توفي حوالي ٤٤٠هـ. وكان زاهداً في المناصب عاشقاً للمعرفة.

---

(١) عن البيروني، راجع: المقالة (البيروني) في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة)، الجزء الأول، ص ١٢٣٦ فما بعد.

والبيروني عالم شمولي أو موسوعي اهتم بالفلك والرياضيات والنجوم والتاريخ وترك حوالي المائة كتاب ورسالة. وكان في كتبه دقيقاً ومتحققاً ولذلك انتقد بعض من سبقوه من المؤرخين والرحالة لأنهم أخذوا الكلام شفاهاً من عامة الناس ودونوه في كتبهم. وللبيروني إنجازات متميزة في العلوم العقلية وخاصة الفلك والهندسة والرياضيات ليس هنا مجال الكلام عنها، إلا أن الذي يهمنا هو مساهماته في ميدان التاريخ حيث له كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وكتاب آخر هو (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة[1]) وفي الكتابين الكثير من الموضوعات والأخبار التاريخية كما يدعم ملاحظاته بالأبيات الشعرية المناسبة للموضوع.

* * *

(١) وقد طبع الكتاب الأول (الآثار الباقية)، ليبزك، ١٨٧٨م. كما طبع الكتاب الثاني (تحقيق ما للهند)، لندن، ١٨٨٧م.

المبحث الثاني

(٢) التدوين في إطار كتب الفتوح

تعد كتب الفتوح من الأنماط الأولى في التدوين التاريخي في الإسلام، بدأت في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي على شكل قصص تاريخية عن الفتوحات الإسلامية والقبائل التي شاركت فيها، واشتهر الأخباريون العراقيون الأوائل بهذا النمط فأبرز أبو مخنف دور الأزد في الفتوحات، وروّج سيف بن عمر الروايات التميمية، وأظهرت روايات باهلة فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي في خراسان والمشرق الإسلامي. ويصف هاملتون جب هذه الروايات الأولى عن الفتوح بقوله: "لقد حولت الفتوحات الإسلامية الروايات القبلية عن وجهتها دون أن تغير من طبيعتها فظل الترابط بين الشعر والنثر وكذلك المبالغة والبعد عن الدقة"[(١)].

ولا ننسى أن كتب المغازي التي بدأت بالظهور مع بدايات القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي والتي تناولت مغازي الرسول ص والسرايا التي وقعت في زمانه، هي محور من محاور الفتوح تميزت بها مدرسة المدينة المنورة وقد تطورت على يد محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ثم مغازي ابن إسحق (ت ١٥٠هـ) وما ألفه الواقدي (ت ٢٠٧هـ) عن مغازي الرسول.

أما رواد مؤرخي الفتوحات فقد ظهروا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي واختصت كتبهم بإقليم من الأقاليم، فقد أشرنا قبل قليل إلى الواقدي ونشير هنا إلى

---

(١) جب، دراسات، ص ١٤٥. الدوري، المرجع السابق، ص ٤٩ فما بعد.

الأزدي (ت ٢٣١هـ) وكتابه عن فتوح الشام وابن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ) وكتابه عن فتوح مصر والمغرب. وكان أهل المغرب والأندلس يطلقون عادة على المغازي اصطلاح (المشاهد) وظهرت بوادر التأليف فيها في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كذلك فقد ألف عبدالملك بن حبيب (٢٣٩هـ) في مغازي الرسول ص وتابعه آخرون مثل ابن القوطية محمد بن عمر (٣٦٧هـ) الذي ألف كتابه الموسوم (تاريخ افتتاح الأندلس)، حتى ظهر ابن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ) فألف في المغازي كتاباً سماه (جوامع السيرة). واستمرت كتب الفتوح تظهر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. ويمكن أن نميز نوعين من كتب الفتوح:

الأول: كتب الفتوح العامة التي تناولت الفتوحات الإسلامية في كافة الأقاليم مثل فتوح البلدان للبلاذري والفتوح لابن أعثم الكوفي.

الثاني: كتب الفتوح الخاصة والتي اختصت بإقليم من الأقاليم مثل فتوح بلاد الشام أو العراق أو مصر أو المغرب والأندلس التي أشرنا إليها قبل قليل.

أما أسباب اهتمام الأخباريين ثم المؤرخين بتدوين الفتوح فعديدة لخصها أحمد أمين ثم حاطوم[1] بالأمور التالية:

(١) الرغبة في معرفة موقف الشريعة الإسلامية من الأراضي المفتوحة وسكانها ذلك أن طبيعة الفتح من حيث كونه صلحاً أم عنوة يتبعها اختلاف في موقف الشرع واختلاف في إجراءات الدولة الإسلامية تجاه الأرض وتجاه السكان من أهل الذمة وتجاه الضرائب مثل الخراج والجزية والعشر.

(٢) التعرف على أحوال البلاد المفتوحة وما هي النظم الإدارية والاجتماعية السائدة فيها قبل الفتح الإسلامي والاستفادة من هذه النظم في إدارة الدولة وسياستها.

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٢، ص٣٢٩ فما بعد. حاطوم، المرجع السابق، ص ٢٥٢ فما بعد.

(٣) إبراز مآثر القبائل التي قامت بالفتوح وكان لها الدولة البارز فيها فقد أكد أخباريو الكوفة على دور قبائل الكوفة وأكد أخباريو البصرة على دور البصرة بل أكثر من ذلك كان الأخباري يبرز دور قبيلته مثل الأزد أو تميم في هذه الفتوحات. كما أوضحنا ذلك حين تكلمنا عن مدرسة العراق في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي.

ولذلك فإن كتب الفتوح تحتوي على معلومات مهمة عن الأحوال الإدارية والمالية، والإجراءات الاقتصادية والسياسية التي اتخذها الولاة والعمال في الأقاليم والولايات في البلاد المفتوحة. وكذلك تذكر خطط مدن الإقليم والقبائل التي استقرت فيه. ناهيك عن الأوضاع الاجتماعية والدينية لسكان هذه الأقاليم قبل الفتح الإسلامي وبعده.

وسنتكلم عن ثلاثة من مؤرخي الفتوح الذين برزوا في مرحلة النضج في الكتابة التاريخية هم على التوالي: ابن عبدالحكم والبلاذري وابن أعثم الكوفي.

أما عبدالرحمن بن عبدالحكم[1] المتوفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م فيرتبط بقبيلة قريش بالولاء. نشأ في أسرة موسرة مشهورة بالفقه والحديث ترأس أفراد منها المذهب المالكي في مصر. كما لعبت أدواراً في السياسة خاصة في فترة المحنة العصر العباسي الأول في عهد المأمون والواثق والمعتصم حيث سجن عبدالرحمن بن عبدالحكم لمعارضته القول بخلق القرآن.

إن مكانة الأسرة الدينية والعلمية بقيت متأصلة في فكر عبدالرحمن بن عبدالحكم، فقد درس العلوم الدينية ودرس الحديث والفقه والرواية وروى عن العديد من علماء مصر المشهورين ومنهم أبيه وأخوته والليث بن سعد فقيه مصر المشهور (ت ١٧٥هـ) كما اتصل بيحيى بن بكير (ت ٢٣١هـ) وأخذ عنه الروايات التاريخية الخاصة بتاريخ مصر في الإسلام، فكانت ثروة علمية استفاد منها في كتابه عن فتوح مصر والمغرب.

---

(١) عن ترجمة ابن عبد الحكم راجع: ابن حجر العسقلاني، التهذيب، طبعة الهند، ج٦، ص٢٠٨. الخزرجي، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، ج٢، ص٦٩، ص٩٢.

يعد ابن عبدالحكم أقدم مؤرخ في تاريخ مصر، حيث تناول أخبار الفتوحات بالإضافة إلى خطط مصر وما يتصل بقبائلها وعماراتها وحضارتها. وقد قسم كتابه فتوح مصر والمغرب إلى سبعة أقسام :

الأول: تاريخ مصر القديم وفضائلها.

الثاني: فتح مصر وما كانت عليه من عمران وحالتها قبل الإسلام ودور أهل مصر في الفتح.

الثالث: خطط الفسطاط والجيزة والإسكندرية.

الرابع: إدارة مصر في صدر الإسلام.

الخامس: فتح شمالي أفريقيا والأندلس.

السادس: قضاة مصر إلى ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م.

السابع: الأحاديث النبوية ورواتها من الصحابة الذين قدموا مصر.

وبما أن هذا الكتاب يعد أقدم كتاب مصري فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية[١] إلى اعتماد العديد من المؤرخين المصريين الذين جاءوا بعده عليه مثل المقرّيزي والسيوطي وياقوت الحموي.

وقد اعتمد ابن عبدالحكم بدوره على مجموعة من مؤرخي مصر الذين سبقوه دون أن يذكر أسماءهم كثيراً مما أشاع الاعتقاد بأنه جمع أخباره عن طريق الرواية الشفوية[٢]. إلا أن الواقع يدل على اعتماده على كتب يزيد بن أبي حبيب وعبدالله بن أبي جعفر وابن لهيعة ويحيى بن بكر وغيرهم، والكتاب منشور في نيوهفن ١٩٢٢م وفي الجزائر ١٩٤٧م.

---

(١) مقالة (ابن عبد الحكم) دائرة المعارف الإسلامية، (e.I.٢).

(٢) انظر: محمد عبد الله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٨ فمابعد. إبراهيم العدوي، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٥.

أما البلاذري فسنشير إلى سيرته وثقافته عند الكلام عن كتب الأنساب، فقد نشأ في بغداد وأخذ العلم من كبار علمائها وكان مقرباً من السلطة العباسية في عهود الخلفاء المتوكل والمستعين والمعتز. ومن هنا فقد عاش موسراً طوال حياته ورحل في المدن والبلدان، وهو من المؤرخين الذين يمتازون بحسن انتقاء ما يستحق ذكره من الروايات من بين الكم الهائل من المعلومات والأخبار التاريخية.

وبقدر تعلق الأمر بكتابه (فتوح البلدان[١]) فهو أجمع كتب الفتوح، ويبدو أنه مختصر لكتاب أطول منه لم يكمله المؤلف. وقد ذكر البلاذري أخبار الفتوح بلداً بلداً منذ فترة صدر الإسلام، وشمل غير الفتوح معلومات إدارية وسياسية وعمرانية يصعب العثور عليها في كتب التاريخ العام. فهو تاريخ للحضارة والنظم الإسلامية يحتوي على روايات عن تعريب الدواوين والسكة أيام بني أمية ومعلومات عن الخراج والنواحي الاقتصادية والأحوال الاجتماعية أثناء الفتح وبعده.

أما منهجه في تأليف الكتاب فقد اقتبس البلاذري مادته من الكتب ومن الرحلات التي قام. وكان ينتقي المادة بعد الغربلة والنقد ويعطي صورة متزنة للحوادث ويعتمد على روايات المدينة المنورة التي تتميز بالحياد والدقة حول الفتوح[٢]، وكان يجمع بين روايات عديدة ويسبكها في رواية واحدة مستخدماً ما يسمى بالإسناد الجمعي. ولذلك نراه يفتتح كتابه الفتوح بالقول: "أخبرني جماعة من أهل العلم بالحديث والسيرة وفتوح البلدان سقت حديثهم واختصرته ورددت من بعضه على بعض".

وقد نشر الكتاب مرات عديدة في أوربا والوطن العربي بالنظر لأهميته التاريخية، فقد حققه المستشرق دي خويه ونشره في ليدن سنة ١٨٨٦م وحققه محمد حميد الله وكذلك صلاح الدين المنجد ونشر في دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩م.

- أما ابن أعثم الكوفي فهو محمد بن علي (مع اختلاف في اسمه) من مؤرخي

(١) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، (المقدمة).

(٢) عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص٤٨. روزنثال، المرجع السابق، ص٥١٤ فما بعد.

العراق البارزين ومع ذلك فلا نعرف عن سيرته وثقافته شيئاً، قال عنه ياقوت الحموي: "الأخباري المؤرخ... وهو عند أصحاب الحديث ضعيف"[(١)]. له عدا كتاب الفتوح كتاب آخر هو (كتاب التاريخ) وصل فيه إلى أيام الخليفة العباسي المقتدر.

وقد نشرت دار الكتب العلمية الكتاب دون تحقيق (بيروت ١٩٨٦م) وترجمت بعض أقسامه إلى الألمانية، ويصفه شاكر مصطفى بأنه تاريخ أشبه بالقصص وتغلب عليه مسحة الرواية[(٢)]. ويرى فاروق عمر أن ابن أعثم كان معاصراً لنخبة مشهورة من المؤرخين المسلمين إلا أن الذي يعرف عنه شيئاً قليلاً بالنسبة لمعاصريه. أما كتابه الفتوح فلم يعرف إلا حديثاً في اصله العربي. ولذلك فإن القليل من المؤرخين استغلوا ما فيه من معلومات قيمة.

لابد لي أن أقول أن ابن أعثم كتب كتاباً في الفتوح ولم يكتب تاريخاً ولذلك فكما أننا لا نتأمل من البلاذري في فتوحه أن يذكر حوادث سياسية كثيرة فيجب ألا نتوقع من ابن أعثم أن يفصل في الحوادث السياسية فهذا ليس من شأنه حين كتب فتوحه.

والمعروف أن الترجمة الفارسية للأصل العربي لكتاب الفتوح موجودة بنسخ متعددة ومعروفة لدى قراء الفارسية من المؤرخين. وكان الأصل قد ترجم من قبل محمد المستوفي (ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) وبقي متداولاً حتى وجد الأصل العربي في إستانبول في مكتبة توبقابي سراي.

يبدأ الجزء الأول من مخطوط الفتوح بخلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ) وينتهي ببدء ثورة المختار بن عبيد الثقفي سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥-٦٨٦م. أما الجزء الثاني فيستمر في رواياته عن ثورة المختار ثم ينتهي بثورة بابك الخرمي في عهد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨/٢٢٧هـ).

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء (ابن أعثم الكوفي).

(٢) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٤٢-٤٣.

ويتكون الكتاب من ٥٤٨ صفحة، ٢٧٠ للجزء الأول، و٢٧٨ للجزء الثاني. ويسير الكوفي على طريقة اليعقوبي في ذكر رواياته فهو لا يذكر أسانيده.

تظهر نزعة ابن أعثم الكوفي الميالة للعلويين حينما يتطرق لثورات العلويين. فهو يظهر مثلاً أن الثورة العباسية لم تكن منظمة ومدبرة من قبل شخصيات عباسية ودعاة عملوا من أجل العباسيين وإنما كانت ثورة باسم أهل البيت عامة. ويبالغ في إظهار السنوات الأولى من الحكم العباسي وكأنها سنوات مجازر للثأر لأهل البيت من الأمويين. ولا يذكر مطلقاً محاولة أبي سلمة نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين.

ويعد كتاب الفتوح لابن أعثم المصدر الوحيد الذي تظهر فيه الإضافة التالية في رسالة – يعتقد بأنها موضوعة – وجهت من أبي مسلم إلى الخليفة المنصور العباسي : "... وأوطأت غيركم من كان فوقكم من آل رسول الله بالذل والهوان والإثم والعدوان..." مشيراً إلى العلويين.

والجدير بالذكر أن رواياته التاريخية عن العصر العباسي على العموم غير متكاملة وغير موثوق بها. خاصة وأن الحوادث مختارة وغير متسلسلة من الناحية التاريخية ثم أنه لا يذكر إلا الراوي الرئيسي دون تبيان لسلسلة الرواة، ولابن أعثم عذر في ذلك لأنه لم يكن قصده أن يؤلف كتاباً في التاريخ وإنما في الفتوح كما ذكرنا. ومادته التاريخية مختصرة من عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨هـ/ ٧٧٥م-١٦٩هـ/ ٧٨٥م) فصاعداً وحينما يتكلم عن علاقة العلويين بالهادي العباسي يقول: "ولموسى أخبار مع العلويين لا نحب أن نوردها" فهو دوماً يمتنع عن ذكر تفاصيل التي قد تسيء إليهم من جهة أو أخرى.

وهو يذكر الرواة الذين اعتمد عليهم إلا في بداية الكتاب فيقول: "قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم بن مجاهد عن الشعبي وأبي محصن عن أبي وايل وعلي بن مجاهد عن أبي إسحق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال حدثني أبو عبدالله محمد بن عمر بن واقد الواقدي

الأسلمي قال وحدثني عبدالحميد بن جعفر بن زيد بن أبي حبيب عن الزهري. قال وحدثني إسحق بن يوسف الفزاري قال حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال حدثني لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي عن الحرث بن الحصين بن عبدالرحمن بن عبيدة عن النصر بن صالح بن حسين بن زهير قال وحدثني عمران بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن عوف بن عبدالله بن يزيد بن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبدالرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي، وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سراً وعلانية وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثاً واحداً على نسق واحد...".

ويعد كتاب الفتوح من أقدم الكتب التاريخية التي ألفت عن القرنين الأول والثاني للهجرة /السابع والثامن للميلاد ولذلك فهو لا يعطي فقط روايات تاريخية عن الحوادث المختلفة ولكنه برواياته يعتبر مصدراً تقاس عليه روايات من سبقه أو عاصره من المؤرخين كالبلاذري والطبري واليعقوبي والمسعودي والدينوري وغيرهم وبمقارنة الروايات يمكن الوصول إلى فكرة أوضح عن الحوادث التاريخية ذات العلاقة.

إلا أن الذي يجلب الانتباه في هذا الكتاب هو أن ابن أعثم الكوفي ما أن ينتهي من دولة الأمويين، حتى يبين بوضوح بأن هذا نهاية كتابه الفتوح. ولذلك فإنه يعمد إلى ذكر أسانيد جديدة ورواة جدد مرة ثانية مثل المدائني والبلاذري والهيثم بن عدي وكأن القسم الجديد من الكتاب قسم ثان لا علاقة له البتة بكتاب الفتوح. فهو يقول: "... إلى أن ظهرت المسودة في أرض خراسان مع أبي مسلم ودنا زوال بني أمية فهذا أكرمك الله آخر الفتوح ونبتدئ بعد هذا في أخبار نصر بن سيار والكرماني وأبي مسلم الخولاني الخراساني...".

إن عدم عمق الروايات في القسم الأخير بالإضافة إلى وضوح الميول العلوية بصورة تجلب الانتباه وتدعو إلى الشك في نسبة هذا القسم المبتدأ بظهور المسودة لكتاب الفتوح وربما كان القسم قد أضيف إلى الكتاب في وقت متأخر أما إذا كان هذا القسم

جزءاً لا يتجزأ منه فإنني لابد أن أحذر القارئ بأن يأخذ جانب الحيطة من الروايات قبل قبولها نظراً لسطحيتها أولاً ولميول المؤلف العلوية ثانياً.

أما من حيث المادة التاريخية التي يحتويها الكتاب ففي الجزء الأول يضم معلومات غزيرة عن المواضيع التالية:

(١) استقرار العرب في المناطق التي فتحوها فهناك معلومات مهمة جداً عن استقرار العرب في خراسان غير موجودة في كتب أخرى أو معلومات إضافية موضحة لما هو موجود في البلاذري أو الطبري أو غيره.

(٢) يزخر الكتاب بمادة دسمة حول فتح العرب لأرمينية وتاريخ أرمينية تحت الحكم الإسلامي حتى زمن المعتصم. وكذلك تذكر استقرار قبائل عربية في إقليم أرمينية وتفصل في مصادمات الجيش الإسلامي مع الخزر.

(٣) أما المعلومات عن الحوادث السياسية مثل مقتل الخليفة عثمان وثورة المختار الثقفي وغيرها من الحوادث فهي متممة لمعلومات موجودة في مصادر أخرى ولذلك تعطي لطالب البحث فرصة لقياس ومقارنة وتدقيق المادة التاريخية التي جمعها بمادة ابن أعثم الكوفي. فمن جملة ما يمكن أن يستنتجه الباحث المدقق من هذه المقارنة أن كتاب البلعمي الذي يعدّ ترجمة لتاريخ الطبري لم يكن في حقيقته مجرد ترجمة بل أن هناك إضافات ونقولاً من ابن أعثم الكوفي في تاريخ البلعمي. كما أن المقارنة الدقيقة تثبت أن ابن الأثير اعتمد على ابن أعثم في بعض إضافاته ونقوله غير الموجودة في تاريخ الطبري[١].

* * *

(١) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ٣٠ فما بعد.

المبحث الثالث

(٣) الكتابة التاريخية في إطار الأنساب:

اختارت فئة أخرى من المؤرخين كتابة التاريخ في إطار النسب، وقد أشرنا سابقاً إلى جناح من مدرسة العراق في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي فضلوا هذا النوع من التدوين التاريخي أمثال محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام بن محمد ثم جاء مصعب الزبيري في (نسب قريش) والنسب الكبير ثم الزبير بن بكار كما ونجد كتاباً للتاريخ في إطار النسب في كتاب (تاريخ الأشراف الكبير) للهيثم بن عدي واستمر هذا النمط خلال القرون التالية.

على أن أهم كتاب في التاريخ في إطار الأنساب هو (أنساب الأشراف) للبلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) في اثني عشر مجلداً عشرة منها في قريش وثلثه عن الأمويين. وقد ضم أشراف العرب وكذلك فئة من غير العرب. ثم المؤرخ المجهول الذي كتب في (أخبار العباس وولده) سار فيه على النسب وضمنه أخبار آل العباس حتى وفاة إبراهيم الإمام واعتمد على رواة ثقاة مثل أبي مخنف ومصعب الزبيري وعمر بن شبه والعباس بن هشام بن الكلبي والبلاذري. أما أحمد بن محمد الرازي (ت ٣٣٤هـ) فقد كتب (الاستيعاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس)، وألف ابن حزم (ت ٣٥٦هـ) جمهرة أنساب العرب، وكتب العوتبي العماني (من القرن الخامس الهجري) في أنساب العرب ولكنه ركز على القبائل اليمانية وخاصة منها الأزد التي هاجرت إلى عمان وأطراف الخليج الشرقية. كما ألف السمعاني (ت ٥٦٢هـ) كتاب الأنساب. وابن الأثير (اللباب في تهذيب الأنساب) وقد اختصر ابن الأثير كتاب السمعاني وأضاف إليه. وتسمى هذه الكتب الأخيرة كتب

الأنساب الجامعة. وقد سبقتها كتب المؤتلف والمختلف في المشتبه من الأسماء والكنى والألقاب مثل كتاب ابن حبيب (٢٤٥هـ) المختلف والمؤتلف في أسماء القبائل.

يرى روزنتال[١] أن العلاقات العائلية حافظت على أهميتها في التنظيم الاجتماعي العربي – الإسلامي إن لم نقل ازدادت أهمية وقد كوّن القرشيون والهاشميون "ارستقراطية" وفتحت الأبواب أمامهم لمراكز القيادة وبذلك انفتح مجال خصب أمام النسابة ليكتبوا تاريخاً ولكن في إطار النسب. وهكذا امتدت الأنساب إلى التاريخ لأن أعضاء الأسر البارزة كانوا في الوقت نفسه زعماء الحياة السياسية.

أما عرض العلاقات النسبية بشكل جداول وهو ما يسمى (شجرات النسب) فقد ظهر منها كتاب المشجر لمحمد بن حبيب وكتاب الفرع والشجر لابن ميمون وغيرهما.

وقد قسم الباحثون كتب الأنساب إلى ثلاثة أقسام:

(١) الأنساب الخالصة مثل الكتب التي دونها الزبير بن بكار ومصعب الزبيري.

(٢) الأنساب الجامعة مثل كتاب السمعاني وابن الأثير.

(٣) التاريخ في إطار النسب مثل كتاب البلاذري وكذلك المؤلف المجهول والعوتبي وهذا القسم هو الذي يهمنا في موضوع بحثنا عن التدوين التاريخي ولهذا سنفصل فيه فيما يلي:

❖ أنساب الأشراف للبلاذري[٢]: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري من مؤرخي بغداد في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد عاصر الخليفة العباسي المتوكل وكان نديماً له لفترة من الوقت وتوفي في آخر أيام الخليفة المعتمد على الله العباسي. نشأ في عائلة ذات صلة بالإدارة العباسية فقد كان والده كاتباً في عهد الخليفة هارون

(١) روزنثال، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) عن ترجمة البلاذري راجع: ياقوت، إرشاد، ج٢، ص١٢٧–١٣٢. راجع كذلك مقدمة كتاب الفتوح للبلاذري تحقيق دي خويه.

الرشيد. لقب بالبلاذري نسبة إلى نبات البلاذر الذي كان يعمل منه العصير الذي يقوي الذاكرة.

كان أحمد بن يحيى البلاذري كثير الترحال في طلب العلم، فقد زار بلاد الشام وأخذ من علمائها ويبدو أن معظم شيوخه (أساتذته) من العراقيين والسوريين وأشهرهم ابن سعد والمدائني. وقد اشتهر البلاذري بالأدب والشعر إضافة إلى التاريخ، وقد أشار ياقوت إلى قصائد له هجا فيها بعض الرجال البارزين فكانوا يخشون لسانه ويقضون مطالبه، ولم يسلم من نقده بعض معاصريه من المؤرخين أمثال الصولي الذي كان من المقربين للخليفة المتوكل. ويبدو أنه ترك الهجاء في آخر حياته فقال في قصيدة له :

استعدي يا نفس للموت وأسعي لنجاة فالحازم المستعد

على أن اتصاله بالعباسيين جعله يمدح خلفاءهم مثل المأمون والمتوكل والمستعين بالله ، وقد خصص له الخليفة الأخير جراية سنوية تصرف له. إن هذه الصلة جلبت إليه تهمة محاباته للدولة العباسية التي كان يصفها بالدولة المباركة والميمونة، إلا أن قراءة كتبه تظهر حياده في نقل الأخبار.

أما كتابه (أنساب الأشراف[1]) فهو كتاب تاريخي في إطار النسب، ويعده عبدالعزيز الدوري أول ممثل للتطور الجديد في التدوين التاريخي مع بدايات النصف الثاني للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث ظهر مؤرخون لا تحدهم مدرسة أو اتجاه، بل حاولوا الاستفادة من مواد السيرة النبوية ومادة كتب الأخباريين والنسابة وكل المصادر المتيسرة الأخرى. أما محتوى الكتاب أو موضوعاته فقد بدأ الكتاب بنسب نوح عليه السلام ثم تناول أنساب العرب من عدنان لأنه نسب الرسول ﷺ وظل ينزل في أجداده واحداً بعد واحد، حتى وصل إلى الرسول ص فتناول أبناء عبدالمطلب فبنيهم ثم هاشم وبنيه ثم بني عبد شمس وهكذا. ثم يتكلم عن القبائل وخاصة بطون وأفخاذ قريش.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، نشرت منه عدة أجزاء من قبل عدد من المحققين.

ويلاحظ أن البلاذري يتكلم عن بني هاشم قبل غيرهم من البيوتات العربية فيتكلم عن العباسيين قبل أن يتكلم عن الأمويين رغم أن العباسيين حكموا الدولة الإسلامية بعد الأمويين تاريخياً، ويتكلم البلاذري عن الدعوة العباسية تحت عنوان محمد بن علي العباسي وعن بدايات الثورة تحت اسم إبراهيم الإمام وأبي العباس وعن حركة عبدالله بن علي في بلاد الشام تحت اسمه، وهكذا. هذا ويسرد الحركات والحوادث تحت اسم خلفاء أو أمراء بني العباس الواحد بعد الآخر ويفعل الشيء نفسه بالنسبة للأمويين.

والبلاذري ينتقد مصادره وينتقي مادته التاريخية مستنداً على العديد من الإخباريين والمؤرخين مثل الواقدي والزهري وأبي مخنف لوط بني يحيى، ويأخذ عن الزبير بن بكار وهشام بن الكلبي، ولكنه يستعمل كذلك الإسناد وتظهر اهتماماته وكذلك غزارة المادة المروية في الشخصيات التي ترجم لها فقد ترجم لأبي بكر الصديق في عشرين صفحة، ولعمر بن الخطاب في اثنين وسبعين صفحة، ولعلي بن أبي طالب وأولاده في ثلاثماية صفحة.

❖ أخبار العباس وولده للمؤلف المجهول[١]: والكتاب في الأصل مخطوطة محفوظة في مكتبة الأوقاف في بغداد ولها نسخة منقولة عن الأصلية محفوظة في معهد الدراسات الإسلامية العليا ببغداد أيضاً. أما مؤلفها فغير معروف إلا أن عبدالعزيز الدوري يعتقد بأنه من المحتمل أن يكون محمد بن صالح النطاح صاحب المخطوطة، ولكنني أشك في نسبة المخطوطة إلى هذا المؤلف حيث لم أجد له كتاباً بهذا الاسم. والمعروف أن ابن النطاح هو أول من كتب في تاريخ الدولة العباسية ويسمي كتابه "الدولة العباسية".

والكتاب في جوهره تاريخياً مرتباً على نظام النسب يبدأ بأخبار العباس عم الرسول ص وينتهي بوفاة إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس (إبراهيم الإمام). إلا أن صفحاته الأولى والأخيرة مفقودة ولكن الواضح أن المؤلف موال للعباسيين فهو

---

(١) عن مؤلف أخبار العباس وولده راجع: أخبار الدولة العباسية، تحقيق الدوري والمطلبي، بيروت، ١٩٧٢م، (المقدمة).
فاروق عمر، الثورة العباسية، عمان، ٢٠٠١م.

يمتدح الدولة العباسية "المباركة" ويذكر أنه ينتسب إلى "ولاء هذا البيت العباسي الشريف". ويقول بأن كتابه هذا سيكون مختصراً بالرغم من أن الأعمال المجيدة والفضائل الحميدة للعباسيين تغريه بأن يكتب كثيراً عنهم.

يحتوي الكتاب على ٢٠٤ صفحة ويعتمد المؤلف على رواة ثقات من أمثال أبي مخنف (ت ١٥٧هـ) ومصعب الزبيري (ت ٢٣٥هـ) وعمر بن شبه (ت ٢٦٢هـ) والبلاذري (ت ٢٧٩هـ) والعباس بن هشام بن الكلبي. وفي رواياته عن الدعوة العباسية ينقل عن شهود عيان وشخصيات اشتركت في حوادث الثورة، ولذلك فهو في بعض فصوله يعتبر أشبه بوثيقة سرية عباسية لا يعرف المعلومات الموجودة فيها إلا الحلقة السرية في الدعوة العباسية.

والظاهر إن مؤرخين متأخرين من أمثال الذهبي والمبرد وابن أبي الحديد نقلوا من المخطوطة روايات عديدة دون أن يشيروا إليها أو يذكروا اسم المؤلف.

أما الروايات التاريخية التي تتعلق بالثورة العبايسة ففيها معلومات من الدرجة الأولى عن تنظيم الدعوة العباسية في خراسان، والأساليب التي تبنتها لجذب رؤساء القبائل العربية هناك وكذلك السكان العرب المستقرون في قرى مرو. ويظهر الكتاب بوضوح تنظيم الدعوة السري إلى اثني عشر نقيباً يرأسهم نقيب النقباء ثم اثني عشر شخصاً يكونون ما يسمى بـ (نظراء النقباء) ثم هناك ٧٠ داعية وما يقارب الـ ٣٦ من دعاة الدعاة.

كما وأن كثرة الروايات عن شخصيات الدعوة العباسية تفسح لنا مجال المقارنة بين دور أبي مسلم الخراساني مثلاً والشخصيات العربية الأخرى كسليمان بن كثير الخزاعي وخازم بن خزيمة التميمي وقحطبة بن شبيب الطائي وخالد بن إبراهيم الذهلي الشيباني وغيرهم. وتظهر أن القيادة جماعية وأن دور أبي مسلم كان يعتمد على سليمان الخزاعي وقبيلته في خراسان. وقد حقق الكتاب عبدالعزيز الدوري وعبدالجبار الكلبي ونشر في بيروت سنة ١٩٧٠م.

❖ أنساب العرب للعوتبي الصحاري[1]: هناك عدة نسخ للمخطوطة التي لم تنشر كاملة لحد الآن منها نسخة دار الكتب المصرية ونسخة باريس، ويبدو أن هذه النسخة قد كتبت سنة ١٧٠٣م وهناك نسخة ثالثة للمخطوطة في بولندا.

أما تاريخ كتابة المخطوطة من قبل العوتبي فهو أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ويتفق على هذا التاريخ أغلب الباحثين على أن باثيرست يقول: "يبدو أن المخطوطة كتبت بعد القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) وربما أنه كتبها في فترة ازدهار صحار كميناء تجاري في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي".

ويظهر من بعض الشخصيات التي ترجم لها العوتبي أنها عاشت في القرن الخامس الهجري مما يدل على أن تأليفها كان في العقود الأخيرة من القرن نفسه. ولكن ولكنسون يشك في بعض هذه التراجم ويرى أنها أضيفت إلى المخطوطة في فترة متأخرة ولذلك فإن كتاب العوتبي يعدّ أقدم كتاب في تاريخ عمان دوّن في إطار الأنساب، وقد حقق القسم الأول من المخطوطة كجزء من متطلبات الدكتوراة في قسم التاريخ بالجامعة الأردنية سنة ٢٠٠٢م إلا أنه لم ينشر بعد.

والمخطوطة كتابٌ في أنساب العرب عموماً ولكنه يفصل بصورة خاصة في هجرة القبائل الأزدية ودورها في تاريخ الإسلام عموماً وتاريخ عمان خاصة، ومعلوماته التاريخية كثيرة فهو تاريخ في إطار النسب ويحتوي على سير وتراجم عديدة ويبدأ العوتبي كتابه فيقول: "فإني نظمت هذا الكتاب وجمعت فيه أنساب العرب وتشعب قبائلها وافتراق معدها وقحطانها وجعلتها طبقة دون طبقة. فقد روينا عن الكلبي في رواية كتاب الأنساب أنه قال ما تعرف أنساب العرب عاشت طبقات، فأولها شعب وقبيلة وعمارة وبطن وفخذ وفصيلة وما بينها من الأبناء فإنما يعرفها أهلها. فمضر شعب وربيعة شعب وحمير شعب وكذلك ما سواها من القبائل الكبار وإنما سميت الشعب لأن القبائل تشعبت

---

(١) راجع: فاروق عمر فوزي، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ المحلي لعمان، بغداد، ١٩٧٥م، ص ٢٨ فما بعد.

منها. وسميت القبائل لأن العمائر تقابلت عليها والشعب تجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن تجمع الأفخاذ والفخذ تجمع الفصيلة.

فمضر شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصي بطن وهاشم فخذ والعباس فصيلة وعلى هذا يجري...".

ثم يبدأ العوتبي بذكر قبائل العرب وأنسابها وحروبها ووقائعها وألمع شخصياتها وهجراتها واشتراكها في الفتوحات ودورها في الأحداث. وهو في ذلك يشبه أنساب الأشراف للبلاذري حين يفصل في الدور التاريخي الذي لعبته الشخصيات القبلية في أحداث عصرها. والملاحظ أن العوتبي يتوسع أكثر في حركات خارجية مثل حركة أبي حمزة الخارجي أو طالب الحق أو في شخصيات أزدية من آل المهلب أو عمانيه فيشير إلى موطنها ونشاطها ويبدو ميالاً إليها.

على أن العوتبي في معالجته للأحداث أو الحركات التي وقعت خارج عمان يبدو مقتضباً وأحياناً غير دقيق، حيث تختلط عليه بعض الأسماء أو الأحداث التي وقعت في أقاليم أخرى دون أن يتعب نفسه في التدقيق فيها.

يعد كتاب (أنساب العرب) أقدم كتاب متكامل وصلنا عن تاريخ عمان. يفصل في أهل عمان ويوضح الهجرات اليمانية والمضرية وغيرها التي استقرت فيها. على أنه يتوسع أكثر في ذكر القبائل الأزدية اليمانية.

ويتضمن معلومات عن تاريخ عمان قبيل الإسلام ويذكر الرسالة التي بعثها الرسول ص إلى آل الجلندي يدعوهم للإسلام. ويبدو من معلومات العوتبي أن لأل الجلندي نفوذ في الساحل الشرقي للخليج في فارس وكرمان حيث يقول: "كان لهم بأس وشدة بفارس وكرمان".

فالأزد لم يطردوا الفرس من عمان فحسب بل وسعوا مناطق نفوذهم على الساحل الشرقي للخليج العربي. ويشير العوتبي إلى بداية الدعوة الإباضية في عمان ويزودنا

بأسماء (حملة العلم) الذين توجهوا من البصرة إلى عمان والمغرب.

فقد أرسل أبو عبيدة مسلم بن كريمة دعاة من أصل عماني أزدي ومضري إلى عمان للتبشير بالدعوة الإباضية هم محمد بن المعلا الفححي، وهو أول من قام بالدعوة، ثم تبعه الربيع بن حبيب الفرهودي ومنصور الرياحي وبشير بن المنذر النزواني. وفي مكان آخر حين يتكلم عن قبيلة فراهيد يشير ثانية إلى الربيع الفرهودي وبلج بن عقبة الفرهودي.

ويقدم العوتبي معلومات تاريخية جيدة عن الإمامة الإباضية الأولى ثم ظهور الإمامة الثانية ويتوسع شيئاً ما في مسألة خلع الإمام الصلت بن مالك وما تبعها من ظروف أدت إلى زوال الإمامة الإباضية الثانية ثم الفتن التي أعقبت ذلك. ويعكس الشعر الذي يذكره العوتبي العصبيات القبلية التي كانت وراء تدهور الإمامة الإباضية. وحين يتكلم عن النزاع بين الإمام عزان بن تميم ومنافسه الحوراي بن عبدالله الحداني وأدى إلى وقعة القاع سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م فيقول: "فاقتتلوا قتالاً شديداً وحملت اليحمد والعتيك في الميمنة والقلب بنو هناءة وساير مالك بن فهم على الميسرة.. وانهزمت النزارية هزيمة لم ير أقبح منها وأسر منهم خلق وقتل منهم في المعركة ستمائة رجل وقتل من اليمانية أصحابهم خمسة وثمانون رجلاً".

ويعلق العوتبي قائلاً: أن هذه الواقعة من الوقائع المشهورة والمذكورة بعمان. وتستمر النزاعات القبلية كما يصورها العوتبي بين بني هناءة وبني الحارث الأزديين. وحين يتكلم عن سعد بن غسان الهنائي يقول: وهو الذي وقع بنزوى ونهبها وهزم بني نافع وكانت الدايرة على بني نافع وبني هميم بعد أن قتل منهم خلق كثير.

وهكذا يوضح لنا العوتبي من خلال روايات كهذه ولاءات القبائل وتكتلاتها مع الدعوة الإباضية أو مع السلطة العباسية بتفصيل لا نجده في مصادر متأخرة اعتمدت على العوتبي مثل الأزكوي والسالمي.

ويصف العوتبي موقف أهل عمان من محاولة العباسيين السيطرة على عمان في أواخر أيام الإمامة الإباضية الثانية فيقول: "واتصل الخبر بأهل عمان من كل جانب ووقع الخلف والعصبية بين أهلها وكانت النزارية ومن كان على رأيهم في حزب واليمانية في حزب وتخاذل الناس عن الإمام عزان ابن تميم وانتقضت الأمور عليه، فخاف أهل صحار وما حولها من الباطنة فخرجوا بأموالهم وذراريهم وعيالاتهم إلى سيراف والبصرة وهرمز وغير ذلك من البلدان.

ويصف العوتبي فزع الناس من عواقب الأمور بعد سيطرة العباسيين وهجرة العديد من العوائل من عمان: "وفي تلك السنة خرج سليمان بن عبدالملك بن بلال السليمي (أزدي) بولده وجميع عياله وحرمه ومن خف معه من قومه فركبوا البحر في بعض السفن حتى وصلوا إلى هرمز فتحصن بها وأقام هناك".

ويشير إلى أن والي العباسيين محمد بن بور قام ببعض الأعمال الانتقامية فأحرق الكتب وخرب الأنهار للضغط على العمانيين وتخويفهم.

ولا يهتم العوتبي بالشخصيات السياسية فقط بل أنه يشير إلى العلماء أيضاً. فقد ذكرنا إشارته إلى حملة العلم والدعاة الإباضية وترجمته لهم. وهو يقول مثلاً عن أحد العلماء: "ومنهم (من الأزد) الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد بن بركة العالم رحمه الله وهو العالم المشهور والبليغ المذكور صاحب كتاب الجامع وكتب التعبيرات ومسائل أصول الدين وغير ذلك من مسائل الفروع والحلال والحرام وكتاب المبتدأ ومنزله من عمان بقرية بهلا.

وهو الحامل للعلم عن الشيخ ابن مالك غسان بن محمد بن الخضر وحمل عن الشيخ أبو الحسن علي بن محمد البسيوي العماني".

والواقع أن العوتبي ركز على أحداث عمان وقبائلها وخاصة الأزدية منها. فهو ميال للأزد يفتخر بهم ويوضح إنجازات رجالاتهم، كما وأنه يذكر علماء الدعوة الإباضية

ويترجم لهم. على أن الواضح هو عدم تحيز العوتبي فلا يبدو أن له انتماء سياسي أو عقائدي حين يتكلم عن الصراعات السياسية أو العقائدية في عمان. ومع أن القبيلة التي ينتمي إليها كانت تساند اليحمد فيبدو أن هذا الولاء لم يكن سياسياً لهذه القبيلة بل كان ارتباطاً قبلياً. ومن الواضح أنه خصص أكثر من ثلث كتابه لعمان وأحداثها، ونستطيع أن نقتبس منه روايات متسلسلة وجيدة عن أحداث عمان حتى بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ويبدو في رواياته أكثر وضوحاً وتفصيلاً أحياناً من الأزكوي والسالمي. ومقارنة بسيطة تظهر مدى اعتماد الأزكوي والسالمي على روايات العوتبي خلال تلك الفترة المبكرة في تاريخ عمان.

وفي الإمكان القول دون تحفظ بأن أنساب العرب يقدم معلومات أصيلة في تاريخ عمان لا نجدها في مصدر آخر. إلا أن هذه المعلومات مبعثرة ومتفرقة بين طيات الكتاب ذلك لأن الكتاب مرتب على الأنساب. كما وأن المعلومات في آخر المخطوطة ناقصة أو مشهوة. ويرى ولكنسون بأن النسخة الأصلية التي نقلت عنها النسخ الأخرى ربما كانت مشوهة أو ناقصة ولذلك فإن كل نسخ المخطوطة ليست كاملة.

ومن سوء الصدف أن يتكلم العوتبي عن الأزد في آخر المخطوطة ولذلك فإن بعض الأوراق مفقودة أو مشوهة. ورغم أن العوتبي يشير بأنه سيكتب تاريخ عمان حتى سنة ٣٤٥هـ أي منتصف القرن العاشر الميلادي فإن ما كتبه لا يتعدى القرن التاسع الميلادي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أنساب العرب يتضمن تراجم وسير لشخصيات تعود إلى القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر الميلادي، كما ويتضمن أخباراً من مصادر غير عمانية مثل الأندلسي والحريري. وأكبر الظن أن هذه المعلومات أضيفت إلى المخطوطة فيما بعد وهي ليست منها خاصة وأن العوتبي لم يعش حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر أو بداية القرن الثاني عشر الميلادي.

يستقي العوتبي معلوماته من مصادر عديدة لعل أبرزها ابن الكلبي إضافة إلى

مصادر محلية لا يذكرها في الغالب. ويبدو أنه اعتمد على رواة محليين أخذ منهم شفاهاً فيما يتعلق بالتكتلات القبلية في عمان، وهو يشير أحياناً فيما يتعلق بالدعوة الإباضية إلى بعض العلماء مثل أبي الحسن البسيوي وسيرته ولا بد أنه استقى معلومات أخرى من سير أخرى في تاريخ عمان.

يبدو أثر العوتبي واضحاً في العديد من مصادر التاريخ العماني التي تلته ونقلت منه مثل الأزكوي في كشف الغمة وابن رزيق في الصحيفة القحطانية والسالمي في التحفة. ويلاحظ بأن الأزكوي نقل الباب الرابع المتعلق بهجرة الأزد إلى عمان من العوتبي رغم أنه صاغ بعض الجمل صياغات جديدة. واستمر الأزكوي معتمداً على العوتبي في الأحداث التي لحقت ذلك.

* * *

المبحث الرابع

(٤) التدوين التاريخي في إطار العهود والسلالات والأسر الحاكمة:

اهتم مؤرخو هذا النمط من التدوين بعهد أو أكثر من عهود الخلفاء أو السلاطين والحكام، وكرسوا جهدهم للكتابه عن ذلك العهد مثل الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز أو الخلفاء العباسيين مثل الراضي والمتقي والناصر والمستنصر أو السلطان صلاح الدين الأيوبي أو السلطان المملوكي الظاهر بيبرس. وكرس قسم آخر من المؤرخين الكتابة على أسرة من الأسر التي حكمت في منطقة معينة من ديار الإسلام، أو دونوا أخبار وسياسات وإنجازات دولة من الدول الإسلامية فأحاطوا بجوانبها المختلفة. ويلاحظ أن تاريخ الأسر الحاكمة يختلط بتاريخ دولة الإقليم الذي حكمت فيه هذه الأسر فيغدو في هذه الحالة نموذجاً للتاريخ المحلي أيضاً.

إن هذه الكتب كثيرة ومتنوعة وشملت أقاليم إسلامية عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الصولي (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) وكتابه في أخبار الخليفتين العباسيين الراضي والمتقي بالله.
- بهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) سيرة صلاح الدين الأيوبي الموسومة (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).
- ابن زولاق (ت ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م) سيرة الأخشيد حاكم مصر.
- عز الدين ابن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) الروض الزاهر في سيرة الملك

الظاهر (تاريخ السلطان المملوكي الظاهر بيبرس).

- ابن قيصر (ق ١٢ هـ/ ق ١٨م) سيرة الإمام العادل ناصر بن مرشد اليعربي.
- ابن قاضي شهبة (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي).
- المقرّيزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.
- ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.
- ابن عذاري المراكشي (القرن ٧ هـ/ ١٣م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.
- المقرّي (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب.
- محمد بن عاصم الغرناطي (ت ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى (تاريخ مملكة غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري).
- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية.
- أبو شامة، (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.
- المقرّيزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) السلوك في معرفة دول الملوك (تاريخ الفترة المملوكية خاصة).
- محمد بن إبراهيم الزركشي (ت ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.
- ابن الصيرفي (ت ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية.
- ابن القنفذ (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.

- ابن إياس (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) بدائع الزهور في وقائع الدهور.
- ابن رزيق (ق الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي) الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان.
- لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) اللمحة البدرية في الدولة النصرية.
- ابن حيان (ت ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) أخبار الدولة العامرية.

وغيرها كثير وسنختار عدداً من النماذج محاولين تنويعها من ناحية الأسر الحاكمة والدول:

ولعل أول ما يجلب الانتباه هو كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) ويتناول دولة نور الدين محمود بن زنكي ودولة صلاح الدين الأيوبي، ويغطي الفترة بين ٥٤٠هـ/١١٤٥م – ٥٨٩هـ/١١٩٣م، ومؤلفه من المحدثين والفقهاء الكبار في دمشق، هو أبو شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي(١). يرجع أصله إلى القدس حيث كان جده إمام مسجد قبة الصخرة وقتل بعد الغزو الفرنجي البربري عليها سنة ٤٩٣هـ فنزحت الأسرة إلى دمشق واستقرت فيها.

انصرف أبو شامة رغم فقر أسرته إلى الدراسة والتحصيل في العلوم الدينية واللغة، ثم اهتم بدراسة التاريخ فتوسعت ثقافته وزاد التاريخ من سعة أفقه، فغدا موسوعياً يأخذ من كل علم بطرف ويؤلف في كل علم. وكان من أساتذته أو شيوخه علم الدين السخاوي وعز الدين بن عبدالسلام.

عمل أبو شامة مدرساً في مدارس دمشق المشهورة، وكرس جهده للعناية ببعض

---

(١) عن أبي شامة انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٥٢. السيوطي، طبقات الحفاظ، ج١٤، ص١٠. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص٢٥١. المقرّيزي، الخطط، ج١، ص ٤٦. راجع كذلك شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٢٦٦ فما بعد. حاطوم، المدخل إلى التاريخ، ص٣٠٥-٣١١.

البساتين التي يمتلكها، ولذا لم يكن له طموح في المناصب الحكومية. وامتدحه السبكي في طبقاته فقال عنه: "شيخ الإسلام والمسلمين وسلطان العلماء"[١]. إلا أن السخاوي صاحب (الإعلان بالتوبيخ) انتقده مع مؤرخين آخرين مثل المقرّيزي[٢].

واجه أبو شامة محنة كبيرة مع دخول المغول إلى دمشق ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م فقد أرادوا سجنه ولكنه افتدى نفسه بالمال. ولم يلبث أن هوجم في داره سنة ٦٦٥هـ وقتل على رواية، أو توفي بعد ذلك بشهرين في رواية أخرى.

والكتاب الذي يهمنا من تأليف أبي شامة هو كتاب الروضتين وقد وصفه شاكر مصطفى[٣] فقال: "إن أبا شامة استطاع في مهارة بارعة جداً أن يؤلف كتاباً متوازناً كاملاً شاملاً في تاريخ الفترة الممتدة بين مطلع العهد النوري (حوالي سنة ٥٤٠ هـ) إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ وذلك عن طريق جمع مقتطفات حسنة الاختيار محبوكة الرصف بعضها وراء بعض اقتطفه من مختلف المصادر المعاصرة بمنتهى الذكاء والدقة. وهكذا جاء الكتاب مجموعة من حوالي ألف قطعة مقتبسة أخذت عن ٢٢ مرجعاً. كان اعتماده فيها بالدرجة الأولى على العماد الأصبهاني ووثائقه وعلى القاضي الفاضل ثم بهاء الدين بن شداد القاضي ثم ابن الأثير ثم ابن أبي طي ويأتي بعد ذلك ابن القلانسي وابن القادسي وعمارة اليمني وأسامة بن منقذ وابن عساكر ثم المؤلفون الآخرون.

وبعض المصادر التي اعتمدها أبو شامة ضائعة، وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتماد على الوثائق فلديه منها ما يزيد على ٢٠٦ وثائق يأتي بها في مواضعها لتوثيق تاريخه، وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى، وإذا كانت بعض المقتبسات لا تزيد عن سطر أو اثنين وبعضها يمتد صفحات تصل أحياناً إلى ٢٧ صفحة، فإن أبا

---

(١) السبكي، طبقات الشافعية، القاهرة، ١٩٠٥م –١٩٠٦م.

(٢) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، (ضمن كتاب روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين).

(٣) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٢٦٦.

شامة فيما بين هذه وتلك واضح الشخصية والوجود رغم هذه المقتبسات.ينقد ويناقش ويضيف ويوضح في إيجاز ودقة واستشهاد بما شاهد أو عرف أو سمع أو باللجوء إلى المنطق. وهذا بدوره مما ميز الكتاب وزاد في قيمته كمرجع موثوق. والكتاب مطبوع معروف." .

وقد ذيل أبو شامة على كتابه فألف (ذيل كتاب الروضتين) وصل الأحداث ما بين سنة ٥٩٠ هـ إلى تاريخ وفاته سنة ٦٦٥ هـ وقد أكثر فيه من التراجم ولكنه ذكر أحداث تلك الفترة الكثيرة القلق والاضطراب في حدودما عرف وشهد سنة بعد سنة. لكن الذيل أقل قيمة تاريخية من الروضتين، وهو مطبوع.

ولأبي شامة مشاركة تاريخية أخرى تجلت في اختصاره لتاريخ ابن عساكر، فقد اختصره مرتين الأولى في عشرين (أو ١٥ مجلداً) والثانية في خمس مجلدات وقد ضاع المختصران.

ولأبي شامة كتاب عن الفاطميين الذين حكموا مصر يظهر فيه وجهة نظر معادية لهم مؤكداً وجهة النظر العباسية في ذلك.

لقد وجه أبو شامة في كتابه الروضتين اهتماماً ملحوظاً إلى شخصيات ثلاث برزت في تاريخ الإسلام في تلك الفترة وهي: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي الذين نجحوا في توحيد المنطقة وتصدوا للغزو الفرنجي الصليبي. على أن المؤرخ ابن شامة تناول موضوعات ومظاهر تاريخية أخرى ضمن كتابه مثل أحداث العراق والحجاز واليمن المهمة، أو الإشارة إلى وفيات الخلفاء العباسيين ووفيات العلماء البارزين حتى ولو كانوا خارج بلاد الشام ومصر. كما عالج موضوعات تتعلق بمؤسسات مهمة مثل الجيوش وأسلحتها والسفن الحربية والقلاع والحصون مستعيناً بالوثائق الرسمية والأشعار التي تسجل الانتصارات وتهنئ السلاطين الذين حققوا الانتصار من خلال الوحدة وتأييد الناس والعلماء والفقهاء إلى إجراءات الدولة. ويرى

نور الدين حاطوم[1] أن أهمية كتاب الروضتين لأبي شامة هو في تتبعه الدقيق لجهود نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بحيث جعل منهما مثلين يُحتذى بهما مثلما احتذت الأجيال بالعمرين في زمانهما.

أما ابن واصل[2] جمال الدين محمد بن سالم المتوفى (٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨م) والذي مارس التدريس في مدينة حماة وأصبح قاضياً للقضاة في القاهرة، كما أوفده السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سفارة إلى ملك صقلية وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فهو مؤرخ آخر جذبه التاريخ الأيوبي وما حفل به من إنجازات حضارية وسياسية فألف كتاباً في تاريخ الأسرة الأيوبية سماه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" تناول فيه تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والأحداث الكبيرة التي وقعت في عصرهم. وكان ابن واصل موسوعياً شملت معرفته الفقه والرياضيات والفلك، كما شهد التحولات السياسية من الأيوبيين إلى المماليك ثم سقوط العباسيين وانتقالهم إلى القاهرة، كما شهد هزيمة الصليبيين في دمياط بمصر.

❖ ويأتي أبوعبدالله محمد بن عذارى المراكشي[3] مؤرخاً بارزاً في تاريخ المغرب والأندلس والأسر التي توالت على الحكم فيهما وكتابه (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، توفي ابن عذارى في أواخر القرن السابع الهجري (حوالي ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م).

طبع المستشرق دوزي كتاب (البيان المغرب) في جزئين محققين ١٨٤٩م الأول: يشمل أخبار المغرب حتى سنة ٦٠٢هـ. والثاني: يضم أخبار الأندلس حتى سنة ٣٨٧هـ. وظهر بعد ذلك أن هذا الكتاب المحقق ناقص فقام المستشرقان كولان وليفي بروفنسال بتحقيق الأجزاء الثلاثة الأولى منه. أما الجزء الرابع فقام بمراجعته وتحقيقه إحسان

---

(١) حاطوم، المدخل إلى التاريخ، ص ٣٠٥ فما بعد.

(٢) عن ابن واصل راجع: نكت الهميان، ص٢٥١. بغية الوعاة، ص ٢٤. ابن الوردي، ج٢، ص٢٤٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٨٥. حاطوم، المرجع السابق، ص٣١٢. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٣٤-٣٥.

(٣) عن ابن عذارى المراكشي، انظر: مقدمة دوزي في تحقيقه لكتاب البيان المغرب من ثلاثة أجزاء، ١٨٤٨-١٨٥١م.

عباس ونشر ببيروت سنة ١٩٨٠م. وهناك طبعة أقدم للكتاب سنة ١٩٥٠م.

أما سبب تأليف الكتاب فيقول ابن عذارى نفسه[١]: "لما كلفت بأخبار الخلفاء الأئمة، والأمراء بالبلاد المشرقية والمغربية، وما والاهما من الأقطار، وولعت بالمناظر في ذلك مع الفضلاء والأخلاء ذوي الأقدار والأخطار، طلب بعضهم إلي، ممن يجب علي إكرامه، أن أدون له كتاباً مفرداً في أخبار ملوك البلاد المغربية على سبيل الإيجاز والاختصار، ولازمني في طلبه مراراً، فلم يمكن التوقف في ذلك ولا الاعتذار، وحملني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار: فجمعت له في هذا الكتاب نبذاً ولمعاً من عيون التواريخ والأخبار،... ما أجرى الله به تصاريف الأقدار فيما مر من الأزمنة والأعصار في بلاد المغرب وما والاها من الأقطار...".

ويشير المؤلف إلى أنه جزأه إلى أجزاء كل جزء كتاب قائم بذاته يضم دولاً وأسراً حكمت المغرب والأندلس، ضم الجزء الأول منه أخبار أفريقية (المغرب العربي) من أيام الفتح الأولى ثم الأمويين ثم الإمارات الصفرية والإباضية ثم الحكم العباسي ثم الأغالبة وأخبار (بني عبيد) الفاطميين وأخبار الصنهاجيين والزناتيين والحماديين حتى ظهور دولة المرابطين.

أما الجزء الثاني فيختصر أخبار الأندلس (إسبانيا) منذ الفتح العربي الإسلامي والخلافة الأموية ومن ثار عليهم من الثوار الأندلسيين ، ثم الدولة العامرية، وأخبار ملوك وطوائف حتى دخول المرابطين إلى الأندلس سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. أما الجزء الثالث فيختصر أخبار المرابطين ثم الموحدين والنزاع بين الدولتين –سمح الله لهم– إلى حين انقراض المرابطين وبداية الموحدين وفتوحاتهم في الأندلس والمغرب حتى انقراض دولتهم واستيلاء المرينيين على الحكم. أما الجزء الرابع فيشمل مرة أخرى أخبار المرابطين في المغرب والأندلس وأخبار يوسف بن تاشفين خاصة وفيه معلومات فريدة لفقدان مصادرها الأصلية، كما يقول محقق هذا الجزء.

---

(١) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (المقدمة)، بيروت، د.ت.

أما المصادر التي اعتمدها ابن عذاري فتتراوح بين تاريخ الطبري والرقيق القيرواني والقضاعي وكتاب المقتبس ومن مختصري عريب وابن حبيب وابن حزم وذخيرة ابن بسام وأخبار الدولة العامرية لابن حيان ومن "كتاب وجدته أو تعليق، ومن شيوخ أخذت الأخبار الوثيقة عنهم بتحقيق، والله الهادي إلى سواء الطريق"(١).

❖ أما ابن القنفذ القسنطيني(٢) المتوفى سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧م فهو أبو العباس أحمد بن حسين الذي ألف كتاباً عن الحفصيين سماه (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) وأهداه إلى السلطان أبي فارس ومن هنا جاءت تسميته (الفارسية). وكان ابن القنفذ على علاقة وثيقة بالأسرة الحاكمة الحفصية، وتقلد الخطابة في جامع القصبة ثم أصبح قاضياً ومفتياً.

تناول الكتاب تاريخ الدولة الحفصية منذ تأسيسها حتى ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ورتبه على السنين، واعتمد المؤلف بصفة خاصة على وثائق الدولة الرسمية ومن هنا تأتي أهمية معلوماته. والملاحظ أن ابن القنفذ من أبناء قسنطينة لذلك اهتم بأخبارها والحديث عنها. وقد حقق الكتاب في تونس ١٩٦٨م.

❖ أما المقرّيزي(٣) تقي الدين أحمد الشامي الأصل المتوفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م فقد نشأ في القاهرة ودرس فيها. وقد اشتهر بتأليفه العديد من الكتب بسبب توفر الوقت الكافي لديه لاعتزاله الناس وقلة ظهوره في المجتمع على عكس معاصره ابن خلدون الذي كان كثير التجوال مخالطاً للسلطان قليل التأليف رغم أهمية ما ألفه.

لقد أشرنا إلى المقرّيزي سابقاً حين تناولنا محور التاريخ العام العالمي الحضاري حيث كان كتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) يقع ضمن ذلك المحور. أما في هذا النمط فنشير إلى كتابيه الموسومين: الأول (السلوك لمعرفة دول الملوك)

---

(١) المصدر السابق (المقدمة)، الجزء الأول، كذلك: حاطوم، المرجع السابق، ص٢٧٥.

(٢) عن ابن القنفذ انظر: مقدمة كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية.

(٣) راجع عن المقرّيزي: ابن حجر العسقلاني، ذيل الدرر الكامنة. السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١٣٠. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص١١٥. التبر المسبوك،ص٢١. البدر الطالع، ج١، ص ٧٩.

الذي يتناول تاريخ سلاطين المماليك. أما الثاني فهو كتاب (إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) ويتناول تاريخ الخلافة الفاطمية بمصر وبلاد الشام. ويلاحظ أن المقرّيزي هنا على عكس السيوطي وأبي شامة يعترف بنسبهم ويفصل في سياستهم.

❖ أما الغرناطي[1] أبو يحيى محمد بن عاصم المتوفى سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م فكتابه الموسوم (جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى) فهو يحتوي معلومات تاريخية مهمة عن مملكة غرناطة النصرية بالأندلس في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ويشير صلاح جرار محقق الكتاب إلى أهميته فبالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً عن تاريخ بني نصر في غرناطة، فإنه يضم معلومات عن تراجم الأعلام في تلك الفترة من وزراء وأدباء وقادة وأمراء وغيرهم. كما يضم معلومات كثيرة عن سيرة المؤلف الغرناطي الذاتية وأشعاره وأدبه. وبعد هذا وذاك فإن للكتاب قيمة إنسانية سامية لأن هدف مؤلفه كان مساعدة من داهمهم الزمان بصروفه ومصائبه فقدم لهم النصائح وأرشدهم إلى سبل النجاة أو التخفيف من المحن وعزاهم بما أصاب سابقيهم ومعاصريهم من تلك الابتلاءات. فموضوع الكتاب الرئيسي هو المحن التي تتعرض لها الدول والمجتمعات والأفراد وتدخل المعلومات التاريخية والأدبية ضمن هذا الإطار من أجل أخذ العظة والعبرة منها. والأخبار التي يوردها هي مزيج من المشرق والأندلس.

كانت حياة المؤلف الغرناطي في عهد الاضطراب السياسي في الأندلس وفي غرناطة بالذات لم تنته إلا بسقوط غرناطة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م بأيدي الإسبان. وقد شارك المؤرخ الغرناطي في الجهود الرامية لجمع الكلمة ورص الصف في مواجهة العدو ولكن الانحلال السياسي كان أعمق من كل الجهود التي ذهبت سدى.

❖ ابن إياس[2] محمد بن أحمد الحنفي أبو البركات الناصري (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) مؤرخ مصر، كتب تاريخاً شاملاً عنها منذ البدء حتى ٩٢٨هـ، ولم يهمل

(١) عن أبي يحيى الغرناطي، انظر كتابه: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى (مقدمة) المحقق، عمان، ١٩٨٩م.
(٢) راجع: نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

أخبار البلاد المجاورة لها. أما اسم الكتاب فهو (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، والذي يهمنا منه أنه كتب سجلاً لتاريخ مصر مفصلاً في الفترة الأخيرة من عصر سلطنة المماليك الجراكسة والسنوات الأولى من الحكم العثماني، فيسرد الأخبار سنة بعد سنة ويوماً فيوم. وباعتباره المؤرخ الوحيد الذي كتب عن هذه الفترة فإن ما أورده من أخبار متنوعة سياسية واجتماعية وإدارية واقتصادية وثقافية وعمرانية ونواحي الحياة الدينية والأدبية تعد ذات أهمية كبيرة.

ويلاحظ عمر عبدالسلام تدمري[١] أن أخبار مصر في كتاب ابن إياس تطغى على أخبار بلاد الشام والبلدان الأخرى، ويعزو سبب ذلك إلى عدم سفر المؤلف خارج مصر عدا الرحلة لأداء فريضة الحج.

يبدي إبن إياس مقدرة نقدية في كتابه وخاصة حين يتكلم عن أسباب فشل المماليك في مجابهة العثمانيين، ويرى الفساد الإداري والمالي وعدم الاهتمام بتسليح العسكر تسليحاً حديثاً يعتمد على المدفعية والبارود هو الذي أدى إلى هزيمة الدولة المملوكية أمام الجيش العثماني.

❖ أما المقرّي[٢] فهو نموذج آخر من المؤرخين المغاربة ـ الأندلسيين ـ الذين اهتموا بتاريخ الأسر والسلالات الحاكمة. وقد دمج المقرّي في كتابه الموسوم (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب) بين تاريخ الأندلس وبين سيرة الوزير ابن الخطيب. أما البلدة التي ولد فيها المؤرخ فهي بلدة صغيرة قرب تلمسان في الجزائر، وكانت وفاته ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م في القاهرة.

والمقرّي هو الفقيه الشيخ أبو العباس أحمد بن العباس. وكان على المذهب المالكي مثل غالبية أهل المغرب. وفي بدايات شبابه انتقل إلى مدينة فاس لطلب العلم من

---

(١) عمر عبد السلام تدمري، المؤرخ ابن الحمصي وكتابه. ضمن بحوث عن سيد مقبول أحمد، منشورات جامعة آل البيت، ١٩٩١م.

(٢) عن المقرّي راجع: مقدمة التحقيق لكتابه نفح الطيب، طبعة ١٩٨٨م.

شيوخها وفي مقدمتهم المفتي والخطيب المشهور محمد بن قاسم القيسي. ثم ذهب إلى مدينة مراكش وتلقى من علومها وزار قبور علمائها اللامعين، ثم عاود الرجوع إلى فاس مستقراً فيها حيث أصبح قاضياً ومفتياً وخطيباً وبقي كذلك حتى ارتحل إلى المشرق في ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م.

كانت مصر أول محطة له في المشرق حيث وصلها سنة ١٠٢٨م فأقام بها مدة قليلة حيث ارتحل قاصداً الحجاز فأقام في مكة منتظراً وقت الحج وبعد الحج ثم قصد المدينة المنورة (طيبة) وعاد إلى مصر ١٠٢٩هـ وتزوج فيها. وكان دائم الذهاب إلى الحرمين الشريفين والقدس حيث كرر زيارة هذه المدن المقدسة الثلاث مرات عديدة يعود بعدها إلى القاهرة.

وفي إحدى زياراته إلى القدس، قرر زيارة دمشق فذهب إليها وأقام بها، ثم عاود زيارتها مرة بعد زيارته للقدس الشريف سنة ١٠٣٩هـ وكان فيها حي للمغاربة الذين أنزلوه في مكان بسيط فأرسل إليه أحمد بن شاهين مفتاح غرفة في إحدى مدارس دمشق فأعجبته وظل مقيماً بها. وقد مدح المقرّي أهل دمشق ووصف جمال المدينة.

وتكونت بين المقرّي وشيوخ دمشق وعلمائها مودة وإعجاب، وجرت بينهم مطارحات ونقاشات وكان كعادته في المغرب يذكر العلماء من السلف ويزور قبورهم في دمشق فقد زار قبر الصوفي محي الدين بن عربي. وبعد أن أقام في دمشق حوالي الأربعين يوماً عاد إلى مصر، وفي طريق عودته عرج إلى مدينة غزة بفلسطين في استضافة أحد علمائها البارزين.

وبعد أن أقام في مصر مدة عاود السفر إلى دمشق سنة ١٠٤٠م واستقبل بحفاوة بالغة من قبل العلماء الدمشقيين للمرة الثانية، ومكث مدة من الزمن عاد فيها إلى مصر ثم قرر العودة إلى دمشق والاستقرار فيها بقية حياته ولكن الموت كان أسرع إليه حيث كانت وفاته بالقاهرة في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ ودفن بمقبرة المجاورين.

كان المقرّي كثير الإنتاج غزيره، وذلك لأن معارفه كانت واسعة وقد تميز بشعره ونثره، وقد لا يرتقي شعره ليصل إلى مستوى فحول الشعراء أما نثره فيمتاز بإشراق الديباجة والقدرة على التصرف في استعمال الألفاظ. يقول عنه المحبي في خلاصة الأثر: "حافظ المغرب لم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة، وكان آية ساهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ومعجزاً باهراً في الأدب والمحاضرات، وله المؤلفات الشائعة"[١].

وبقدر علاقتنا بالأمر فإن كتابه (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطبي وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب[٢]) هو النموذج الذي يتفق مع نمط التدوين التاريخي الذي نتناوله في هذا المحور. فقد طلب منه زملاؤه في دمشق أن يكتب لهم كتاباً عن الوزير لسان الدين بن الخطيب، وذلك لشوقهم إلى حفظ أخباره وسيرته بسبب كثرة ما حدّثهم عنه. وبعد أن جمع أخبار ابن الخطيب أراد أن يقرنها بتاريخ الأندلس وأخبارها. وهذا ما فعله حيث قسم الكتاب إلى تاريخ الأندلس وأهلها وسيرة ابن الخطيب وأخباره. وقد استفاد من كل المصادر التاريخية والوثائق الأندلسية التي استطاع الحصول عليها حين كان في مصر. وبذلك ضم الكتاب معلومات تاريخية واجتماعية وأدبية وجغرافية غزيرة، خاصة وأن الكتاب يعد المرجع الوحيد لتاريخ الفترة الأخيرة للأندلس الإسلامية ذلك أن الوزير ابن الخطيب كان وزيراً في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وهي من أواخر الممالك الإسلامية في الأندلس والكتاب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: وينقسم إلى أبواب.

الباب الأول: في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور

---

(١) راجع مقدمة الطبعة المصرية. كذلك حاطوم؛ المرجع السابق، ص ٢٧١. عمر عبدالسلام التدمري، المؤرخ (ابن الحمصي) مرجع سابق.

(٢) حقق الكتاب في عشرين جزءاً في مصر ضمن سلسلة المصادر العربية. ثم حقق في بيروت، ١٩٦٨م، وأعيد نشره ١٩٨٨م.

خيرها وكمال استوائها.

الباب الثاني: في إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير.

الباب الثالث: في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد.

الباب الرابع: في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصرها للأعداء قاهرة.

الباب الخامس: في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية.

الباب السادس: في ذكر بعض الوافدين على الأندلس.

الباب السابع: في نبذة عما مَنّ الله تعالى به على أهل الأندلس.

الباب الثامن: في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها.

القسم الثاني: في التعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أنبائه التي يروق سماعها ويتأرجح نغمها ويطيب موصله إلى جنان أدب قطوفها دانية وكل غصن منها رطيب.

الباب الأول: في أولية لسان الدين وذكر أسلافها الذين ورث عنهم المجد.

الباب الثاني: في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته.

الباب الثالث: في ذكر مشايخه الجلة هداة الناس ونجوم الحلّة.

الباب الرابع: في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية.

الباب الخامس: في إيراد جملة من نثره والذي عبق أريج البلاغة من نفحاته.

الباب السادس: في مصنفاته في الفنون.

الباب السابع: في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه.

الباب الثامن: في ذكر أولاده الرافلين في حلل الجلالة.

وأخيراً وليس آخراً تناول المؤرخ العماني ابن قيصر كنموذج لهذا النمط من التدوين التاريخي وهو التاريخ للعهود والأسر الحاكمة في كتابه عن (الإمام العادل ناصر بن مرشد اليعربي) (١).

وابن قيصر هو عبدالله بن خلفان بن قيصر الصحاري من مؤرخي القرن ١١ هـ/ ١٧م. وتأتي أهميته في معاصرته للإمام ناصر بن مرشد فكتب سيرته، وابتدأ بقوله: "... اعلم رحمك الله أن هذا خبر سيرة مولانا إمام المسلمين وسمام المجرمين ونور رب العالمين الذي أقامه الله بالحق والبيان وكان عاملاً بما نص به القرآن ومهتدياً بسنة رسول الله في السر والإعلان، ومن نور الله بوجوده إقليم عمان وجعله ركناً للدين والإيمان إمام المسلمين ناصر بن مرشد بن مالك.." (٢).

ثم يذكر المؤلف أن تأليف الكتاب كان بطلب وإلحاح من بعض الشيوخ والعلماء. والكتاب صغير يتألف من خمسين ورقة أي مائة صفحة محصورة في سيرة الإمام ناصر أول أئمة اليعاربة (١٠٣٤-١٠٤٨هـ/ ١٦٢٤-١٦٤٩م) مشيراً إلى كيفية انتخابه من قبل الإباضية ثم يرتب سيرته وأعماله على شكل موضوعات وفقرات، ويضمّن السيرة كعادة المؤرخين وأهل التراجم والسير مجموعة من القصائد الشعرية التي قيلت في مناسبات معينة مثل الانتصارات في المعارك وفتح المدن.

وابن قيصر لا يشير إلى مصادره ويكتفي بالقول مثلاً: " قال الراوي لهذه السير الحميدة". وتأتي أهمية الكتاب باعتباره الوحيد الذي دون سيرة الإمام في عهده حيث لم نعثر على ترجمة أخرى من الصنف نفسه ثم أنه كان معاصراً للإمام.

---

(١) راجع: فاروق عمر فوزي، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ المحلي العماني، بغداد، ١٩٧٥م.

(٢) ابن قيصر، الإمام العادل ناصر بن مرشد اليعربي، عمان، ١٩٧٧م.

ولا بد من الإشارة أن المؤرخ يبالغ أحياناً في ذكر منجزات الإمام ناصر ويطري في المديح عليه، ولذلك نجد المؤرخين الذين جاءوا بعده يعدّلون أو يحذفون من هذه الإشارات. ومن المؤسف أن ابن قيصر لا يشير إلى النشاطات البحرية وحروب الإمامة البحرية ضد الغزاة الأوربيين خاصة وأن سواحل عمان شهدت بوادر النشاطات الأوروبية الغربية في مياه الخليج. وقد اعتمد ابن زريق والأزكوي وهما من المؤرخين العمانيين الذين تلوا ابن قيصر على هذا المؤرخ في الفترة الأولى لعهد الإمام ناصر.

ويختم ابن قيصر كتابه بالاعتذار للقارئ من الخطأ والإيجاز "لأنه كان على غاية العجلة والأفكار بأسباب الدنيا مشتغلة". ويرى أنه ليس من أولي الرتب والدرجات الشامخة في العلم. وقد نشر الكتاب في عمان ١٩٧٧م.

* * *

المبحث الخامس

(٥) التدوين التاريخي في إطار التراجم:

يرى الباحثون المحدثون مثل هاملتون جب ونور الدين حاطوم[١] بأن هناك تساند واضح بين التاريخ والتراجم، كما يشيرون إلى أن كتب التراجم بدأت مبكرة ولكنها تبلورت وتنوعت في القرون الإسلامية المتأخرة، فكان الجهشياري (ت ٣٣١هـ) من أوائل من بدأ بالتراجم في كتابه (الوزراء والكتاب) مع أن كتابه كما أشرنا هو في التاريخ العام على الموضوعات.

اهتمت كتب التراجم بكتابة سيرة الشخصيات اللامعة والمتميزة في المجتمع في بلد من البلدان أو مدينة من المدن أو قرن من القرون أو في طبقة أو فئة من الفئات، وربما اهتمت بالترجمة للأسر والبيوت الحاكمة أو لبعض الحكام من هذه الأسر. وعلى العموم كرست كتب التراجم اهتمامها بتدوين أخبار مشاهير العلماء وإنجازاتهم في كافة نشاطات الحياة العلمية (علوم نقلية وعلوم عقلية) والإدارية والسياسية ونشاطهم في الحياة الاجتماعية والحرف والتجارة وما إلى ذلك، ولم تستثني الكتابة عن فئات المجتمع الفقيرة والمهن التي يتعاطونها. كل ذلك بتنسيق واضح وتبويب دقيق. ولا ننسى أن هذه الكتب بدأت في فترة النضج في التدوين التاريخي عند المسلمين وفي فترة الازدهار الحضاري حيث كان هناك العديد من الشخصيات اللامعة التي يمكن تدوين سيرتها وأعمالها.

---

(١) جب، المرجع السابق، ص ١٦٠. حاطوم، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

أما أهمية كتب التراجم فكبيرة ذلك أن المؤرخين عامة ومؤرخي تاريخ العلوم خاصة استطاعوا من خلالها الكتابة عن إنجازات الحضارة العربية الإسلامية في الميادين المختلفة الاجتماعية والإدارية والفكرية والنظم السياسية وكذلك تاريخ العلوم النقلية والعقلية عند المسلمين عبر القرون المتتابعة. ففي هذه الكتب كم هائل من المعلومات الحضارية لمن أراد البحث والاستقصاء في مجال من مجالات الحياة ومظاهر نشاط المجتمع. وهذا يدعونا إلى الرد على آراء بعض المستشرقين ومن تابعهم من الباحثين المسلمين بأن دور العرب والمسلمين كان مقتصراً على مجالات السياسة والحروب. فإذا كانت كتب التاريخ الحولي العام تؤكد على الأحداث السياسية والعسكرية أكثر من الإنجازات الأخرى فإن في كتب التراجم على اختلاف أنواعها كم هائل من الأخبار والمعلومات عن إنجازات المسلمين العلمية والحضارية وقد آن الأوان لسبر ما فيها من معلومات وتصحيح الرؤيا.

وتنقسم هذه المؤلفات إلى أقسام فهي: أما تراجم على الطبقات أو على الحروف المعجمية أو على الوفيات أو على القرون، أو على البلدان ولكل نوع منهجه الخاص به. وسنتكلم عن كل نوع بشيء من التفصيل.

المحور الأول:

(أ) أما التراجم على الطبقات : فقد أشرنا إلى الطبقات الكبرى لابن سعد باعتبارها بداية لكتب الطبقات وتبعه خليفة بن خياط في طبقات المحدثين، وتأتي أهمية كتابه بالإضافة إلى قدمه إلي كونه محدثاً ولم يتأثر كثيراً بمعاصريه من الإخباريين والمؤرخين، بل كتب وكأنه يعيش في عالم بعيد عن تأثيرهم. وتدفقت كتب الطبقات وازدادت مع مرور الزمن وظهر فيها تخصيص لفئة معينة من العلماء مثل:

أخبار القضاة لوكيع (ت ٣٠٦هـ/ ٩١٨م).

طبقات المعتزلة لعبدالجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م).

تاريخ علماء الأندلس لأبي الفرضي الأندلسي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م).

إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م).

وهناك سيل وافر من هذه الكتب عن الصحابة والمحدثين والفقهاء والمعتزلة والشافعية والصوفية والحنابلة والأطباء والحكماء والنحويين والشعراء والنبلاء ورجال المذاهب. يقول ابن المعتز في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء) موضحاً منهجه في التأليف: "... فخطر عليّ الخاطر من بعض الأفكار أن أذكر في نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس ليكون مذكوراً عند الناس... فنظرت أن أجمعهم في هذا الكتاب فرأيت الاختصار لأشعارهم عين الصواب. ولو تقصيت جميع ما لهم من الأشعار لطال الكتاب وخرج عن حد القصد فاختصرت ذلك ما كان شاذاً من دواوينهم وما لم يذكر في الكتب من أشعارهم واقتصرت على ما كان من مطولات قصائدهم"(١).

وسنتناول بشيء من التفصيل أربعة نماذج في هذا المحور وهي على التوالي: أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، وابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).

❖ أبو نعيم الأصبهاني(٢) فهو أحمد بن عبدالله الأصبهاني الحافظ الصوفي وسمي بذلك لحفظه القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وزهده في الدنيا، وقد قال عنه أصحاب الحديث "بقي الحافظ أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير لا يوجد شرقاً ولا غرباً أعلى إسناداً منه ولا أحفظ منه"(٣).

تجول أبو نعيم في أنحاء عديدة من دار الإسلام لطلب العلم حتى أصبح محدثاً

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، مصر ١٩٦٨م (المقدمة).

(٢) عن أبي نعيم الأصبهاني راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٦. الذهبي، ميزان الاعتدال، ج١، ص٥٢. لسان الميزان، ج١، ص ٢٠١. السبكي، طبقات الشافعية، ج٢، ص ٧. كذلك شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص٩٧-٩٨.

(٣) المرجع السابق نفسه.

ومفسراً ومؤرخاً. ودرس على أيدي العديد من العلماء البارزين، وأجازوا له التدريس والإفتاء ورواية الحديث. وقد صنف كتباً عديدة لعل أهمها: (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٣٨م كما طبع سنة ١٩٨٥م ويتناول تراجم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وخاصة المتصوفة والنساك والزهاد منهم. ويشتمل على ثمانماية ترجمة مقسمة إلى عشرة مجلدات ابتدأها بأبي بكر الصديق. وتراجم الكتاب على الطبقات من الصحابة والتابعين، ومن ثم يرتبهم على حروف المعجم، وشمل الرجال والنساء.وقد اختصر ابن الجوزي هذا الكتاب بكتاب سماه (صفوة الصفوة).

❖ أما ابن أبي أصيبعة[١] فهو موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي. ولد في دمشق في أسرة كانت تمارس الطب حيث كان أبوه من الكحالين اللامعين (طبيب عيون) في زمانه، ولا نعرف الكثير عن سيرة ابن أبي أصيبعة، على أن المستشرق ميرهوف[٢] استطاع جمع نتف وإشارات عن حياته من ثنايا كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)، ويظهر أن جده كان من الأطباء في عصر صلاح الدين الأيوبي، وأنه رحل معه إلى مصر حيث ولد له ابن سماه القاسم (أبو موفق الدين ابن أبي أصيبعة) وعمل في بيمارستانات دمشق والقاهرة، وولد موفق الدين في القاهرة.

لقد درس ابن أبي أصيبعة الطب على يد والده القاسم وكذلك على يد أطباء مهرة أمثال ابن البيطار ابن الدخوار والطبيب اليهودي عمران بن صدقة الذي كان يعمل مع ابن الدخوار في البيمارستان، وكانت له مكتبة زاخرة بالتآليف نجح ابن أبي أصيبعة في الاستفادة منها في تأليف كتابه آنف الذكر.

لقد كانت ممارسة ابن أبي أصيبعة للطب في بيمارستانات دمشق والقاهرة في

---

(١) عن ابن أبي أصيبعة، انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (بالألمانية)، ج١، ص ٣٢٦. كذلك حاطوم، المرجع السابق، ص٢٤٨-٢٦٦. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٢) انظر مقالة (ابن أبي أصيبعة) في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، (ص).١) .I) ج٢، ص٣٥٧.

العهد الأيوبي وصحبته لأطباء حاذقين تتلمذ على أيديهم من العوامل التي مكنته من النجاح كطبيب وكمؤرخ، فإذا كانت شهرته في زمانه ناجمة عن مهارته في علم الطب فإن شهرته عبر القرون كانت نتيجة لمعرفته بتاريخ الطب كما هو مدون في كتابه عيون الأنباء.

أما كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) فهو من أوسع المؤلفات في حقله، وقد ذكر فيه ما لايقل عن أربعمائة طبيب تعطينا فكرة واضحة عما وصل إليه المستوى الطبي من رفعة في الفترة الأتابكية والأيوبية نتيجة عناية سلاطين الدولة واهتمامهم ببناء المستشفيات (البيمارستانات). وقد تناول المؤلف في هذا الكتاب تراجم الأطباء منذ عهد الإغريق والرومان ثم أشار إلى أطباء العرب قبل الإسلام ثم الأطباء المسلمين وذكر الأطباء السريان في العصر العباسي والأطباء النقلة (المترجمين) الذين ترجموا الكتب الطبية الأجنبية إلى العربية في العصر العباسي الأول (عصر الترجمة) وأشار إلى أطباء المسلمين في مختلف أقاليمهم في العراق وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب وبلاد العجم والهند مع ذكر مؤلفاتهم. ولم يخلو كتابه كذلك من الملاحظات الاجتماعية والاقتصادية. وبعض أبيات من الشعر تقتضيها المناسبة وكذلك أخبار بعض الأدباء والصوفية. وقد أهدى الكتاب إلى أحد وزراء عصره.

وفيما عدا كتاب عيون الأنباء ألف ابن أبي أصيبعة كتباً أخرى نشير منها إلى كتاب واحد في التاريخ هو (المختار من عيون التاريخ) ولكن الكتاب مفقود[(١)].

التحق ابن أبي أصيبعة في أواخر حياته بأمير بلدة صرخد في بلاد الشام كطبيب خاص له، وقد توفي هناك.

❖ أما تاج الدين السبكي[(٢)]: فهو عبدالوهاب بن علي، قاضي القضاة. ولد بالقاهرة

---

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٢٦٨ فما بعد.

(٢) عن تاج الدين السبكي انظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر. ابن العماد، شذرات، ج٦، ص٢١٩. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١٠٨-١٠٩. الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٤١٠-٤١١. العزاوي، التعريف بالمؤرخين، ص١٩٦. صلاح الدين المنجد، معجم المؤرخين، ص١٩٩-٢٠٢. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص٨١ فما بعد.

ثم استقر مع أسرته في دمشق، وقد تلقى العلم من شيوخ دمشق أمثال الذهبي والمزي ومنح إجازة الفتيا ثم أصبح نائباً للقاضي ثم قاضياً.

كما درس في أهم مدارس مصر وبلاد الشام مثل المدرسة العزيزية والعادلية. ويبدو أنه صادف صعوبات في حياته مما حدا بالمؤرخ ابن كثير[١] بالقول: "جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله..." كما تقلب في مناصب عديدة بسبب حذقه في الفقه والحديث والخطابة واللغة العربية وبسبب قوة بديهته وذكائه. على أنه توفي مبكراً وهو لا يزال في الأربعينيات من عمره بسبب إصابته بالطاعون.

أما الكتاب الذي يهمنا من تآليفه العديدة فهو (طبقات الشافعية الكبرى) ترجم لفقهاء الشافعية في عهده وهي أوفى ترجمة حتى عهده وطبعت في عشر مجلدات بين سنتي ١٩٦٤-١٩٦٧م بالقاهرة، وهي آخر طبعة لهذا الكتاب. وللسبكي مختصرات لكتاب الطبقات فله الطبقات الوسطى وهي مختصر الكبرى وله الطبقات الصغرى وهي مختصر الوسطى، وله كتاب بعنوان: (معيد النعم ومبيد النقم[٢]) يشير إلى مائة واثنى عشر مثالاً في إمكان عودة النعم بعد زوالها.

- وأخيراً وليس آخراً نشير إلى ابن حجر العسقلاني[٣] فهو الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي الكناني العسقلاني المصري القاهري الشافعي. مؤرخ ومحدّث وقاضي مشهور. أما لقبه فهو نسبة إلى عسقلان في ساحل بلاد الشام، وقد هاجر أهله إلى الإسكندرية ثم القاهرة بسبب الحروب ضد الصليبيين، واشتغلوا بتجارة الكارمي بين الشرق والغرب مما جعلهم يتمتعون بثروة كبيرة إضافة إلى اشتهارهم بالعلم والأدب والتقوى. وقد ذهب ابن حجر في طفولته وشبابه مرات إلى الحج مع والده ثم مع وصيه وجاور بمكة، وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية، وأخذ العلم من شيوخها.

---

(١) راجع : السبكي، طبقات الشافعية، القاهرة، ١٩٦٤م، ج١ (المقدمة).

(٢) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٢٦٩.

(٣) عن ابن حجر العسقلاني، راجع: السيوطي، نظم العقيان، ص٤٥. التبر المسبوك، ص٢٣٠. الضوء اللامع، ج٢، ص٣٦. البدر الساطع، ج١، ص٨٧. لسان الميزان،ص٦. وقد ترجم العسقلاني لنفسه في رفع الأصر، ج١، ص ٨٥.

وقد سارع ابن حجر إلى دراسة العلوم الدينية وخاصة الحديث، إلا أن شيخه شمس الدين ابن القطان حبب إليه النظر في التواريخ وأثر عليه في التوجه للدراسات التاريخية وخاصة الجوانب الدينية من التاريخ.

أما سيرته العلمية، فبعد أن أذن له شيوخه في الإفتاء والتدريس غدا إماماً في جامع عمرو بن العاص وفي الجامع الأزهر ثم محاضراً في المدارس وأستاذاً للدراسات الحديثية في الخانقاه البيبرسية وقاضياً ومفتياً وداعية. ودرس كذلك الحديث والتفسير والفقه في دار الحديث الكاملية بالقاهرة.

وقد أشار محقق كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة[1]) إلى العصر الذي نشأ فيه ابن حجر العسقلاني وهو عصر المماليك في مصر وبلاد الشام، وأوضح أن سلاطين المماليك هيئوا البلاد لتحمل الزعامة الإسلامية وتشجيع الحركة العلمية والأدبية والدينية فهرع العلماء إلى مصر وبلاد الشام فوجودوا الأمان والرزق، "فقد رأى سلاطين المماليك أن لا شيء يقربهم إلى الشعب، ويوطد سلطانهم إلا أن يعظموا الدين وأهله، ويرفعوا من قدر العلم والعلماء، فأسسوا المدارس، التي أقبل عليها الطلاب ينهلون العلم من أصفى موارده، ويدرسون الفقه على مختلف مذاهبه؛ فكانت المدرسة الظاهرية، والمنصورية، والمؤيدية وغيرها.

وأنشئوا في كثير من المدارس خزائن كتب حافلة بالكتب الثمينة النافعة في شتى العلوم والفنون؛ فكان بالمدرسة الفاضلية خزانة بها ألف مجلد، وكان بالمدرسة الصاحبية البهائية خزانة كتب جليلة، وحوت المدرسة الظاهرية التي أسسها السلطان بيبرس خزانة كتب كانت تشتمل على كثير من أمهات الكتب في سائر العلوم، وبالمدرسة المحمدية خزانة كتب قال المقرّيزي في شأنها: ولا يعرف اليوم بديار مصر والشام مثلها، وبهذه الخزانة كتب الإسلام في كل فن".

وإذا كان لهذا العصر أن يزهى بشيء من مظاهر الحياة فإن التأليف أول ما يحق له

(١) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ط. الأولى، دار الجيل، ١٩٩٢م، (المقدمة).

أن يفخر به، فقد كثرت المؤلفات فيه كثرة مدهشة، وأقبل العلماء فيه على التدوين إقبالاً صرفهم عن مشاغل الحياة وشؤونها، وتوجهت نفوسهم إلى سد كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو مؤلفات، وتنافسوا في الإجادة، وتسابقوا في كثرة الإنتاج؛ ولا غرو فقد كانت مصر وبلاد الشام في هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم، وكانت القاهرة والإسكندرية ثم دمشق وحلب تموج بالعلماء والطلاب.

وأكبر الظن أن كثرة التأليف والإنتاج في هذا العصر كان من أسبابها: رغبة العلماء في إعادة ذلك التراث الذي عبثت به كوارث الغزو، وتجديد ذلك المجد الذي شيده المسلمون في دهور. فأخذوا يبذلون الجهد في التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسد التتار، وإنشاء كتب جديدة في اللغة والدين والأدب وغيرها.

وقد مال السلاطين من المماليك إلى العلم، وإغداقهم على العلماء، ورغبتهم في اقتناء الكتب النادرة وإنشاء الخزانات الجامعة لأنواع شتى من المؤلفات.

كما يمتاز هذا العصر بالكتب الجامعة، ومن أشهر مؤلفيها: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، وكتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، وشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، وكتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، ثم أبو العباس شهاب الدين أحمد النويري وكتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب). كما اشتهر من المؤلفين في هذا العصر ابن خلكان، وابن خلدون، والسيوطي، والفيروز أبادي، وعز الدين بن عبدالسلام، وابن حجر العسقلاني، ولسان الدين الخطيب، وغيرهم كثير.

أما منزلة ابن حجر العلمية فمعروفه في زمانه وبعد زمانه فقد وصل إلى مرتبة الذهبي وأثنى عليه شيوخه الذين تلقى العلم منهم.

فقد شهد له أستاذه الحافظ العراقي[1] بأنه أعلم أصحابه بالحديث، وقد سئل العراقي أيضاً: من تخلف بعدك؟ قال: ابن حجر.

---

(١) السيوطي، ذيل طبقات الحفاظ، ص ٣٨١.

ويقول الحافظ ابن فهد بن ترجمته[1]:وهو إمام علامة، حافظ محقق، متين الديانة، حسن الأخلاق، لطيف المحاضرة، حسن التعبير، عديم النظير، لم تر العيون مثله، ولا رأى هو مثل نفسه.

ويقول عنه ابن المناوي الشافعي في كتابه اليواقيت والدرر: شيخ الإسلام شهاب الدين أبو الفضل بن حجر، فريد زمانه، حامل لواء السنة في أوانه، ذهبي عصره، ونضاره وجوهره، مرجع الناس في التضعيف والتصحيح، وأعظم الشهود والحكام في التعديل والتجريح قضى له كل حاكم بارتقائه في علم الحديث إلى أعلى الدرج.

ويقول عنه السيوطي في كتابه ذيل طبقات الحفاظ[2]: "شيخ الإسلام، وإمام الحفاظ في زمانه، وحافظ الديار المصرية، بل حافظ الدنيا مطلقاً، قاضي القضاة".

ثم يقول السيوطي في ختام ترجمته: وإن يكن فاتني حضور مجالسه، والفوز بسماع كلامه والأخذ عنه، فقد انتفعت في الفن بتصانيفه، واستفدت منها الكثير، وقد غلق بعده الباب وختم به هذا الشأن.

ومما يدل على عظيم شأنه بين العلماء والمؤرخين أن السخاوي كتب عنه كتاباً بعنوان: "الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر".

ويستطرد المحقق فيقول عن كتاب (الإصابة) بأنه خير الكتب في تاريخ الصحابة، وأوسعها انتشاراً، ألفه ابن حجر بعد أن وقع له بالتتبع كثير من الأسماء التي ليست في كتاب ابن الأثير (أسد الغابة) ورتبه على أربعة أقسام:

القسم الأول : فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو غيره.

القسم الثاني: من ذكر في الصحابة من الذين ولدوا في عهد النبي ﷺ دون سن التمييز.

---

(١) ابن فهد، لحظ الإلحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ص ٣٣٢.

(٢) السيوطي، المصدر السابق.

القسم الثالث: فيمن ذكر من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ولا رأوه.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة أنه صحابي على سبيل الوهم والغلط.

وهذا القسم الرابع قال فيه ابن حجر: لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائر فكره عليه، وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب.

وقبل أن يشرع في هذه الأقسام ذكر فصولاً في تعريف الصحابي، وفي الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابياً، وفي بيان حال الصحابة من العدالة.

والكتاب مرتب على حسب الحروف المعجمية في كل قسم من أقسامه، وقد يعيد ترجمة فينبه على أنها سبقت. وهو يذكر الأعلام أولاً مرتبة على حروف الهجاء إلى أن ينتهي بها إلى حرف الياء، ثم يذكر الكنى مرتبة كذلك مبوبة، ثم يتبعها بكتاب النساء، فيبدأ بذكر أسماء النساء مرتبة مقسمة، ثم يختم الكتاب بفصل فيمن عرف بالكنية من النساء، ويذكر فيه تلك الكنى مرتبة مقسمة أيضاً. فهو موسوعة تاريخية إسلامية لا يستغني عنها مؤرخ، أو محدث، أو أديب، اشتملت على أكثر من عشرة آلاف ترجمة.

والمؤلف يسير في كتابه هذا على منهج علمي واضح، فهو يؤيد كل ما يقول بالإشارة إلى مراجعه، بذكر القائل أو الكتاب الذي أخذ منه.

وقد استوعب أسماء الصحابة أو كاد، وميز فيه الصحابة من غيرهم، فأغنى عن كل من سبقه في هذا المضمار، وهو يقول في مقدمة كتابه: "جمع عز الدين بن الأثير كتاباً حافلاً سماه "أسد الغابة" جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة، إلا أنه تبع من قبله؛ فخلط من ليس صحابياً بهم، وأغفل كثيراً من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم".

ولا يقتصر ابن حجر على الجمع والترتيب والتمييز، بل يشير في أثناء التراجم إلى

ما لا يوافق عليه من آراء غيره، ويؤيد رأيه بالحجة والبرهان، ويرجح رواية على رواية، فهو مؤرخ ثقة.

وعدا كتاب الإصابة فقد كان لابن حجر مؤلفات عديدة اشتهرت وخاصة في علم الحديث مثل ما كتبه عن أسانيد صحيح البخاري، وسماه (تعليق التعليق) وقد أرسل العديد من الحكام في الأقاليم الإسلامية في طلبه.

والذي يهمنا من مؤلفات ابن حجر بالإضافة إلى كتاب الإصابة كتاب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) وهو تراجم على القرون (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) يحتوي مختلف الشخصيات اللامعة التي توفيت في ذلك القرن مرتبة على الحروف الهجائية. وألحق به ملحقاً عن شخصيات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حتى ٨٣٢هـ/١٤٢٨م ورتبه هجائياً لكل سنة من السنوات.

لقد كان هدف ابن حجر تجميع كل المعلومات التاريخية من كتب التراجم التي ألفت قبله وتنسيقها واختصارها ثم تضمينها في كتبه، مع نظرة نقدية فاحصة وإضافات مهمة ومفيده إلى من سبقه ودقة واضحة في الاختيار. فهو والحالة هذه مصدراً لا يستغنى عنه في التاريخ ومجالات الحضارة الإسلامية عامة.

المحور الثاني:

(ب) التراجم على البلدان:

ويطلق على مؤلفيها (البلدانيون)، وتبدأ عادة بمقدمة عن البلد أو المدينة من حيث تاريخ تأسيسها وخططها وسكانها ومعالمها الحضارية، ثم تذكر تراجم لرجالاتها في مختلف الأنشطة ومظاهر الحياة مرتبة عادة حسب الحروف الأبجدية. والأمثلة على المؤرخين البلدانيين كثيرة لعل من أشهرهم: الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) في كتابه (تاريخ بغداد مدينة السلام) وهو من أهم المؤلفات للقرون الثلاثة الأولى من تاريخ بغداد. وينهج ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) في كتابه (تاريخ دمشق) نهج

الخطيب البغدادي ويعد من أكمل الكتب العربية الشاملة الجامعة في حقله. وهناك كتاب ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) الموسوم بغية الطلب في تاريخ حلب، وابن بشكوال الأندلسي (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) في كتابه الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وغيرها من الكتب. وسنتطرق في هذا المحور إلى ثلاثة مؤرخين هم على التوالي: الخطيب البغدادي وابن عساكر وابن بشكوال.

❖ أما الخطيب البغدادي[1] أبو بكر أحمد بن علي الملقب بالخطيب، فهو من أشهر مؤرخي بغداد ومحدثيها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وهو خطيب بغداد وابن خطيبها حيث ولد في وسط عائلي جيد اقتصادياً، وبيئة بغداد العلمية الراقية، حيث ظهر في زمانه عدد من العلماء والمحدثين والمؤرخين الذين ألفوا الكتب المتنوعة التي جمعها الخطيب في مكتبته الخاصة التي تعد من أشهر مكتبات بغداد حينذاك.

كما رحل الخطيب البغدادي في طلب العلم وزار البصرة ونيسابور وعدداً من مدن المشرق، ثم عرج على بلاد الشام والحجاز وعاد إلى بغداد. ولكنه اضطر إلى مغادرتها مرة ثانية بعد احتلال القائد البساسيري لها باسم الفاطميين الإسماعيلية ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م فرحل إلى بلاد الشام ناقلاً معه ما استطاع نقله من نفائس الكتب من مكتبته الخاصة بلغ عددها أربعة وسبعين وأربعمائة كتاب. وتنقل الخطيب بين مدن بلاد الشام حتى ٤٦٢هـ حيث عاد إلى بغداد وتوفي بعد سنة من عودته إلى مدينته، وكان قد أوقف جميع كتبه وفرق أمواله على وجوه البر وأهل العلم.

أما منزلته العلمية فكانت كبيرة بين علماء عصره الذين وثقوه وأثنوا عليه، ففي مجال علوم الحديث قال عنه ابن نقطة[2]: "كل من جاء بعد الخطيب عيال عليه في

---

(١) عن الخطيب البغدادي راجع: الأسنوي، طبقات الشافعية، ج١، ص٢٠. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٦٦. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٤، ص١٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٩٢. السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٣٥. الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ص١١٣٦.

(٢) راجع مقدمة كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ص ٣.

الحديث وعلومه". وفي مجال التاريخ قال ابن خلكان[١] عنه: "لو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه فإنه يدل على اطلاع عظيم". ومع ذلك فقد اتهمه ابن الجوزي[٢] بالتعصب ضد الحنابلة. أما ابن النجار[٣] فقال عنه في تاريخ بغداد: "انتهى إليه علم الحديث وحفظه في وقته".

أما كتاب الخطيب البغدادي المشهور فهو (تاريخ بغداد أو مدينة السلام)، ويتألف من ١٤ مجلداً ذكر فيها تراجم الرجال المتميزين في كل مجال من مجالات العلوم والفنون، ورتبه على الحروف الأبجدية ولكنه بدأ تراجمه فيمن اسمه محمد تبركاً باسم الرسول ص.وخصص الجزء الأول من الكتاب في وصف بغداد وبنائها وسككها وأرياضها ودورها وعمائرها فكان بذلك المثال الذي تبعه المؤرخون البلدانيون من بعده في كتابتهم لتاريخ البلدان والمدن وتراجمها. والكتاب مهم في دراسة الدولة العباسية خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخها حتى بداية السيطرة السلجوقية. وقد طبع الكتاب في القاهرة ثم في بيروت، وقد عده روزنثال[٤]: "أوسع كتاب في التواريخ المحلية" باعتباره يهتم ببغداد وتراجم رجالاتها وكان أحياناً لا يلتزم بالترتيب الهجائي بل يقدم من يرى أنه أمثل للتقديم. والواقع أن بغداد كانت من المدن المحظوظة التي برز فيها مؤرخون دونوا تاريخها وسير رجالاتها البارزين من خلفاء وأمراء وعلماء ومؤرخين وشعراء ومحدثين وساسة وإداريين وغيرهم.

فقد أرخ لبغداد مؤرخون[٥] قبل الخطيب البغدادي (القرن الخامس الهجري) وبعده ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

أحمد بن أبي طاهر طيفور (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) في كتابه تاريخ بغداد. واليعقوبي

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٧٦.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٦٧-٢٦٩.

(٣) انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي(المقدمة). حاطوم، المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٤) روزنثال، المرجع السابق، ص٦٢٢. جب، دراسات، ص١٦٠. عبد العزيز السالم، المرجع السابق، ص١٢١-١٢٢.

(٥) حسن عيسى الحكيم، الخطيب البغدادي وأثره في مؤرخي تاريخ بغداد، بغداد، د.ت.

(ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) حيث تناول بغداد وخططها في كتابه البلدان.

أما بعد الخطيب البغدادي فقد كتب ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) عن مناقب بغداد. وكتب ابن الدبيثي (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) ذيلاً عن تاريخ مدينة السلام، كما تلاهم البنداري (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، وابن النجار (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، ومحمد بن عبدالرحمن الرحبي البغدادي (ت ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م) الذي كتب كتابين الأول في تاريخ قضاة بغداد والثاني في تاريخ نساء بغداد.

ولا شك فإن أهمية بغداد أدركها العديد من المؤرخين الأوائل، وكذلك المؤرخين المحدثين. فقد وصفها المستشرق لاسنر بعد أن أوضح أهميتها الحضرية والسياسية والإدارية والتجارية والعلمية في العصر الإسلامي الوسيط فقال: "أنها كانت مدينة لا تقتصر على بعد واحد وإنما تشمل كل الأبعاد فأي تعبير يصدق عليها أكثر من تعبير (سرة الدنيا). لقد كانت مدينة تختلف عن جميع المدن حتى في سني تدهورها"(١). إن ما كشفه كتاب الخطيب البغدادي من معلومات حضارية وتاريخية مهمة عن بغداد بالإضافة إلى ما احتواه في الجانب الفكري من إشارات إلى مؤلفات بلغت ٤٤٦ كتاب تضاف إلى ما أورده ابن النديم في فهرسته، يعد إضافة كبيرة للتاريخ الحضاري لمدينة بغداد، وقد ألفت كتب أخرى عن مدينة بغداد ورجالاتها بعد كتاب الخطيب البغدادي، ولكن معظمها كانت تعد ذيولاً وتتمات على كتاب الخطيب البغدادي.

❖ أما ابن عساكر: هو أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي(٢)، وله ألقاب كثيرة كما تدل على ذلك السماعات المنسوخة على كتبه منها: ثقة الدين، صدر الحفاظ، ناصر السنة، الثقة الحافظ، أما اللقب الذي شهر به فهو (ابن عساكر).

---

(١) لاسنر، خطط بغداد في العصور العباسية الأولى(مترجم)، بغداد، ١٩٨٤م، ص١٨.

(٢) عن ابن عساكر انظر: ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٣٣٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٩٤. السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٧٣. ابن الوردي، ج٢، ص٨٧. مفتاح السعادة، ج١، ص٢١٦. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٢٤١ فما بعد. حاطوم، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

ويبدو أن ابن عساكر لم يكن يحب أن ينادى بهذا اللقب، فلذلك لم يرد ذكره به أثناء حياته، إلا أن لقب ابن عساكر صار أشهر الألقاب التي يذكر بها بعد وفاته.

ولد الحافظ ابن عساكر الشافعي بدمشق، وعاش حتى سنة خمس مئة وواحد وسبعين للهجرة الموافقة ألف ومئة وخمس وسبعين ميلادية. (٥٧١هـ/ ١١٧٥م).

تلقى العلم بالمدرسة النظامية ببغداد ثم في دمشق. وقد قضى عمره بالتعلم والتنقل والتعليم والتأليف، وكان إمام أهل الحديث في زمانه، جمع بين معرفة الأسانيد والمتون.

ذكر مؤلفاته ياقوت الحموي في معجمه، وأهمها كتابه (تاريخ دمشق) في ثمانين جزءاً، وقد ذكر القاسم ابنه، أنه ألف ستين كتاباً، إلا أنه ثبت الكتب يذكرها ياقوت في معجمه يتضمن ما يزيد على الستين كتاباً، عدا الأجزاء.

ويبدو لنا أن القاسم هو الذي أظهر كتب أبيه، وتولى إسماعها بالجامع الأموي بدمشق وبدار الحديث النورية.

وكان ابن عساكر منسجماً مع نفسه صادقاً فيما يقول، فقد اكتفى وهو المقرب من السلطانين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، المستمعين لأحاديثه ودروسه، بأستاذيته بالمدرسة النورية للحديث، التي بناها السلطان نور الدين محمود كأول مدرسة متخصصة في علوم الحديث النبوي. وقد استمر الحافظ ابن عساكر يدرس فيها ويدير شؤونها حتى وفاته.

وقد شارك السلطان صلاح الدين الأيوبي في تشييع جنازة الحافظ ابن عساكر ومشى حاسراً على غير عادته، دليل على عظم مكانته، وصلى عليه القطب النيسابوري. كما رثاه جماعة من الشعراء بأوصاف تدل على المكانة التي احتلها بعلمه الغزير لا بمنصبه الكبير.

إن بيئة ابن عساكر أثرت فيه تأثيراً كبيراً، كما أن صفاته الخلقية من حيث

الصدق والاستقامة أثرت في منهجه كمحدث ومؤرخ، وهي صفات أساسية لكل من يعمل في هذا الميدان وإذا كان للأسرة والتربية أثر على ابن عساكر فإن بيئة بلاد الشام، وأقصد البيئة الثقافية كان لها هي الأخرى الأثر في مسلكه وتوجهه.

والمعروف كما أشرنا سابقاً أن كتابة التاريخ قد تأثرت بأسلوب المحدّثين نظراً للمكانة الرفيعة التي احتلها علم الحديث النبوي وتدوينه وللمنهج النقدي لدى علماء الحديث وغزارة المادة الإخبارية التي اجتمعت لديهم. لذلك فإن المنهج الذي التزم به ابن عساكر هو منهج المحدثين في كتب الرجال، وكانت مصادر ابن عساكر في كتاباته ترجع إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: كتب الحديث ويدخل فيه سماعاته من شيوخه ومكاتباته.

النوع الثاني: كتب التراجم والتواريخ السابقة له.

النوع الثالث: كتب اللغة والشعر والفنون الأخرى.

النوع الرابع: مؤلفات غيره كمؤلفات الخطيب البغدادي صاحب (تاريخ بغداد).

إن النوع الثاني من مصادره كتب (التراجم والتواريخ) هي مؤلفات لعلماء مشهورين بالتأليف لابن عساكر الفضل في إحيائها، أو الإشارة إليها لأن غالبيتها بحكم المفقود، وقد ذكر أسماءها، أو أسماء مؤلفيها أو أسماء أبواب بعض هذه الكتب التي ينقل منها.

وكتاب ابن عساكر في "تاريخ دمشق" هو الكتاب الذي يدلنا على فكره التاريخي لأن غالبية كتبه الأخرى هي كتب في الحديث، وقد نهج ابن عساكر منهج من سبقه وخاصة الخطيب البغدادي، مع توسع وتطوير في طريقة العرض وتصنيف المواد وزيادة تتماشى ووفرة المعلومات في عصره. وكان التأليف في التراجم ديدن العلماء والمحدثين وذلك لأن سير العلماء الذين هم ورثة الأنبياء كانت في نظر المؤلفين هي التاريخ الصحيح للأمة الإسلامية وتعبر بشكل أصدق من تاريخ سير رجال السياسة والنظم السياسية الزائلة.

إن مؤلفات الحافظ ابن عساكر كثيرة ولم تصلنا كلها حتى الآن، كما أن قسماً كبيراً لا يزال في خزائن الكتب لم يحقق، وهذا ما أوقع الكثير من المؤرخين ببعض البلبلة في تصنيف مؤلفاته. ويرجع هذا العدد الضخم من مؤلفاته إلى موهبته الفذة وإلى تفرغه للتدريس والتأليف. يعد تاريخ مدينة دمشق أهم مؤلفاته في التاريخ، وقد عده هاملتون جب[1] من أكثر المؤلفات شمولاً في نمطه ضمن كتب التراجم.

ويتألف الكتاب من ثمانمائة جزء، بحسب تجزئة المؤلف للأصل تشكل ثمانين مجلدة، ويعدّ هذا الكتاب من أكبر ما كتب في تاريخ المدن، وقد ورد ذكره في مصادر كثيرة، وقام مجمع اللغة العربية في دمشق بتجميع وتصوير نسخه المخطوطة والمنتشرة في المكتبات العالمية وشكل لجنة للإشراف على طباعتها. لقد صرف ابن عساكر في تأليف الكتاب أكثر من ثلاثين سنة بين ٥٢٩هـ/٥٥٩م وتناول في المجلدة الأولى فضائل دمشق وخص الثانية لدراسة خططها ومساجدها وحماماتها وكنائسها وأبنيتها ثم بدأ بالترجمة لكل النابغين من أبنائها ومن دخلها أو اجتازها وربما توسع في ذلك فشمل مدناً أخرى من بلاد الشام مثل حلب وصيدا، وقد اتبع في كل ذلك التنظيم الأبجدي غير أنه بدأ بمن اسمه أحمد تيمناً باسم الرسول ﷺ وخصص قسماً لتراجم والنساء والإماء. ولا بد لنا أن نشير أخيراً إلى أن العصر الذي عاش فيه ابن عساكر كان عصر اضطراب سياسي، مع كل ما ينجم عن هذا الاضطراب من بلبلة وعدم استقرار ولا سيما في الجانب الفكري. إلا أن ابن عساكر لم يتأثر بها تأثراً سلبياً بل على العكس من ذلك تأملها تأمل الفاحص الدارس. واستوعبها فواجهها بعقله وتزود بزاد علمي استقاه من علماء دمشق ومدارسها، وانتقل إلى العراق وخراسان والحجاز سعياً وراء الاستزادة، وعاد إلى دمشق مقرراً مواجهة حالة الضعف السياسي الذي كانت تعيش فيه البلاد، فبعد أن واجهها مع نفسه ذاتياً، صمم أن تكون المواجهة كاملة، وكيف يكون ذلك إلا بنقل ما توصل إليه من علم إلى الناس كافة، فبدأ بالكتابة والتدريس والإملاء في محاولة

---

(١) جب، دراسات، ص ١٦١.

واضحة لتوحيد البنية الفكرية لأبناء بلاد الشام عن طريق نقد الأفكار والمذاهب والآراء التي دخلت على الإسلام، وكانت في (رأيه) سبب التفرقة والضعف والهزيمة. وكانت طريقته في ذلك إظهار التاريخ الإسلامي وإجلاء ما غمض منه بسبب الزمن والأحداث الصعبة وتشويه المغرضين.

❖ ونأتي أخيراً إلى ابن بشكوال[1] خلف بن عبدالملك بن مسعود الأنصاري القرطبي الأندلسي ولد في قرطبة ودرس فيها وفي إشبيلية الحديث والتاريخ، وتقلد منصب نائب القاضي في إشبيلية، أما أهم شيوخه فأبو بكر بن العربي.

وقد اشتهرت كتبه في الحديث والتاريخ، وقال عنه مؤلفو التراجم: "أنه آخر حجة في الحديث بقرطبة، ولم يذكر له نظير في معرفة تاريخ الأندلس". لم يبق من مؤلفاته العديدة إلا القليل، والذي يهمنا هو كتابه الموسوم "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس" وهو كتاب تراجم عن الأندلس يحتوي على سير علماء الأندلس حتى ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م.

المحور الثالث

(ج) التراجم على الوفيات:

وفي هذا النمط من التدوين رتب المؤلف تراجمه على سني الوفيات ثم نسق وفيات كل سنة على الحروف الأبجدية، وسنتناول نماذج من تراجم الوفيات مبتدئين بأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) وأخيراً المقرّيزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

❖ أما أبو الفرج الأصفهاني[2]: فهو علي بن الحسين بن محمد يرجع نسبه إلى

---

(١) راجع: حاطوم، المرجع السابق، ص٢٨٣-٢٨٤.

(٢) عن أبي الفرج الأصفهاني راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان. معجم البلدان لياقوت الحموي والبداية والنهاية لابن كثير وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٥٤.

الأمويين فهو أحد أحفاد الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. نشأ في بغداد وتعلم فيها، والغريب في أمره أنه مع نسبه الأموي كان شيعي النزعة، واتصل في زمن البويهيين بالوزير المهلبي.

يعد أصحاب التراجم أبا الفرج من المثقفين الموسوعيين، فقد برز في عدد من فنون العلم والأدب فهو عالم بالسير والمغازي والأخبار والتاريخ والأنساب، وكتب فيها عدداً من المؤلفات، ويبدو أنه كان على اتصال بالأمويين في الأندلس كتب عن نسبهم وأرسلها سراً إليهم وتلقى مكافئاتهم، وقد اشتهر أبو الفرج بكتابه (الأغاني) المكون من ٢١ مجلداً صرف في تأليفه خمسين سنة من عمره، إلا أن الذي يهمنا في محورنا هذا كتابه الآخر الموسوم (مقاتل الطالبيين) وفيه أخبار من قتل من آل أبي طالب مرتبين حسب سني وفاتهم والعهود التي قتلوا فيها. والكتاب ذو فائدة في تعقب المعارضة العلوية للخلافتين الأموية والعباسية حتى عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥هـ/ ٩٠٨م) وتظهر موضوعية المؤلف وحياده في نقله روايات متنوعة للحادثة الواحدة إلا أنه يبدي أحياناً في آرائه وجهات نظر تميل إلى العلويين يجدر الانتباه إليها[(١)].

ولعل كتاب مقاتل الطالبيين من أوائل كتب التراجم في تخصصه بالقتلى من الطالبيين من آل البيت ولم يسبقه في ذلك سوى (كتاب المحبر) لمحمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ/ ٨٦٠م) الموسوم (أسماء المغتالين من الأشراف).

وتقع كتب تراجم رجال الشيعة ضمن هذا الإطار كذلك فهي تراجم لأبرز رجالات الشيعة مرتبة على وفياتهم ثم حسب الحروف الأبجدية، وأشهر كتاب في هذا الشأن كتاب الكشي (نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) الموسوم (الرجال) ويليه النجاشي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٩م) وبالعنوان نفسه. على أن كتاب الرجال للكشي يتميز عن غيره من تراجم رجال الشيعة لقدمه أولاً ولذكره روايات متنوعة غير موجودة في كتب شيعية أخرى، ولذلك فإن مؤلفي كتب الرجال الشيعة ينظرون إلى رواياته بحذر الأمر

(١) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠م.

الذي يجعلها من وجهة النظر التاريخية أكثر أهمية وفائدة[1].

❖ أما ابن الجوزي[2] فهو جمال الدين عبدالرحمن بن علي يرجع نسبه إلى الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق، أما لقبه فقد اختلف فيه ولعله يعود إلى مشرعة الجوز إحدى محال بغداد بالجانب الغربي. وهو بغدادي المولد والنشأة والهوى حنبلي المذهب توفي في بغداد ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م.

لقد تناولنا هذا المؤرخ حين كلامنا عن نمط آخر من أنماط التدوين التاريخي لكونه مؤلفاً موسوعياً شمولياً، على أننا نشير هنا إلى أنه درس على مشايخ بغداد وأصبح له شأن كبير، حتى قال عنه الحافظ الذهبي "ما علمت أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل"[3]. وقد سئل ابن الجوزي عن عدد تصانيفه فقال: "زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً منها ما هو عشرون مجلداً ومنها ما هو كراس واحد".

ولعل فيما قاله عنه الموفق عبداللطيف البغدادي يظهر منزلته العلمية: "... كان يكتب في كل يوم أربع كراريس، وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان وفي الحديث من الحفاظ وفي التاريخ من المتوسعين ولديه فقه كاف"[4]. وكان من الوعاظ المشهورين وله مجالس للوعظ والدعوة حضرها الرحالة ابن جبير حين زار بغداد ووصفها وامتدحها.

ورغم منزلته العالية وشعبيته بين الناس فقد جابه مصاعب من الدولة أيام الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي اتهمه بالتحريض ضد الشيعة، ومحاولة الفتنة فسجن في مدينة واسط حوالي خمس سنين في بيت ضيق وكان يخدم فيها نفسه وهو في الثمانين من عمره ولم يعش بعد الإفراج عنه وعودته إلى بغداد إلا سنتين. وقد انتهز أحد

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) عن عبد الرحمن بن الجوزي راجع: ابن خلكان، وفيات، ج١، ص٢٧٩. البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٨. ذيل الروضتين، ج٢، ص١١٨. مفتاح السعادة، ج١، ص٢٠٧.

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ، حيدر أباد الدكن، ١٣٧٥-١٣٧٧هـ.

(٤) المصدر السابق.

أولاده العاقّين فرصة سجن والده فباع الكثير من كتبه بأرخص الأثمان فكانت خسارة كبيرة لابن الجوزي.

أما كتاب ابن الجوزي موضوع اهتمامنا في هذا المحور فهو (أعمار الأعيان[1]) ويدور حول وفيات الأعيان ومشاهير الناس في مختلف نشاطات الحياة. وذكر أعمار الناس على رؤوس العقود وما بينها من السنين. فهؤلاء توفوا في الخمسين من عمرهم وهؤلاء في الستين من عمرهم والفئة الثالثة توفوا بين هذين العقدين. وبدأ بمن هو في سن العاشرة وما زاد عليها، وانتهى بوفاة المعمرين. ويعد كتابه منهجاً جديداً في تدوين التراجم لم يسبقه فيه سوى المدائني (ت ٢٢٨هـ) في كتابه (أعمار الخلفاء) وأحمد بن محمد الفيريابي في كتابه (أعمار الأئمة) من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أيضاً.

ولما كان ابن الجوزي حنبلي المذهب فقد اهتم بأعمار العلماء الحنابلة أولاً وهذا ما يفسر إهماله بعض العلماء والأعيان من غير الحنابلة، كما وأن معظم أعيانه في هذا الكتاب من البغداديين. وهذا ما فعله ابن الجوزي في كتابه (المنتظم) أيضاً فالحنبلية والبغدادية هما المعياران لتراجم معظم الرجال، فهو يقول: "لم أذكر إلا مشهور القدر معظماً في النفوس". ويشير إلى الفائدة المرجوة من كتابه هذا فيقول: "إن من رأى كبير القدر قد مات صغير السن، أفاده ذلك ثلاث فوائد:

إحداها : شكر الله تعالى إذ أنعم عليه بالزيادة.

الثانية: الانتباه للتزود والتأهب خوف الاستلاب.

الثالثة: التسلي عند نزول الموت به.

ومن رأى طاعناً في السن استفاد قوة أمل للبقاء، وبذلك تقوى النفس فلا تيأس في بلوغ ذلك المدى، وقد حقق الكتاب ونشر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

---

(١) ابن الجوزي، أعمار الأعيان، ١٩٩٤م (المقدمة).

❖ أما ابن خلكان[1] فهو أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الأربلي الشافعي، يعود نسبه إلى البرامكة. أما لقبه فذكرت فيه تفاسير عديدة منها أنها نسبة لاسم قرية من أعمال أربيل. وكان يفتخر بنسبه إلى البرامكة.

ولد في أربيل بشمالي العراق (الجزيرة الفراتية) وانتقل إلى الموصل فحلب ثم دمشق، ودرس على أفاضل علماء عصره مثل محمد بن مكرم والجواليقي والقاضي بهاء الدين بن شداد وأبي البقاء يعيش النحوي وابن الصلاح. وتقلب في مناصب القضاء ونيابة القضاء في بلاد الشام ومصر حتى أصبح قاضياً للقضاة في دمشق ٦٥٩هـ. وعمل في التدريس في أمهات المدارس في دمشق والقاهرة، أما بغداد فلم يزرها أو يمكث فيها مدة لأنها كانت قد دمرت من قبل المغول في حياة ابن خلكان، فلم يرغب أن يرى مدينة العلم والحضارة وقد دمرها البرابرة.

أما كتاب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مما ثبت بالنقل والسماع أو أثبته العيان) فيدل على اطلاع المؤلف الواسع وقد ثبت في المقدمة مصادره وهي: الكتب التي اطلع عليها والتي اقتناها واحتفظ بها في مكتبه الخاصة أو تلك الموقوفة في المكتبات العامة، ثم ما أخذه من مشايخه الثقاة وثالثاً وأخيراً ما شاهده بنفسه من أحداث وشخصيات. وكان ينقد الروايات ويعلق عليها فيقول مثلاً: "ووفي النفس من هذا الكلام شيء أنا ذاكره". وقد استغرقت المدة التي ألف خلالها ابن خلكان كتابه حوالي خمس وعشرين سنة انقطع خلالها عمله بالكتاب بسبب تسنمه مناصب قضائية أو تعليمية. وقد دون فيه أكثر من ٨٠٠ ترجمة حسب اختلاف الطبعات. وقد طبع الكتاب عدة طبعات لعل أبرزها طبعة القاهرة ١٩٤٧م بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد بستة مجلدات ثم طبعة بيروت بتحقيق إحسان عباس في ثمانية مجلدات.

---

(١) عن ابن خلكان انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٥، ص١٤. السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٣٢٠. بروكلمان، المرجع السابق، ج١، ص٣٢٦-٣٢٨. حاطوم، المرجع السابق، ص٢٧٨. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٢٣.

أما منهجه الذي سار عليه في الكتاب فقد أوضحه فيما يلي:

١ -لم يذكر الصحابة والتابعين والخلفاء لأن الكتب متوفرة حولهم.

٢ -لم يذكر إلا من وثق في تاريخ وفاته مع بعض الاستثناءات وتوخي الإيجاز في كل ترجمة.

٣ -رتب أسماء المترجم لهم على حروف الهجاء مبتدئاً بالهمزة ثم الباء.

٤ -ذكر بعض الأعلام والأعيان المعاصرين له رغم أنه لم يتعرف عليهم.

٥ - ذكر في كتابه الشعر والأدب والنوادر مع أسلوب عربي سلس وواضح.

وقد شاع كتابه في حياته واستنسخه النساخ وتداوله الناس ذلك أن الناس وهم يعيشون في عصر صعب شهد الغزو المغولي ثم سقوط الأيوبيين ومداهمة موجات جديدة من الفرنج الصليبيين كانوا بحاجة إلى التذكرة بماضي الأمة وإنجازات أعلامها من أعيان وعلماء بشكل مختصر وموضوعي فكان هذا الكتاب الذي قدمه ابن خلكان للقراء.

وقد دونت العديد من المختصرات والذيول على هذا الكتاب، ولعل من أشهر من ذيل عليه ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) في كتابه (فوات الوفيات[١]) ومن ثم الصلاح الصفدي (ت ٧٦٤هـ) في كتابه (الوافي بالوفيات[٢])، وسارا على المنهج نفسه في التدوين التاريخي.

- أما الذهبي[٣] فقد ألف في محور التراجم على الوفيات كتاباً سماه (كتاب الإعلام بوفيات الأعلام). وقد أشرنا إلى الذهبي حين تكلمنا عن الكتب التي جمعت بين

(١) راجع: شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص ٧٦.

(٣) عن شمس الدين الذهبي انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٢١٦ فما بعد. ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٣، ص٣٣٧ فما بعد. ابن العماد، شذرات، ج٦، ص١٥٣ فما بعد. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٦٣. الضوء اللامع، ج٨، ص١٠٣. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٥٢. دائرة المعارف الإسلامية (الذهبي) ٢ (e.I).

التاريخ والتراجم ولاحظنا كيف أن التاريخ العام الحولي بمعنى تاريخ الأحداث قد اختلط بالتراجم والطبقات ودخل معها في نسيج واحد. بل أن علومنا كلها يجذب بعضها بعضاً وقد أدرك ذلك سفيان الثوري حين قال: "كلام العرب بعضه يأخذ برقاب بعض".

وللذهبي ألقاب كثيرة فهو الإمام الحافظ المحدث المحقق الناقد مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي التركماني الفارقي الدمشقي الشافعي. ولد في عائلة تحافظ على دينها، وكان أبوه يعمل في صناعة وصياغة الذهب المدقوق ومن هنا جاء لقبه الذهبي.

وبعد أن شب كرس اهتمامه على علوم القرآن والحديث والتاريخ، وبدأ بالقراءات فأتقنها ولم يتعد العشرين من عمره مما جعل الشيخ محمد الدمياطي يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي حينما مرض المرض الذي توفي فيه. كما اهتم الذهبي بسماع الحديث النبوي الشريف وروايته فقرأ وسمع الكثير من الكتب على الشيوخ البارزين. وقد تلقى علومه المتنوعة في دمشق والقاهرة على يد علماء من أمثال أحمد بن هبة الله بن عساكر وعلي بن أحمد العراقي وابن منظور وعلى شيخ الإسلام ابن دقيق العيد الذي كان له فراسة في اختياره تلاميذه اللذين يأخذون الحديث عنه.

وقد رحل الذهبي رحلات عديدة في طلب العلم، حيث جاب الديار الشامية والديار المصرية ثم ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وقد تولى الذهبي تدريس الحديث في العديد من دور الحديث المنتشرة في مصر وبلاد الشام. ومما يدل على تميزه أن ابن حجر العسقلاني حين حج شرب ماء زمزم وسأل الله تعالى أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ والفطنة.

أما تلاميذ الذهبي فكثيرون لعل من أشهرهم: السبكي صاحب طبقات الشافعية. والمعروف عن الذهبي الوفاء لشيوخه لذلك ألف كتاباً عن شيوخه سماه (معجم الشيوخ).

إن مؤلفات الذهبي كثيرة وكذلك كتبه في التاريخ متعددة منها (تاريخ الإسلام)

و(سير أعلام النبلاء) وغيرهما، على أن الذي يهمنا في هذا المحور هو كتابه "الإعلام بوفيات الأعلام". وقد أشار الذهبي إلى أن هدفه من تأليف الكتاب هو ليكون عوناً وتذكرة للحفاظ والعلماء بسنوات وفيات أهم الأعلام، ووصفه بكونه "درة التاريخ"[1].

والكتاب يضم بين جزئيه المنشورين في بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م أسماء مشاهير الأعلام في التاريخ الإسلامي وينهج منهج كتب التراجم حسب الوفيات ويضم بعض الأحداث التاريخية في إطار الوفيات التي رتبها على الحروف الأبجدية، فكان يذكر السنة الأولى للهجرة ثم يذكر جميع الوفيات مبتدئاً بأول الوفيات وهو أول اسم في الأبجدية وهلم جراً.

- وأخيراً وليس آخراً نتناول المقرّيزي مؤرخ الديار المصرية لأن له نتاج في هذا النمط من الكتابة التاريخية ألا وهو كتابه الموسوم "التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها"، ويسمى جب[2] المقرّيزي بالمؤرخ ذي الإنتاج الغزير.

والمقرّيزي هو تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر الحسيني العبيدي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) يعود أصله إلى بعلبك ببلاد الشام، من حي المقارزة في تلك المدينة. ولكنه ولد ونشأ ومات في القاهرة بمصر، ونال مناصب مهمة في الإدارة المملوكية مثل القضاء والحسبة وديوان الإنشاء وغيرها مرات عديدة.

وقد ترجم له عدد من المؤرخين مثل ابن تغري بردي والسخاوي والسيوطي وابن العماد الحنبلي[3] الذين عدّوه شيخ المؤرخين في مصر في زمانه، فقد كان ذا ثقافة واسعة واهتم بالتاريخ واطلع عن كثب على أحداثه ونقدها.

وللمقريزي تصانيف عديدة نشير إلى بعضها مما له علاقة بالتاريخ:

---

(١) الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، بيروت، ١٩٩٣م (المقدمة).

(٢) جب، دراسات، ص ١٦٩.

(٣) للتفاصيل عن المصادر التي ترجمت له راجع:٢) e.I) (المقرّيزي)

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، وهو كتاب في التاريخ الحضاري لمصر.
- السلوك في معرفة دول الملوك، يعالج فيه تاريخ الفترة المملوكية.
- اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، يتناول تاريخ الفاطميين.
- تاريخ الأقباط في مصر (قبط مصر).
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب.
- درر العقود الفريدة وهو كتاب في التراجم ترجم فيه المقرّيزي لرجال عاصرهم ما بين أواخر القرن الثامن للهجرة والنصف الأول من القرن التاسع الهجري.
- النزاع والتخاصم ما بين بني أمية وبني هاشم.

على أن الكتاب الذي يعنينا في هذا المحور هو الكتاب الموسوم (التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها) وهو قاموس لتراجم الرجال، ألفه المقرّيزي على غرار كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ورتبه كذلك على الحروف المعجمية، فلقد كان المقرّيزي عازماً على كتابة تاريخ عام من ثمانين مجلداً شاملاً لتراجم ملوك مصر ورجالاتها البارزين ومن أقام بها أو زارها ويرتبه حسب الحروف الأبجدية، إلا أنه لم ينجزه ولا نعلم عدد المجلدات التي أنجزها. ويبدو أن كتاب المقفى هو ذلك الكتاب ومجلداته منتشرة في مكتبات عديدة في العالم. ويلاحظ في الأجزاء الموجودة من هذا الكتاب أن تراجم العلماء والفقهاء تفوق تراجم الأمراء والحكام مما يعكس اهتمامه وتقديره للتاريخ الحضاري. ويذكر المقرّيزي أعلاماً لا يثق بدخولهم مصر إلا أنه يذكرهم على الترجيح وهناك من الأعلام من لا تكون مصر أحق باحتواجه مثل الحجاج الثقفي أو أبي نواس أو المتنبي. والكتاب يقتصر على الرجال دون النساء إلا في القليل النادر. ويحوي الكتاب تراجم الخلفاء الفاطميين في أفريقية والمغرب وكذلك في مصر.

ويتميز الكتاب بذكر معلومات وملاحظات عن تراجم خلت منها كتب التراجم أو التاريخ التي دونت قبله، مثل كتب ابن خلكان وابن الأثير وابن عساكر ولعل ذلك بسبب اطلاعه على كتب ضاعت منها مشرقية ومنها مغربية.

والمقرّيزي معاصر لابن خلدون ويعده من شيوخه، وقد وافقه في عدم التحامل على خلفاء الدولة الفاطمية في مصر والتنكر لنسبهم إلى آل البيت كما فعل بعض المؤرخين قبله أمثال السيوطي. إلا أن ذلك لم يمنعه من استنكار بعض إجراءاتهم وأساليبهم السياسية، وفي الكتاب العديد من الشواهد الأدبية والشعرية اللطيفة، وقد حققت بعض أجزاء الكتاب وبقيت أجزاء أخرى تنتظر الكشف والتحقيق.

المحور الرابع

(د) التراجم على الحروف الأبجدية :

وهي كتب دخلت مجال التاريخ من باب علم الرجال وقد ضمنها مؤلفوها تراجم اللامعين من الأعلام في المجتمع وخاصة أهل الحديث والفقه والتفسير ورواة العلم بالإضافة إلى علماء اللغة والأدب والتاريخ والعلوم المختلفة ورجالات السياسة والإدارة وما إليها. على أن الاتجاه العام أو الغالب في كتب التراجم على الحروف الأبجدية وخاصة الكتب التي ألفها رجال الحديث هو الاتجاه الديني بمعنى أنها مقصورة على الرجال المختصين بالعلوم الدينية (الشرعية) أو النقلية.

ولا بد من الإشارة بدءاً أن هذا النوع من التراجم على الحروف الأبجدية يتداخل مع محاور أخرى ضمن نمط التدوين على التراجم فقد لاحظنا أن بعض المؤرخين يرتبون كتبهم أولاً على الوفيات ثم يرتبون الوفيات على الحروف الأبجدية، ونلاحظ الشيء نفسه في كتب البلدان والطبقات إلا أن ذلك لم يمنع وجود كتب كان منهج مؤلفيها منذ البداية التدوين على الحروف الأبجدية أو حروف المعجم، وتأتي مؤلفات ياقوت الحموي (الرومي) مثالاً واضحاً على هذا النوع من التراجم. وهي بذلك تكون أقرب إلى صفة معاجم أو قواميس الأعلام.

أما المؤلف ياقوت الحموي[1] (الرومي) (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) فهو من أسرى الحروب مع الروم (البيزنطيين) فقد أسر صغيراً وبيع في بغداد، وقد اختار له من اشتراه اسم (ياقوت) حيث كان طفلاً يقل عمره عن عشر سنوات، وكان التاجر الذي اشتراه حموياً ومن هنا جاء لقب ياقوت الحموي. وهناك روايات أخرى حول أصله ونشأته.

كان ياقوت من رقيق سيده التاجر الذي كان بحاجة ماسة لمساعدته في التجارة ولذلك فقد علمه القراءة والكتابة ليعينه في تجارته وما يتصل بها من معاملات وأمور حسابية، كما بدأ يرسله في تجارته إلى المدن والأقاليم للبيع والشراء وقد أفاده السفر كثيراً حيث زاد من أفق تفكيره ومن شغفه في التعرف على الأقاليم وطبائع شعوبها، والرحلة في طلب العلم، وتعرف في العراق على ابن النجار وعز الدين ابن الأثير وغيرهما.

أما شيوخه فكثيرون منهم: سالم بن أحمد بن سالم أبو المرجي الأديب النحوي العروضي وهو أول شيخ قرأ عليه ياقوت الحموي. وكان تاجراً ذا ثراء عريض مبجلاً، درس ياقوت عليه العربية والعروض ببغداد. ومن شيوخه المبارك بن المبارك الضرير، يقول عنه ياقوت: "هو شيخي الذي به تخرجت وعليه قرأت". ومن شيوخه الآخرين أبو البقاء العكبري وابن الدبيثي، وأبو المظفر عبدالرحيم السمعاني.

ظل ياقوت الحموي مكباً على العلم وأخذ يكسب رزقه بنسخ الكتب وبيعها بعد أن حرره سيده من الرق، وقد أظهر أفكاراً خارجية حين كان بدمشق وتعرض للتهديد بالقتل إلا أنه نجح في الهروب إلى بلاد فارس ومنها إلى خراسان (مرو) ثم خوارزم وأخذ يتاجر بين خراسان وخوارزم ويقرأ ويصنف الكتب. وحين بدت حياته مستقرة بدأت طلائع الزحف المغولي على المشرق الإسلامي، ففر الناس ومنهم ياقوت باتجاه الغرب

---

(١) عن ياقوت الحموي راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢١٠. سبط ابن الجوزي، مرآة الجنان، ج٤، ص٥٩-٦٣. ابن قاضي شهبة، الأعلام، ص٤٣٤. حاطوم، المرجع السابق، ص ٢٨١. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٥٠.

سنة ٦١٦هـ فوصل الموصل ثم سنجار ثم حلب. ولكن المنية عاجلته حيث توفي في خان بظاهر مدينة حلب إلا أن ذكراه ظلت دائمة في العالم الإسلامي بسبب ما تركه من الكتب والمصنفات العديدة. وتعود قيمة ياقوت في جمعه المادة التاريخية والجغرافية حتى زمانه وكذلك إلى اتصاف مادته بالتنوع وشمولها العالم الإسلامي الذي نظر إليه باعتباره وحده واحدة.

كتب ياقوت الحموي في التاريخ وفي النحو وفي المعاجم، كما اختصر كتباً مشهورة مثل كتاب الأغاني للأصفهاني، وكتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. والذي يهمنا هنا كتابيه (معجم الأدباء) و(معجم البلدان). أما معجم الأدباء(١) الذي سماه (إرشاد الأريب في معرفة الأديب) فقد اختلف العلماء في تسميته حيث سماه ابن الشعار مثلاً (معجم أئمة الأدب)، وقد حصر ياقوت الحموي الفئات التي عدها داخله تحت مصطلح "الأدباء" بثماني فئات هي : النحويون – اللغويون – النسابون – القراء- الأخباريون والمؤرخون – الوراقون – الكتاب وأصحاب الرسائل وأخيراً أرباب الخطوط.

ورتبه على حروف الهجاء بدقة ملتزماً أول حرف من الاسم ثم ثانيه وثالثه ورابعه. على أن النسخة التي وصلتنا من الكتاب فيها اضطراب في الترتيب وضياع أسماء ممن ترجم لهم ياقوت وتعرض بعض التراجم للاختصار أو الحذف.

أما منهجه في التأليف فالظاهر أنه التزم بقواعد حرص على اتباعها في كتابيه وهي:

(١) الاستقصاء في الاطلاع: لذلك كانت أهم كتبه تمثل مشروعات طويلة المدى لا يمكن إنجازها في وقت محدد، بل هي "موضوعات مفتوحة" تتحمل الزيادة على مر السنين.

(٢) الابتعاد عن الأسطورية وما يأبى العقل قبوله.

---

(١) ياقوت، معجم الأدباء، سبعة أجزاء، بيروت، ١٩٩٣م.

(٣) الصدق في نقل الرواية دون تغيير أو إنجاز، وهذا يعني أنه غير ملوم إذا نقل أحياناً ما لا يقبله العقل، شرط أن ينوه بذلك.

(٤) الاعتماد على الرواية الثقة في نقل الرواية.

(٥) محاولة التبرؤ في مسؤولية الخطأ واللجوء إلى الحديث عن فقدان العلمية الحيادية لدى البشر وطلب المعذرة عن الخطأ، فالكمال محال لغير ذي الجلال، والنسيان في الإنسان.

(٦) إيمانه بأن العالم الإسلامي وحدة كبيرة واحدة يضم أمة واحدة.

(٧) التنويع في مادة الكتاب بين الحكمة والخبر والشعر والنشر والهزل والجد.

(٨) إنكار الاختصار بعد أن يكمل الكتاب حسبما رسمه مؤلفه لأن الاختصار يدل على تخلف الهمم لدى طلاب العلم وفيه تشويه للكتاب الأصلي.

أما كتابه الآخر فهو معجم البلدان[١] الذي يعد موسوعة جغرافية تاريخية رتبه على حروف المعجم أيضاً في حوالي أربعة آلاف صفحة. وقد لخصه صفي الدين بن عبدالحكم في مؤلف عنوانه (مراصد الاطلاع). تضمن معجم البلدان وصفاً حيوياً لأقاليم ديار الإسلام من الأندلس إلى بلاد ما وراء النهر والهند وهو ثمرة جهد كبير قام به المؤلف في الارتحال والمطالعة استغرق تأليفه بين ٦١٢هـ/ ٦٢١هـ أي حوالي عشر سنوات. ولا بد من الإشارة بأن ثقافة ياقوت كانت شخصية في هذا الكتاب فكان جهده شخصياً في جمع معلومات الكتاب بالإضافة إلى مؤلفات الأقدمين الجغرافية وما نقله من الشعراء في وصف البلدان حيث بلغت مجموعة الأبيات التي استشهد بها حوالي خمسة آلاف بيت. كما استفاد من مشاهدات الرحالة المسلمين. وكانت معلوماته مزيجاً من التاريخ والجغرافية موضحاً الأوضاع السكانية والعمرانية، ومقدماً مادة اجتماعية

(١) ياقوت، معجم البلدان، بيروت، ١٩٩٠م. محمود مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ١٩٩٥م.

واقتصادية عن المدن الإسلامية التي تناولها.

وإذا كان ياقوت قد هرب أمام الغزو المغولي في المشرق، فإنه واجه الغزو الفرنجي الأوربي في بلاد الشام، ولذلك نلاحظ تناوله للصراع الإسلامي الصليبي والمدن التي كانت خاضعة للسيادة الفرنجية في بلاد الشام رغم أن المعلومات التي قدمها عن تلك المدن كانت بطبيعة الحال أقل من المعلومات التي قدمها عن المدن الإسلامية في بلاد الشام. والكتاب الذي نشر في بيروت بواسطة دار صادر ١٩٩٠م يتألف من خمسة أجزاء من الحرف ألف إلى الحرف ياء.

- أما النموذج الثاني لكتب التراجم على الحروف الأبجدية فهو كتاب (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) لمؤلفه جمال الدين المزي[1] (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، ويلقب بالحافظ العلامة الدمشقي. ولد بحلب ونشا بالمزة في أطراف دمشق. درس الفقه وعلوم العربية، ثم كرس جهده لدراسة الحديث النبوي الشريف. كما رحل في طلب العلم وسمع الكثير من الشيوخ، حتى بات يحدث ويتولى التدريس بدار الحديث بدمشق، وامتدحه العديد من العلماء أمثال ابن قاضي شهبة، وابن سيد الناس والذهبي[2]، الذي قال عنه: " الحافظ الناقد المحقق المفيد محدث الشام وإليه المنتهى في معرفة الرجال وطبقاتهم ومن نظر في كتابه (تهذيب الكمال) عرف محله من الحفظ فما رأيت مثله...". وقد لاحظ شاكر مصطفى[3] أن المزي دخل مجال التاريخ، كما دخله جميع المحدثين، من باب علم الرجال وألف فيه كتاباً مهماً هو (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) في خمس وعشرين مجلداً، استوعب فيه رجال الحديث ورواته دون غيرهم من الأعلام مثل الوزراء والقضاة والأعيان والحكام وغيرهم من فئات المجتمع المختلفة.

---

(١) عن جمال الدين المزي راجع: ابن حجر العسقلاني، الدرر، ج٥، ص٣٣٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٩١. السبكي، طبقات الشافعية، ج١٠، ص٣٩٥. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص١٣٦. راجع كذلك مقدمة محقق تهذيب الكمال.

(٢) الذهبي، تهذيب الكمال، (المقدمة).

(٣) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٥٢ فما بعد.

فهو والحالة هذه موسوعة لعلماء الحديث، رتبها المزي على حروف المعجم أي أنه معجم للرجال استغرق تأليفه ثماني سنوات من ٧٠٥هـ إلى ٧١٢هـ وقد امتدح العلماء هذا الكتاب فقال عنه ابن حجر العسقلاني: "هو الذي وفق بين اسم الكتاب ومسماه وألف بين لفظة ومعناه".

اختصر الذهبي، وهو تلميذ المزي الكتاب وسماه "تذهيب التهذيب" كما اختصره ابن حجر العسقلاني بكتاب عنونه "تهذيب التهذيب" وكتاب تهذيب الكمال نشر في بيروت ١٩٨٢/ ١٩٨٤م.

المحور الخامس

(٥) التراجم على القرون

وأخيراً وليس آخراً نتناول كتب التراجم على القرون، وهي مؤلفات تصنف تراجم الرجال حسب القرون، ولدينا منها الكثير نشير هنا إلى ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) في كتابيه (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة) و(نظم الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة)، والمقرّيزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) في (درر العقود الفريدة) حيث ترجم لرجال عاصرهم ما بين القرنين ٨ هوالنصف الأول من القرن ٩ هـ. وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) وكتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)، والسخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) في كتابه (الضوء اللامع في رجال القرن التاسع)، وابن العيدروس (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م) في كتابه (النور السافر عن أخبار القرن العاشر)، والمحبي (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م) في كتابه (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) والغزي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) في كتابه (الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة)، وأحمد بن أحمد الغبريني (ت ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤م) في كتابه الموسوم (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية وفيه معلومات عن العلماء والقضاة في تونس في العهد الحفصي خاصة).

وتأتي أهمية هذا النوع من كتب التراجم من خلال تحليل الشخصيات المترجم لها وقد أشار تيسير الزواهرة[1] إلى العناصر التي يمكن أن تتكون منها كل ترجمة، حيث يشير المؤلف إلى نسب المترجم له ومدينته ومذهبه وطريقته. كما يمكن أن نلاحظ ما هي الفئات التي ترجم لهم المؤلف هل هم من الحكام والسلاطين والخلفاء والأمراء، أم هم من العلماء في علوم الدين أو العلوم العقلية، أم من عامة الناس أم أنهم كانوا خليطاً من كل الفئات. وكذلك يمكن من خلال هذه التراجم أن نتعرف على العلوم والمعارف السائدة في ذلك القرن وأسماء الشيوخ والعلماء الذين تخصصوا فيها ومؤلفاتهم. كما تعرفنا هذه الكتب على مدى تأثير العلماء والشخصيات المترجم لها ومدى نفوذهم في المجتمع، وعلاقتهم ببعضهم البعض أو بالسلطة المحلية أو المركزية الحاكمة. هذا بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بالكوارث والأمراض والمجاعات وما إلى ذلك. إن هذه المعلومات الغنية تفيد الباحث في التعرف على المظاهر الحضارية أو الفكرية أو الاجتماعية أو غيرها التي يرغب في دراستها.

وسنتناول فيما يلي نماذج من كتب التراجم على القرون:

❖ ابن الفوطي[2] هو كمال الدين عبدالرزاق بن أحمد بن عمر الشيباني المروزي البغدادي. ولد في بغداد ونشأ فيها ثم توفي بها.

كانت دراسته في بغداد، وشهد غزو المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م واحتلالهم لها. وأسر في ذلك اليوم ولكنه نجا بوساطة، ثم لازم نصير الدين الطوسي الفلكي والفيلسوف الذي كانت له حظوة لدى حكام المغول، كما درس اللغة والأدب والتاريخ على علماء بغداد الأفذاذ. واستطاع أن يجد له عملاً في مرصد مراغة الفلكي، وبقي هناك عشر سنين، حيث اطلع على مكتبة المرصد النفيسة.

---

(١) تيسير الزواهرة، اليمن واليمنيون عند نجم الدين الغزي، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٩، العدد٢، ١٩٩٤م، ص ٨٠ فما بعد.

(٢) عن ابن الفوطي، راجع: مقدمة جواد علي لكتاب معجم الألقاب. كذلك عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين، ص١٥١ فما بعد. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٣٢٧ فما بعد.

عاد إلى مسقط رأسه بغداد سنة ٦٧٩هـ ورغم علمه الغزير عمل ناسخاً للكتب بالأجر، خاصة وأنه كان يعرف اللغة الفارسية التي باتت تنافس اللغة العربية في بلاد فارس في تلك الفترة المتأخرة. وفي بغداد اتصل بالحاكم الايلخاني للعراق عطا ملك الجويني الذي أمره بكتابة التاريخ لتلك الفترة، إلا أن الجويني توفي بعد مدة قصيرة ففقد ابن الفوطي به عضيداً مهماً ومساعداً في المعيشة. وقد أسند إليه بعض المتنفذين الأشراف على عمارات الأوقاف أو دور الكتب في المدارس (الجامعات) المهمة مثل الجامعة المستنصرية حيث كانت خزاناتها تضم أنفس الكتب في العالم وكانت ذات فائدة ومتعة لابن الفوطي، ويبدو أنه بقي في عمله هذا حتى وفاته.

والذي نلاحظه هو صحبته لعلماء ومؤرخين بارزين خلال حياته أمثال نصير الدين الطوسي وابنه الحسن وكذلك علاء الدين عطا ملك الجويني ورشيد الدين فضل الله. كما كانت له فرصتين ثمينتين في الاطلاع على خزانتين نفيستين من أعظم خزائن الكتب آنذاك وهما خزانة مرصد مراغة وخزانة الجامعة المستنصرية. ويمكن اعتبار ابن الفوطي - كما يقول شاكر مصطفى - نهاية غروب اللغة التاريخية العربية وآخر قممها الشامخة في بلاد فارس والعراق.. فقد انتقل ثقل الثقافة العربية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين وما بعدهما إلى بلاد الشام ومصر بسبب كارثة الغزو المغولي للمشرق الإسلامي وخاصة بغداد موئل الحضارة والعلوم.

ولابن الفوطي مؤلفات عديدة، على أن الذي يهمنا هو كتبه التاريخية مثل (مجمع الآداب في معجم الألقاب) يقع في خمسين مجلداً لذا فهو يُعدّ من أضخم كتب التاريخ المرتبة على الألقاب. وكتاب (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في أهل المائة السابعة) وهو كتاب يتناول تراجم رجال القرن السابع الهجري. وقد اختلف الباحثون في نسبة الكتاب إلى ابن الفوطي، كما خلطوا بينه وبين الكتاب الآخر لابن الفوطي والموسوم (نظم الدرر الناصعة في شعر المائة السابعة).

❖ أما ابن حجر العسقلاني[1] المحدث والقاضي والمؤرخ المصري الشهير المتوفي سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، فقد تناولنا سيرته وثقافته في محور سابق من محاور كتب التراجم. وسنشير هنا إلى كتابه المشهور في محور التراجم على القرون وهو الكتاب الموسوم (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) الذي تناول فيه مختلف الشخصيات المتميزة في المجتمع الإسلامي والتي توفيت في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي مرتبة على الحروف المعجمية، كما ذيل له بكتاب عن شخصيات القرن التاسع الهجري حتى ٨٣٢هـ مرتبة هجائياً سنة بعد أخرى.

وكانت نظرته في الكتابين نقدية فاحصة ودقيقة مع إضافات مهمة إلى من سبقه من المؤلفين فهو جامع للمعلومات ومضيف لها.

أما مكانته العلمية فيكفي أن نقول أن المؤرخ السخاوي كتب عنه كتاباً سماه (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر)، والمعروف أن السخاوي كان تلميذاً لابن حجر.

❖ ويبرز السخاوي[2] في مقدمة المؤلفين في كتب التراجم على القرون. وهو شمس الدين محمد بن عبدالرحمن الشافعي المحدث والمؤرخ المصري البارز (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) ونسبته تعود إلى قرية في الدلتا بشمالي مصر.

ينتمي السخاوي إلى أسرة عرفت بالعلم والدين، ودرس السيرة والحديث على يد شيخه ابن حجر العسقلاني، وحينما أصبح متمرساً في علم الحديث والعلوم الدينية الأخرى، درس في المؤسسات العلمية في القاهرة وكذلك في بلاد الشام حيث درّس ومنح الإجازات للطلبة هناك، كما جاور في الحرم المكي وبقي هناك للدراسة والتدريس.

كان السخاوي ناقداً حاداً لمعاصريه من المؤرخين خاصة السيوطي، كما انتقد

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية، (ابن حجر)، ج٣، ص ٧٩٩.

(٢) المرجع السابق، (السخاوي)، ج٥، ص ٨٨٢.

تدهور الدراسات الحديثية في زمانه، وقد اختصر آراءه في علم التاريخ في رسالة بعنوان: (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ). على أن الذي يهمنا هو كتابه (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع) الذي تناول فيه الرجال المشهورين في ذلك القرن في ١٢ جزء.

توفي السخاوي في المدينة المنورة وهو يدرس طلابه الحديث النبوي، ويعيد ترتيب المواد الحديثية والتاريخية التي دونها.

❖ وأخيراً نتناول المؤرخ نجم الدين الغزّي[(١)] محمد بن بدر الدين العامري القرشي الغزي الدمشقي الشافعي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م) والذي يرجع نسبه إلى الأشراف من آل البيت، وقد ولد نجم الدين الغزي في دمشق، وكان أبوه أستاذه الأول حيث منحه الإجازة العلمية الأولى، إلا أن والده توفي فكفلته والدته وخاله وتلقى منهما العناية والرعاية كما أشار هو في كتابه، خاصة وأن أباه ترك له أملاكاً وميراثاً كفاهم مؤونة العيش.

درس نجم الدين الغزي على شيوخ أكفاء في دمشق، منهم من تخصص في علوم اللغة العربية أو في العلوم الدينية فتنوعت ثقافته وتنوعت مصادرها من شامية إلى حجازية ومصرية، وقد انعكس ذلك على تراجمه التي شملت العديد من أقطار دار الإسلام.

أما هدف نجم الدين الغزي من التأليف فقد أوضحه في مقدمة كتابه (الكواكب السائرة) ولخصه تيسير الزواهرة[(٢)] في بحثه حيث أن الغزي أراد أن يحقق ثلاثة أهداف:

أولها: رغبته في أن تطاله بركة الحديث النبوي الشريف بأن يكون من السابقين من أهل القرون. ذلك أن الله تعالى – حسب حديث الرسول ﷺ – جعل في كل قرن سابقين

---

(١) عن ترجمة نجم الدين الغزي، راجع: المصادر والمراجع التي أشار إليها تيسير الزواهرة في بحثه آنف الذكر.

(٢) تيسير الزواهرة، المرجع السابق، ص٨٤-٨٥.

من هذه الأمة، واختص في كل عصر مقرّبين من الأعيان والأئمة.. بحيث أن الأزمنة تنقضي فلا يبقى من آثارها سوى أخبار هذه الطائفة وآثارها. وقد نوه الرسول صلى الله عليه سلم بمقامهم الفائق فقال: "ألا لكل قرن من أمتي سابقون".

ثانيهما: أراد أن يحوز فضل العلماء وقصب السبق ويسند قوله بالآية القرآنية)هل يستوي الذين يعلمون والذي لا يعلمون(والحديث النبوي الشريف"خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها رحماؤها، ألا وإن الله تعالى يغفر للعالم أربعين ذنباً قبل أن يغفر للجاهل ذنباً واحداً".

ثالثهما: إدراكه عدم وجود كتاب شامل متكامل لتراجم القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حيث يقول: "وإني طالما كنت أتشوق إلى تأليف كتاب يجمع تراجم المتأخرين من أهل المائة العاشرة من العلماء الأنجاب..". على أنه يشير إلى وجود بعض التآليف في الموضوع ولكنها لا تشمل كل القرن.

وبقدر علاقة الأمر بالتاريخ فقد ألف نجم الدين الغزي كتابين مشهورين هما (الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة) ثم كتاب (لطف السمر وقطف الثمر من تراجم الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر)، وقد اعتمد في تأليفها على مصادر متنوعة منها الإجازات والخطوط (أي المؤلفات) التي تعود إلى من سبقه من كتاب التراجم ومنهم الشيخ المحدث شمس الدين محمد ابن طولون (ت ٩٥٣هـ) الذي ألف كتاباً جمع فيه تراجم أواخر المئة التاسعة وأوائل المئة العاشرة وعنونه (التمتع بالأقران). كما استند الغزي من المذكرات والرحلات والرسائل والأشعار والروايات الشفوية والتلقيات من الأفواه أو السماع من المعاصرين وكتب بالأدب وغيرها. هذا بالإضافة على ملاحظاته المباشرة وعلاقته الشخصية بالمترجم له . أما النظرة النقدية لدى المزي فتتمثل في نوع التراجم التي يتضمنها كتابه حينما اختار الأعلام البارزين ولم يترجم لغيرهم أمثال المغنين أو المطنبريين أو العشاق.

ويشرح الغزي منهجه في الانتقاء فيقول: "ومما اصطلحت عليه في هذا الكتاب أني

مهما وجدته من المكارم لبعض أهل التراجم أثبته في ترجمته بالإيراد الجازم. ومن اشتهرت عنه الديانة وذكر عنه شيء مما يخالف الصيانة تركت نقله بالكلية أو ذكرته بالصيغة التمريضية أو نسبته إلى قائله وتبرأت من حقه وباطله...".

إن الأعيان في نظر الغزي هم: العلماء والفقهاء، والمحدثين والقراء، والحفاظ والمدرسين والأدباء والمؤرخين والقضاة، ورؤساء المؤذنين والشهود والمتصوفة والزهاد ومن هم من هذه الفئات. ولم يذكر إلا قليلاً من السلاطين والباشوات والأغوات.

* * *

المبحث السادس

المؤلفات التي اهتمت بالتاريخ المحلي (تواريخ المدن والأقاليم):

كان مؤرخو التاريخ الحولي ... مثل الطبري وخليفة بن خياط قد ركزوا جهودهم على الأقاليم المركزية، مثل العراق والحجاز وبلاد الشام ولم يذكروا إلا أحداثاً طارئة أو مهمة عن الأقاليم الإسلامية البعيدة. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى كتب في التاريخ المحلي للمدن والأقاليم مثل اليمن أو عُمان أو المغرب أو سجستان أو طبرستان أو المغرب أو الأندلس أو خراسان. ولا بد من الإشارة بأن الكتابة التاريخية عند المسلمين تتداخل أحياناً في منهجها ومحتواها ويمكن أن تصنف كتاباً معيناً ضمن التاريخ المحلي أو الحولي ويعد في الوقت نفسه ضمن كتب التراجم. فبعض التواريخ البلداينة لها صفة كتب التراجم مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ حلب لابن العديم وتاريخ أصفهان لأبي نعيم الأصفهاني وهكذا. ومعنى ذلك أنه لم يكن ثمة خط فاصل لدى المؤرخين بين التاريخ المحلي وبعض أنماط التواريخ الأخرى.

ولم تكن كل المدن والأقاليم الإسلامية محظوظة بحيث تيسر لها أن يكتب تاريخها واحداً أو أكثر من أبنائها، على أن بعض المؤرخين قد جعل كتابة المؤرخ لتاريخ بلده أو مدينته واجباً ملزماً. يقول السلامي (ت ٣٧٤هـ) في كتابه (أخبار ولاة خراسان)[(١)] "إن الواجب على صاحب المعرفة من أهلها (المدينة) أن يعلم جل أبنائها ويحفظ أيام أمرائها ولا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه، ولعله يطلب أخبار غيرها، ويكون بذلك كمن ترك الواجب وتبع النوافل".

---

(١) نقلها عنه السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ص ٤٤١ فما بعد.

ومع ذلك تبقى المؤلفات في التاريخ المحلي كثيرة ومتنوعة مما حمل بعض الباحثين إلى تقسيمها إلى: تواريخ محلية دينية وتواريخ محلية دنيوية كما سنتناول ذلك فيما بعد.

بداية نشوء الكتابة التاريخية المحلية:

اختلفت بدايات نشوء الرغبة لدى المؤرخين لكتابة تاريخ مدنهم أو أقاليمهم من منطقة إلى أخرى كما تنوعت أسبابها:

ففي بلاد الشام[١]: بدأت هذه النزعة المحلية في الكتابة التاريخية منذ عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وقد توافد الأخباريون والرواة والقصاص على دمشق باعتبارها عاصمة للدولة الإسلامية المركزية وشجعهم على ذلك رغبة الخلفاء الأمويين والأمراء في الاطلاع على الثقافة التاريخية بالإضافة إلى المفاخرات بين القبائل وإبراز مآثرها ودورها قبل الإسلام وبعده وخاصة في الفتوحات، ومن هنا كان يقال: "إذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام".

لقد اهتم الخليفة معاوية بن أبي سفيان بأخبار اليمن وبأخبار الفرس والروم، وكان عبيد بن شرية الجرهمي ودغفل النسابة من المقربين إليه. وفي رواية تاريخية عن معاوية بن أبي سفيان: "أنه كان ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات"[٢].

لقد شكل مجموعة من الأخباريين نواة النزعة الإقليمية للتدوين التاريخي في بلاد الشام لا يسعنا أن نذكرهم جميعاً بل نشير إلى عبيد بن شرية الجرهمي الأخباري

---

(١) حول التفاصيل راجع: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، ص١١٣ فمابعد، ص٢٨٦ فما بعد، كذلك ص٣٥٩ فما بعد. عبد الواحد ذنون طه، دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الرابع لتأريخ بلاد الشام في العهد الأموي،ص٥٨-٧٨. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٠٥-١٢٤.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٤١.

المخضرم والذي يعد كتابه الموسوم (كتاب الملوك وأخبار الماضين[1]) أول تدوين تاريخي واضح في الإسلام وقد طبع سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨م و له مؤلفات تاريخية أخرى منها (كتاب أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها).

وقد استمرت هذه الحركة على يد الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) الذي عدّ أعلم الناس بالسير، وكان أبو زرعة الدمشقي من ممثليها رغم أنه انتقل بالكتابة التاريخية إلى التاريخ الحولي العام العالمي.

بقد سقوط الأمويين ومجيء العباسيين اتجهت هذه النزعة إلى تدوين التاريخ الأموي ومناقب الأمويين فكتب خالد بن هشام الأموي كتابه (أخبار الأمويين ومناقبهم) وكتب مؤلف مجهول (البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوى من فضائلهم) وكتب غيرهم عن سير معاوية ويزيد ابنه[2].

أما في اليمن فقد غذى هذه النزعة الإقليمية حضارة اليمن القديمة قبل الإسلام، ووجود إشارات في القرآن الكريم إلى اليمن لا بد من شرحها وتفسيرها. هذا بالإضافة إلى التنافس القبلي الحاد في الدخول والصراع مع القيسية في الخارج. ويعد كل من كعب الأحبار (ت ٣٥هـ) وكتابه تاريخ اليمن القديم ودغفل السدوسي وكتابه في النسب، وعبيد بن شرية الجرهمي وما دونه عن أخبار اليمن، من الرواد في الكتابة الإقليمية اليمانية. ونضيف إليهم وهب ابن منبه اليمني (ت ١١٤هـ) وكتابه (التيجان لمعرفة ملوك الزمان) وعبدالملك ابن هشام الحميري (ت ٢١٣هـ) وكتابه (التيجان في ملوك حمير)[3].

أما في بلاد فارس[4] فقد حاول رواد النزعة المحلية الفارسية نقل صورة من

---

(١) عبيد بن شريه الجرهمي، كتاب الملوك، حيدر أباد الدكن، ١٩٢٨م.

(٢) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج١، ص ١١٩ فما بعد.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٣٥ فما بعد.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص١٣٩ فما بعد.

تاريخ الفرس. ولم تكن بلاد فارس بل كان العراق في العصر العباسي الأول مركزاً لهذا النشاط. ومن رواد هذه الحركة عبدالله بن المقفع (ت ١٤٢هـ) الذي ترجم عدة كتب في هذا المجال مثل (خداي نامة) سير الملوك و(آيين نامه) المراسم والتقاليد، و(الكاه نامه) طبقات العظماء، كما كتب الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ) كتاباً في أخبار الفرس، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١هـ) كتاباً في فضائل الفرس.

وترجم أبان بن عبدالحميد اللاحقي (ت آخر القرن الثاني الهجري) سيرة أنو شروان وأردشير. ونظم كليله ودمنه شعراً في أربعة عشر ألف بيت. وتناول الفرس المناقب والمثالب كذلك وبرز في هذا الباب علان الشعوبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى. ومما تجدر الإشارة إليه أن بدايات النزعة الإقليمية الفارسية تحددت في ميدان الترجمة و النقل بالدرجة الأولى، ثم كان التأليف في التاريخ المحلي للمدن والأقاليم الفارسية.

وتظهر بدايات النزعة المحلية في مصر مع عبدالرحمن بن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ) وكتابه تاريخ مصر وفتوح المغرب. وازداد الشعور بالتفاخر بالتاريخ المصري عند الحسن بن زولاق (ت ٣٨٧هـ) في كتابه تاريخ مصر وفضلائها. وتلاه المؤرخ محمد بن عبدالله المسبحي (٤٢٠هـ) وكذلك محمد بن علي بن ميسر

(ت ٣٢٤هـ) وكتابه في (صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها). ثم تتابعت الكتابات التاريخية المحلية على يد ابن القوطية القرطبي وابن حيان (٤٦٩هـ) والرقيق والقيرواني (ت ٤٢٣هـ)..

أما في الجزيرة الفراتية فلعل من أبرز كتب التاريخ المحلية الأولى كتاب تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي (ت ٣٣٤هـ) وعز الدين ابن شداد (ت ٦٨٤هـ) في كتابه (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة).

وأخيراً وليس آخراً فإن بدايات النزعة التاريخية المحلية لمدن العراق وإن غطت عليها المؤلفات التاريخية العالمية العامة التي ظهرت في العراق في القرن الرابع

الهجري/ العاشر الميلادي خاصة، فإن هذه النزعة ظهرت مبكرة في كتابات عن تاريخ بغداد لابن أبي طاهر طيفور (ت ٢٨٨هـ) وقبله عن خطط البصرة وقطائعها وسككها لعمر بن شبه (ت ٢٦٣هـ) وعن واسط وخططها ورجالاتها لبخشل الواسطي (ت ٢٨٨هـ).

ولعل ظهور هذه النزعة التاريخية المحلية أو الإقليمية للمدن والأقاليم دلالة واضحة على شعور سكان هذه المدن بدورهم وأهمية إسهاماتهم في مجال التراث العربي الإسلامي المشترك. كما وأنه يعكس تحول أنظار المؤرخين إلى النشاط الفكري والعلمي لهذه المدن من خلال إبراز اللامعين لرجالاتها في شتى مجالات العلوم وخاصة الدينية منها. وبمعنى آخر فإن هؤلاء المؤرخين "اعتبروا رجال العلم والفكر هم التاريخ وهم أولى باحتلال صفحاته دون رجال السياسة أو على الأقل أكثر بكثير من رجال السياسة ... وهو دلالة على الإدراك للقيم الفكرية الخالدة وتقدير لقيمة الإنسان وعمله ومسئوليته عن ذلك العمل"[(١)].

والملاحظ أن هذه النزعة المحلية تطورت ونضجت بمرور الزمن، وبدأ المؤرخون أنفسهم يقدمون المبررات تلو المبررات لها. وقد أشرنا سابقاً إلى ما قاله السلامي في كتابه (أخبار ولاة خراسان) لتبرير هذا النمط في التدوين التاريخي عند المسلمين. ونشير هنا إلى ما ذكره المسعودي[(٢)]. من أن لكل قطر عجائب يقتصر على علمها أهله. ويرى المقرّيزي[(٣)] أن أهل كل قطر أعرف بأخباره ومؤرخو مصر أدرى بما جرياته.

لقد وجد المؤرخون المحليون أن هناك في المدن والأقاليم من الأخبار والأحداث ما يستحق التسجيل والتفصيل، وهو شيء لم يعطه مؤرخو التاريخ العام الاهتمام الذي يستحقه. وفي هذا المجال كذلك يقول صالح بن أحمد التميمي (ت ٣٨٤هـ) في كتابه

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٣٦٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ١٢.

(٣) المقرّيزي، إتعاظ الحنفا، ج١، ص ٢٣٢.

(طبقات الهمذانيين) "ينبغي لطالب الحديث ومن عني به أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله... ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه"[1].

وقد لعب التنافس بين المدن والتفاخر بينها حول كثرة رواة الحديث ورجال العلم وكثرة الحفاظ أثره في ظهور مثل هذه المؤلفات وذلك من أجل إبراز دور مدنهم وعلمائها في التأليف وإثبات فضلهم في العلوم والدينية منها بصفة خاصة.

ولا بد من الإشارة أن هذه المؤلفات في التاريخ المحلي رغم تركيزها على أحداث وعلماء مدنها، فقد ظلت إلى حد ما منفتحة على الأحداث التي حولها في دار الإسلام ولذلك نجد في هذه التواريخ المحلية أخباراً عن أقطار أخرى وعلماء آخرين خارج حدود المدينة أو الإقليم الذي يتكلم عنه المؤلف. وعلى سبيل المثال نجد في تاريخ مصر لابن ميسر أخباراً عن بلاد الشام والعراق وغيرهما، كما يشير تاريخ الموصل للأزدي إلى أخبار الخوارج في أقاليم أخرى بعيدة عن الموصل والجزيرة الفراتية. كما أضحت كتب التراجم المحلية تحوي رجالات من العلماء في كل إقليم أو مدينة. وأشهر دليل على ذلك تاريخ بغداد للخطيب البغدادي الذي أصبح تاريخاً لتراجم علماء المسلمين من كل صوب وصقع. ومن هنا جاء التداخل الذي أشرنا إليه سابقاً بين التاريخ المحلي وتاريخ الأسر الحاكمة، أو الدويلات الإقليمية وكذلك بين كتب التاريخ والتراجم بحيث أدى إلى اختلاف الباحثين المحدثين في تصنيف المؤلفات المختلفة والتي تجمع بين أكثر من نمط واحد في الكتابة التاريخية.

أنواع كتب التاريخ المحلي:

قسم الباحثون المحدثون[2] كتب التاريخ المحلي إلى قسمين رئيسيين:

(١) كتب التاريخ المحلي الديني: وهي الكتب التي اهتمت بتاريخ وخطط المدن

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص ٢١٤.

(٢) راجع مثلاً: السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٠٥ فما بعد.

الإسلامية المقدسة وأخبارها منذ نشأتها حتى العصر الذي عاش فيه المؤلف. وقد شمل التاريخ المحلي الديني مدن مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وقد ألف المؤلفون أعداداً كبيرة من الكتب والرسائل حول هذه المدن لا مجال لحصرها. نشير هنا إلى كتاب الأزرقي (ت ٢٤٤هـ) في أخبار مكة والفاسي (ت ٨٣٢هـ) وعنوانه (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام)، وابن النجار (ت ٦٤٧هـ) وكتابه (الدرة الثمينة في تاريخ المدينة "المنورة")، والسمهودي (ت ٩١١هـ) وكتابه (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى). والواسطي (فضائل بيت المقدس) والمقدسي وكتابه (فضائل بيت المقدس) ومجير الدين العلمي الحنبلي (ت ٩٢٨هـ) وكتابه الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. وغيرها كثير.

وهناك نوع ثاني من كتب التاريخ المحلي تغلب عليه الصبغة الدينية أيضاً من خلال حصر اهتمام المؤلف بتراجم علماء الدين المتخصصين بالحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الدينية دون غيرهم من الرجال، ويأتي في هذا المجال كتاب بحشل الواسطي (ت ٢٨٨هـ) تاريخ واسط ، وكتاب الخشني ٣٦١هـ(تاريخ قضاة قرطبة). وأبو نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) وكتابه تاريخ أصبهان، والسهمي (ت ٤٢٧هـ) (تاريخ جرجان) وغيرها. والغالب على هذا النوع الثاني من الكتب أن المؤلف يبدأ بمقدمة عن تاريخ المدينة وخططها وأخبارها ثم يتناول تراجم العلماء المتخصصين بالعلوم الدينية.

(٢) كتب التاريخ الحولي الدنيوي: وهذه الكتب تعنى بتاريخ المدن الإسلامية عامة وتناولت أخبارها وفتوحها وخططها وأهميتها عبر العصور، ثم تتناول رجالاتها وتترجم لهم بغض النظر عن نشاطاتهم وفعالياتهم سواء كانت دينية أم دنيوية. ومن هنا نتعرف على إنجازات الرجال وأحياناً النساء الذين ولدوا وعاشوا أو زاروا أو استقروا لفترة من الزمن في هذه المدن، في مختلف مجالات العلوم والمعارف والسياسة والإدارة وغيرها.

وكتب التاريخ المحلي الدنيوية كثيرة وقد بدأت منذ زمن مبكر نسبياً، فقد كتب عمر بن شبه (ت ٢٦٣هـ) عن خطط البصرة وعن خطط الكوفة، وكتب أبو طاهر طيغور (ت ٢٨٨هـ) في تاريخ بغداد متطرقاً إلى خططها وأخبارها السياسية. وكتب أبو زكريا الأدزدي (ت ٣٣٤هـ) عن تاريخ الموصل وكتب أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت ٣٢٤هـ) عن وصف قرطبة وخططها. وكتب الهمداني (ت ٣٣٤هـ) كتابه (الإكليل) عن اليمن وغيرها.

وسنتناول فيما يلي نماذج من القسمين الديني والدنيوي، وقد اخترنا من القسم الأول: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي، ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي، والأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل للعليمي الحنبلي. وهؤلاء الثلاثة يمثلون النوع الأول من القسم الأول. أما النوع الثاني من القسم الأول فقد اخترنا تاريخ جرجان للسهمي وتاريخ أصبهان لأبي نعيم الأصفهاني.

أما القسم الثاني (التاريخ المحلي الدنيوي) فالباحث يجد نفسه أمام خيارات كثيرة من كتب المدن والأقاليم، وقد اخترنا الكتب التالية:

- الهمداني وكتابه (الإكليل في تاريخ اليمن).
- لسان الدين بن الخطيب وكتابه (الإحاطة بتاريخ غرناطة).
- السيوطي وكتابه (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة).
- المؤرخون الفرس ومصنفاتهم في التواريخ المحلية للمدن والأقاليم الفارسية.
- ابن حيان القرطبي وكتابه (المقتبس من أنباء أهل الأندلس)
- عز الدين ابن شداد الأنصاري وكتابه (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة).
- المقرّيزي وكتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار).
- المقرّي التلمساني وكتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب).

• عبد الرحمن الدباغ وابن عيسى بن ناجي (ت ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥م) وكتابهما (معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان).

• الأزكوي وكتابه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) "عن تاريخ إقليم عمان".

نماذج من التاريخ المحلي الديني:

❖ الفاسي[1] وهو تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م) ولد بمكة وجال في الآفاق الإسلامية ليسمع من علمائها ورجال الحديث فيها. وصاحب ابن حجر العسقلاني في رحلاته هذه. تولى منصب القضاء على المذهب المالكي في مكة. ألف كثيراً من الكتب وخاصة في تاريخ مكة وترجم لرجالاتها البارزين وولاتها.

أما كتابه الذي يهمنا هنا فهو شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (مكة المكرمة) وفيه يتناول تاريخ مكة قبل الإسلام وبعده وخططها. وله كتاب آخر بعنوان (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين). ويتضمن كذلك تاريخ مكة وخططها ثم تراجم رجالاتها البارزين. وقد كتب مصنفات في التذييل على الكتب الأخرى فقد ذيل على تاريخ ابن النجار وعلى "سير أعلام النبلاء" للذهبي وغيرهما.

ولعل الفاسي يعد خير ممثل للنزعة التاريخية في تدوين التاريخ المحلي للحجاز، تلك النزعة التي تكونت متأخرة في العصر المملوكي بصفة خاصة وضمت عدداً من العلماء المجاورين الذين جاءوا إليها من الأقاليم والمدن الإسلامية المختلفة للاستقرار في الحرمين. وإذا كان العباسيون والفاطميون قد قصدوا عمداً إلى تحديد نشاط الحجاز لتقتصر على الأمور الدينية لأسباب سياسية واضحة، فإن النظام المملوكي في مصر

---

(١) عن تقي الدين الفاسي راجع: السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٩٩. الشوكاني، البدر الطالع، ج٢، ص١١٤. ابن العماد، شذرات، ج٧، ص١٩٩. كذلك: كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٣٠٠. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٤٠٥-٤٠٧. جميل حرب حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، جدة، ١٩٨٥م، ص٧.

وبلاد الشام اتبع السياسة نفسها واهتم بتشجيع النشاطات الدينية والفكرية وإعمار الأماكن المقدسة لأسباب أخرى لعل أهمها إضفاء الشرعية والسند المعنوي والروحي لنظامهم الذي لا يرتبط بروابط قوية بالأرض والشعب. ومما سهل زيارة الحرمين والاستقرار بهما مرور طريق التجارة من الشرق إلى الغرب عبر الحجاز فكان الناس يرافقون القوافل التجارية إلى الحجاز للحج والتزود بالعلم.

والملاحظ أن ما كتب عن الحرمين الشريفين لا يتعدى أن يكون تاريخاً وخططاً للمدينة ثم تراجم لعلمائها والرجال البارزين فيها ومنهم آل البيت.

❖ السمهودي(١) نور الدين علي بن القاضي عفيف الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) يرجع في أصله إلى بلده سمهود في صعيد مصر، درس على أبيه الحديث وعلوم اللغة العربية، ثم سمع عن شيوخ القاهرة ولبس خرقة التصوف فيها. ثم قصد مكة والمدينة المنورة وبقي في المدينة حتى توفي فيها. وقد عمل في التدريس والتأليف فغدا عالم المدينة ومؤرخها ومفتيها ومدرسها وكان تخصصه رواية تاريخ المدينة المنورة. وقد نكب باحتراق مكتبته فاحترقت بعض تآليفه قبل نسخها وتداولها.

والذي يهمنا من كتبه في هذا المجال هو كتابه (وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى) عن المدينة المنورة وهو ملخص لكتاب له التهمته النيران في حريق مكتبته. وقد رتبه على ثمانية أبواب: في أسماء البلد وفضائلها، وأخبار سكانها ومساجدها، وفي مصلى النبي ص وفي خططها وأوديتها وفي زيارة مرقد النبي ص.

وللسمهودي العديد من المختصرات والذيول على مصنفات مسبقة، كما وأنه اختصر كتبه نفسها التي سبق وأن ألفها.

---

(١) عن نور الدين السمهودي انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٤٥. الشوكاني، البدر الطالع، ج١، ص٤٧٠ فما بعد. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٨، ص٥٠-٥١. العيدروس، النور السافر، ص٥٨ فمابعد. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٤١٢.

❖ مجير الدين العليمي الحنبلي[1]، هو أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) وكتابه (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) والذي نشر في عمان ١٩٧٣م ومصر ١٢٨٣هـ.

ومجير الدين العليمي مؤرخ عربي مقدسي، ولد في القدس ودرس في القاهرة، وعين قاضياً في الرملة ثم قاضياً للقضاة في القدس حتى ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وكانت وفاته بالقدس أيضاً. وله عدة كتب في تفسير القرآن وتراجم للفقهاء الحنابلة وفي التاريخ كتب (التاريخ المعتبر في أنباء من عبر).

أما كتابه المهم عن القدس والخليل والذي أشرنا إلى عنوانه فيتألف من جزئين يتضمن معلومات مهمة عن التاريخ المحلي لمدينة القدس وجوارها.

والعليمي الحنبلي في كتابه هذا يضع القدس والخليل بالمستوى نفسه مع مكة والمدينة المنورة ويبدأ كتابه بآيات الإسراء والمعراج ثم يتكلم عن الأماكن المقدسية وتاريخها في القدس ويقارنها مع الأماكن المقدسة في الحرمين الشريفين. ويتناول شعائر زيارة القدس وأسماء ولاتها وحكامها منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى عهد المماليك، ثم يتطرق إلى فقهاء القدس وعلمائها.

أما مصادره فهي تلك الكتب التي سبقته في تناول فضائل القدس ويشير إلى المؤلفين الذين اعتمد عليهم ومصنفاتهم وكذلك الوثائق الرسمية عن القدس.

ويبدو أن الكتاب نال اهتمام المسلمين بدليل كثرة عدد المخطوطات لهذا الكتاب المنتشرة في المكتبات والجوامع في أنحاء العالم الإسلامي، ولكن الكتاب رغم نشره لم يحقق تحقيقاً علمياً جيداً.

ولا بد لنا ونحن نتكلم عن تاريخ القدس من القول بأن الكتب التي صنفت في تاريخ هذه المدينة وخططها وأخبارها كثيرة أسوة بمكة والمدينة المنورة. وتسمى بعض هذه

---

(١) عن مجير الدين العليمي راجع: (دائرة المعارف الإسلامية العليمي). ٢) e.I.

الكتب (بكتب الفضائل). وفيما عدا كتاب واحد عن فتوح بيت المقدس لأبي حذيفة إسحق بن بشر القرشي (ت ٢٠٦هـ) لم يعثر على مصنفات عن فضائل القدس قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رغم تواجد عناوين بعضها وأسماء مؤلفيها. وربما كان أول كتاب وصلنا عن فضائل بيت المقدس هو لأبي بكر محمد بن أحمد الواسطي.

على أن حركة التأليف عن القدس نشطت حين هددت المدينة بالخطر الإفرنجي الصليبي، ثم استرجاعها من قبل صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، فقد تأججت مشاعر الناس وكتبوا في تاريخ القدس ومكانتها تأكيداً لارتباطها بالإسلام والعروبة. وما أنفك المؤرخون يكتبون المصنفات تلو المصنفات عن القدس منذ القرن الخامس الهجري مروراً بالسادس الهجري وحتى القرن العاشر الهجري[١].

❖ السهمي[٢] أبو القاسم حمزة بن يوسف (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) وكتابه (تاريخ جرجان) أو كتاب معرفة علماء أهل جرجان، ونشر في حيدر أباد الدكن سنة ١٩٥٠م من رواية الحافظ أبي محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي، وهو نموذج واضح على كتب النوع الثاني من التاريخ المحلي الديني لأنه اهتم بالإضافة إلى ذكر تاريخ المدينة وخططها وعمارتها بذكر تراجم عن رواة العلم وخاصة رجال الحديث دون غيرهم.

رحل السهمي إلى أرجاء عديدة من أرض الإسلام لطلب العلم ومن هنا جاءت معرفته الواسعة وكثرة رواياته في الحديث. وقد أثنى عليه السمعاني فقال عنه: "أحد الحفاظ المكثرين"، وسماه الذهبي بالإمام الثبت، بينما عدّه السخاوي من أئمة الجرح والتعديل. ومن المدن التي زارها أصفهان والري ونيسابور وغزنة والأحواز وما والاها. كما دخل بلاد العراق والحجاز وبلاد الشام ومصر لسماع الحديث. وأخذ عن الكثير كما روى عنه الكثير.

---

(١) آمنة بدوي، أهم المؤلفات حول مدينة القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ندوة القدس، عمان، ١٩٩٧م.
(٢) السهمي، تاريخ جرجان أو كتاب معرفة علماء أهل جرجان، حيدر آباد الدكن١٩٥٠م، طبعة أخرى، بيروت، ١٩٨٧م.

أما مؤلفاته فهي:

١ - كتاب تاريخ جرجان.

٢ - كتاب معجم شيوخه حيث ترجم لشيوخه وأساتذته الذين تلقى العلم عنهم.

٣ - كتاب في فضائل العباس عم النبي ص.

٤ - الجرح والتعديل.

والذي يهمنا كتابه الأول (تاريخ جرجان) وهي بلدة من أعمال بلاد العجم نبغ منها طوائف من أهل العلم وخاصة في الحديث.

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى أربعة عشر جزءاً. وافتتحه بخطبة وأبواب تتعلق بتاريخ مدينة جرجان فذكر فتحها ومن دخلها من الصحابة والتابعين. وفصل في يزيد بن المهلب فاتح جرجان وأولاده ومكارمه وأخباره. ثم ذكر عمال الدولتين الأموية والعباسية وخطط المساجد. ثم شرع في التراجم مرتبة على حروف المعجم وبدأ بمن اسمه أحمد ثم إبراهيم وهكذا، ثم ذكر من لم يعرف إلا بكنية ثم تراجم النساء، ثم ذكر فصلاً في النسب. ثم استدرك عدة تراجم. ومن الواضح أن عدد من التراجم لا توجد إلا في هذا الكتاب. كما أشار إلى عدد من الأحاديث النبوية الشريفة والحكايات الغريبة.

وفي النسخة الوحيدة للمخطوطة والموجودة في جامعة أكسفورد يشير المؤلف إلى عنوان الكتاب وسنده في أول كل جزء من الأجزاء. وقد نشر الكتاب سنة ١٩٥٠م في حيدر أباد الدكن.

❖ أبو نعيم الأصبهاني[(١)] وهو أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني (المتوفى سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) وكتابه (تاريخ أصبهان) يشابه كتاب السهمي آنف الذكر.

---

(١) أبونعيم الأصبهاني، تاريخ أصبهان، القاهرة، ١٩٨٨م (المقدمة). الذهبي، تذكرة الحفاظ، رقم ١٠٩٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٠٩. ج٧، ص ٢٣٠.

والأصبهاني فارسي كان جده مولى لعبدالله بن معاوية بن عبدالله الجعفري. نشأ في بيت علم وأدب، فبرز محدثاً بل علماً من أعلام أصبهان في الحديث. وذكر أهل التراجم أن أبا نعيم أتاح له طول عمره وقوة ذاكرته أن تكون له شهرة واسعة ومنزلة نادرة ووصف بالحفظ والعلم. كما وأن الأصبهاني رحل في طلب العلم إلى مكة وبغداد والبصرة والكوفة ونيسابور ولقي أئمة كل بلد وسمع منهم. كما رحل إلى الأندلس مما يدل على مثابرته واجتهاده في طلب الحديث وسائر العلوم الدينية. وله تلاميذ عديدون منهم الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد مدينة السلام.

أما مصنفاته: فكثيرة منها (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) وقد ذكرناه عند كلامنا عن التراجم. كما أنه كتب في الإمامة وفي معجم الصحابة وصفة الجنة وغيرها. ويهمنا في هذا الباب كتابه (تاريخ أصبهان) الذي قسمه إلى أبواب بدأ بأصبهان وعدد مدنها وجوامعها ثم تطرق إلى فتحها وخصائصها ثم تناول تراجم العلماء ورواة الحديث والحفاظ وغيرهم ممن تخصص بالعلوم الدينية ممن ولدوا وعاشوا أو قدموا إلى أصبهان مرتبين على الحروف الهجائية تبدأ من الألف وتنتهي بالياء. وقد نشر الكتاب في بيروت سنة ١٩٩٠م كما تضمن كتابه حوالي ألفين وخمسمائة حديث.

نماذج من التاريخ المحلي الدنيوي:

❖ الهمداني، الحسن بن أحمد الصنعاني الملقب بإبن الحائك (ت ٣٤٥ هـ/ ١٩٥٦م[١]) ويعد رائد التاريخ اليمني، وأكبر مؤرخي اليمن في القرون الإسلامية الأولى، ولد بصنعاء وينتمي إلى قبيلة همدان. وبرز في الشعر والنسب والتاريخ والجغرافية وعلوم العربية والفلسفة والتنجيم. ولقب نفسه (لسان اليمن). كانت ظروف اليمن صعبة في زمانه وشارك مع قبيلته في الحروب ضد القرامطة الذين أرادوا السيطرة على اليمن ثم ضد الزيدية.

---

(١) الهمداني، الإكليل، القاهرة، ١٩٦٣م (المقدمة). شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٣٣٢-٣٣٧. جميل حرب حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص١٩-٢٢.

وكان الهمداني كثير الرحلات فقد جاب أطراف اليمن والجزيرة العربية ودون ملاحظاته عنها، وحج إلى البيت الحرام وجاور هناك وأخذ العلم عن مشايخها، وعاد إلى اليمن وشارك في المعارك ضد محاولة الزيدية السيطرة على اليمن وسجن عدة مرات إلا أن نفوذ قبيلته همدان كان سنده أثناء نكبته السياسية رفضه لنفوذ الإمامة الزيدية على اليمن.

أما مصنفاته فهي كثيرة ومتنوعة بتنوع نشاطاته العلمية فله ديوان شعر ضخم، وله كتب في الجغرافية أشهرها كتاب (صفة جزيرة العرب) وهو مطبوع. أما كتابه الذي نحن بصدده فهو (الإكليل) ويركز فيه على اليمن ويتكون من عشر مجلدات في أنساب اليمن وفضائل قحطان وملوك اليمن قبل الإسلام وعمارة اليمن وقصورها وقبائلها ثم في أمثال اليمن وحكمها. وأغلب الكتاب مفقود ولم يبق منه سوى أربعة مجلدات نشرت في بغداد والقاهرة وبرنستون في سنوات مختلفة.

ويغلب على المتبقي من كتاب الإكليل النسب ومع ذلك فهو حافل بالأحداث التاريخية والمعلومات الحضارية وقطع شعرية ومصطلحات لغوية يمانية. ويبدو في أسلوبه واختياراته تعصبه لإقليمه اليمن مما أثار مشاعر أعدائه وربما كان ذلك هو السبب في فقدان كتبه.

وبمناسبة الكلام عن التاريخ المحلي لليمن لابد من الإشارة بأن المصادر التي تناولته جاءت متأخرة لعل من أهمها: تاريخ اليمن لعمارة اليمني المقتول سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م أثر مشاركته في الحركة التي حاولت إعادة الفاطميين إلى مصر ضد صلاح الدين الأيوبي. ويشمل الكتاب الفترة من ١٩٩هـ إلى ٥٦٣هـ وقد نقل عنه مؤرخون متأخرون مثل الخزرجي وابن الديبع.

ومن المصنفات التاريخية اليمانية: كتاب السمط الغالي لابن حاتم (ت ٦٩٤هـ) والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي (ت ٧٣٢هـ). وكتاب طراز الزمن في طبقات أعيان اليمن للخزرجي (ت ٨١٢هـ) ويتناول تاريخ الإسلام منذ عصر الرسول

ص حتى سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦هـ. وللمؤلف نفسه كتاب بعنوان العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، وكذلك كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية. أما ابن الديبع (ت ٩٤٤هـ) فمن مؤلفاته ذات العلاقة بالتاريخ المحلي كتابه (بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد) وقد خصصه لمدينة زبيد منذ تأسيسها أيام بني زياد حتى وصل بتاريخها إلى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. أما كتابه الثاني فهو (قرة العيون في أخبار اليمن الميمون) تكلم فيه عن تاريخ اليمن وقسمه إلى أبواب وفصول خصص كل منها لمدينة من المدن مثل صنعاء وعدن وزبيد.

❖ لسان الدين ابن الخطيب[1] أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م) كان من أبناء مدينة غرناطة ولقب (ذو الوزارتين). يعود في أصله إلى قبيلة يمانية من بلاد الشام هاجرت إلى الأندلس.

اشتهر بكونه مؤرخاً وسفيراً للدولة المرينية ولمملكة غرناطة، وبسبب عمله في الإدارة والسياسة أصيب بنكبات عدة دخل على أثرها السجن ثم أبعد إلى المغرب الأقصى (مراكش). وفي المغرب استقرت به الحال وكتب مؤلفاته المعروفة. انتهت حياته بالإعدام بعد عودته إلى الأندلس واشتغاله مرة ثانية بالسياسة حيث اتهمه أعداؤه بالزندقة وحكم عليه بالموت.

وإذا كان ابن حيان رائد التاريخ الأندلسي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فإن لسان الدين بن الخطيب يعد المرجع غير المنافس لتاريخ الأندلس وفكرها وثقافتها في القرنين السابع والثامن الهجريين ١٣ و ١٤ الميلاديين. فقد ألف في التاريخ والشعر والأدب والرسائل والرحلات. والذي يهمنا من كتبه هو كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) الذي يعطي معلومات ثرة عن الحضارة الإسلامية في مدينة غرناطة.

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ٢) .eI) الجزء الثالث، ص ٨٥٩.

❖ السيوطي[1] وهو عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، مؤرخ من الديار المصرية. اشتهر بكونه موسوعياً صنف العديد من الكتب التاريخية وغير التاريخية. أشرنا إليه في موضع سابق حين تكلمنا عن أنماط أخرى في التدوين التاريخي، ونشير إليه هنا لكونه كتب في التاريخ المحلي لمصر كتاباً عنوانه (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة)، تطرق فيه إلى أخبار مصر وخطط مدنها وسكانها وعمارتها.

❖ المؤرخون الفرس ومصنفاتهم في التواريخ المحلية للمدن والأقاليم الفارسية:

لعل أهم نتيجة حققها قيام الدولة العربية الإسلامية هي انتهاء تلك الحروب الطويلة الأمد والمدمرة بين الإمبراطوريتين الساسانية الفارسية والبيزنطية (الرومية) مما أدى إلى حالة من الاستقرار والازدهار لم تشهدها المنطقة منذ قرون.

فقد عاش سكان الإمبراطوريتين وخاصة الأقاليم الحدودية كالعراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية حالة حرب شبه مستمرة خلال القرن وربع القرن الأخير قبل ظهور الإسلام. وكان تأثير هذه الحروب واضحاً في النزيف الدموي والاستنزاف الاقتصادي وتخريب العمران في الأراضي والمدن وإرهاق الشعوب بالضرائب والتكاليف والقتال وسلب الحريات الدينية والخاصة.

وقد نتج عن حالة الأمن والاستقرار الجديدة ازدهاراً حضارياً في مجالات عديدة شاركت فيه شعوب مختلفة مع العرب المسلمين صانعي الدولة الجديدة. والذي يهمنا هنا هو "النهضة الثقافية" في الكتابات التاريخية الفارسية.

ولا بد أن نشير بدءاً إلى أن الفرس فئتان: الأولى وتشكل الغالبية آمنت بالإسلام ووالت الدولة العربية الإسلامية وتبنت الفكر العربي الإسلامي وحاربت المبادئ المناهضة. وقد ظهر من هذه الفئة العديد من المفكرين والمؤرخين والفقهاء والأدباء والعلماء الرواد. ويهمنا في هذا المجال مجموعة من المؤرخين على رأسهم الطبري

---

(١) عن تفاصيل المصادر التي ترجمت للسيوطي انظر دائرة المعارف الإسلامية(ص) (٢. I)، الجزء التاسع، ص ٩١٣.

صاحب التاريخ وكذلك التفسير، وابن قتيبة صاحب كتاب العرب وكتاب المعارف وعيون الأخبار وغيرها، والجاحظ صاحب الكتب والرسائل المشهورة ورأس الرمح في الدفاع عن الثقافة العربية الإسلامية تجاه مفتريات الشعوبية والزندقة. وقد أثبت هؤلاء الفرس المسلمين والموالين للفكر العربي الإسلامي قبل غيرهم من الكتّاب وحدة التاريخ العربي الإسلامي الثقافي، بحيث بات كل عصر متمم للآخر كما في (عيون الأخبار) لابن قتيبة و(البيان والتبيين) للجاحظ. ووحدة التاريخ العربي الإسلامي السياسي كما في (كتاب المعارف) لابن قتيبة كذلك. وأشاد الجاحظ بعرب قبل الإسلام وكياناتهم السياسية والحضارية. بل راح الكاتب نفسه يؤكد على وحدة الأمة لا القبيلة وما القبائل إلا مظهر من مظاهر الأمة الواحدة[١]. وتبنى الطبري في تفسيره "للشعوب" وجهة النظر العربية الإسلامية المناهضة لوجهة النظر الشعوبية. فقد قال الطبري بأن الشعوب وحدة اجتماعية أكبر من القبيلة والعشيرة، فيما رأت وجهة النظر المعادية أن الشعوبية تعني الفرس وفضلتهم على العرب[٢].

أما الفئة الثانية فهي التي تسترت بالإسلام ظاهراً وتمسكت بنزعتها الفارسية المتشددة بل بديانتها المجوسية، بكل ما تشمل من قيم وتقاليد. وبقدر ما يتعلق الأمر بالمجال التاريخي فقد حاولت هذه النزعة أن تشكك بدور العرب التاريخي وفضلهم في الإسهام بالحضارة الإنسانية وحاولت التشويه عبر حقب التاريخ العربي الإسلامي. ولعل الباحث يكشف أمثال هذه الروايات في كتاب (الأخبار الطوال) للدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) حيث تبالغ في رجالات الفرس مثل أبي مسلم، كما وأن الدينوري يهمل بعض الحركات الفارسية التي ثارت ضد الدولة[٣]، وتجد مثل هذا الميل كذلك في كتاب (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) لحمزة الأصفهاني[٤].

---

(١) الجاحظ، ثلاث رسائل، تحقيق فان فلوتن، ص ٤٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج١٠، ص ١٣٨.

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ليدن، ١٨٨٨م.

(٤) حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ليزبك، ١٨٤٤م.

وتهتم كتب التاريخ المحلي الفارسية كعادة كتب التاريخ المحلي الأخرى، بأقاليم بلاد فارس وتفصل في أحداثها السياسية أو غير السياسية، ولذلك فإن بعض الأحداث أو الحركات التي يشير إليها الطبري بسطر أو فقرة قصيرة، تشير إليها مصادر التاريخ المحلي بكثير من التفصيل والإسهاب. على أن الموقف العدائي للسلطة المركزية في بغداد وسياستها في بلاد فارس واضح تماماً، في كثير من هذه التواريخ المحلية كما وأن ميل مؤرخي التاريخ الفارسي المحلي لحركات المعارضة وتأييدهم لها واضح أيضاً.

ومن التواريخ المحلية لبلاد فارس تاريخ طبرستان وتاريخ سيستان وتاريخ أصفهان وتاريخ قم وتاريخ بخارى وغالبيتهم يتميزون بنزعة إقليمية واضحة[١]. وقد حاول بعض المؤرخين كتابة تاريخ الفرس قبل الإسلام. بل أن بعض الرواة كانوا –على حد قول الجاحظ نفسه – ينتحلون الأخبار والروايات ويصنفون الكتب في تاريخ فارس وتراثهم قبل الإسلام، حتى اختلط على المرء الصحيح بالموضوع[٢]. ولعل أشهر من كتب في ذلك أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) الذي ألف كتابه الموسوم (غرر سير ملوك الفرس[٣]). كما وأن الفرس يؤكدون على (شاهنامه) الفردوسي[٤]، ويعتبرونها كنزاً زاخراً بتراثهم، وقد ترجم (الشاهنامه) إلى العربية الفتح بن علي البنداري. وليس لدينا إلا القليل من الوثائق التي تعود إلى العصر الساساني، ولهذا تزخر كتب التاريخ العربية التي تذكر أخبار الفرس قبل الإسلام بالكثير من الأساطير والحكايات المفعمة بالخرافة[٥]. ولهذا أيضاً فإن من الحقائق المعروفة لدى المختصين بتاريخ بلاد فارس هي عدم وجود كتاب تاريخي باللغة الفارسية يتعلق بتاريخ فارس حتى بدايات العصر المغولي (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، وأن الذي يبحث عن تاريخ بلاد فارس في العصر

---

(١) راجع على سبيل المثال: تاريخي بخارى تاريخ سيستان ووقوفهما بجانب الحركات المناهضة للخلافة العربية الإسلامية.

(٢) الجاحظ، ذم أخلاق الكتاب، في رسائل الجاحظ، ص ١٩١ فما بعد.

(٣) أبو منصور الثعالبي، غرر سير ملوك الفرس، باريس، ١٩٠٠م.

(٤) الفردوسي، شاهنامة، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٥) كرستنسن، تاريخ إيران في العصر الساساني، مترجم، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٦-٦٠.

الإسلامي(١هـ- ٦٥٤ هـ/ ٦٤٢-١٢٥٥م) لا بد له أن يعتمد على كتب التاريخ العربي الإسلامي العام المكتوبة باللغة العربية في غالبيتها العظمى، ويبدو أن عملية التدوين التاريخي لم تلقى اهتماماً لدى الفرس قبل الإسلام ودليلنا على ذلك عدم وجود كتاب تاريخي بالمعنى الحقيقي لدى الفرس قبل الإسلام. وقد دفع هذا النقص العديد من المؤرخين – ذوي الأصل الفارسي – كالطبري والدينوري والبيروني وابن قتيبة إلى اتخاذ النموذج العربي في الكتابة التاريخية. هذا إضافة إلى كونهم كتبوا باللغة العربية لغة الدين والدولة، واللغة التي انتشرت في أرجاء الحواضر الإسلامية باعتبارها لغة الثقافة. فلم يكن من الحكمة كتابة التاريخ بغير اللغة العربية.

لقد كانت اللغة العربية – لغة القرآن والدواوين والثقافة- بالنسبة للعالم الإسلامي كاللغة اللاتينية بالنسبة للعالم الأوربي الغربي في العصور الوسطى(١)، فهي الواسطة المهمة للعلاقات بين شعوب الدولة الإسلامية الواحدة.

كانت فئة من النبلاء والدهاقين ورجال الدين الزرادشت ضد هذه النزعة، ولهذا لم تكن تشجع انتشار اللغة العربية أو الإسلام بين الفرس لأسباب اجتماعية واقتصادية خاصة بها. وقد استمرت هذه الفئات الفارسية تشجع تداول أساطير الملوك الفرس القديمة وتتذوقها في مجالسها ولم تهتم من بعيد أو قريب بتاريخ بلاد فارس في العصر الإسلامي(٢). فهذا أمر لا يهمنا ولعل ذلك يعد سبباً آخر لعدم كتابة المؤرخين الفرس في هذه الفترة المبكرة لكتبهم باللغة الفارسية. لقد أدرك هؤلاء المؤرخين أن من العبث كتابة تاريخ فارس الإسلامي لمجتمع لا يهمه هذا التاريخ حتى لو كتب باللغة الفارسية!!

على أن اللغتين العربية والفارسية أثرتا في بعضهما فدخلت العديد من الكلمات العربية في اللغة الفارسية، كما ظهرت أشعاراً وحكماً ورسائل ديوانية وقصصاً وأسماراً وخرافات وتوثيقات عربية في لفظها وأسلوبها ولكنها فارسية في معانيها وموضوعاتها.

---

(١) Browne.e. Literary History of Persia. vols2. Cambridge 1902.

(٢) كرستنسن، المرجع السابق، ص ٥٦.

تقدمت الثقافة العربية الإسلامية إلى منتصف الطريق وأبدت مرونة ورغبة في التمازج والتبادل الثقافي مع الفرس فنقلوا من الفارسية ما تواجد من حكم وتوقيعات ورسائل ديوانية يدل أسلوبها في التفخيم والتبجيل على أنها فارسية. ويمتدح ابن قتيبة[١] هذه النزعة الجديدة المرنة ويعطي أمثلة ونماذج من الجيل الجديد من المثقفين الذين مازجوا بين اللغتين والثقافتين أمثال موسى ابن سيار الأسواري والعتابي. بل أن الجهشياري نفسه شرع في تأليف كتاب يضم ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم "فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة أقل أو أكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتمة ألف سمر"[٢]. وأكثر من ذلك فإن خلفاء الدولة العباسية ووزرائها لم يجدوا حرجاً في الاقتباس من الحكم والتعليقات الفارسية في "توقيعاتهم" على شكاوى الناس وعرائض المتظلمين[٣] والرسائل.

وليس يهمنا هنا أن نؤرخ لتطور الأدب الفارسي الجديد، شعراً ونثراً، تحت ظل الإسلام المتسامح إلا أننا نقول بأن هذا الأدب بدأ بالظهور بقصائد بسيطة وقليلة مع بدايات القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ثم نهض مع ظهور الإمارات الفارسية الجديدة في بلاد فارس حيث تعددت المراكز الثقافية من طاهرية في خراسان، وزيارية في الديلم وطبرستان وسامانية في بخارى وسمرقند وغزنوية في غزنة، فقد كان لكل إمارة من هذه الإمارات دورها في حركة الإحياء الأدبي الفارسي الجديدة، وترعرع في بلاطها العديد من الشعراء لعل أهمهم الرودكي والدقيقي في العصر الساماني. ثم بلغ أوجه في العصر الغزنوي مع ظهور الفردوسي صاحب الشاهنامه (٣٠٨هـ) [٤].

دخل التدوين التاريخي الفارسي منعطفاً جديداً بظهور الإمارات الفارسية في

---

(١) ابن قتيبة، في رسائل البلغاء، ص ٣٤٤ تحقيق محمد كرد علي.

(٢) راجع : حسن محمود، الإسلام في آسيا الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢م.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٤.

(٤) راجع: المرجع السابق، ص ٧٧ فما بعد. كذلك: Brown(ص)، op.cit., p. 235.

أقاليم عديدة من بلاد فارس. ويمكن تقسيم هذه الإمارات من حيث اهتماماتها بالتاريخ إلى أصناف ثلاثة:

الأول: وهو الصنف الذي يمثل العودة إلى القيم المجوسية وإلى التقاليد الساسانية. وخير من يمثل هذا الصنف الزياريون وأمراء طبرستان ومازندران. ومن الواضح أن هؤلاء لم يكن يهمهم في شيء تاريخ بلاد فارس الإسلامي، بل أن تأكيدهم كان على إيران قبل الإسلام.

الثاني: ويمثله أمراء الزيدية في جيلان الذين كانوا يخالفون مذهب الدولة العباسية. ولم يهتم هؤلاء بالتدوين التاريخي قدر اهتمامهم بتمييز أنفسهم عن الخلافة العباسية من الناحية المذهبية ولهذا ركزوا على تطور المذهب أكثر من التاريخ.

الثالث: ويمثله السامانيون في خراسان الذين دانوا بالطاعة للخلافة العباسية ولمذهبها، ولعبوا دوراً بارزاً في تطور التدوين التاريخي بالفارسية في إيران. فقد رعوا العديد من شعراء الفارسية. كما شجعوا البلعمي على ترجمة تاريخ الرسل والملوك للطبري. وكانت هذه الترجمة مهمة ثقافياً وسياسياً. فمن جهة يعدّ كتاب البلعمي المترجم (٣٥٣هـ/٩٦٣م) من أقدم النصوص النثرية الفارسية[1]، ومن جهة أخرى فإن السامانيين أرادوا أن يعبروا بعملهم هذا عن اعتقادهم بأن مصير أهل فارس لا بد أن يتوحد مع مصير الجماعة الإسلامية.

ولكن الأوضاع السياسية سرعان ما تبدلت وغدت معظم أقاليم بلاد فارس تحت سيطرة كيانات سياسية تركية جديدة كالغزنويين والسلاجقة والخوارزمية. إن هؤلاء الترك الذين لم يكن لهم حظ كبير في الحضارة تبنوا سياسة رعاية وتطوير اللغة الفارسية بحيث غدت اللغة الثانية في العالم الإسلامي خلال هذه الفترة. وفي هذه الفترة أيضاً دخلت العديد من الكلمات والمصطلحات العربية إلى الفارسية. خاصة وأن الترك شجعوا استخدام الفارسية مثلهم مثل أمراء الإمارات الفارسية السابقة.

---

(١) بلعمي، ترجماي تاريخي طبري، ١٩٠٦م.

ورغم أنه لم يعرف عن الترك تشجيعهم لمؤرخين من الفرس لكتابة التاريخ الفارسي بل اكتفوا بتاريخ البلعمي وما يمثله من شمولية إسلامية، فإنهم سمحوا للفردوسي بكتابة (الشاهنامة) التي أصبحت دستور الحياة والمرشد المهم لفئات الدهاقين والنبلاء الفرس الذين كانوا لا يزالون يحيون حياتهم متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم الساسانية. بل أن السلاجقة البدو في إيران اندمجوا في المجتمع الإيراني، وتبنوا تقاليده.

ولكن ذلك لايعني انتصار اللغة الفارسية في بلاد فارس على اللغة العربية، فقد ظلت الثقافة في فارس بعد ذلك أكثر من ثلاثة قرون ثنائية اللغة، وكانت الكتب تؤلف بالفارسية والعربية على السواء. كما وأن فئة من الترك لم يكونوا قانعين بكل ما كتبه الفردوسي في (الشاهنامة) خاصة في تمجيده الزرادشتية وماضي إيران الساساني، لأنهم دخلوا الإسلام لأسباب عقائدية صرفة، ولهذا لم يستسيغوا انتشار آراء أو وجهات نظر معارضة للإسلام أو منافية له.

ولقد مرت فترة انتقالية كتب فيها المؤرخون الفرس باللغتين العربية والفارسية، رغم ظهور كتب تاريخية فارسية خالصة لا تعتمد على مراجع عربية ولا تعرفها. وقد حدث ذلك قبل أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي(١).

وبعد هذه الفترة الانتقالية يأتي الحكم المغولي لبلاد فارس فيحدث تغييراً مهماً في الكتابة التاريخية هناك حيث تختفي اللغة العربية تماماً كلغة لكتابة التاريخ. كما شجعت هذه المرحلة على ظهور كبار المؤرخين الفرس أمثال علاء الدين الجويني (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) صاحب "تاريخ جهانكشاي" ورشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م) مؤلف "جامع التواريخ".

ولا بد لنا أن يشير بأن قيمة المؤلفات التاريخية الفارسية قبل الفترة المغولية ليست كبيرة فباستثناء البيهقي (ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٧م) الذي كتب تاريخه المعروف في ثلاثين

---

(١) راجع: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٣٦٢ فما بعد. عماد عبد السلام رؤوف، التاريخ والمؤرخون العراقيون، بغداد، ١٩٨٣م، ص ١٢٥ فما بعد.

جزءاً. ويشير شاكر مصطفى "أن مجمل الأعمال التاريخية السابقة له والتالية لم تؤد إلا إلى نتائج هزيلة وإلى مؤلفات يغلب عليها الطابع الأدبي وجمع النوادر"[١].

أما تاريخ الفرس القديم (قبل الإسلام) فإنه باعتراف المؤرخين الفرس أنفسهم مشكوك فيه ورواياته موضوعة وأسطورية، حيث يقول حمزة الأصفهاني: "تواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة". ويشكك موسى الكسروي بكتاب (خداي نامة) وهو تاريخ ملوك الفرس الذي كان مصدراً لأغلب ما كتب عن تاريخ الفرس القديم، ويؤكد أنه "لم يظفر في هذا الكتاب بنسختين متفقتين". مما يدل على كثرة الوضع والانتحال فيه[٢]. ويبرز فيها غلبة الطابع الفارسي على غيره ويبدو وكأنه في معزل عن التجربة العالمية.

أما المصادر الفارسية في الفترة المغولية فإذا استثنينا الجويني ورشيد الدين، فإن ما تبقى من كتب لا تضيف في غالبيتها معلومات جديدة أو مهمة إلى ما تقدمه لنا المصادر العربية عن الفترة الزمنية نفسها، كما وأن هذه المصادر مختصرة في معلوماتها وتؤكد بصورة خاصة على تاريخ إيران وتفصل فيه مما يضفي عليها صبغة فارسية محلية. كما وتعتمد هذه المصادر على لغة فارسية مكتوبة بأسلوب فيه الكثير من التكلف والتفخيم والمليء بالمحسنات البديعية حتى ليصعب على الفرس أنفسهم فهمه دون استعمال قاموس لغوي. ولعل هذا ينطبق على كتاب (تجربة الأمصار وتزجية الأعصار) للشيرازي المعروف بوصاف الحضرة.

إن استعمال لغة ثانية غير العربية في التأليف كان بحد ذاته تطوراً أحدث انفصاماً فكرياً وثقافياً... كان له نتائجه في اتساع التدهور الثقافي والفكري في الأقاليم التي خضعت للسيطرة المغولية والإيلخانية. وبقدر ما يتعلق الأمر بالكتابة التاريخية فإننا لا نجد سوى مؤرخاً واحداً أو اثنين في العراق مثلاً بمستوى المؤرخين المعاصرين الذين ظهروا في بلاد الشام ومصر في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. هذا بالإضافة إلى

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق نفسه.

تأثر هذه المؤلفات منهجاً وأسلوباً بالمؤثرات الفارسية في الكتابة.

لقد اتخذ هذا الأسلوب في السرد التاريخي مثلاً يحتذى به من قبل المؤرخين الذين جاءوا بعد وصاف الحضرة فاهتموا بالأسلوب وبلاغته أكثر من اهتمامهم بالحقيقة التاريخية، بل ربما كان ذلك على حساب الحقيقة التاريخية. وقد استمر هذا النهج لقرون عديدة قبل أن تتخلص منه الكتابة التاريخية الفارسية. ولكن الأهم من هذا وذاك خلال الفترة المغولية هو - وكما أشرنا - ضياع اللغة العربية كلغة ثقافة وتأليف في المشرق وخاصة إيران بعد أن كانت هذه اللغة قد تمكنت وانتشرت على الصعيد الثقافي والعلمي خلال القرون الستة الأولى من تاريخ الإسلام. أما بعد الهجمة المغولية الشرسة فقد انتهت اللغة العربية كلغة تأليف وإدارة وثقافة عامة رغم أن بعض الكتب الفقهية والدينية استمرت تكتب بلغة القرآن العربية.

وسنحاول استعراض المصادر التاريخية ذات الأهمية والتي كتبت باللغة الفارسية أو ترجمت إليها خلال الفترة الإسلامية الوسيطة:

(كتاب خداي نامة) في تاريخ ملوك الفرس وسيرهم... ويبدو أن معظم من كتب في تاريخ الفرس القديم قبل الإسلام اعتمد عليه واستقى معلوماته منه. ورغم أن حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠هـ تقريباً) لم يكتب بالفارسية إلا أن ما ألفه من كتب وخاصة تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء وتاريخ كبار البشر من مضى منهم ومن غبر، وكتاب أصبهان وأخبارها اهتمت بأخبار بلاد فارس وأحداثها وملوكها مما أسهم في ترويج تاريخ الفرس قبل الإسلام وبعده.

وقد كتب مرزبان بن رستم بن شروين (مرزبان نامة) باللهجة الطبرية وأهداه لأحد أمراء الدولة الزياريه ثم نقله سعد الدين الوراويني إلى الفارسية في بداية القرن السابع الهجري / ٦٠٧هـ تقريباً. وقد ألف العتبي (ت٤٢٧هـ) كتابه التاريخ اليميني للسلطان محمود الغزنوي (يمين الدولة) وترجم الكتاب إلى الفارسية في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كذلك.

وألف البيهقي (ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٧م) كتابه تاريخ بيهقي عن الغزنويين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وتتميز كتابته بأسلوبها السهل. ولم يبق منه إلا خمس مجلدات طبعت عدة طبعات وترجمت سنة ١٩٥٦م إلى العربية.

وكتب الكرديزي (أواسط القرن الخامس الهجري) كتابه عن تاريخ خراسان وسماه (زين الأخبار) الذي يؤكد على تاريخ خراسان من الفتح العربي الإسلامي حتى أواسط القرن الخامس تقريباً. كما ألف في القرن نفسه ناصري خسرو (ت ٤٨١هـ/ ١٩٨٧م) كتابه (سفرنامه) بالفارسية، ونظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) كتابه (سياسة نامه) بالفارسية كذلك.

أما القاشاني الذي وزر للعباسيين والسلاجقة وتوفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م فقد كتب بالفارسية كتاباً سماه (فتور زمان الصدور المبني عن القرون الخالية في العصور)، كما كتب نظامي عروضي السمرقندي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) كتابه مجمع النوادر، أو (جهار مقالة) بالفارسية، وألف ابن فندق البيهقي الثاني (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م) كتابه (مشارب التجارب وغوارب الغرائب) بالعربية والفارسية وينتهي ٥٤٩هـ. كما أتم البيهقي الثاني عمل البيهقي الأول بأن ألف ذيلاً لتاريخ بيهق نهج به منهج التراجم لا الأحداث.

وكتب النيسابوري كتاباً في تاريخ السلاجقة بالفارسية سماه (سلجوقنامة) يحوي أخبار السلاجقة حتى ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م وقد ذيل عليه عدد من المؤرخين. كما ألف الراوندي (ت ٥٩٩هـ) كتابه (راحة الصدور وآية السرور)، ومبارك شاه فخر الدين (شجرة أنساب الفرس) في حوالي (٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م).

ولفخر الدين الرازي محمد بن عمر التميمي (ت ٦٠٦هـ بهراة) كتاباً في التاريخ بالفارسية اسمه (حدائق الأنوار في حقائق الأسرار) وأهداه إلى سلطان الخوارزمية علاء الدين تكش. وقد كتبه بالعربية كذلك وأعطاه اسماً جديداً هو (جامع العلوم).

وألف عميد الملك بن الكرماني (ت ٦١٢هـ) ثلاثة كتب بالفارسية كلها في تاريخ

كرمان هي (عقد العلى للموقف الأعلى) و(بدائع الزمان في وقائع كرمان) و(ذيل وقائع الزمان).

وظهر في هذه الفترة تاريخ طبرستان بالفارسية لابن اسفنديار (ت ٦١٧هـ). وظهر قبله عدد من كتب التواريخ المحلية مثل تاريخ سيستان وتاريخ هراة وتاريخ همذان وكلها لمؤلف أو أكثر مجهوليين.

ثم ظهر كتاب (لباب الألباب) بالفارسية لمحمد عوفي (ت ٦٣٣هـ) وهو معجم لشعراء الفرس. وألف النسوي (ت ٦٤٧هـ) صاحب كتاب (سيرة جلال الدين منكبرتي) كتاباً آخر بالفارسية سماه (نفثة المصدور في فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور). أما الجوزجاني (ت ٦٥٩هـ) فله بالفارسية (طبقات ناصري) الذي انتهى من تأليفه سنة ٦٥٩هـ وأهداه للأمير ناصر الدين محمود شاه. وللمؤلف كتب تاريخية أخرى بالعربية.

أما ما كتب من المصادر الفارسية في الفترة المغولية فلعل رسالة نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) في فتح بغداد تعتبر أول تاريخ لسقوط بغداد من قبل شخص شارك في العملية لأنه كان مقرباً لهولاكو وفي طريقه اتصل بشخصيات سياسية بالعراق.

وربما كان أهم كتابين عن هذه الفترة باللغة الفارسية كتاب عطا ملك الجويني (ت ٦٨١هـ) الموسوم جهانكشاي أي فاتح العالم خاصة وأنه كالطوسي رافق حملات المغول ثم استوطن بغداد بل وتولى مسئولية الإدارة والحكم فيها لأكثر من عشرين سنة. ثم كتاب رشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت ٧١٨هـ) الموسوم (جامع التواريخ) وقد أكمله حافظ أبرو (ت ٨٣٤هـ) بذيل وضعه له. وتأتي بعدهما عدد من التواليف منها قد أشرنا إليها مثل طبقات ناصري وتاريخ وصاف أو لم نشر إليها مثل: الراوندي (راحة الصدور وآية السرور) والقزويني (تاريخ كزيدة) و(نزهة القلوب) ومير خوند (روضة الصفا) وخوندمير ومؤلفه (حبيب السير في أخبار أفراد البشر) ولا تضيف هذه المصادر المتأخرة معلومات مهمة إلى ما تقدمه لنا المصادر العربية، ومن الطبيعي أن تركز اهتمامها بأحداث بلاد فارس أكثر من بقية الأقاليم الإسلامية.

وفيما يلي جدولاً يرصد المؤلفات التاريخية المحلية[1] والتي دونت باللغة الفارسية أو بلغة ثنائية عربية – فارسية مرتبة حسب العهود التي مرت على بلاد فارس بعد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .

في العهد الساماني:

- ترجم البلعمي تاريخ الطبري من العربية إلى الفارسية.
- كتب الكرديزي كتابه (زين الأخبار) باللغة الفارسية وتكلم عن الأحداث حتى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

العهد الغزنوي:

- يعد تاريخ بيهقي أو تاريخ آل سبكتكين مصدراً مهماً لتاريخ بلاد فارس في العصر الغزنوي وقد ألفه أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي مستنداً على وثائق الدواوين الغزنوية. ولم يبق من الكتاب المؤلف من ٣٠ جزءاً سوى جزء واحد خاص بالسلطان مسعود الغزنوي ولذلك سمي (تاريخ مسعودي).

العهد السلجوقي:

- نجم الدين محمد الراوندي ألف كتاباً بعنوان: "راحة الصدور وآية السرور" وتكلم عن الأحداث حتى سنة ٥٩٦هـ.
- نظام الملك الوزير السلجوقي ألف كتابه (سياسة نامة) باللغة الفارسية.

العهد الخوارزمي:

- محمد بن أحمد النسوي (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي) باللغة العربية وتناول الأحداث بين ٦١٥هـ ٦٢٩هـ.

---

(١) راجع مقدمة تاريخ إيران بعد الإسلام حتى العهد القاجاري، تأليف عباس إقبال اشتياني (ت ١٢٧٦هـ) (مترجم)، القاهرة، ١٩٨٩م.

- المؤلف نفسه كتب كتاباً بعنوان (نفثة الصدور) باللغة الفارسية. وهو خواطر ومذكرات عما شاهده المؤلف من المصائب التي تعرضت لها إيران بعد الغزو المغولي.

العهد المغولي والإيلخاني:

- عطا ملك الجويني وكتابه (تاريخ جهان كشاي) أي فاتح العالم في ٣مجلدات باللغة الفارسية.

- رشيد الدين فضل الله وكتابه (جامع التواريخ) باللغة الفارسية.

- المؤلف نفسه كتب (التاريخ المبارك الغازاني) عن السلطان غازان خان سنة ٧٠٠هـ باللغتين العربية والفارسية.

- شهاب الدين عبدالله بن فضل الله الشيرازي الملقب (وصّاف الحضرة) كتب كتاباً باللغة الفارسية، ولكن عنوانه بالعربية وهو (تجزية الأمصار وتزجيه الأعصار) ويعد ذيلاً لتاريخ جهان كشاي وتناول الأحداث بين ٦٥٥هـ-٧٢٤هـ.

- حمد الله المستوفي كتب (تاريخ كزيدة) باللغة الفارسية.

- المؤلف نفسه نظم كتاب (ظفرنامة) شعراً بالفارسية.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكتابة التاريخية الفارسية حتى نهاية الفترة المغولية. ونعاود تناول المؤرخين المحليين للمدن والأقاليم الأخرى.

- ابن حيان القرطبي: مؤرخ أندلسي عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي واشتهر بكتابه (المقتبس من أبناء أهل الأندلس) وقد حققه وقدم له محمود علي مكي ونشر بالقاهرة (١٩٧١م).

يعد ابن حيان بحق "صاحب لواء التاريخ بالأندلس" كما وصفه بذلك تلميذه أبو علي الجياني، وهو في الحقيقة قمة الكتابة التاريخية في هذا القطر، ويتمثل فيه نضوج هذا

اللون من ألوان الثقافة الأندلسية.

والذي يتتبع تطور الكتابة التاريخية في الأندلس، يمكنه أن يقدر الوثبة العظيمة التي أتيحت لهذا العلم من عبدالملك بن حبيب الألبيري أول مؤرخي الأندلس (ت ٢٣٨هـ/٨٥٢م) حتى ابن حيان أي على طول نحو قرنين ونصف من الزمان. وكانت بداية علم التاريخ على يد ابن حبيب طموحة متواضعة في الوقت نفسه: طموحة في نبل الغاية الذي دفع بهذا المؤلف الأندلسي في مثل ذلك الوقت المبكر من مولد الثقافة العربية في الأندلس إلى أن يقوم بكتابة تاريخ عام للعالم قبل أن يكتب الطبري تاريخه بأكثر من نصف قرن، أما تواضعها فهو في النتيجة الذي انتهت إليها هذه المحاولة إذ أتى تاريخ ابن حبيب من الفجاجة والنقص بحيث كان ينتظر، على أن جرأة الفقيه الإلبيري في إقدامه على هذا التأليف تدعو في ذاتها إلى الإعجاب بهذا العالم المتوسط الثقافة الذي أراد أن يؤكد "قوميته" الأندلسية منذ ذلك الوقت المبكر في ميدان العمل الثقافي والفكري.

وكنا ننتظر من أول مؤرخ تنجبه أرض الأندلس أن يفيض في الحديث عن أخبار الفتح العربي لبلده وفي تاريخها بعد الفتح، ولكن ابن حبيب مضى يفتح على نفسه باب الحديث الواسع عن قصة العالم وتاريخ الأنبياء والرسل وسيرة النبي ص والخلفاء الراشدين وغير ذلك مما لم يكن بوسعه أن يجيده أو يقدم فيه شيئاً له قيمته، فلما وصل إلى الفصول التي اختص بها الأندلس إذا به يخيب الأمل فيه فيملأ كتابه بمجموعة من الأحاديث الخرافية مما نقله عن شيوخه المدنيين والمصريين. وهكذا بدأت كتابة التاريخ الأندلسي في ظل ما يشبه أن يكون "وصاية" للفقهاء والمحدثين والقصاص المصريين.

ولكن الكتابة في هذا الميدان لا تلبث أن تسير في طريق النضوج بسرعة ملحوظة، ولا يأتي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى يظهر بين الأندلسيين من

يوصلون هذا اللون من الكتابة إلى مستوى رفيع من الإجادة والتنوع في الوقت نفسه. أما التنوع فقد ظهرت مؤلفات تعنى بتسجيل جوانب معينة من حياة الأندلس، فبعضها خاص بتراجم رجال الأندلس وفقهائها وعلمائها مثل كتاب ابن الفرضي، وبعضها أكثر تحديداً، إذ لم يتجاوز تأريخ قضاة قرطبة مثلاً كما نرى في كتاب الخشني، أو طبقات اللغويين والنحويين كما هو شأن كتاب الزبيدي، هذا فضلاً عن جمع الأخبار التاريخية بمعنى الكلمة على نحو ما نرى في عديد من كتب هذا العصر، مثل تاريخ عريب بن سعد وكتاب (أخبار مجموعة) المجهول المؤلف، و(تاريخ افتتاح الأندلس) لابن القوطية. وأما الإجادة فإنها تتمثل في بني الرازي الذين توارثوا الاهتمام بتسجيل تاريخ الأندلس منذ جدهم محمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣ هـ/ ٨٨٦م)، وتقدمت الكتابة التاريخية بعد ذلك على يد ابنه المؤرخ الجغرافي أحمد بن محمد (ت ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) ، ثم على يد عيسى بن أحمد الرازي (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩-٩٩٠م).

ويصور ابن سعيد هذا الاهتمام بالتاريخ لدى الأندلسيين فيقول وإن كان كلامه غير مرتبط بعصر معين: "وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم".

وقد أتى ابن حيان أخيراً في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فكان تتويجاً لهذه الحركة التاريخية الأندلسية التي تقدمت بسرعة مطردة خلال القرن السابق، فاعتبر بحق "أمير مؤرخي الأندلس"، إذ فاق كل من مضوا قبله، ولم يتح لهذا القطر أن يخرج قريناً له بعده.

وأول ما نلاحظه من خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حيان الاستبلاغ في الدقة والضبط، فقد فاق في هاتين الصفتين كل مؤرخ قبله، ونحن نرى في أن ابن حيان دائماً كاتباً يخضع كل ما يقرأه أو يشاهده أو يبلغه لميزان نقدي علمي يبدو سابقاً لعصره في تلك الأيام حتى كأنه من نتاج عصرنا الحديث.

ولم يكن لابن حيان بد في تأريخه للعصور السابقة عليه من الرجوع إلى الكتب التي ألفت قبله، ولكنه - على عكس ما تصور الكثيرون - لم يكن مجرد ناقل، بل إن شخصيته القوية تهيمن على كل ما يورده ونحس بها تطل علينا من جميع صفحات تاريخه التي يسندها إلى هذا المؤرخ أو ذاك، سواء في أسلوب الكتابة أو في الميزان النقدي الصارم الذي حقق به الروايات المختلفة ومحصها، وقارن فيما بينها على نحو جدير بالإعجاب. أما في تأريخ ما عاصره - وهو موضوع كتاب "المتين" - فإن هذه الروح أكثر بروزاً، إذ كان ابن حيان مطلق اليد فيما يكتب غير ملزم بأن يرجع إلى أي كتاب يقيد انطلاقه.

وتبدو دقة ابن حيان في مظاهر شتى منها اهتمامه في تحديد التواريخ بالأيام في كثير من الأحيان بل إن يوفر على الباحث المعاصر الجهد، فيثبت ما يقابل التقويم الهجري من "التاريخ العجمي" (أي التقويم الميلادي)، وهو في ذلك دائماً مصيب لا يخطئ؛ ومنها مقابلته بين الروايات وتحكيم المنطق التاريخي والعقلي في المفاضلة بينها إذا تعددت، ومنها نبذه للأساطير والأحاديث الخرافية ولاسيما ما نسج منها حول فتح العرب للأندلس مما ملأ كتب المؤرخين قبله ومما نرى له مثلاً صارخاً في كتاب ابن حبيب.

ومن الخصائص التي تستوقف النظر وتستأثر بالإعجاب في تاريخ ابن حيان التفصيل الواسع الذي لا يكاد يعزب عنه شيء مهما دق أو صغر، مع الإدراك الواعي لقيمة هذه الأشياء الصغيرة أو الدقيقة، فهناك فرق كبير في الكتابة التاريخية بين ما هو صغير وما هو تافه. فالتفاصيل الصغيرة كثيراً ما تكمل الصورة الكبرى للأحداث أو الشخصيات، ولهذا فإن لها من القيمة ما لا يقل عن تسجيل عظائم الأمور، والخط الواهي الدقيق الذي يفصل بين الأمرين شيء لا يفطن إليه إلا ذو الحاسة التاريخية الدقيقة التي تشبه الإلهام في الشعر: لا تتأتى بكثرة العنا ولا تكتسب بالانكباب على القراءة ولا بكثرة التسطير في الورق، بل هي أشبه ما يكون بما قاله المهيار الديلمي في ميدان الشعر:

رحمت قوماً وما مالت رقابهم　　تحت القريض فظنوا أنهم حملوا
وقعقعوا دونه الأبواب فاعتقدوا　　لطول ما قرعوها أنهم وصلوا
وحظهم منه حظ النافقات رجت　　أن يجتنى من هبيد الحنظل العسل

وما أكثر ما قعقع كثير من المتلبسين بمهنة التاريخ قبل ابن حيان وبعده الأبواب، فسطروا الكثير، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء، إذ استعصت عليهم هذه "الحاسة التاريخية" التي فطن إليها ابن خلدون في قلة من المؤرخين. وهذه الحاسة هي التي كانت تهدي ابن حيان حينما كان يسجل لنا وصف موكب عبدالملك المظفر في آخر غزواته إلى بلاد الشمال بما في هذا الوصف من تفاصيل تكاد تكون "فوتوغرافية"، وحينما كان يصف لنا في تلك الأقاصيص والنوادر الصغيرة حياة الأمير محمد بن عبدالرحمن حتى في نزهته ومجالسه مع حجابه ووزرائه، وهو يكتب بهدى هذه الحاسة حينما يسجل لنا في دقة "صحفية" خبر تلك الجريمة الغامضة الغريبة التي راح ضحيتها الأديب الأندلسي أبو مروان عبدالملك بن زيادة الله الطبني في جوف داره، ذلك الاكتشاف الأثري الكبير الذي وقع في مجريط (مدريد) وعثر فيه – أثناء احتفار الخنادق– على عظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ.

وفضلاً عن هذا التفصيل والتوسع فإن ابن حيان في إحاطته الشاملة بالتاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب، كان سريع الإدراك والتنبه للمشابهات والمفارقات بين المشرق والأندلس. نرى ذلك في مقارناته الدقيقة بين أحداث الأندلس وما ماثلها أو خالفها مما كان يدور في مختلف أقطار المشرق، أو بين الشخصيات الموجهة للتاريخ هنا وهناك: نذكر من أمثلة ذلك مقارنته بين الفتنة البربرية الواقعة في الأندلس والمفرقة لشمل الجماعة، والفتنة الحادثة بالمشرق، وهو ينص في سياق ذلك على أنه ائتسى في كتابة تاريخ هذه الفتنة بمستأخري أصحاب التاريخ بالمشرق مثل أبي محمد الحصني وأبي بكر بن القواس القاضي والفرغاني، ومن هذه المقارنات ما عقده بين

تلقيب الحكم المستنصر مولاه غالباً بلقب "ذي السيفين" امتثالاً لما فعله الأمير أبو أحمد الموفق بإسحاق بن كنداج الخزري عامله على الجزيرة الفراتية.

وفي معرض المقارنة بين شخصيات الأندلس والمشرق نذكر هذه الفقرات الرائعة التي تحدث فيها عن عبدالرحمن بن معاوية الداخل "صقر قريش" وأبي جعفر المنصور العباسي، والتي قارن فيها بين شخصيتي محمد ابن عبدالرحمن المستكفي المرواني وسميه العباسي، وبين المعتضد بن عباد ملك إشبيلية وأحمد المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل العباسي.

وإذا كان ابن حيان منذ البدء قد عرف حدود عمله فلم يتجاوز الأندلس إلى غيرها، فإن هذه الملاحظات تصور طرفاً من اطلاعه الكامل على أخبار المشرق وكثرة استقرائه لها. أما المغرب فإن علمه بتاريخ الشمال الإفريقي كله كان لا يقل عن علمه بالأندلس، ولكنه لم يقصده لذاته، بل اقتصر منه على ما لا غنى عنه في تأريخ العلاقات المتصلة المتشابكة بين الأندلس ودول المغرب العربي على امتداد السواحل الإفريقية. وقد نص ابن حيان في إحدى قطع المقتبس – وهي الخاصة بسنوات من خلافة الحكم المستنصر – على أخذه عن اثنين من المؤرخين الإفريقيين هما ابن الوراق وابن الجزار القيروانيين، وصفحات هذه القطعة من المقتبس حافلة بالأخبار القيمة عن المغرب، وفي القطعة التي نقدمها اليوم من نفس الكتاب أخبار أخرى جديدة تماماً عن العلاقات بين أمراء قرطبة المروانيين وإمارتي الأغالبة في القيروان والمدراريين في سجلماسة خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). كذلك نشير على قطعة كبيرة من تاريخ ابن حيان احتفظ لنا بها صاحب كتاب "مفاخر البربر" حول سياسة المنصور بن أبي عامر في المغرب، وهذه القطعة وحدها تبلغ نصف الكتاب كله.

وأهم ما يميز كتابة ابن حيان التاريخية – فضلاً عن الدقة والتفصيل – نزاهته وصدقه وتجرده من الهوى، وهي صفة كثيراً ما ألح على بيانها من كتبوا عن ابن حيان أو نقلوا من تاريخه سواء من القدماء أو المحدثين، ولعلها بالفعل أعظم صفاته

وأكثرها استحواذاً على اهتمام القارئ وإعجابه. فهو يعرف تبعة الكتابة التاريخية، ويدرك ما تعنيه، ويحترم قلمه فلا يضعه في خدمة أحد. ولسنا في حاجة إلى ضرب أمثلة على هذه الصفة، فهي تطل من جميع صفحات تاريخه، حيث نرى كيف يرتفع المؤرخ على المداهنة والمجاملة، بل يخضع الأحداث والشخصيات لميزانه النقدي والخلقي الصارم، فيعطي لكل حقه دون إسراف في الثناء، ولا خروج إلى ضد ذلك من التجني أو الظلم، وقد كادت هذه الصراحة تؤدي بابن حيان إلى ما لا تحمد عقباه في ظل بني جهور، ولكنه مع ذلك بقي وفياً لمبادئه، حريصاً على الصدق، لم يحد عن ذلك الخط إلا في مناسبات قليلة قد تكون الظروف أو التسرع في الحكم قد ألجأته إليها، ولولاها "لكمل لو أن بشراً يكمل" – على حد تعبيره هو.

ذ غير أن نزاهة ابن حيان وصدقه لا يعنيان أنه كان مجرد مسجل للأخبار يلتزم فيها أقصى ما يستطاع من الدقة والضبط. لا ... فابن حيان كان قبل كل شيء رجلاً له مثله الخلقية وعقيدته السياسية، ووجهة نظره التي كانت تتفق مع تلك العقيدة والمثل. وقارئ تاريخه يحس بهذه العقيدة دائماً في خلفية ما يكتبه سواء عن تاريخ الأندلس القديم أو المعاصر.

وأول العناصر التي كانت تتألفها من جماعها عقيدة ابن حيان واعتداده بها أشد الاعتداد، واعتقاده بأن الأندلس ينبغي أن تحتل مكاناً من أمكنة الصدارة في العالم الإسلامي، وتشيع هذه الروح في كل كتابات ابن حيان، إذ يستشف القارئ من وراء كل سطر يكتبه في تاريخه ذلك الحب الذي أشربه لوطنه. وهو يتفق في تلك العصبية مع هذا الجيل من الكتاب والمفكرين الذين أدركوا أواخر أيام خلافة بني مروان وعاشوا في ظل ملوك الطوائف، وأبرزهم صديقاه أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المشهورة في فضل الأندلس، وهي تعتبر من أروع نماذج العصبية الفكرية الأندلسية.

والمفارقة الصارخة التي تبدو عجيبة لأول وهلة هو أن هذا الجيل الذي أشرنا إلى مدى اعتداده بوطنه، والذي يمكن أن نطلق عليه اسم "جيل الفتنة البربرية" كان أكثر

كتاب الأندلس ومفكريها إلحاحاً على نقد شعبهم، وحدة في إظهار عيوبه، وصراحة في الحديث عن وجوه النقص في طبائعه ومقومات شخصيته.

وهذا هو ما نجده لدى هؤلاء المفكرين الأندلسيين الذين ظهروا في أندلس القرن الخامس الهجري وعلى رأسهم ابن حزم وابن حيان ممن حاولوا أن يضعوا أصابعهم على موطن الداء، والتعرف على الأسباب الخفية التي أدت إلى الانهيار المفاجئ لذلك البناء العتيد الذي كان يبدو منذ سنوات قليلة نموذجاً للحكم الصالح والدولة المستنيرة.

وما أكثر ما ترد في ثنايا تاريخ ابن حيان ملاحظات وتعليقات نفذ بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة في نظام الدولة الأندلسية، هذه العيوب التي أدت شيئاً فشيئاً على تحللها وتصدعها، وكأنه السرطان الخفي يستشرّي في باطن جسد ظاهره الصحة والقوة، وهي عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية[1].

❖ عز الدين ابن شداد الأنصاري الحلبي(٢)، محمد بن علي بن إبراهيم الملقب بعز الدين (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) ترجم له الصفدي في (الوافي بالوفيات) وكذلك ابن الخطيب الناصرية في (الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب).

تلقى علومه في مساجد حلب ومدارسها وكرس جهده كما هي العادة في ذلك العصر على العلوم الدينية واللسانية، ثم قرأ كتب الخراج والأموال، وأشار إلى إعجابه بكتب البلدانيين مثل تاريخ دمشق لابن عساكر وبغية الطلب لابن العديم. وكان من شيوخه البهاء ابن شداد والملك المعظم توران شاه وسمع من العديد من شيوخ مصر وغدت له شهرة واسعة في الديار المصرية.

ثم انتقل العز بن شداد من حلب إلى دمشق، ودخل في خدمة السلطان الملك

(١) راجع: ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، القاهرة، ١٩٧١م، (المقدمة).

(٢) عز الدين بن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، دمشق، ١٩٨٨م، (المقدمة). عن ترجمة حياته انظر: الذهبي، العبر في خبر من غبر. ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن كثير، البداية والنهاية. ابن الفرات، تاريخ. راجع كذلك: حاطوم، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب دمشق وحلب، وشغل مناصب إدارية تتعلق بالمال والميزانية، ثم أصبح من خواص الملك الناصر حين لفت الانتباه إلى أدبه وكياسته وظرفه ورهافة ذوقه. كما عمل وزيراً وسفيراً إلى هولاكو وإلى غيره من قبل الملك الناصر.

وقبل سقوط حلب بيد المغول سنة ٦٥٧هـ هرب الملك الناصر إلى مصر وهرب معه أركان دولته وصحابته ومعهم العز بن شداد. وبقي في مصر مع أنه كان يزور دمشق وحلب بين حين وآخر، وتوفي بالقاهرة.

كانت ثقافة العز بن شداد ثقافة موسوعية شملت العلوم الدينية والعلوم اللسانية كما طالع كتب التاريخ والجغرافية والبلدان، ويظهر لك من مقدمة كتابه (الأعلاق الخطيرة) أنه نحى منحى المترسلين في القرنين الخامس والسادس الهجريين فاعتنى بالصناعة اللفظية والزخرفة البيانية واستخدم البديع والموازنة وغيرهما. فكان أسلوبه منمقاً ركز على نقل الأفكار بأوجز عبارة فيأتي كما يقال بالسهل الممتنع.

أما مصنفاته فعديدة[١]: منها سيرة السلطان الملك الظاهر وعنوانه (الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر). أما كتابه الذي اشتهر به فهو (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) وقد انتهى من تأليفه سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م. وقد اتبع فيه أسلوب السجع، كما تجاوز حدود العنوان حيث لم يبحث فقط عن أمراء بلاد الشام والجزيرة الفراتية بل تناول المدن في الإقليمين طبوغرافياً أي من حيث التضاريس.

أما سببت تأليف الكتاب فقد أوضح العز إلى أنه وضعه عرفاناً للجميل الذي خصه به سلطان مصر الظاهر بيبرس وتقديراً لأياديه البيضاء عليه. كما أوضح العز بن شداد منهجه في تأليف الكتاب حيث شمل الشام وحلب وقنسرين والثغور والعواصم وملحقاتها مقسماً ذلك إلى أقسام، ثم تناول الجزيرة الفراتية على النحو الذي تناول فيه بلاد الشام.

---

(١) راجع: دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) مقالة ابن شداد.

ويعد الكتاب من أفضل ما صنف في تاريخ وجغرافية بلاد الشام والجزيرة الفراتية حيث كشف عن تاريخ كل مدينة تطرق إليها. وقد نشرت سودريل القسم الأول من الجزء الأول المخصص لتاريخ حلب سنة ١٩٥٣م. ثم نشر سامي الدهان الجزء الثاني المخصص لتاريخ دمشق ١٩٥٦و ١٩٦٤م. وحقق يحيى عبارة الجزء الثالث المخصص لتاريخ الجزيرة الفراتية والموصل ١٩٧٨م.

ثم قام المحقق نفسه بنشر الجزء الأول بقسميه الأول والثاني ١٩٨٨م. وبهذا اكتمل نشر الكتاب.

❖ المقرّيزي[١]، تقي الدين أحمد بن علي مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك في بلاد الشام ومن حارة المقارزة فيها، إلا أنه ولد في القاهرة ونشأ وتوفي فيها ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م. وقد تناولنا هذا المؤرخ المهم في نمط آخر من أنماط الكتابة التاريخية، إلا أننا نشير إليه هنا في مجال التاريخ المحلي الدنيوي لمصر. وللمقريزي العديد من التصانيف التي زادت على المائتين، ونتناول هنا كتابه (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) والمعروف بالخطط لأنه يتعلق بتواريخ المدن المصرية وأخبار مصر وعمارتها وسكانها. وقد جمع معلوماته كما قال هو في مقدمة كتابه من مؤلفات دونت قبله وعلى ما سمعه من مشايخه وما عاينه خلال حياته. وقد بدأ بتأليفه سنة ٨٢٠هـ ولكنه ظل يضيف إليه حتى سنة ٨٤٣هـ.

وقد أشار المقرّيزي في افتتاح كتابه (الخطط) إلى فائدة كتابه هذا فقال: "...إن منفعته هي أن يتعرف المرء في زمن قصير على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغيرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه، ويعرف فناء الدنيا فيمضي بالأعراض عنها والإقبال على ما يبقى".

---

(١) التبر المسبوك، ص٢١. البدر الطالع، ط١، ص٧٩. دائرة المعارف الإسلامية مادة (المقرّيزي). راجع كذلك: الموسوعة العربية العالمية، مجلد٢٣، ص٤٩٩، ص٥٥٩. الزركلي، أعلام المؤرخين، ج٧، ص١٧٧-١٧٨. جرجي زيدان، آداب اللغة، ج٣، ص١٧٥.

كما أوضح المقرّيزي أن العلم الموجود في كتابه هو من "علم الأخبار وبها عرفت شرائع الله تعالى التي شرعها وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هداهم الذي يقتدي به من وفقه الله تعالى إلى عبادته وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه..".

ثم أوضح المقرّيزي أجزاء كتابه وما تشتمل عليه من أخبار أرض مصر ومدنهاه وأجناس أهلها في سبعة أجزاء رئيسية تضمن كل جزء عدة أقسام.

❖ المقرّي (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م[١]): هو الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن يحيى بن عبدالرحمن بن محمد، الشهير بالمقرّي، ويلقب بشهاب الدين، أصل سلفه من مقرة، بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة وراء مفتوحة، وهي إحدى قرى تلمسان الجزائرية، لذلك لقب المقرّي. والمقرّي، على حد قول المحبي: "بفتح الميم وتشديد القاف، وآخرها راء نسبة إلى قرية من قرى تلمسان وإليها نسبة آبائه".

والمقرّي مالكي المذهب، نشأ بتلمسان وقرأ بها. يذكر المحبي أن المقرّي نشأ وقرأ بها، وحفظ القرآن على عمه الشيخ الجليل العالم أبي عثمان سعيد بن أحمد، مفتي تلمسان، ومن جملة ما قرأ عليه صحيح البخاري سبع مرات. وصف بلده تلمسان وجعلها بلدة عظيمة من أحاسن بلاد المغرب، ثم ارتحل المقرّي عن مدينة تلمسان الجزائرية إلى مدينة فاس المغربية، وكان في حدود السابعة والعشرين من عمره. ولم يذكر لنا في مؤلفاته، ولا ذكر السبب الذي دعاه إلى ترك بلده والانتقال إلى فاس. وفي هذه المدينة قرأ العلم على شيوخها، وفي مقدمتهم مفتيها وخطيبها أبو عبدالله محمد بن قاسم، ويحدثنا أنه كان بسلاً في العام المذكور، فزار بها قبر الولي الزاهد المشهور العارف

---

(١) عن المقرّي انظر: (مقدمة) المحققين لكتابه نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، بيروت، ١٩٩٥م، وهناك طبعة أخرى عن دار صادر، بيروت.

بالله أبي العباس الحاج أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب. كما زار قبر المعتمد بن عباد حين كان بمراكش عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م وعمي عليه أمر القبر، وسأل عنه من له معرفة به، فهداه إليه شيخ طعن في السن، وفي السنة نفسها زار بمراكش أيضاً قبر الزاهد العارف بالله أبي العباس أحمد بن العريف الأندلسي، كما زار بمراكش مراراً قبر العالم الأستاذ الفقيه المحدث الأصولي أبي زيد وأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي الأعمى. وفي آخر عام ١٠١٠هـ، أي في ذي الحجة منه رجع إلى تلمسان، وفي عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م. عاود الرجوع إلى فاس، فاستقر بها، وقام فيها بمهمة الإفتاء والقضاء والخطابة، إلى أن ارتحل إلى المشرق أواخر شهر رمضان سنة ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م. وكان المقرّي قد أحرز هذا المنصب الديني بعد وفاة شيخه محمد الهواري عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م. وقد أشار نفسه إلى انشغاله بفاس بأمور الإمامة والفتوى والخطابة، دون أن يحدد تاريخ تبؤئه هذا المنصب الديني: "وارتحلت منها (أي من تلمسان) إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتد الرواق، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها، ثم ارتحلت بنية الحجاز..". وذهب المحبي إلى أن الفتوى صارت إلى المقرّي في زمن سلطان فاس أبي العباس أحمد بن محمد المنصور السعدي الذهبي ومن بعده: "ورحل إلى فاس مرتين؛ مرة سنة تسع بعد الألف، ومرة سنة ثلاث عشرة، وكان يخبر أنها دار الخلافة للمغرب، وكان بها الملك الأعظم مولاي أحمد المنصور المشهور بالفضل والأدب المقدم ذكره، وأن الفتوى صارت إليه في زمنه ومن بعده، لما اختلت أحوال المملكة بسبب أولاده إلى حديث يطول ذكره..". وهذا ما لا نعتقده؛ لأن المنصور توفي عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م، ولأن المقرّي لا يمكن أن يكون قد تبوأ الوظيفة الدينيية الرفيعة وهو لا يزال يطلب العلم على شيوخ فاس، كما أقر المقرّي بأن شيخه محمد بن القاسم هو الذي كان مفتي فاس وخطيبها في ذلك الوقت.

وهكذا ارتحل المقرّي إلى المشرق، وقد أشار نفسه إلى سبب هذا الارتحال فقال إنه من ملك مراكش: "إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو رد،

ولا عمّا شاءه سواء كره ذلك المرء أو رد، برحلتي من بلادي، ونقلتي عن محل طارفي، بقطر المغرب الأقصى، الذي تمت محاسنه لولا أن سماسمرة الفتن سامت بضائع ... نقصاً، وطما به بحر الأهوال.. وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف". وقال المحبي إن المقرّي ارتحل إثر اختلال أحوال المملكة بسبب صراع أولاد المنصور الذهبي على الحكم، تاركاً المنصب والوطن، وقاصداً حج بيت الله الحرام. وذهب الحبيب الجنحاني إلى أن خروج المقرّي من فاس كان بسبب مواقفه المؤيدة لقبيلة شراكة التي هي في الأصل من تلمسان، بلد المقرّي، والتي اتهمت بأحداث قلاقل واضطرابات في عهد السلطان محمد الشيخ. وقد تابعه في هذا الرأي محمد حجي فقال: "وكان خروج المقرّي من فاس بسبب اتهامه بالميل إلى قبيلة شراكة (شراقة) في فسادها وبغيها أيام السلطان محمد الشيخ، فارتحل إلى الشرق".

ومهما يكن من أمر، فإن المقرّي ترك المغرب، فوصل مصر في رجب من عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م، فأقام بها مدة قليلة ثم سافر في البحر إلى الحجاز لرؤية الحرمين الشريفين، فوصل جدة. وكان قد وصف ما تكبده من عناء السفر حتى وصل إلى مصر بقوله: "ثم وصلنا بعد خوض بحار، يدهش فيها الفكر ويحار، وجوب فياف مجاهل، يضل فيها القطا عن المناهل، إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع...".

فأكمل العمرة أوائل ذي القعدة من العام المذكور، وأقام فيها منتظراً وقت الحج، إلى أن جاء الأوان، فأحرم بالحج، ونوى الإقامة هنالك، فحال من دون ذلك حائل، ثم قصد طيبة الشريفة لزيارة قبر الرسول ﷺ ثم عاد إلى مصر سنة ١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م. وقال المحبي أن المقرّي ورد مصر بعد أداء الحج في رجب سنة ١٠٢٨م وتزوج بها من امرأة من عائلة السادة الوفائية. وروى المقرّي أنه زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول من العام ١٠٢٩هـ. فدخل المسجد الأقصى فبهره جماله، وسأل عن محل المعراج الشريف فأرشد إليه. وأضاف أن أول قدماته على بيت المقدس كان في سنة ١٠٢٨هـ. ثم رجع إلى القاهرة، وكرر منها الذهاب إلى مكة وطيبة، فما أن كان عام ١٠٣٧هـ/

١٦٢٧م حتى كان قد دخل مكة خمس مرات، وأملى فيها دروساً عديدة، ووفد على طيبة سبع مرات، وأملى فيها الحديث النبوي. ثم آب إلى مصر، فلازم خدمة العلم الشريف بالأزهر، وكان عوده من الحجة الخامسة في شهر صفر من العام ١٠٣٧هـ.

وفي أوائل رجب من العام المذكور، أعني عام ١٠٣٧هـ تحركت همة المقرّي للعود إلى بيت المقدس، فوصل إليه أواسط رجب، وأقام فيه نحو خمسة وعشرين عاماً، وألقى عدة دروس بالمسجد الأقصى، والصخرة المنيفة، وزار مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة. ثم حدث له في منتصف شعبان من العام نفسه عزم على الرحلة إلى مدينة دمشق، فدخلها أواخر الشهر المذكور، وأقام بها إلى أوائل شوال من السنة المذكورة، ومدح أهلها، ووصف مغانيها ومبانيها. وقال المحبي أن المقرّي دخل دمشق في أوائل شعبان من العام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، وإن المغاربة أنزلوه في مكان لا يليق به، فأرسل إليه أحمد بن شاهين مفتاح مدرسة الجقمقية، ولما دخل إليها أعجبته واستوطنها مدة إقامته، وأملى في جامعها صحيح البخاري. وأورد المقرّي أشعاراً في مدح دمشق، ومن محاسن شعره في حقها قوله:

محاسن الشام أجلى ... من أن تسام بحد
لولا حمى الشرع قلنا ... ولم نقف عند حد
كأنها معجزات ... مقرونة بالتحدي

وجرى بينه وبين أدبائها وعلمائها مطارحات شتى، وفي مقدمتهم الشاعر أحمد الشاهيني. وزاد تعلقه بالشام لتشابهها ببلاده في الأنهار والأزهار على حد قوله : "وقد تذكرت بلادي النائية، بذلك المرأى الشامي الذي يبهر رائيه، فما شئت من أنهار ذات انسجام، أترع فيها من جريال الأنس جام، وأزهار متوجة للأدواح، مروجة للنفوس بعاطر الأرواح، وحدائق تغشي أنوارها الأحداق، وعيانها للخبر عنها مصداق وأي مصداق ... وجنان، أفنانها في الحسن ذوات أفتنان ... وعند رؤيتي لتلك الأقطار،

الجليلة الأوصاف العظيمة الأخطار، تفاءلت بالعود إلى أوطان لي بها أوطار، إذ التشابه بينهما قريب في الأنهار والأزهار، ذات العرف المعطار ... وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعاً بالوطن لا سواه، فصار القلب بعد ذلك مقسماً بهواه.. ومحاسن الشام وأهله طويلة عريضة، ورياضة بالمفاخر والكمالات أريضة، وهو مقر الأولياء والأنبياء، ولا يجهل فضله إلا الأغمار الأغبياء الذين قلوبهم مريضة".

ويخبرنا المقرّي أنه زار قبر الشيخ الصوفي محيي الدين بن عربي، الكائن خارج مدينة دمشق. وتبرك به مراراً، وذلك في شعبان ورمضان وأول شوال من العام ١٠٣٧هـ. ويروي عبدالله العياشي أن أحد تلاميذ المقرّي، وهو الشيخ مرز الشامي، قال إنه رافق المقرّي في زيارته لقبر محيي الدين ابن عربي، وكان خروجهما بعد صلاة الصبح، فوصلا إلى القبر عند طلوع الشمس، فلما جلسا قال المقرّي إنه ابتدأ عند خروجه إلى الزيارة ختمة من القرآن لروح ابن عربي، وقد ختمها عند وصوله إلى هناك.

ولم تطل إقامته بدمشق، فسرعان ما عاد إلى مصر. وقد دوّن تاريخ عودته من دمشق إلى مصر، فحدده في أوائل شوال من العام ١٠٣٧هـ. ويقول المحبي إن إقامة المقرّي بدمشق كانت دون الأربعين يوماً حيث رحل منها في خامس شوال سنة ١٠٣٩هـ إلى مصر.

وبينما هو في طريقه إلى مصر، عرج على مدينة غزة، فأضافه فيها الشيخ الغصين قرابة الشهر، فطلب منه تلميذه عبدالقادر بن الشيخ الغصين أن يتوسط لدى أمير غزة في أن يسمح له ببناء بيت ملاصق للمسجد الجامع ليقرأ فيه ويقرئ، كما هو الشأن في منزله البعيد عن المسجد، فأنشأ له الأمير مدرسة تليق به بدل البيت.

ودخل مصر، واستقر بها، ثم عاد إلى دمشق للمرة الثانية، وذلك في أواخر شعبان سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م، وحصل له من الإكرام ما حصل في قدمته الأولى، ثم عاد إلى مصر واستقر بها مدة يسيرة، وأراد العود إلى دمشق للتوطن بها، ففاجأه الموت قبل نيل المرام، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م، ودفن بمقبرة المجاورين.

ولقد اتسعت معارف المقرّي، فبدا لنا حاملاً صولجان النثر، مصنفاً من الفئة الأولى بين كبار الأدباء والكتاب. وله شعر، ولكنه بين الجودة والرداءة، وهو في تضاعيف مؤلفاته وخصوصاً في نفح الطيب، وفي كتب السيرة التي ترجمت له تصانيف متعددة النواحي تتناول معارف عصره، وتعد من أمهات المكتبة العربية والإسلامية، وهدفه منها هو أن يقدم إلى أهل العلم ما يسد حاجتهم من الأدب والتاريخ، ولقد أقرا معظمها إلى حين وفاته، أما ما يهمنا من كتبه التاريخية فهي:

١ - أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.

٢ - الجمان في مختصر أخبار الزمان.

٣ - روض الاس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس.

٤ - نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب.

والكتاب الأخير هو من نمط التاريخ المحلي عن الأندلس.

"وهو واحد من بين كتب جليلة ألفها المقرّي، وقد قاربت الثلاثين. ولعل السبب الذي دفعه إلى كتابته هو شغفه بالأندلس وإعجابه بها من جهة، وحبه لكبير شعرائها وشيخ كتابها الأديب لسان الدين ابن الخطيب من جهة ثانية. وقد عبر عن ذلك في مقدمة كتابه، حيث أخذ يحدث أهل الشام عن جمال تلك البلاد الأندلسية، ويسرد لهم من كلام وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، وما شاقهم إلى سماع ذلك أو قراءته في كتابه، وظل يحدوهم الأمل في الحصول على ذلك الكتاب، إلى أن تحقق المرغوب على حد قوله: "وكنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة، وأثناء التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة، كثيراً ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة، نتجاذب فيها أهداب الآداب، ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى لباب الألباب، ونمد بساط الانبساط

ونسدل أطناب الإطناب، ونقضي أوطار الأقطار، ونستدعي أعلام الأعلام، فينجر بنا الكلام، والحديث شجون، وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذلك البلاد الأندلسية، ووصف رياضها السندسية، التي هي بالحسن منوطة، وقضاياها الموجهة التي لا يستوفيها المنطق مع أنها ضرورية وممكنة ومشروطة... فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني، صب الله عليه شآبيب رحماه وبلغه من رضوانه الأماني، ما تثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه، لنظم الجزل، في الجد والهزل، والإنشاء، الذي يدهش به ذاكرة الألباب إن شاء، .. في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل، إذ هو – أعني لسان الدين – فارس النظم ... في ذلك العصر، والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر، وكيف لا ونظمه لم يُرى على مثله أيدي الهصر، ونثره تزري صورته بالخريدة ودمية القصر. فلما تكرر ذلك مرة على أسماعهم، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعلق بهم، وأضحى منتهى مطلوبهم...".

وكانت فكرة الكتاب تجور في خاطره وهو في المغرب، ولكن الظروف أجبرته على ترك المغرب، فأبصر كتابه النور في المشرق. وقد أقر بذلك حين أشار إلى أنه ترك في المغرب معظم المصادر التي اعتمدها في جمع مادة الكتاب: "وتركت الجميع بالمغرب، ولم استصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويعرب، إلا نزراً يسيراً علق بحفظي.

وهذا الكتاب ثمرة جناها المقرّي من بين أفياء غوطة دمشق، عندما كان يختلف إليها بصحبة مضيفه شاعر الشام وأديبها المدرس بالمدرسة الجقمقية المولى أحمد الشاهيني، حيث كان يحدثه عن الأندلس وشيخها لسان الدين ابن الخطيب، مما أثار في نفسه حب المعرفة إلى مزيد من البيان عن الأندلس والتشوق إلى معرفة مختلف نواحي المعرفة التي جال فيها لسان الدين وصال. وقد اقترح الشاهيني على ضيفه تأليف كتاب في هذا الموضوع، فاعتذر المقرّي في بادئ الأمر عن تلبية الغرض بحجة أن ذلك ليس بالأمر السهل، فألح عليه الشاهيني، وكرر عليه الإلحاح، فوعده عندئذ بالشروع في الطلب عند وصوله إلى القاهرة. وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه فقال: "فطلب مني المولى أحمد

الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور، أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه.. فأجبته أسمى الله قدره الكبير، وأدام عرف فضائله المزري بالعنبير والعبير، بأن هذا الغرض غير سهل، ولست علم الله له بأهل، من جهات عديدة؛ أولها قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة، إذ لا يوفي بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة، وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام لأني خلفتها بالمغرب، وأكثرها في المشرق كعنقاء مغرب. وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة.. ولم يجعل لي المذكور – حفظه الله – فسحة ولا مندوحة، بعد هذه الأعذار المحمودة في الصدق الممدوحة... ثم إني لما تكرر علي في هذا الغرض الإلحاح، ولم تقبل أعذاري التي زندها شحاح، عزمت على الإجابة لما للمذكور علي من الحقوق.. فوعدته بالشروع في الطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزية، وأزمعت السير عن دمشق المعروفة المزية..".

وهكذا وجد المقرّي من شجعه على تحقيق ما صبا إليه، فعرف كتابه – وهو بمصر– طريقه إلى النور. وكان شروعه في كتابته بالقعدة من عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م. وبعد أن كتب منه نبذة وقف به مركب العزم عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض، فجاءته من الشاهيني رسالة يحثه فيها على تنفيذ ما وعد، فشرع في كتابته، كما يقول في مقدمة كتابه: "إني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتبت منه نبذة نستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب... ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى، فأخرته تأخير الغريم، لدين الكريم، وصدتني أعراض، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض... فجاءتني من المولى المذكور آنفاً، رسالة دلت على أنه لم يكن عن انتجاز الموعد متجانفاً، فعدت لقضاء الوطر... وحصل التصميم، على التكميل للتأليف والتتميم، رعياً لهذا الولي الحميم..".

وهكذا شجع أهل الشام المقرّي على تأليف كتاب النفح، وأصبح لهذا الكتاب، كما يذكر صاحبه، تعلق بالشام من وجوه عديدة؛ أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام، وثانيها أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام، وثالثهما أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام

الذين اتخذوا الأندلس وطناً، ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها. وأشار في ختام كتابه إلى تاريخ الانتهاء منه فقال: "وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف، بالقاهرة المحروسة.. وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها، تتمة سنة تسع وثلاثين وألف...".

وقرر المقرّي تسميته بـ "عرف الطيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب"، ولما ألحق به أخبار الأندلس وسمه بـ "نفح الطيب، من غصن الأندلس وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب". وهكذا جاءت التسمية النهائية بعد زيادة ذكر الأندلس؛ لإعجابه بمناظرها وبعض مفاخرها الباسقة، ومآثر أهلها ... وعلى ذلك قسم كتابه قسمين؛ القسم الأول يتعلق بالأندلس وفيه ثمانية أبواب والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب وفيه أيضاً ثمانية أبواب. والأجدر بنا أن نتركه يتحدث عن هذا التقسيم بلسان حاله في مقدمة كتابه فيقول: "وبعد .. تمام هذا التصنيف، وأمعنت النظر فيما يحصل به التقريط لسامعه والتشنيف، وشمل القسم الأول ما يتعلق بالأندلس من الأخبار ... وفيه بحسب القصد ثمانية من الأبواب: الباب الأول في وصف جزيرة الأندلس... الباب الثاني إلقاء بلد الأندلس للمسلمين بانقياد. .. الباب الثالث في سرد بعض ما كان للدين ... من العز السامي العماد... الباب الرابع في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة للأعداء قاهرة... الباب الخامس في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى المشرق.. الباب السادس في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق الباب السابع في نبذة مما من الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد ...، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عز وهان ... الباب الثامن في ذكر هجوم الكافر على الجزيرة... ولم أخل بابا في هذا القسم من كلام للسان الدين ابن الخطيب القسم الثاني في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب ... وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية ... الباب الأول في ذكر أولية لسان الدين وذكر أسلافه ... الباب الثاني في ترقيه ووزارته وسعادته.. الباب الثالث في ذكر مشايخه الجلة ... الباب الرابع في رسائل الملوك والأكابر الموجهة إلى

حضرته العلية ... الباب الخامس في إيراد جملة من نثره.. الباب السادس في مصنفاته .. الباب السابع في ذكر بعض تلاميذه ... الباب الثامن في ذكر أولاده..." .

وقد استهل كتابه بخطبة قصيرة لم تتجاوز الست صفحات، ثم أردف الخطبة بقصيدة من نظمه بلغت مائة وثلاثة أبيات من الشعر. كما عبر في أول الكتاب عن شوقه إلى وطنه، مستشهداً بأبيات في الغربة من نظمه هو ومن نظم غيره من الشعراء، راغباً في أن تتقلص ذيول الغربة ليتخلص من كربته، ومتضرعاً إلى الله تعالى في تيسير العود إلى وطنه.

وأكثر اعتماده على مؤلفات كانت بين يديه، كالإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، واختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى لابن سعيد، وأزهار الرياض في أخبار عياض للمؤلف نفسه، وبدائع البدائه لابن ظافر الأزدي، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الكاتب الأصفهاني، ودرر السمط في خبر السبط لابن الأبار، وروضة الآس العاطرة الأنفاس للمؤلف نفسه، والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، وقلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية، ومطمح الأنفس لابن خاقان، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

أما المصادر التي ذكرها في كتابه كتحفة القادم (المقتضب من كتاب تحفة القادم) لابن الأبار، وجذوة المقتبس للحميدي، والحلة السيراء لابن الأبار، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وزاد المسافر لصفوان بن إدريس المرسي، والصلة لابن بشكوال، وصلة الصلة لابن الزبير، والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي لابن الأبار، والمقتبس لابن حيان، فإنه تركها جميعاً بالمغرب، وكان ينقل عنها بالواسطة.

وكتاب النفح وثيقة مضيئة في تاريخ الأندلس الإسلامية وآدابها، ينفرد عن غيره من

الكتب الأندلسية بإحاطته بكل ما له علاقة بالأندلس من لدن الفتح حتى سقوط آخر قلعة إسلامية في أيدي الإسبان عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. على هذا النحو يكون أحد المصادر الرئيسية في مجال الدراسات الأندلسية، وهو بالتالي صدى لشخصية صاحبه، فهو متمكن من تصوير الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية بالأندلس، رفيع الذوق في الموضوعات، مثقف ثقافة واسعة، كثير الميل إلى الفكر والأدب والتاريخ، ولا يؤخذ عليه سوى استطراده أو العودة إلى الموضوع أو تكراره لأخبار نحن بغنى عنها".

وقد طبع الكتاب عدة طبعات هي طبعة ليدن ١٨٥٥م، وطبعة بولاق ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م، وطبعة ١٩٤٩م، وطبعة دار صادر ١٩٦٨م. أما الطبعة الأخيرة والتي اعتمدنا على مقدمتها في الكلام عن سيرة المقرّي وكتابه فهي طبعة بيروت عن دار الكتب العلمية ١٩٩٥م.

❖ الأزكوي[1]، سرحان بن سعيد (القرن ١٢هـ/ ١٨م) وكتابه كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة: لقد كانت عمان من الأقاليم التي حظيت بوجود نخبة من أبنائها الذين كتبوا تاريخها وحفظوه للأجيال. ونعني بكتب التاريخ المحلي العماني تلك الكتب التي عالجت بصورة رئيسية إقليم عمان رغم أنها تتكلم في بعض فصولها عن أحداث وقعت خارج عمان. وتشترك كتب التاريخ المحلي عموماً بكونها تفصل في الأحداث والوقائع الخاصة بالإقليم تفصيلاً لانجده في كتب التاريخ الإسلامي العام مثل كتاب الطبري واليعقوبي وابن الأثير وغيرهم. على أننا يجب أن نحذر من التفسير أو التحليل الذي يقدمه المؤرخ المحلي فهو عموماً معادي للسلطة المركزية ومحابي للاتجاهات الدينية السياسية في الإقليم. وعدا ذلك تبقى الوقائع التاريخية التي يقدمها المؤرخون من هذا الصنف مهمة في كتابة تاريخ الإقليم ولعل أهم مصادر تاريخ عمان المحلي هي:

وهناك عدة نسخ من مخطوطة الكتاب واحدة منها في المكتبة البريطانية بلندن

(١) عن الأزكوي وكتابه انظر: فاروق عمر، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني، بغداد، ١٩٧٥م. وكذلك المؤلف نفسه، دراسات في تاريخ عُمان، منشورات جامعة آل البيت، عمّان، ٢٠٠م.

نسخت سنة ١٨٧٤م، وثانية في المكتبة الظاهرية بدمشق. وثالثة مصورة عن نسخة المكتبة البريطانية، ومحفوظة في المكتبة المركزية ببغداد. ولا ذكر لاسم المؤلف كاملاً في المخطوطة التي بين أيدينا ولكن الضابط السياسي البريطاني روس Ross ترجم الباب الثالث والثلاثون من هذه المخطوطة، وأخذ معلوماته عن اسم المؤلف من علماء مسقط. كما وأن الباب نفسه حققه وطبعه كلين Klein سنة ١٩٣٨م. وقد نشر الكتاب.

يبدأ الكتاب بمقدمة وينقسم إلى أربعين باباً، وتشمل بالإضافة إلى تاريخ عمان من الفترة الجاهلية وظهور الإسلام إلى سنة ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م، وهي الفصول (٣٣-٣٨) أبواباً أخرى في التاريخ العام وفي العقائد والسير والتراجم. على أن الكتاب يفصل في تاريخ عمان ويختصر في غيره من المواضيع. يشير المؤلف في بداية الكتاب إلى الهدف الذي دعاه إلى تأليف الكتاب فيقول: "وقد دعتني الحاجة إلى جمع هذا الكتاب وتأليفه وتلخيص معانيه وتصنيفه وإن لم أكن أهلاً للتأليف. وذلك لما رأيت أكثر أهل زماننا قد غفلوا عن أصل مذهبهم الشريف وقد رغبت أنفسهم عن قراءة الكتب التي أصلها السلف".

وفي هذا الكلام إشارة واضحة من المؤلف على عزوف الجيل الجديد عن القراءة والتحري. حيث شعر الأزكوي بالخطر الذي يتهدد المذهب الإباضي وتراثه التاريخي في عمان لنقص الكتب المتداولة حوله بين الناس.

لقد ألف الأزكوي كتابه لحفظ تراث الإباضية وتوضيحه لمعاصريه وللرد على الالتباس والتشكيك في موقف الإباضية والمحكمة الأولى من الخلاف الناشب حول الخلافة وبين فيه "عذر أولي الألباب" وكذلك أوضح الأزكوي طريقته في الكتابة وسبب ميله إلى هذا الأسلوب أو المنهج في الكتابة التاريخية فقال: "ظاهره (الكتاب) في القصص والأخبار وباطنه في المذهب المختار، لأن الناس لقراءة الأثر لا يستمعون ولاستماع القصص عن اللغو ينتبهون فملت إلى رغبتهم لكي يكونوا مستمعين".

يشتمل الباب الأول من الكتاب على "ذكر عبادة الأصنام واعتقادات أهل الشرك

والضلال" حيث يتكلم عن اعتقادات الأمم القديمة، ثم يعرج إلى اليهودية والمسيحية، ويخصص فصلاً عن مذاهب الفلاسفة ومنهم حكماء الهند من البراهمة وحكماء العرب والروم.

ويتكلم الباب الثاني عن اعتقادات العرب وآرائهم في الجاهلية.

أما الباب الثالث ففي ذكر ملوك العجم والعرب وأخبارهم ويتعلق بدول العرب قبل الإسلام وأخبار القبائل العربية وممالك اليمن وحروبها مع الأحباش والفرس. ويفصل الباب الرابع في انتقال الأزد إلى عمان وإجلاء الفرس منها ويرى أن عمان نزلها العرب في عصور سحيقة في القدم، ويتكلم عن ملوك العرب في عمان قبل مجيء الفرس إليها، ويرى الأزكوي أن: "أول من لحق بعمان من الأزد مالك بن فهم بن حاتم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد"، ويستطرد الأزكوي فيقول: "وسار مالك حتى دخل عمان بعسكر جم في الخيل والعدة والعدد فوجد بها الفرس... فاعتزل مالك بمن معه إلى جانب قلهات من شط عمان ليكون ذلك أمنع لهم". وقد أنذرهم مالك واقتتل معهم حتى أجلاهم: "ولم تكن للفرس رجعة إلى عمان بعد أن أجلاهم مالك عنها إلى أن انقضى ملكه وملك أولاده من بعده، وصار ملكها إلى الجلندي بن الجلندي بن المستكبر المعولي".

ويتكلم الأزكوي عن العديد من قبائل عمان التي استوطنت فيها ومنهم بنو سامة بن لؤي بن غالب الذي نزل بتوام. ولعل كثرة من نزل من الأزد في عمان هو الذي جعل المؤرخين يطلقون عليها ديار الأزد.

وينهي الأزكوي هذا الباب بذكر العلاقة بين آل الجلندي بن المستبكر وبين الساسانيين ويبدو أن الساسانيين ظلوا متمسكين بموضع قدم على ساحل عمان: "فكانت الفرس في السواحل وشطوط البحر، والأزد ملوكاً في البادية والجبال وأطراف عمان وكل الأمور منوطة بهم. وكان كل من غضب عليه كسرى أو خافه على نفسه وملكه أرسله إلى عمان يحسبه بها ولم يزالوا كذلك إلى أن أظهر الله الإسلام بعمان".

ويقسم الأزكوي الباب السادس الذي يتعلق بظهور النبي محمد ﷺ إلى فصول حول مراحل الدعوة الإسلامية ويفصل في ذلك أكثر من الأبواب التي سبقته؛ ويستمر في الباب السابع مفصلاً في المعراج ووصف الجنة والنار، ثم يتكلم في الأبواب من ثمانية إلى الثاني والعشرين في ذكر بيعة العقبة ثم في هجرة النبي ﷺ وقدوم النبي إلى المدينة وأحداث السنة الخامسة للهجرة ثم يختم ذلك بشيء عن آداب النبي ﷺ وبعض أحاديثه المروية.

أما الأبواب الثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون فهي في خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان على التعاقب ويفصل في خلافة عثمان وفي مخالفته للشريعة، على حد قوله، حيث يستعمل اصطلاح "إحداثه" أي ابتداعه بدعاً جديدة لم تكن في عهد النبي ﷺ والخلفاء الذي أعقبوه ويذكر من قُتل مع عثمان من قريش ويشرح موقف علي بن أبي طالب من خلافة عثمان.

ويخصص الأزكوي الباب السادس والعشرون في ذكر خلافة علي ويتكون من ٢٨ صفحة مما يدل على اهتمام المؤرخ بعهد علي ومحاولة التفصيل في أسباب انشقاق الخوارج عنه، ويذكر الرسالة التي أرسلها عبدالله بن وهب الراسبي إلى الخليفة علي بن أبي طالب.

وهنا يتوقف الأزكوي عن سرده لتأريخ الإسلام ليتكلم في الانشقاق الذي حدث في الأمة بعد وفاة عثمان والحرب الأهلية بين علي ومعاوية. ثم موقف الخوارج من علي بن أبي طالب خلال هذه الفترة.

ولكن الباب السابع والعشرون يتعلق بجواب عبدالله بن أباض إلى الخليفة عبدالملك ابن مروان وهي قفزة زمنية إلى منتصف العهد الأموي، ويظهر أن هذه الرسالة التي اهتم بها الأباضية في سيرهم وتواريخهم باعتبار عبدالله بن أباض زعيم حركتهم التقليدي أو المتكلم باسم الدعوة الأباضية التي نسبت إليه قد أثرت بأسلوبها ومحاججتها على مؤرخنا بحيث أراد أن يدعم بها موقفه حين يتكلم عن موقف المحكمة الخوارج بعيد

الحرب بين علي ومعاوية.

وتقع الرسالة في ثماني صفحات وهي ليست جديدة في كتب التاريخ، ولعل الأزكوي نقلها من السير الإباضية حيث تقع ضمنها سيرة عبدالله بن اباض وفيها الرسالة آنفة الذكر أو لعله نقلها من البرادي.

ويخصص الأزكوي في هذا الباب فصلاً ينقله من (كتاب الكفاية) وهو لا يشير إلى مؤلف هذا الكتاب ولا يذكر لنا شيئاً عنه بل يستطرد ناقلاً منه حججاً في الدفاع عن خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب ثم مناقشة مقتل عثمان: هل قتل مظلوماً أم لا؟ ثم خلافة علي والبراءة منه بعد التحكيم، وحول طلحة والزبير والحسن والحسين. وقد وضعت هذه المقتطفات (من كتاب الكفاية) على شكل سؤال وجواب والجواب دون شك هو موقف الخوارج ووجهة نظرهم حول الأشخاص الذين مر ذكرهم.

ويكرر الأزكوي اسم هذا الكتاب (الكفاية) في الباب التاسع والثلاثين من مؤلفه ويذكر هنا اسم المؤلف وهو محمد بن موسى بن سليمان الكندي ضمن مجموعة علماء أهل الدعوة في عمان.

وفي الباب الثامن والعشرون يتكلم الأزكوي عن الفرق الإسلامية ويرى أنها ثلاث وسبعون فرقة ويذكر اعتقاد كل فرقة منها مدعماً ذلك بقول الرسول ﷺ أن فرقة واحدة هي الناجية ويشير أن كل فرقة من هذه الفرق تدعي أنها الفرقة الناجية.

ويقسم الأزكوي هذا الباب إلى أربعة فصول: الفصل الأول في أسماء فرق المعتزلة وهم خمسة عشرة فرقة. والفصل الثاني في أسماء الفرق العثمانية والفصل الثالث في فرق الخوارج والفصل الرابع في فرق الشيعة.

علماً بأنه قبل أن يفصل في هذه الفرق وآراءها وتفرعاتها يعطينا رأي الإباضية في أصل افتراق الفرق وانقسام الأمة الإسلامية حيث يقول: ".. فالفرق كثيرة وأقاويلهم غير قليلة لا يأتي عليها كتاب ولا يستوعبها ذكر ولا خطاب غير أني أذكر منه طرفاً

يهتدي من أراد الله هدايته وذلك شيء يكثر ويطول وذكره يتزايد ويعول غير أني أميل إلى الاختصار وأبين ما حضرني ذكره عبرة لأولي الأبصار".

وفي الباب الثلاثين يتكلم الأزكوي عن أخبار الدولتين الأموية والعباسية مشيراً باختصار شديد، وباستثناء تسميتهم بالملوك والجبابرة فالمؤلف لم يتهجم على الأمويين والعباسيين بشدة بل أنه ذكر أعمالهم الدينية من بناء للمساجد وتوسيع للمسجد الحرام في مكة ومسجد المدينة وغيرهما.

ويشير الأزكوي إلى القرامطة وأعمالهم في عهد الخليفة العباسي المقتدر حيث يقول: "وفي أيامه (المقتدر) بطل الحج وأخذ الحجر الأسود وذلك أن أبا طاهر سليمان بن الحسن القرمطي دخل مكة يوم التروية فقتل الحجاج قتلاً ذريعاً ورمى القتلى في زمزم وقلع الحج الأسود وغزا الكعبة وقلع بابها وبقي الحجر الأسود معهم اثنين وعشرين سنة إلا أياماً".

أما الباب الحادي والثلاثين فعنوانه: "في ذكر الأئمة الذين باعوا أنفسهم في إنكار المنكر" ويتكلم الأزكوي في هذا الباب عن حركات المحكمة الخوارج قبل تبلور الحركة الإباضية وتأسيس كيانها السياسي في عمان والمغرب. ويقتصر - دون شك - على الحركات التي يعترف بها الإباضية وأولهم عبدالله بن وهب الراسبي أمام أهل النهروان ثم يتابع ذكره لزعماء الخوارج حتى يأتي إلى المرداس بن حدير ويذكر أن اتصاله كان مع جابر بن زيد الذي يقول عنه: "وكان جابر ذا رأي صائب وكان أئمة المسلمين لا يخرجون إلا برأيه ويحجبونه ويسترونه عن الحرب لئلا تموت دعوتهم لأنه إمامهم ورئيسهم أو يكون لهم ردءاً وظهيراً وكان أعور بعين وألثغ وكان يسكن بفرق.. وكان وفاته سنة ١٠٣هـ".

ثم يستطرد الأزكوي ليفصل في حركة المختار بن عوف السلمي الأزدي العماني وحركة طالب الحق عبدالله بن يحيى الحضرمي، وينقل نص خطبة المختار (أبو حمزة الخارجي) بالمدينة المنورة. وهؤلاء الثوار، على رأي الأزكوي مقدمة لجهاد الخوارج

الإباضية في سبيل عقيدتهم. وفي هذا الباب يعتمد الأزكوي في معلوماته على روايات من شيوخ الدعوة الإباضية أمثال جابر بن زيد وأبي سفيان محبوب بن الرحيل وابنه محمد بن محبوب وكذلك عن أخباريين أمثال الهيثم بن عدي.

وفي الباب الثاني والثلاثين يبحث الأزكوي في انتشار المذهب الإباضي بالمغرب، ويذكر بعض أئمتهم وعلمائهم وفيه يشير إلى المعاصرين من الأئمة الإباضية بعمان، فحين يتكلم عن عبدالرحمن بن رستم مثلاً يقول: ان الإمام الذي عاصره بأرض عمان هو الوارث بن كعب الخروصي.

ومن المهم أن نذكر الصلات الوثيقة بين الدعوة الإباضية بالمغرب وبين مركز الدعوة الأصلي بالمشرق. حيث كان أئمة الخوارج في المغرب وغيره يستشيرون قادة الدعوة في المشرق إذا ما حدث خلاف في الرأي بينهم، يقول الأزكوي: " فكتبوا (أي إباضية المغرب) كتاباً إلى المشرق إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل وهو إذ ذاك رأس أهل الدعوة والمقدم في أهل المشرق".

ويبدو اهتمام الأزكوي بأخبار المغرب في تخصيصه ٤٤ ورقة لهم، وفي أحيان كثيرة لا يذكر رواته بل يكتفي بالقول: "ذكر بعض أصحابنا"، وأحياناً ينقل عن البكري.

أما الباب الثالث والثلاثون فهو في الأبواب المهمة في هذا الكتاب وعنوانه: "في أخبار أهل عمان من أول إسلامهم إلى اختلاف كلمتهم". ويشمل هذا الباب تاريخ عمان بعد دخول الإسلام إليها ثم تأسيس الإمامة الإباضية الأولى والثانية حتى عزل الصلت بن مالك عن الإمامة سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦-٨٨٧م، وهي فترة ازدهرت فيها الإباضية عقائدياً وسياسياً واستطاع أئمة الدعوة أن يتحدوا السلطة العباسية وأن يوحدوا أتباعهم في صف واحد. ولكن الانشقاق بدأ بعد عزل الإمام الإباضي الصلت بن مالك وأدى إلى حرب طاحنة بين أهل عمان، وهذا مكن العباسيين من دخول عمان وإسقاط الإمامة الإباضية الثانية سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م. وقد اهتم بهذا الباب العديد من المؤرخين المهتمين بتاريخ عمان فقد ترجمه المندوب السياسي البريطاني اللفتانت كولونيل Ross

في مسقط ونشره في كلكتا بالهند سنة ١٩٧٤م. وحققت klein نفس الباب ونشرته في هامبرج سنة ١٩٣٨م.

ويعلق الأزكوي في نهاية هذا الباب عن مدى سيطرة الإباضية على عمان فيقول: "وفيما أظن أن هؤلاء الأئمة بعد الصلت لم تدن لهم جميع عمان ولم يجر سلطانهم فيها".

وتستمر الأبواب من الباب الثالث والثلاثين حتى الباب الثامن والثلاثين في سرد تاريخ عمان المحلي بشيء من التفصيل حتى سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م حيث تنقطع الأحداث بصورة مفاجئة.

ففي الباب الرابع والثلاثين يفصل الأزكوي في إظهار وجهة نظر كلا الفريقين في الفتنة التي أدت إلى عزل الصلت بن مالك وينقل عن شيوخ وأئمة يبدو أنهم عاصروا الصراع المحتدم بين أنصار الإمام الصلت من جهة وأنصار موسى بن موسى وراشد بن النظر من جهة ثانية. ومن المهم أن نشير بأن الأزكوي يوضح موقفه من هذا النزاع حيث يبدي وجهة نظر تميل إلى جانب الصلت. ويذكر العديد من العلماء الذين وقفوا إلى جانب الصلت مثل أبي الحسن محمد بن الحسن وأبي المؤثر وغيرهم ولكنه يعود فيدعو إلى الوقوف في أمر هذه الأحداث والفتن والعودة إلى وحدة الصف ونبذ الخلاف.

ويستمر الباب الخامس والثلاثين في سرد أحداث عمان في عهد الإمامين سعيد بن عبدالله وراشد بن الوليد ومن بعدهما، ولكن الأزكوي نفسه يبدي حيرته من غموض الأحداث حيث يقول مثلاً عن مقتل الإمام سعيد: "وقد طالعت في ذلك الكتب الكثيرة وسألت أهل الخبرة فلم أقف على علم ذلك".

بل إن الأزكوي لا يعطي معلومات عن الأئمة الذين انتخبوا خلال هذه الفترة، ويعترف أنه لم يجد معلومات كافية لكي يسردها عنهم ويتساءل فيما إذا كان الإباضية قد انتخبوا فعلاً أئمة خلال هذه الفترة.

على أن الأمور تتوضح أكثر من الباب السادس والثلاثين، حين يتكلم عن فترة نفوذ النباهنة على معظم الأقسام الداخلية لعمان ويسميهم الأزكوي "ملوك النباهنه" وليس أئمة ذلك لأنهم ليسوا من الإباضية وهؤلاء الملوك يعودون إلى قبيلة نبهان التي برزت خلال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري كقوة سياسية في عمان. ومع ذلك فإن المعلومات التي يقدمها الأزكوي عن هذه الفترة من تاريخ عمان وعن تطور الإباضية فيها ليست كافية بل مقطوعة تتخللها فجوات تاريخية كبيرة، وهنا يأتي دور السير العُمانية لتزودنا بمعلومات أوفى قليلاً عن هذه الفترة.

ويخصص الأزكوي باباً كاملاً (الباب ٣٧) لظهور الإمام ناصر بن مرشد اليعربي ولا شك فإن حكمه يعدّ بداية لعهد جديد في تاريخ عمان هو عهد اليعاربة الذي بدأ سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وانتهى سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م. وقد حقق هذا العهد لعمان وحدتها السياسية وازدهارها الاقتصادي ومقاومتها للغزو الأوربي. ولذلك يسهب الأزكوي في سرد أحداث هذا العهد مادحاً الإمام ناصر وأعماله مترحماً عليه. على أن الأزكوي لا يبالغ في ذلك مثل المؤرخ ابن قيصر. ونستطيع أن نكون صورة جيدة لعهد الإمام ناصر بمقارنتنا بين ما كتبه هذين المؤرخين حول هذا العهد.

ولكن الحالة لم تبق على ما كانت عليه في عهد ناصر بن مرشد، بل وقعت الفتن والانشقاقات التي يشير إليها الأزكوي في الباب الثامن والثلاثين، الذي ينتهي بإمامة سيف بن سلطان اليعربي ثم يستطرد في ذكر التحالفات القبلية والنزاعات على السلطة حتى تنقطع أخباره فجأة سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م دون أن يكمل عصر اليعاربة وبهذا ينتهي الكتاب.

ويبدو مما ذكره الأزكوي عن اليعاربة أنهم كانوا حسني السيرة ذوي كفاءة إدارية وسياسية جيدة وقد نجحوا في تحقيق الاستقرار النسبي في عمان، ويشير الأزكوي إلى الإجراءات الرادعة التي اتخذها الإئمة لحفظ الأمن والحد من سرقة القوافل إلى الحد الذي انعدمت فيه السرقات بعد ذلك في طرق عمان البرية.

أما البابين الأخيرين من الكتاب فليس لهما علاقة بتاريخ عمان. فالباب التاسع والثلاثين يتعلق بتواريخ موت بعض الصحابة وذكر علماء الإباضية من عمان وغيرها. ولعل الذي يهمنا من هذا الباب الفصل الخاص "في معرفة العلماء من أهل الدعوة من عمان وغيرها" حيث يزودنا الأزكوي بقائمة طويلة من العلماء تغطي ثماني صفحات من تاريخه، ثم يعقب هذا الفصل بفصل آخر حول "تاريخ موت العلماء" ويبدأوها بالشيخ بشير بن المنذر النزوي الذي مات سنة ١٧٨هـ ٧٩٤م وينهيها بموت الفقيه سليمان بن أحمد بن مفرج البهلوي سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م.

والباب الأربعون هو خاتمة الكتاب وعنوانه: "في عذاب القبر وفي الرد على من قال بالرؤية في الآخرة وفي ذكر الشفاعة والميزان والصراط وفي الرد على من قال بالعفو والخروج من النار لأهل الكتاب من ذوي الإقرار". وينقسم هذا الباب إلى فصول فيها توضيح لعقيدة الإباضية في هذه الأمور الفرعية المذهبية والرد على مخالفيهم. حيث يكرر الأزكوي عبارة "قال بعض مخالفينا" ويسرد وجهة نظرهم ثم يرد عليها ويحاججها. وواضح أنه استند في ذلك على العديد من كتب الفقه الإباضية التي ذكر بعضها في الباب التاسع والثلاثين. مثل "بيان الشرع" للقاضي محمد بن إبراهيم بن سليمان الكندي. وأحمد بن عبدالله بن موسى الكندي مؤلف "كتاب المصنف" ومحمد بن موسى بن سليمان الكندي مؤلف "كتاب الكفاية" والفقيه محمد بن أحمد بن صالح الأزدي القلهاتي مؤلف كتاب "الكشف والبيان". ويبدو أن قبيلة كندة في عمان أنجبت العديد من علماء الإباضية ولذلك يعلق السيابي قائلاً: "إذا كانت قبيلة خروص أصل الإمامة فإن كندة أصل الفقه".

وينهي الأزكوي كتابه بالجملة التالية: "فإن كان هذا الذي برهناه في هذا الكتاب حقاً ووضح منهجه عدلاً وصدقاً، فذلك من الله هدانا لتأليفه ووفقنا لتلخيصه وتصنيفه وإن يكن فيه خطاءاً أو في شيء منه غلط فأنا استغفر الله تعالى منه ومن جميع ما خالفت فيه الحق وفارقت فيه منهاج ذوي الهداية والصدق...".

أما مصادر الكتاب، فيكرر الأزكوي في مواضع عديدة من كتابه أنه اعتمد على كتب السلف من علماء الإباضية ورواتهم ولكنه في الغالب لا يوضح مصادره فيقول مثلاً: "ولقد طالعت الكتب الكثيرة وسألت أهل الخبرة فلم أقف على علم ذلك". وفي موضع آخر يقول: "ووقفت على كتاب مسطور..".

ولما كانت المواضيع التي عالجها الأزكوي متنوعة في التاريخ العام والتاريخ المحلي والتراجم والنسب والعقيدة والفقه والفرق الإسلامية والديانات، فلا شك أن مصادره وموارده تتنوع كذلك. وفيما يتعلق بتاريخ عمان يعتمد الأزكوي اعتماداً واضحاً على كتب (السير العمانية) دون أن يشير إليها في أغلب الأحيان، على أنه يذكر اعتماده على السيرة القحطانية لأبي قحطان خالد ابن قحطان. وربما ظن بأن ذكر السند والمصادر سيؤدي إلى الملل وإلى عزوف القارئ عن متابعة القراءة، الأمر الذي كان يدركه ويخشاه ـ كما أشار إليه في مقدمة الكتاب ـ ولو أنه ذكر موارده لأفادنا فائدة كبيرة في هذا المجال.

ويعتمد الأزكوي فيما يتعلق بهجرة القبائل إلى عمان وأنسابها على ابن الكلبي وأنساب العرب للعوتبي ولعل مقارنة هذه الأبواب في كشف الغمة بأنساب العرب للعوتبي تؤيد ما ذهبنا إليه على أن الأزكوي يشير إلى ابن الكلبي مباشرة في بعض الأحيان.

وينقل الأزكوي في الأحداث التاريخية العامة مثل حركات الخوارج في اليمن والحجاز عن الهيثم بن عدي عن عيسى بن عبدالحميد عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل. ولكنه عادة ينقل عن "المشايخ" ولا يقول أكثر من "ذكر بعض أصحابنا" أو "وجدت عن محمد بن محبوب عن أبي صفرة". وفي أخبار المغرب يشير إلى البكري "قال البكري".

ويوضح الأزكوي مواقف العلماء الإباضية بعد الانشقاق الذي حصل في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وأدى إلى سقوط الإمامة الإباضية ويذكر أسماءهم وآراءهم. (الباب ٣٤ مثلاً).

فالأزكوي إذن لا يذكر مصادره في الأعم الأغلب، ورغم أنه ذكر بعض الرواة وأشار إلى بعض السير فإن على الباحث أن يقارن المادة التاريخية والعقائدية بمصادر أخرى إباضية وغير إباضية من أجل أن يتعرف على الكتب والموارد التي اعتمدها الأزكوي. وبصورة عامة نستطيع القول بأن الأزكوي اعتمد على السير العمانية فيما يتعلق بتاريخ عمان في القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين مثل سيرة أبي المؤثر وسيرة البسيوي (البيساني). واعتمد على العوتبي فيما يتعلق بالتنقلات القبلية الأولى وأنساب القبائل وصلاتها، ودعمها بروايات شفوية من "أهل الخبرة".

أما المادة العقائدية فقد اقتبست من العديد من كتب الفقه الإباضية التي أشار إليها الأزكوي مثل كتب البسيوي وأبي المؤثر ومحمد بن موسى الكندي وغيرهم. كما اعتمد على كتب فقهية مغربية فالأحاديث النبوية الموضوعة التي تمجد البربر والفرس وغيرهم لا بد وأنها اقتبست من مصادر مغربية إباضية ولكنه لا يشير إليها.

* * *

الفصل الرابع

«أما بعد، فإن التاريخ لسان يخبر به الزمان عن عجائب الوقائع، بل أستاذ يقرر دروس الحوادث ليعيها السامع بل ما شئت من محمود ممدوح ينفس كروب النفس ويروح الروح، وله رجاله أئمة فضلاء وسادة جلة نبلاء... فلا أمة من الأمم ذوات الملل وذوات الدول إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام، ولولا ذلك لانقطعت الوصل، وجهلت الدول، ومات في أيام الآخر الأول... ولولا التاريخ لضاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة ولقل الاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها».

العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي
في الفتح القدسي، ج ١، ص ١ - ٤.

«ولقد خاض العلماء معركة عنيفة للحفاظ على حقهم في البحث العلمي والفرص اللازمة لممارسته، ولكنهم فيما يبدو كانوا يخوضون معركة خاسرة فإن ابن خلدون يقول لنا أن النشاط الهائل على مدى عدة قرون في كل حقل من الحقول الأدبية والعلمية أسفر عن تأليف عدد ضخم من الكتب فلم يكن عمر العالم المختص يكفي لقراءة كل ما كتب في ميدان اختصاصه فكيف بدراستها. ومن هناك كان ازدياد الطلب على الكتب الموسوعية المختصرة وقد رأى ابن خلدون من الضروري أن يخصص فصلين من مقدمته ليدلل على الأثر السيئ لهذه الحال من العمل العلمي».

فرانتز روزنثال، مناهج العلماء
المسلمين في البحث العلمي، ص١٦٦.

مراحل الكتابة التاريخية[٣]:
مرحلة التدهور والتراجع

بعد القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي

بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تدهورت الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية في معظم أقاليم المشرق الإسلامي وقد امتد التدهور بطبيعة الحال إلى الكتابة التاريخية مع وجود حالات استثنائية تتمثل في بعض المؤرخين البغداديين أمثال ابن الساعي (٦٧٤هـ)، وابن الفوطي (٧٢٣هـ).

ويلاحظ بروز عدة مظاهر منها: تحول الكتابة في التاريخ إلى بلاد الشام ومصر، وإن أغلب الذين اشتغلوا في التاريخ هم من الفقهاء المشتغلين بالعلوم الإسلامية أو من المتصلين بالدولة أو العسكر. كما أكد المؤرخون وخاصة المصريون منهم على تاريخ الأحداث المعاصرة لهم والمتصلة بالناس وفعالياتهم اليومية وما يتعلق بالأمراض وارتفاع الأسعار والعمران وقد لاحظنا ذلك في المقريزي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) وابن تغري بردي (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) وابن كثير (٨٤٥هـ/١٤٤١م) والكتبي (ت ٧٦٤ هـ /١٣٦٢م) حيث كانت تراجمه في (فوات الوفيات) مرآة لعصره، وكذلك السبكي (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)، الذي جعل أساس الاختيار لتراجمه هو الإنجاز الذي حققه صاحب الترجمة. وقد ازدادت ظاهرة التكملة وظاهرة التذييل على الكتب السابقة. كما ظهرت كتب عديدة تختص بتراجم قرن واحد ومثال ذلك ما ألفه ابن الفوطي (المائة السابعة) والعسقلاني (المائة الثامنة) والسخاوي (المائة التاسعة) وقد أشرنا إليهم في محور التراجم سابقاً.

وقد تنوعت هذه الكتب من حيث المنهج والأسلوب، فمنها ما اختصر الفترات

السابقة لعصره وفصّل كثيراً في الفترة المعاصرة له، ومنها ما جمع بين الأخبار - الأحداث - التاريخية والتراجم، ومنها ما ركز على إقليمه مثلما فعل ابن كثير في (البداية والنهاية)، وقد يجد الباحث معلومات جديدة عن الفترة السابقة لابن كثير لأنه رجع إلى مصادر فقد بعضها.

وظهر في مصر عدد من المؤرخين اللامعين رغم أن المرحلة كانت متدهورة، لعل منهم المقريزي وابن تغري بردي، ويعود الفضل في أهمية كتب المقريزي وشيوعها إلى الوظائف التي شغلها والتي جعلته ملاحظاً ذكياً لأحوال الناس ومعاشهم وحركتهم في الحياة فأعماله مفيدة للنخبة المثقفة وللعامة على السواء. ويعتبر كتابه (المواعظ والاعتبار) أقرب إلى تاريخ مصر الثقافي والحضاري منه إلى أي شيء آخر. أما مصادره فمتنوعة حيث استند إلى ملاحظاته ومشاهداته ثم إلى روايات الشيوخ والأعيان القريبي العهد به أو المعاصرين له ثم إلى المصادر التاريخية السابقة.

أما ابن تغري بردي فكان وثيق الصلة بالسلطة، ولهذا فقد استفاد من السجلات والوثائق الرسمية في كتابة التاريخ بالإضافة إلى مشاهداته. وكان يرى أن التاريخ يقدم أمثلة يحتذيها المرء ويعتبر بها ويتعظ بأحداثها. وقد جمع بين الأحداث والتراجم وكانت تراجمه على سني الوفاة.

أما في بغداد فقد ظهر مؤرخان متميزان هما ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، وابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) وكتب الأول (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير) وهو كتاب حولي ينتهي بسنة ٦٥٦هـ زاخر بالمعلومات المتنوعة ولم يصلنا منه إلا جزء واحد. وكتب الثاني كتاباً في التراجم على حروف المعجم مستنداً إلى لقب المترجم له أما عنوان الكتاب فهو (تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب) وهناك كتاب آخر ينسب له باسم (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة) وينتهي بسنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م. والكتابان غير مكتملان.

وهناك مؤرخون متأخرون آخرون في هذه المرحلة المتدهورة في الكتابة التاريخية

منهم ابن الدبيثي (ت ٦٣٧هـ) والغساني (ت ٨٠٢هـ) وابن الفرات (ت ٨٠٧هـ) وابن الكازروني (ت ٦٩٧هـ) وابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) واليونيني (ت ٧٢٦هـ) وابن العبري (ت ٦٨٥هـ). ويعد المؤلف الأخير أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري السرياني من عائلة يهودية في الأصل. وقد اعتنق المسيحية وصار راهباً وتقلد مناصب كنسية في إنطاكية ومراغة. أما كتابه في التاريخ (تاريخ مختصر الدول) فقد كتبه باللغة السريانية منذ بدء الخليقة حتى ٦٨٥هـ ثم أعد ترجمة عربية مختصرة له حذف منها الأخبار التي أدرك أن السلطة والمسلمين لا يستسيغونها. وهذا هو الجزء الأول من الكتاب أما الجزءان الثاني والثالث فلم يترجما إلى العربية فتحدث فيهما عن تاريخ الكنيسة في الغرب والشرق وتاريخ النساطرة.

* * *

المبحث الأول

بروز ظاهرة تراكم المعرفة (الموسوعات)

برزت في هذه الفترة كذلك ظاهرة تراكم المعرفة في المجالات المتنوعة على شكل (موسوعات) ذات أجزاء متعددة كما هو الحال في كتاب النويري (٧٣٣هـ) (نهاية الأرب في فنون الأدب) والعمري (ت ٧٤٨هـ) (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، والقلقشندي (٨٢١هـ /١٤١٨م) في (صبح الأعشى في صناعة الإنشا). والمؤلفون في هذا المجال إما مؤرخين اشتغلوا بالعلوم الإسلامية ومنها التاريخ الإسلامي أو مؤرخين متصلين بالدولة أو العسكر في العصر المملوكي. أما المادة فتضم الأدب واللغة والإدارة والتاريخ والجغرافية والدين والعسكر وغيرها.

وسنتناول أبو العباس القلقشندي[1] نموذجاً للكتب الموسوعية، وقد دونه حين كان يعمل في (ديوان الإنشا) في القاهرة، ويتضمن مقدمة وعشر مقالات وخاتمة.

والقلقشندي عربي من فزارة من قيس عيلان ونسب إلى قلقشندة وهي قرية في مديرية القليوبية بمصر. درس القلقشندي في القاهرة والإسكندرية على يد أكابر شيوخ العصر، وتخصص في الأدب والفقه الشافعي، وبرع في علوم اللغة والبلاغة والإنشاء، وفي سنة ٧٧٨هـ أجازه الشيخ ابن الملقن بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي.

وقد تولى بعض الوظائف الإدارية إلى حين، بيد أن براعته في الكتابة والإنشاء لفتت إليه أنظار رجال البلاط، ومهدت له سبيل الاضطلاع بالمنصب الذي أهلته له مواهبه

---

(١)عن القلقشندي راجع: وستنفلد، تاريخ، رقم ٤٦٧. بروكلمان، تاريخ الأدب (بالألمانية)، ج٢، ص١٣٤. دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، ج١، ص ٦٩٩-٧٠٠.

الأدبية والفنية وهو العمل في (ديوان الإنشاء).

التحق القلقشندي بديوان الإنشاء في سنة ٧٩١هـ وذلك حسبما يقول القلقشندي في مقدمته: "وقد كانت لديوان الإنشاء أهمية خاصة في هذا العصر، وكان للمرشح لهذا العمل أن يكون من أقطاب النثر والبلاغة، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شؤون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية وسير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم، وكان على المرشح أن يتحلى بمجموعة من الصفات اللازمة له: كصباحة الوجه، وفصاحة اللفظ وطلاقة اللسان، وإيثار الجد على الهزل، وتوقد الفهم وحسن الإصغاء، وكتمان السر الأمر الذي يصر القلقشندي على خطورته ويراه ضرورة لا يمكن التجاوز عنها.

ظل القلقشندي قائماً بالعمل في ديوان الإنشاء حتى نهاية ٨١٦هـ ربما حتى وفاته سنة ٨٢١هـ إذ ليس لدينا أي نص ينفي ذلك أو يؤيده. ويترتب على حقيقة أخرى وهي أن القلقشندي وإن كان قد انتهى من تأليف كتابه صبح الأعشى في شوال سنة ٨١٤هـ إلا أنه ظل يضيف إليه طوال السنوات الباقية من حياته طالما كان لا يزال يعمل في ديوان الإنشاء.

وإذا كان القلقشندي لم يستطع طوال فترة عمله أن يكون على رأس ديوان الإنشاء فإن ذلك لا يعني أنه لا يمتلك المؤهلات الأدبية والعلمية بل ربما كان يربأ بنفسه أن يسلك سبل التزلف والرشوة كما كان سائداً في ذلك العصر.

إن التسمية الأصلية للكتاب هي (صبح الأعشى في كتابة الإنشا[1]) وهي التسمية التي ذكرها المؤلف في مقدمته ونعتقد أنها أكثر ملائمة لمضمون الكتاب وللغرض الذي من أجله وضعه كاتبه من سائر التسميات الأخرى ومنها (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء).

أما بخصوص القسم الأول من التسمية وهو (صبح الأعشى) فإن القلقشندي يرى

---

(١) طبعة القاهرة في أربعة عشر جزءاً، ١٩١٥م.

أن كتابه يوصل كاتب الإنشاء إلى غايته القصوى في امتلاك مواد الكتابة ومستلزمات وظيفته الديوانية، فالأعشى : من ساء بصره في الليل والنهار، أو أبصر بالنهار ولم يبصر في الليل فهو عش وأعشى والصبح: أول النهار، والمعنى ينظر إلى الانصباب والصبوه، فكأن القلقشندي يعتبر كتابه صبحاً ينصب منه النور فيرى الأعشى سبيله.

منهج القلقشندي ومصادره:

اعتمد القلقشندي في جمع مادة موسوعته وتأليفها على نوعين أساسيين من المصادر هما: محفوظات ديوان الإنشاء من الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية، والثاني أمهات الكتب والمصنفات في مختلف ميادين العلم والأدب التي طرق أبوابها في كتابه.

وقد أمضى أعوام طويلة في البحث والتنقيب، واستخرج الوثائق، والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية وغيرها من مختلف أصناف المكاتبات الرسمية والدبلوماسية التي تكدست في ديوان الإنشاء خلال العصور المتعاقبة، وكانت كمية هائلة، فقد اجتمعت للقلقشندي مادة كبيرة وغزيرة لم يسبق أن اجتمعت لكاتب من قبل في موضوعه. فقد أمضى ربع قرن في ديوان الإنشاء، أي في خزانة أسرار الدولة مطلع على كل ما يرد عليها ويصدر عنها مزود بالعلم الغزير والذهن اليقظ المستنير وممنوح الثقة والاحترام كل ذلك ساعده على التصرف فيما وقع تحت يديه.

وإذا نظرنا إلى كتابه نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً يقوم على وحدة الفكر من ناحية وعلى أسلوب التفريع داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى وهو في أثناء ذلك ناقل أمين لا ينسب آراء غيره لنفسه وهو ذو رأي سديد وفكرة صائبة دونما إدعاء.

يقسم القلقشندي كتابه إلى عشر مقالات تسبقها مقدمة وتلحق بها خاتمة، ولو أخذنا المقالة الثانية مثلاً، نجده قد أفردها للحديث عن الجغرافيا بمختلف فروعها، أي المسالك والممالك بلغة ذلك العصر، وقسم الكاتب مقالته في الجغرافية إلى أربعة أبواب: الأول في ذكر الأرض على سبيل الإجمال، والثاني في ذكر الخلافة ومن وليها

من الخلفاء ومقراتهم، والثالث في ذكر مملكة الديار المصرية، أما الرابع فموضوعه الممالك والبلدان المحيطة بملكة الديار المصرية.

والواقع أن هذا المنهج الذي اختاره القلقشندي لمقالته منهج سليم إلى حد بعيد من وجهة النظر الجغرافية فهو يبدأ بالصورة العامة للأرض وما اشتملت عليه من الأقاليم الطبيعية، ويعني بصفة خاصة بالبحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان، سواء ما كان منها خارجاً من البحر المحيط، أو ما ليس له اتصال بهذا البحر ثم يفرد فصلاً خاصاً بكيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها. آخذين بنظر الاعتبار أن القلقشندي لم يكن يستهدف وضع كتاب لأصحاب الجغرافيا بل كان هدفه تصنيف المعلومات الجغرافية العامة التي يحتاج إليها الكاتب.

وأهم ما يلفت الانتباه في منهجه هو أنه كاتب أمين ينسب كل منقولاته إلى أصحابها لا يدعي منها شيئاً لنفسه، هذا إلى جانب أمانته ودقته في النقل، فلا يتصرف فيما ينقله وإذا أراد أن يضيف شيئاً أو يدعي برأيه الخاص فإنما يفعل ذلك مع التزام كامل باحترام آراء غيره، خاصة الذين ينقل عنهم.

ولعل ما أورده القلقشندي عن قلعة القاهرة يوضح أمانته ومنهجه العلمي في النقل والكتابة، وهذا الحكم جاء بعد دراسات تاريخية أثرية قام بها عدد من المستشرقين.

أسلوب القلقشندي في الكتابة وشخصيته الأدبية:

القلقشندي أديب صانع مجتهد وهو صاحب قلم سيال يرتكز على ثقافة واسعة في جميع ميادين العلم والأدب والفن، وهو ذو أسلوب مشرق الديباجة سلس. وفي كتابه ينسج على منوال أدباء عصره من أصحاب الأساليب المصنوعة والعبارات المنمقة المسجوعة الحافلة بالمحسنات البديعية من سجع وجناس وترصيع وتضمين وتورية ومقابلة وطباق إلى غير ذلك.

ومما لاشك فيه أن صبح الأعشى من حيث النصوص الأدبية التي احتواها يعتبر أغنى مرجع عربي نظراً لوفرة عدد الرسائل والخطب التي ضمتها دفاته.

محتويات الكتاب:

وزع الكاتب محتويات كتابه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة استغرقت أربعة عشر مجلداً أي حوالي سبعة آلاف صفحة.

ففي المقدمة: يتناول الحديث عن مسائل أولية وتعريفهات تمهيدية كالتنويه بفضل القلم وشرف الكتابة وتطور الإنشاء خلال العصور وتفضيل النثر على النظم، وصفات الكتّاب وآدابهم، وتاريخ ديوان الإنشاء وتطوره منذ أول الإسلام إلى أيامه، ثم أحوال الدول الإسلامية وقوانين الدواوين ومراتب أصحابها والتعريف بالوظائف الديوانية في مصر الإسلامية.

وتتكون من مقالات:

الأولى: تتحدث عن مجموعة المعارف التي يحتاجها الكاتب في ديوان الإنشاء للقيام بمهنته.

الثانية: المسالك والممالك (الجغرافيا) .

الثالثة: في أمور تشترك فيها أنواع الولايات.

الرابعة: استوعبت أهم مقالات الكتاب.

الخامسة: الولايات وطبقاتها من الخلافة والسلطنة.

السادسة: الوصايا الدينية.

السابعة: الإقطاعات.

الثامنة: الأمان وأنواعه.

التاسعة: عهود الأمان.

العاشرة: فنون من الكتابة يتداولها الكتاب.

الخاتمة: أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور مكتوبة مثل البريد وتاريخه في مصر وبلاد الشام.

* * *

المبحث الثاني

ظهور كتب المختصرات والتكملة والتذييل

أما الظاهرة الأخرى التي برزت فهي ظاهرة الاختصار والتكملة والتذييل للكتب السابقة. ويعني هذا قلة الإنتاج التاريخي الجديد وربما انعدام بعض أنماطه في هذه الفترة، وإنما أخذ المؤرخون يختصرون الكتب المتميزة القديمة أو يكملونها أو يذيلون عليها. وقد يقوم المؤلف نفسه أحياناً بعملية اختصار كتابه السابق الذي يتألف من عدة أجزاء إلى جزئين مثلاً، أو قد يكمله أو يذيل عليه.

وقد أشار السخاوي في القائمة[1] التي أوردها في كتابه (الإعلان بالتوبيخ) إلى عدد من كتب التكملة والتذييل والاختصار، كما أشار إلى بعضها عدد من المؤرخين المحدثين الذين تناولوا علم التاريخ عند المسلمين، ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نشير إلى جملة أمثلة ونماذج منها:

بعض كتب التكملة واستكمال التكملة:

- المنذري (٦٥٦هـ)، التكملة لوفيات النقلة، ٤ أجزاء في بيروت، ١٩٨١م.
- ابن الصابوني (٦٨٠هـ)، تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب، بيروت، ١٩٨٦م.
- الكتبي (٧٦٤هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، خمسة أجزاء، (تكملة وفيات الأعيان لابن خلكان).

---

(١) راجع القائمة المفيدة التي أوردها السخاوي في كتابه (الإعلان بالتوبيخ) في آخر كتاب روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، (مترجم).

- الصفدي (٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، (تكملة على وفيات الأعيان لابن خلكان)، نشرت منه عدة أجزاء.
- ابن كثير (٧٧٤هـ) التكميل في معرفة رجال الحديث (زاد فيه على تهذيب الكمال للمزي وميزان الاعتدال للذهبي).
- علاء الدين مغلطاي (٧٦٢هـ) إكمال تهذيب الكمال للمزي.
- العلاء بن خطيب الناصرية، كمل كتاب ابن العديم (زبدة الحلب من تاريخ حلب) في كتاب سماه (الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب)، ثم كتب سبط ابن العجمي (ت ٨٨٤ه) استكمالاً للتكملة كتاباً سماه (كنوز الذهب في تاريخ حلب).
- ابن تغري بردي (٨٧٤هـ) أكمل كتاب الوافي بالوفيات للصفدي. كما أكمل ابن تغري بردي كتاب أستاذه المقريزي (السلوك).

بعض كتب التذييل:

- ابن النجار (٦٤٣هـ) ذيل تاريخ بغداد، نشر منه الجزء الثالث مع كتاب الخطيب البغدادي، والجزء ١٦-١٨ نشر في بيروت دون تاريخ نشر.
- أبو شامة (٦٦٥هـ) الذيل على الروضتين، بيروت، ١٩٧٤م، وقد ذيل المؤلف على كتابه بنفسه.
- ابن الدبيثي (٦٣٧هـ) ذيل تاريخ مدينة السلام، بغداد، نشر بجزئين، ١٩٧٤م، ١٩٧٥م.
- اليونيني (٧٢٦هـ) ذيل مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، ٤ أجزاء، حيدر أباد الدكن.
- ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) الذيل على طبقات الحنابلة، جزئين، القاهرة، ١٩٥٢م.

- ابن الدمياطي (ت ٧٤٩هـ)، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، بيروت، ١٩٨٦م.
- الصقاعي الدمشقي النصراني (ت ٧٢٦هـ) تالي وفيات الأعيان لابن خلكان.
- محمد بن عماد الدين بن كثير (ابن المؤلف) ذيل البداية والنهاية، ذيل على كتاب أبيه بنفسه.
- ابن الفوطي (٧٢٣هـ)، ذيل تاريخ ابن الساعي (الجامع المختصر).
- الذهبي (٧٤٨هـ) ذيل المؤلف نفسه على كتابه (تاريخ الإسلام) ذيلاً يبدأ من سنة ٧٠٠هـ. كما ذيل على كتابه (دول الإسلام) وكتابه (سير أعلام النبلاء)، وقد اختصر الذهبي كذلك العديد من المؤلفات لمن سبقه من المؤرخين وأصحاب التراجم والأنساب.
- ابن الوردي (٧٤٩هـ)، تتمة المختصر في أخبار البشر، وقد اختصره قبل أن يذيل عليه ابن تيمية من سنة ٧٠٩هـ إلى ٧٤٩هـ.
- سبط ابن العجمي (٨٤١هـ) ذيل على ميزان الاعتدال للذهبي في كتاب بعنوان (نقد النقصان في معيار الميزان) وهو ذيل ونقد وتكميل له.

بعض كتب المختصرات والتلخيصات:

- ابن الكازروني (٦٩٧هـ)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، بغداد، ١٩٧٠م. المؤلف اختصر عدة كتب في كتاب واحد.
- الذهبي (٧٤٨هـ)، المختصر المحتاج إليه في تاريخ ابن الدبيثي (٦٣٧هـ)، ٣ أجزاء، بغداد، ١٩٥١م، ١٩٧٧م.
- المؤلف المجهول (من القرن الخامس الهجري)، تاريخ الخلفاء (مخطوط)، اختصر المؤلف عدة كتب سماها كتب الكبار.

- الذهبي (٧٤٨ هـ)، تذهيب التهذيب، اختصر كتاب تهذيب الكمال للمزي.
- الذهبي (٧٤٨هـ)، المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ القرشي، ثلاثة أجزاء.
- الذهبي (٧٤٨هـ)، المختصر من تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأمم، المؤلف اختصر كتابه.
- الأربلي (٧١٧هـ)، خلاصة الذهب المسبوك في سير الملوك، بغداد، ١٩٦٤م، المؤلف لخص عدة كتب في كتاب واحد.
- موسى بن أحمد بن خلكان (٦٥١هـ)، المختار من وفيات الأعيان، وهو مختصر لوفيات الأعيان قام به ابن المؤلف.
- أبو شامة (٦٦٥هـ)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، في ١٥ مجلد، ثم اختصره ثانية في خمس مجلدات.
- السبكي (٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الوسطى، اختصر المؤلف نفسه كتابه طبقات الشافعية الكبرى في عشرة مجلدات.
- السبكي (٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الصغرى، اختصر المؤلف نفسه كتابه الثاني الطبقات الوسطى.
- ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) تهذيب التهذيب، اختصر تهذيب الكمال للمزي.
- ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ) له عدة مختصرات وتلخيصات منها: (المنتقى من كتاب العبر في خبر من غبر) للذهبي.
- المقريزي (٨٤٥هـ) تلخيص (عجائب المعذور في أخبار تيمور) لابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ).

- البنداري لخص (البرق الشامي) لأبي شامة في جزئين وسماه (سنا البرق الشامي).

ولا بد لنا بعد هذه الأمثلة أن نستدرك ونقول بأن مرحلة التدهور هذه لم تكن كلها مرحلة تراجع، وخاصة إذا تكلمنا عن التاريخ. فربما شمل التراجع العلوم الإسلامية الأخرى أما علم التاريخ فيمكن أن نطلق على مسيرته خلال هذه الفترة "بظاهرة التراجع ثم الأحياء". فرغم التكملات والتذيلات والاختصارات التي شهدها العصر في المؤلفات التاريخية، فقد كان هناك لا يزال مؤلفات تاريخية متميزة ومؤرخون لامعون أنجبتهم هذه المرحلة.

فإذا كانت فترة القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين هي فترة النضج والازدهار في التدوين التاريخي كما أسميناها سابقاً. فإن هناك من المؤرخين المحدثين من يطلق على فترة القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بأنها فترة "النهضة الثانية[1]" في التدوين التاريخي مستندين في ذلك على بروز مؤرخين في كل من بلاد الشام ومصر كتبوا مؤلفات تاريخية مهمة، حيث ظهر في هذه الفترة في بلاد الشام مؤرخون أمثال ابن خلكان وابن شداد وابن واصل والذهبي والصفدي والكتبي والسبكي وابن قاضي شهبة. بينما أنتجت مصر مؤرخين آخرين بالمستوى نفسه مثل: النويري، وابن الفرات وابن دقماق والمقريزي وابن حجر العسقلاني وغيرهم.

إن هؤلاء المؤرخين يعدون في نظر بعض الباحثين الدليل على وجود نهضة في التدوين التاريخي استمرت رغم التراجع في القرن الثامن وحتى نهاية القرن التاسع الهجري حيث أفلت الأسماء اللامعة من العلماء في مجالات الحياة الفكرية الأخرى، إلا أننا لا يمكن أن نحكم على فترة طويلة قياساً على حالات استثنائية لمؤرخين برزوا في تلك الفترة بل أن الحكم لا بد أن يستند على تطور الكتابة التاريخية ككل من حيث المنهج والفكر والأسلوب.

---

(١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٤، ص ٧ فما بعد.

لقد سبق أن تناولنا العديد من الأسماء البارزة من مجموعة المؤرخين الذين أشرنا إليهم قبل قليل حين عالجنا الأنماط التاريخية المختلفة، وسنتناول الآن نموذجين متميزين من مؤرخي التكملة والتذييل ظهرا في هذه المرحلة وهما: ابن شاكر الكتبي والصلاح الصفدي.

أما الأول فهو صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي(١) الليثي الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م في دمشق. نشأ فقيراً ثم اشتغل في تجارة الكتب فغدا ميسور الحال. ومن خلال عمله هذا أصبح ذو اطلاع واسع فكتب في التاريخ وبرز فيه. ولعل من أشهر ما كتبه (فوات الوفيات) كمل فيه كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان. وقد طبع كتابه هذا عدة طبعات لعل آخرها طبعة بيروت، ١٩٧٣م.

أما الثاني فهو صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي(٢) المتوفى بدمشق ٧٦٤هـ/١٣٦٣م. وكان من عائلة ثرية ميسورة الحال. ولذلك انصرف إلى الأدب والشعر والرسم، ثم طلب العلوم الدينية ودرس على أيدي شيوخ بارزين أمثال السبكي والمزي والذهبي وابن سيد الناس. ثم شغل مناصب رسمية عديدة في بلاد الشام ومصر منها العمل في ديوان الإنشاء وفي بيت المال وكتابة السر، ثم انتقل إلى التدريس في الجامع الأموي بدمشق وحلب.

وقد امتدح الذهبي تلميذه الصفدي ناعتاً إياه بالإمام العالم الأديب البليغ الأكمل، "سمع مني وسمعت منه"(٣). وقد ترجم الصفدي لنفسه سيرة ذاتية ذكر فيها أحواله وشيوخه ومصنفاته التي بلغت الخمسين مصنفاً. أما أشهر كتبه فهي: (الوافي

---

(١) عن ابن شاكر الكتبي، انظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، بروكلمان، المرجع السابق، ج٢، ص٤٨. وستنفلد، المرجع السابق، ج٢، ص١٧. دائرة المعارف الإسلامية(٢)، ج٢، ص١٩٧٢. حاجي خليفة، كشف الظنون، رقم ٦٦٢٢. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٥٧ فما بعد.

(٢) عن الصلاح الصفدي يراجع: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة. ابن قاضي شهبة، طبقات. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، ص٩٤-١٠٣. بروكلمان، تاريخ، ج٢، ص٣١-٣٣. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٧٦-٨٠.

(٣) انظر: شاكر مصطفى، المرجع نفسه.

بالوفيات) في ثلاثين مجلداً وهو تكملة لوفيات الأعيان ويعد موسوعة رجال كاملة شملت البارزين في مختلف المشارب والاختصاصات وأعيان كل فن ممن اشتهر ذكره، حتى بلغت التراجم أربعة آلاف ترجمة. وقد كمل ابن تغري بردي كتاب الصفدي هذا حتى القرن التاسع الهجري.

وللصفدي أرجوزة في التاريخ بعنوان (تحفة ذوي الألباب في من حكم دمشق من الخلفاء والأمراء والنواب) وله رسالة أخرى بنفس المعنى والمضمون مرتبة على حروف المعجم. نشرت في دمشق سنة ١٩٥٥م.

* * *

المبحث الثالث

الكتابة التاريخية التي تجمع بين الحوادث والتراجم

لقد ظهرت هذه الفئة من المؤرخين في العصور العباسية الأخيرة وابتداءً من العصر السلجوقي وحتى نهاية عصر المماليك حيث برز دور المدارس (الجامعات) في حفظ المعرفة وتنميتها، وشملت هذه الطريقة (الجمع بين الأحداث والتراجم) أغلب كتب التكملة والذيل كذلك.

ويأتي كتاب المنتظم لابن الجوزي (ت ٥٥٧هـ/١١٦١م) في مقدمة هذا الصنف من المؤلفات التاريخية الذي يعد موسوعة معرفية في كثرة ما أنتجه من مؤلفات في التاريخ والفقه والحديث واللغة والتصوف والطب وغيرها. أما المنتظم فقد ضم في نصفه الأول التاريخ العام وخاصة للعراق وفي نصفه الثاني تراجم الرجال حسب وفياتهم، ففي ختام حوادث كل سنة يذكر وفيات الرجال فيها وخاصة البغداديين منهم. وقد تبعه حفيده سبط ابن الجوزي (ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م) في كتابه (مرآة الزمان) على الطريقة نفسها.

أما ابن تغري بردي[1] (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) فقد عاش في كنف دولة المماليك وكان أبوه حاكماً في بلاد الشام. وقد تتلمذ على المقريزي. جمع ابن تغري بردي تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى سنة (٨٥٧ هـ/١٤٥٣م) بالإضافة إلى تراجم الوفيات لكل عام في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة). كما كتب ابن تغري بردي

---

(١) عن ابن تغري بردي راجع: مقدمة كتاب النجوم الزاهرة، ج١، ص٩ فما بعد. السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٣٠٥-٣٠٨. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٩، ص٣١٧. ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٤٣. بروكلمان، المرجع السابق، ج٢، ص٤١. الملحق ج٢، ص٣٩. حاطوم، المدخل إلى علم التاريخ، ص٣١١. حاجي خليفة، كشف الظنون، رقم ٤٣٠١.

كتاباً أتم فيه كتاب أستاذه المقريزي (السلوك) حتى سنة (٨٦٠هـ/١٤٥٥م) وأتم كذلك كتاب الوافي بالوفيات للصفدي حتى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. وبذلك جمعت كتب ابن تغري بردي بين صفة كتب التاريخ المحلي لمصر والكتب التي تجمع بين الحوادث والتراجم.

والمؤرخون الذين جمعوا بين التاريخ والتراجم كثيرون وسنكتفي في هذا المحور بالكلام في شيء من التفصيل عن المؤرخين التالية أسماؤهم:

ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، ابن الساعي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، وابن الحمصي (ت ٩٣٤هـ/١٥٢٧م).

أما ابن الجوزي[1] فهو أبو الفرج عبدالرحمن بن علي وينتهي نسبه إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولد ببغداد ورعته أمه وعمته بعد وفاة أبيه، وكان أهله تجاراً في النحاس، ولذلك لقب أحياناً بالصفار أما ابن الجوزي فهي نسبة إلى محلة بالبصرة.

وفي طور شبابه اعتنى به خاله المحدث والفقيه واللغوي محمد بن ناصر البغدادي فدرس القرآن والحديث واللغة والأدب وجلس للوعظ في بغداد وهو دون العشرين سنة من عمره وما زال كذلك حتى أصبح إمام بغداد وواعظها الأول.

وابن الجوزي فقيه ومحدث ومؤرخ وداعية من الدعاة إلى الإسلام ومن أشهر الحنابلة في بغداد. تعلق بكتب أبي نعيم الأصفهاني مثل (حلية الأولياء) والخطيب البغدادي وهما ليسا من شيوخه وقرأ لهما عن كثب وأعجب بمؤلفاتهم. وقد رعاه الوزير

(١) عن عبدالرحمن بن الجوزي انظر: تحوي بعض كتب ابن الجوزي معلومات عن سيرته. انظر كذلك: ابن الدبيثي، المختصر المحتاج إليه، ج٢، ص٢٠٥ فما بعد. ذيل تاريخ بغداد، ج٢، ورقة ١٢٢. ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ١٧١. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ص٤٨١ فما بعد. ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص ٦٥-٦٧. ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص ٣٢١ فما بعد. الذهبي، العبر، ج٤، ص ٢٩٧.

العباسي ابن هبيرة وزير الخليفة المستنجد وحثه على الوعظ في مساجد بغداد حتى غدا في عهد الخليفة المقتفي من أشهر الوعاظ والدعاة الذين تمتعوا بنفوذ ديني وسياسي، كما نشط في نشر المذهب الحنبلي.

أما نشاطه في التأليف فكان متنوعاً فله مؤلفات في الحديث والفقه واللغة والأصول والتصوف والطب والوعظ والتأريخ، ولعل الذي يهمنا هو كتاب (المنتظم في تواريخ الملوك والأمم) [1]، وهو في التاريخ والتراجم وتظهر فيه ميوله العراقية البغدادية حيث يركز على تاريخ بغداد ويذكر في ختام حوادث كل سنة وفيات الرجال فيها وأغلبهم بغداديون. وقد طبع من هذا الكتاب النصف الثاني الذي يتناول التاريخ العباسي حتى عصر المؤلف. كما أصدر عبدالحميد العلوجي[2] كتاباً عن مؤلفات ابن الجوزي المطبوعة والمخطوطة، ويبدو أن مجموع ما استطاع العثور عليه أربعمائة واثنين بين كتاب ورسالة.

ولابن الجوزي كتاب مهم آخر في التاريخ عنوانه (تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير[3]) بدأ به مع بداية الخليقة وذكر الأنبياء ثم وصل إلى الرسول محمد ﷺ وتكلم عن مولده ونشأته وسيرته ثم ذكر صحابته وفضائلهم والخلفاء الراشدين وذكر الصحابيات وفضلهن وأعلام المحدثين والفقهاء والمفسرين الأوائل الذين حفظوا العلوم النقلية والتواريخ. فجاء كتابه شاملاً للعلوم والتاريخ والسير والمناقب وكان هدفه من ذلك كله حفظها للأجيال القادمة لتستفيد منها في العبادات والمعاملات.

واهتم بالسند (سلسلة الرواة) وأخذ الموثوق من الروايات، واستفاد من بعض المصادر التي سبقت عصره أو عاصرته. ونشر هذا الكتاب في بيروت في طبعته الأولى ١٩٩٧م. وحين توفي ابن الجوزي في بغداد اجتمع أهل بغداد وأغلقت الأسواق وشيعه الناس إلى مقبرة أحمد بن حنبل حيث دفن هناك.

---

(١) كتاب المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، حيدر أباد الدكن، ١٣٥٩هـ. كذلك بيروت ١٩٩٤م.

(٢) عبدالحميد العلوجي، مؤلفات ابن الجوزي، بغداد، ١٩٦٥م. راجع كذلك ناجية عبدالله، ابن الجوزي وكتابه المصباح المضيء، عمان، ٢٠٠٢م.

(٣) ابن الجوزي، تلقيح مفهوم أهل الأثر، بيروت، ١٩٩٧م.

أما ابن الساعي[1] فهو أبو طالب علي بن أنجب بن الساعي، ولد ببغداد في العراق من أسرة فقيرة، وأقبل منذ صغره على الدراسة فتلقى علومه من أساتذة مرموقين. عمل ابن الساعي خازناً للكتب من المدرستين النظامية والمستنصرية، كما كان مقرباً لبعض الخلفاء مثل المستنصر بالله العباسي وحضر مجالس الخليفة المستعصم بالله، وكان له علاقة ودية مع بعض الأمراء المتنفذين في الدولة العباسية.

وقد مكنه عمله في المكتبات وقربه من رجالات الدولة من الاطلاع على مختلف أنواع الكتب والوثائق والسجلات التي لا يمكن أن يطلع عليها المؤرخون العاديون. هذا بالإضافة إلى أنه أخذ العلم من علماء العراق وبلاد الشام وحصل على إجازاتهم في علوم الحديث والفقه ثم أقبل على علم القراءات ثم على علم التاريخ حيث درس التاريخ على أبي الحسن القطيعي وأبي عبدالله بن الدبيثي (ت ٦٣٧هـ)، على أنه المؤرخ ابن النجار (ت ٦٤٣هـ) كان الأكثر تأثيراً في فكر ابن الساعي وثقافته، فقد رافقه حتى وفاته وقرأ عليه تاريخه الكبير لمدينة بغداد وأوصى له ببعض ماله.

وقد تأثر ابن الساعي بالطرق الصوفية التي ازدهرت في عصره مثل الطريقة القادرية (الجيلانية) وظهر هذا التأثير في عدد من كتبه حيث ألف في (أخبار الزهاد) وفي (أخبار الربط والمدارس) كما ضم كتابه (الجامع المختصر) تراجم العديد من المتصوفة ومكان إقامتهم في الربط.

توفي ابن الساعي في بغداد وكان قد نظم في أواخر أيامه أبياتاً يصف فيها حالته بعد أن تعدى الثمانين من عمره فقال:

ترعش الأعضاء مني فأنا	في صعودي ونزولي في حذر
وإذا استنجدت عزمي قال لي	عندما أدعوه : كلا لا وزر

---

(١) عن ابن الساعي راجع: شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص٣٠٥. محمد القدحات، المؤرخ ابن الساعي، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٢م. شاكر مصطفى، ج٤، ص ٣٠٥.

وقد وقفت كافة كتبه على خزانة كتب المدرسة النظامية سائراً على نهج علماء عصره والعلماء الذين سبقوه. ولعل أهم كتبه هو الكتاب الموسوم (الجامع المختصر في عنوان التواريخ عيون السير) ويرى محمد عبدالله القدحات[1] بأن هذا الكتاب هو جزء من كتاب أكبر يسمى تاريخ ابن الساعي حيث سار فيه على منهج الجمع بين الحوادث على السنين ووفيات كل سنة. كما يمتاز بأنه ابتدأ أحداثه من العصر العباسي وليس قبل ذلك كما كانت العادة الجارية. لقد وصلنا من تاريخ ابن الساعي (الجامع المختصر) قسم من الجزء التاسع منه ويشمل حوادث السنوات ٥٩٥-٦٠٦هـ ونشر ببغداد.

وقد ألف ابن الساعي كتباً أخرى في التاريخ والتراجم والسير والأدب والخطط والتفسير والحديث والفقه وغيرها.

ويأتي الذهبي[2] شمس الدين محمد بن أمد التركماني الأصل الدمشقي المولد والوفاة، وهو مؤرخ ومحدث شافعي المذهب. كانت دراساته الأولى في الحديث والشريعة حيث درس على شيوخ بارزين في دمشق مثل ابن عساكر. ثم تابع دراسته لعلوم الدين في القاهرة حيث ساعده وضعه المادي على البقاء هناك مدة طويلة، وقد جمع الذهبي سير أساتذته وشيوخه في كتابه سماه (المعجم) حيث بلغ عدد من أخذ عنهم ثلاثمائة شيخ بينهم امرأة هي زينب بنت عمر الكندي. وكان له اتصال بابن تيمية (ت ٧٢٨ه) والمزي والبرزالي.

وبعد أن حصل الذهبي على الإجازة للتدريس، أصبح شيخاً لتدريس الحديث في مدرسة أم الملك الصالح بدمشق. وقد اهتم طوال حياته العلمية بموضوعات ثلاث هي: الحديث، الفقه، التاريخ، وعرف بمقدرته الكبيرة على التتبع حتى بعد أن أصابه

---

(١) محمد عبدالله القدحات، المؤرخ أبو طالب علي بن أنجب بن الساعي، حياته وآثاره، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، مجلد ٢٩، ٢٠٠٢م، ص ٤٤٠ فمابعد.

(٢) عن شمس الدين الذهبي انظر: مصادر الترجمة في بروكلمان، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٦-٤٨. ملحق ج٢، ص٤٥-٤٧. روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين (بالإنجليزية) ص ٣٠. كذلك شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٤، ص ٥٢. (ص) .al-Dhahabi (٢) .I.، جب، دراسات، ص ١٦٦.

العمى في آخر سنوات حياته. وتنوعت الموضوعات التي كتب فيها وحصل على ألقاب عديدة منها: محدث العصر، خاتم الحفاظ، ومدحه معاصروه بقصائد مثل ابن حجر العسقلاني والكتبي.

وله تلاميذ كثيرون لعل من أبرزهم العسقلاني والسبكي.

وحين يتكلم عنه شاكر مصطفى يقول: "إذا وصلنا إلى الذهبي نكون قد وصلنا إلى أعظم المؤرخين في تاريخ الإسلام وأغزرهم علماً وأكثرهم تأليفاً وهو يشكل القمة الشامية المقابلة للقمة المصرية التي شغلها المقريزي".

اتسمت البيئة التي عاش فيها الذهبي بالاضطراب والقلق فقد صارعت دولة المماليك الصليبيين الفرنجة من جهة والمغول من جهة أخرى وانتصرت عليهما. أما في الداخل فقد كان الصراع محتدماً كذلك بين العقائد من حنابلة وشافعية وأشاعرة ومتصوفة.

اهتم الذهبي بالتأليف في التاريخ وقد اشتهر كتابه (تاريخ الإسلام) الذي نشر مع كتابه (طبقات المشاهير والأعلام). وهو تاريخ مفصل للإسلام يبدأ بالرسول ص وينتهي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م. وفيه يحذو حذو المنتظم لابن الجوزي ويحتوي على الأخبار والحوادث يتبعها تراجم الأشخاص. والكتاب ينقسم إلى طبقات كل طبقة عشر سنين ولذلك فهو سبعون طبقة. يعتمد الذهبي في القرون الثلاثة الأولى على تاريخ الطبري مختصراً الأخبار، أما في القرن الرابع الهجري وما بعده ففيه معلومات وأحداث لم يشر إليها تاريخ ابن الأثير عن السلاجقة والأيوبيين والمغول، وكذلك الحركات الدينية السياسية داخل المجتمع الإسلامي مثل الباطنية والإسماعيلية. ولا بد من القول بأن معلوماته عن تاريخ مصر وبلاد الشام وتراجم شخصياتهما أكثر من الأقاليم الأخرى، ولها أهمية كبيرة لغناها. ويتكون الكتاب من واحد وعشرين مجلداً. أما كتابه الثاني فهو (سير أعلام النبلاء) في أربعة عشر مجلداً. وهذا الكتاب هو أول كتاب عام في التراجم وأن تقدمه في الأعيان فقط ابن خلكان. وقد ذكر فيه وفيات الكبار والمتميزين

من الخلفاء والقراء والفقهاء والمحدثين والعلماء والسلاطين والوزراء والشعراء مع طبقاتهم وأخبارهم من غير تطويل.

ويرى شاكر مصطفى[1]: "أن التاريخ شكل أكثر من نصف إنتاج الذهبي ما بين مؤلف أو مختصر أو منتقى أو معجم شيوخ أو سيرة... ويعد الذهبي من أكبر جامعي المعلومات في تاريخ الإسلام شأنه شأن السيوطي من بعده والخطيب البغدادي وابن عساكر من قبله. كما وأنه من أكبر النقاد في الجرح والتعديل فكان والحالة هذه مدرسة قائمة بذاتها"، هذا عدا ما اختصره أو ذيل عليه من الكتب.

وقد أخذ على الذهبي في بعض تراجمه للرجال أنه كان يزن الناس بميزان آرائه ومعتقده كما قال ذلك عنه تلميذه السبكي. فقد كان شافعي الفروع حنبلي المعتقد وربما قسى على بعض مخالفيه في المذهب. ومصادر الذهبي عديدة ومتنوعة مبثوثة في كتبه تبدأ من الأوائل أمثال الواقدي وخليفة بن خياط وتنتهي بالمعاصرين له أو الذين سبقوه بقليل.

ولسنا هنا بصدد ذكر جميع مؤلفاته في التاريخ أو علم الرجال أو غيرهما إلا أننا نشير بأن الذهبي دخل التاريخ من أوسع أبوابه وكان له من المؤلفات العديدة ما يتصف بالأصالة حيث اعتمد عليها المؤرخون والعلماء الذين جاءوا بعده.

❖ أما السيوطي[2] فهو جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، مؤرخ مصري من أشهر المؤرخين الجماعين، يعود في أصله إلى الخضرية وهي إحدى أحياء بغداد بالعراق. في الفترة المملوكية استقرت عائلته في أسيوط بمصر، وكان لأفرادها مسؤوليات دينية وإدارية، فحين ولد جلال الدين كان أبوه أستاذاً للشريعة ونائباً للقاضي في القاهرة، وحين شب درس علوم الشريعة واللغة العربية، وكان من شيوخه ابن حجر العسقلاني ومحي الدين الكافيجي.

---

(١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٤، ص ٥٢.

(٢) عن جلال الدين السيوطي؛ انظر: مقدمة المحقق لكتاب "تاريخ الخلفاء"،سوريا،١٩٩١م، ص ٢٣ فما بعد. (Suyuti) (ص).(٢).I)

وفي سن مبكر أصبح مدرساً للفقه الشافعي والحديث وجلس للإفتاء في مجلس ابن طولون بالقاهرة.

كان السيوطي دؤوباً كثير التأليف في العلوم الدينية وفي التاريخ، وفي الأدب والشعر، وكان معتزاً بنفسه وبقابلياته فخوراً بعلمه الغزير، وقد حسده العديد من معاصريه وأدى ذلك إلى مناقشات ومساجلات كانت حادة أحياناً مع علماء عصره داخل مصر وخارجها، وقد تعرض السيوطي إلى هجوم قاس من المؤرخ السخاوي. ولذلك قرر السيوطي وكان لا يزال في الأربعين سنة من عمره اعتزال الحياة العامة وعدم الاختلاط سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م، وعزا ذلك إلى أمور عديدة منها: حسد زملائه له، الفساد المستشري في محيط العلماء في زمانه، الانحطاط في نظام الصوفية وطرقها مما أدى إلى اصطدامه بهم أيضاً، كما اختلف مع أهل الكلام والمنطق. وأكثر من ذلك فلم تكن علاقته جيدة بالسلطنة المملوكية في مصر حيث اصطدم بالسلطان (قائد بيك)، وتعود جذور ذلك إلى أنه لم يعترف بسلطة المماليك وشرعية حكمهم في مصر متخذاً من الفقيه العز بن عبدالسلام مثالاً له، ذلك أن المماليك هم في الأصل أرقاء ولا يصلحون للإمارة وإن الخلفاء العباسيين فقط هم الذين يمثلون الشرعية.

أما مؤلفاته في التاريخ فعديدة حيث كتب في (تاريخ الخلفاء) وهو تاريخ عام جمع فيه التاريخ مع التراجم، ويتضح من تسميته أنه لم يؤرخ فيه إلا لمن اعتبرهم من الخلفاء الشرعيين والمستحقين للحكم، وفرق بينهم وبين الباغين والخارجين على السلطان مهما بلغت الكيانات السياسية التي أسسوها من الرفعة والعظمة، ولذلك لا نراه يؤرخ للفاطميين في مصر حيث لم يعدهم من النسب الفاطمي بل سماهم (العبيديين). والمعروف أن هناك مشادة بين المؤرخين حول نسب الفاطميين فمنهم من يؤيد نسبهم ومنهم من يشكك فيه، وكان السيوطي واحداً من المجموعة الثانية.

أما محتويات الكتاب فيبدأ بالرسول ص. ويناقش مسألة الأئمة من قريش. ثم يتكلم عن الخلفاء الراشدين الواحد بعد الآخر ثم الحسن بن علي ومن بعده الخلفاء الأمويين

والخلفاء العباسيين في بغداد ثم الخلفاء العباسيين في القاهرة. وقد ذكر السيوطي في سبب تأليفه الكتاب أموراً منها: أن الإحاطة بتراجم أعيان هذه الأمة مطلوبة وقد جمع تواريخ هذه الأعيان مختلطين ثم أراد أن يفرد كل طائفة في كتاب فأفرد في هذا الكتاب تاريخ الخلفاء.

أما النموذج الأخير في هذا النمط وهو نمط الجمع بين التاريخ والتراجم فهو المؤرخ ابن الحمصي[1]. وكتابه (حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران).

يشير عمر تدمري إلى أهمية كتاب شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر بن الحمصي فيقول بأنه من المؤرخين القلائل الذين أرخوا لأواخر دولة المماليك ولبداية الدولة العثمانية في مصر وبلاد الشام.

والمعروف أن مصر وبلاد الشام شهدت ازدهاراً نسبياً في التدوين التاريخي في عصر المماليك منذ بداياته وحتى قبيل نهايته، وقد رعى سلاطين المماليك وكبار رجال الدولة المؤرخين، ولكن المؤرخين ندروا في أواخر عصر المماليك وبداية العصر العثماني في مصر وبلاد الشام. إلا أن عمر تدمري نجح في الحصول على مخطوطة حوادث الزمان لابن الحمصي في إستانبول بتركيا، وحققها ونشرها فسدت فراغاً ملحوظاً في تاريخ تلك الفترة، خاصة وأنه انفرد بأخبار لم يذكرها ابن إياس (ت ٩٣٠هـ) في كتابه بدائع الزهور ووقائع الدهور ولم يذكرها كذلك ابن طولون (ت ٩٥٣هـ) في كتابه مفاكهة الخلان في حوادث الزمان عن أواخر العصر المملوكي ومطالع العصر العثماني.

أما عن سيرة ابن الحمصي فلا تزودنا كتب التراجم بالكثير من الأخبار، ولكن ابن الحمصي نفسه يعطينا معلومات عن نفسه في كتابه (حوادث الزمان)، فهو ينحدر من الأنصار حيث أن جده الأعلى هو الصحابي عبدالله بن زيد. أما والده محمد بن عمر

---

(١) عن ابن الحمصي انظر: عمر عبدالسلام تدمري، المؤرخ ابن الحمصي(ت ٩٣٤ه)، في بحوث مهداة إلى سيد مقبول أحمد، جامعة آل البيت،١٩٩١م.

الأنصاري فكان رئيس المؤذنين بالجامع الأموي بدمشق، وأصله من حمص ولكنه أقام بدمشق.

ولد أحمد بن محمد ابن الحمصي في دمشق وتلقى علومه هناك وتنوعت معارفه في العلوم الدينية واللغة والأدب والنحو واعتنى بالتاريخ. كما تقلب في الوظائف في دمشق والقاهرة فتولى قضاء الشافعية في المدينتين وتولى الخطابة بجامع قلعة الجبل بالقاهرة والخطابة والإمامة ورئاسة المؤذنين بالجامع الأموي بدمشق، وقضاء ركب الحج.

أما كتبه فكثيرة، والذي يهمنا منها هي المؤلفات التاريخية: وأولها (التاريخ الكبير) وهو لا يزال مفقوداً وقد أشار إليه ابن الحمصي في مواضع عديدة من كتابه (حوادث الزمان)، ونعرف أنه وصل إلى حوادث سنة ٩٠٥هـ على الأقل، وثانيها كتابه حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، وهو مختصر لكتابه الأول، ويتألف من ثلاثة أجزاء يتناول الأول منه حوادث ووفيات من ٨٥١هـ هوالثاني من ٩٠١هـ هوالثالث حتى آخر سنة ٩٣٠هـ.

أما عن منهجية ابن الحمصي وأهمية كتابه (حوادث الزمان) فقد أسهب عمر بن عبدالسلام تدمري[١] في شرح ذلك واعتمدنا عليه في إعطاء فكرة عن الموضوع حيث قال: "يكتسب (حوادث الزمان) أهمية فائقة لكون صاحبه عاصر كل الفترة التاريخية التي دونها، فكان شاهداً حياً، ومشاركاً في كثير من أحداثها ووقائعها، مشاهداً لمعظمها، ومتتبعاً للأخبار بوسائله الخاصة"، وقد أكد في مقدمته على ذلك بقوله: "هذا تعليق مفيد، جامع فريد، جمعت فيه ما يسره الله لي من حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، منذ مولدي في سنة إحدى وأربعين وثماني ماية، وهلم جراً، مفصلاً في كل سنة على ما وقع لي وحررته، وشاهدته، واعتمدته".

ويزاحم "ابن الحمصي" نظيريه "ابن إياس" و"ابن طولون"، بل يقف عملاقاً

---

(١) عمر عبدالسلام تدمري، المؤرخ ابن الحمصي، في كتاب مهداة إلى سيد مقبول أحمد، جامعة آل البيت، ١٩٩٩م، ص ٣١٥ فما بعد.

بينهما، متميزاً عنهما بأنه انتقل من دمشق إلى القاهرة، وأقام فيها أكثر من عشر سنين، فأرخ لأحداثها شبه اليومية، وكان واحداً من أعيان المترددين على مجلس السلطان بقلعة القاهرة، وعاد إلى دمشق وهو يواصل التأريخ، في حين أن "ابن إياس" بقي في مصر ولم يسافر إلى بلاد الشام، ولهذا جاء كتابه - على أهميته - يكاد يكون خاصاً بتاريخ مصر، ولم يستحوذ تاريخ بلاد الشام إلا على النزر اليسير في كتابه.

وكذلك هو الحال عند "ابن طولون" فهو لم يسافر إلى مصر ليدون أخبارها عن كثب، ولهذا جاء كتابه خاصاً - إلى حد بعيد - بتاريخ دمشق وأعمالها.

يضاف إلى هذا وذاك أهمية ثالثة، هي أن "ابن الحمصي" أرخ لبلاد الشام ومصر بقدر متوازن تقريباً، وبحيادية، فضلاً عن أن الموجود من تاريخ "ابن طولون" (مفاكهة الخلان) يقف عند حوادث سنة ٩٢٦هـ. كما ينتهي تاريخ "ابن إياس" (بدائع الزهور) عند آخر سنة ٩٢٨م. بينما يزيد تاريخ ابن الحمصي عليهما، إذ يؤرخ حتى نهاية عام ٩٣٠هـ/١٥٢٣م.

ومن منهجية "ابن الحمصي" أنه استهل عدة سنوات بأسماء حكام البلاد، من الخليفة، والسلطان، والنواب، والقضاة، والأمراء، وغيرهم في الديار المصرية والشامية، وفي الحجاز، والمغرب، وبلاد الروم، وذلك اعتباراً من سنة ٨٥٧هـ. وتكاد السنوات من ٨٥١هـ إلى آخر ٨٨١هـ تخلو من الحوادث، وهي في أغلبيتها تراجم للوفيات مرتبة على الشهور، وهو ينبه المطالع لكتابه أن "كل شهر لا أطلع فيه على موت أحد من أعيان العصر أتركه بلا كتابه، فليعلم ذلك". وإذا ذكر أحد المتوفين بدأ بذكر يوم وفاته، ثم ذكر اسمه ونسبه مطولاً أو مختصراً حسب معرفته بذلك، وذكر صفاته إن كان عالماً، محدثاً، أو مفسراً، أو فقيهاً، أو أديباً، أو مقرئاً، أو طبيبا، أو صوفياً، أو غير ذلك، ويذكر مذهبه، ثم تاريخ مولده، واشتغاله بالعلم، ويذكر بعض شيوخه، وبعض مؤلفاته إن كان مؤلفاً، ثم يذكر وظائفه ومناصبه إن كان من أهل ذلك، ثم يصف جنازته، ومن صلى عليه، ومكان دفنه، ويختم الترجمة بالترحم على صاحبها. يذكر ذلك كله بأسلوب سهل

بسيط من غير تطويل ممل، ولا إيجاز مبتور.

ومما ينوه به قلة إثباته للأشعار، فجاء الكتاب خلواً منها إلا في بعض المواضع القليلة جداً.

وتعدّ ترجمة "برهان الدين البقاعي" سنة ٨٨٥هـ. أطول تراجمه قياساً لبقية التراجم، وهي لا تزيد على الصفحتين. وفي الكتاب تراجم كثيرة لغير الأعيان والأقران، من نساء، وأناس مغمورين ومجاهيل، وهذا يزيد معارفنا بثروة متنوعة من التراجم.

واعتباراً من سنة ٨٨٢هـ. يبدأ بتسجيل الحوادث والوفيات تباعاً، فيذكر كل ما يقف عليه من أخبار السلاطين والخلفاء والنواب والأمراء والقضاة والمدرسين، وأصحاب الوظائف والرتب، والقادة والأئمة، وما يتعلق بالحروب، والفتن، والمظالم، وأيام الشدة والرخاء، والغلاء والرخص، وتعيينات النواب، وأصحاب المناصب والمقدمين، ورسوم تعيينهم، وخلعهم، مع طرائف الأخبار والغرائب، والظواهر الطبيعية، والنكبات، من سيول جارفة، وصقيع وزلازل، وحرائق، وطواعين وأوبئة، ورياح عاتية، وفيضانات أنهار، وتهدم أسواق، وانتشار الجراد، ووفاء النيل، وإثبات الأهلة في الأعياد والمواسم، والتخريب، والإعمار، وأخبار قافلة الحج وما يقع لهم كل سنة.

ولما كان "ابن الحمصي" مقرباً من السلطان "قانصوه الغوري" الذي كان يفضله ويقدمه على غيره من الخطباء، فقد أظهر تعاطفه معه بحكم العلاقة الشخصية، كما أظهر حسه و"قوميته العربية" عندما كتب يقول إن نزول السلطان العثماني "سليم" على مدينة قيسارية = قيصرية، وقيامه بتوجيه مراكب عدة للقتال في البحر دون الإعلان عن الهدف، لم يكن إلا مناورة الغرض منها الاستيلاء على "مملكة العرب"، وأخذها من أيدي الجراكسة.

ويحفل "حوادث الزمان" بأخبار تفرد "ابن الحمصي" بتدوينها، ولا يمكن استقصاؤها كلها في هذه الدراسة، وإنما نكتفي بأمثلة منها، ومن ذلك أخبار

"شهاب الدين النابلسي" ووالده "برهان الدين" وظلمه ومصادرته للناس، وأخذ أموالهم بدمشق في سنة ٨٨٢ه. وفي أثنائها عرض "ابن الحمصي" لظلمه في سنة ٨٨١هـ. ثم في السنة التي قبلها ٨٨٠هووصف كيفية اعتقاله وإهانته "وصار في هيئة زرية، يحمل على رأس حمال في قفص، بطاقية كشغر، وجوخه على جلده، وشعر على رأسه طويل". وكان حفدته وجماعته وأعوانه أوقعوا الضرب في الناس "وكان نهاراً مهولاً لم يسمع بمثله إلا ما اتفق من الغريب"، وأبطل الناس صلاة الجمعة مرتين في الجامع الأموي بسبب إمساك البرهان النابلسي لقاضي قضاة المالكية، وناظر الجيش، وإمساكه لقاضي القضاة الشافعية "الخيضري". ويصف "ابن الحمصي" تلك الأحداث مفصلة، وبأسلوب سهل دون تكلف، وكتب على سجيته: "فعند ذلك وقع الخوف في قلوب الناس منه، فهم في صلاة الجمعة والخطيب يخطب، وشخص من الرسل يرسم على شخص فلاح، فغافله وهرب منه، فتبعه وجرى خلفه، فصرخ وصرح الناس معه، فقال الناس: برهان الدين النابلسي أتى إلى الجامع المذكور ليمسك الحاجب النجمي، ويمسك القضاة، فتوهموا القضاة أن الأمر كذلك، فهرعوا، وكثر العياط، فبطلوا الخطبة والصلاة، وهرب الناس، وأقيم العياط والصراخ. فعند ذلك حررت الحكاية، فوجدت بسبب الرسول فضربه الناس إلى أن عاين الموت، ثم أعيدت الخطبة، وصلى الناس الجمعة.. وكان نهاراً مهولاً، وأنا شاهدته وما وقع قبله. فكانت هذه الأمور من فتح أبواب الشر عليهم نعوذ بالله من شرور الفساد وسيئات أعمالنا، وبالله سبحانه المستعان". ويتابع "ابن الحمصي" أخبار "النابلسي" بأنه قبض عليه في مصر وصودرت أمواله، وضرب وسلخت رأسه. وأن ابنه شهاب الدين حبس بدمشق ومات من الضرب والعصر والإهانة. "وغالب الناس لم تصدق بموته، وقالوا: يتغارش إلى أن يهرب من القبر". !!

ومن مشاهداته: حريق الجامع الأموي سنة ٨٨٤هـ. فوصف الحادث بتفصيلات دقيقة، وتتبع بعد ذلك كل مراحل إعادة بنائه وترميمه، وذكر أسماء المهندسين والصناع والمعلمين والعمال، والمبالغ التي أنفقت على إعماره وتأهيله، واستغرق ذلك

عدة صفحات من الكتاب، "وكنت حاضراً لغالب هذه الأمور، أنقل البسط أنا ورفاقي على صحن الجامع، وأنحي الناس على حملهم من داخل الجامع إلى الصحن، وأمرت بفك المنبر لما قربت منه النار، وحمل المصحف العثماني والربعات والصريج الذي للوقف، وكنا قد عملنا حصراً جدداً رقاعاً لم ير مثلها... وكان عند الناس عزاء عظيم وبكاء، حتى الذمة صارت تنظره وتبكي. وجاءت الناس من القرى والبلدان، فشرعوا عند رؤيته يبكوا... واعلم أني اختصرت ما وقع كراهية الإملال والتطويل". "وأمر الناس بشيل التراب المحروق من الجامع في الخراب، فاجتمع فيه خلق وقضاة وعلماء وصلحا وغيرهم لا يعلم عدتهم إلا الله، فشالوا تراب الرواق المحترق في يوم، وشالوا تراب الثلاث جمالين الشرقية، وتراب مشهد المؤذنين في يوم، وشالوا تراب الثلاث جمالين الغربية في يوم. وكان في هذه الثلاث أيام خلق لا تعد ولا تحصى، حتى النساء والصبيان والعبيد، كل منهم نقل على حسب حاله، ولم ير مثل هذا العمل وسرعته، فإنه على خلاف القياس. وشاهدت قضاة وعلماء وأشراف يعبوا التراب على الدواب ويروحوا يكبوه في الخراب. وكان هذا التراب ـ والله أعلم ـ ما ينقل في سنة من كثرته، ولكن همة العلماء والصالحين ساعدت. وبقي في الجامع تهليل وتكبير، وكانت ساعة عظيمة".

وهذا الحريق ذكره "البصروي" في أقل من تسعة أسطر، واكتفى "السخاوي" بالإشارة إليه فقط بقوله: "وكان الحريق في الجامع الأموي"، ولم يضف إلى ذلك شيئاً ! كما ذكر نحوه كل من "عبدالباسط بن خليل الظاهري"، و"البطريرك إسطفان الدويهي". فيما كتب "ابن سباط" ستة أسطر عنه. أما "ابن طولون" فوقع خرم في مخطوطته ضاعت معه حوادث سنة ٨٨٤هـ. التي كان فيها الحريق، ولكننا نرى عنه إشارات عدة في سنوات لاحقة من كتابه. وبهذا يكون "ابن الحمصي" قد قدم لنا أوسع الأخبار وأدقها عن هذه الحادثة الهائلة، ولم ينفرد "البصروي" بنشر خبرها، وبالتالي لم يكن خبر الحريق مجهولاً كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين.

وفي أخبار شهر شعبان من سنة ٨٨٥هـ، قال "ابن الحمصي": "وفي يوم الجمعة

ثانية، وقع برد عظيم لم رأيت في زمني أكبر منه، مقدار البردة قدر بيضة، وكان ساعة مهولة عظيمة، وكان ذلك في سادس تشرين الأول".

وذكر خبر السيل العظيم بمكة المكرمة في أواخر سنة ٨٨٧هـ. وما أوقع من قتلى، وما أحدث من خراب، على ما أخبره بذلك قاضي القضاة محب الدين الحنفي.

وذكر حريق سوق السلطان الجديد بدمشق، الذي ذهب فيه مسجد البوق، وسوق مسجد القصب وما يليه، وبعض جامع منجك، وسويقة القاضي، وما يليها، وخان السلطان الجديد، وخان ابن الصابوني وما يليه، وحمام الحموي، ومسجد الحموي، وقاعات، وربوعة، ودكاكين، وطباق..." ولم يقع نظير هذا الحريق في زمننا".

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٨٩٧هـ عاد المؤلف من الحج ووصفه بأنه : "كان رخاءً كثيراً ذهاباً وإياباً، أبيع الدقيق، كل مد بدرهم، والشعير الكيل بثلاثة دراهم، ورأيت مدرستين عمرهما السلطان الملك الأشرف قايتباي الأولى ملاصقة للحرم النبوي، والثانية ملاصقة للحرم المكي، وهما من الغرايب في الحسن".

وعن الطاعون الذي انتشر في دمشق مع حلول شهر الصوم وفي شدة الحر صيف سنة ٨٩٧هـ. قال: "ولقد أخبرني بعض الحشرية أن عدة ما خرج من دمشق من البنات الأبكار في مدة شهرين ونصف أحد وعشرون ألف بكر وأربع ماية وثلاثة عشر بكراً". وقد مات ابن المؤلف في هذا الطاعون.

وفي ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٩٩هـ. استخدم سلطته كقاض ومنع أحد المحدثين ويدعى "زين الدين الصغوري" من القراءة والتدريس في الجامع الأموي ومن غيره، "وأمرت بشيل كرسيه من الجامع الأموي. وسببه أنه جمع كتاباً سماه نزهة المجالس وذكر فيه أحاديث موضوعة على النبي ص، ثم أحضر الكتاب المذكور، وذكر أنه تاب ورجع عن الأحاديث الموضوعة التي فيه، وأنه لا يعود لذلك، والله يعلم المفسد من المصلح".

وانفرد "ابن الحمصي" بخبر إمساك الشيخ "مبارك القابوني" الذي كان يكسر الخمارات بدمشق، في حوادث شهر رمضان سنة ٨٩٩هـ. وما أعقب ذلك من فتنة، بحيث ركب نائب الشام بعساكره ومماليكه على الفقراء وعوام الناس، فهربوا واحتموا بالجامع الأموي، فدخل إليهم المماليك وضربوا فيهم بالسيف، وغلقت أسواق دمشق، وذهبوا إلى القابون فنهبوه وقتلوا من وجدوه، "وقد شاهدت القتلى كالغنم بمدرسة الأمينية على باب الجامع الأموي، وضبطت القتلى فزادوا على المائة، فانظر يا أخي هذه المصيبة العظيمة التي لم يقع لها نظير، فلا حول ولا قوة إلا بالله".

وفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة سنة ٨٩٩هـ. كشف حائط في طرف قبة القلندرية بجبانة باب الصغير، وإلى جانب الحائط خلاء للنجاسة، فوجد تحته ضريح الحافظ المؤرخ أبي القاسم بن عساكر، وإلى جانبه ضريح مستطيل مكتوب عليه بالكوفي كتابة عظيمة: "هذا قبر السيدة فاطمة بنت أحمد ابن الحسين بن علي بن أبي طالب. "فوقف عليهما نايب الشام قانصوه اليحياوي، ووقفت عليهما وشاهدت الكتابة، وأمرت بهدم الخلاوين وإزالة النجاسة عنهما، وهذان الخلاءن (كذا) جددهما شخص من الظلمة يسمى جاني بك الحاجب بدمشق قديماً. فانظر لهذه المصيبة العظيمة. فلا حول ولا قوة إلا بالله".

ويقول تدمري: لقد جمع ابن الحمصي مادته ودونها بشكل متساوق، وعرض أخباره بعفوية مطلقة كما هي، دون إبداء رأي مسبق، وفي هذه المنهجية كثير من الحيادية وهو يؤكد بذلك مصداقيته، ورأيه في أن التأريخ علم إخباري عن الأمم السالفة، علينا أن نتحلى بما يزينه، ونتخلى ـ حاضراً ومستقبلاً ـ عما يشينه: "فعلم التاريخ جليل المقدار، عظيم الأخطار، أنواره على ممر الدهور لا تطفى، وفوايده الكثيرة على ذوي البصاير لا تخفى. وقد نطق الكتاب الوزير بجمل من أخبار الأمم الماضية، ونبذ من أنباء القرون الخالية. وحدث النبي ص بكثير من قصص الأيام، ومما جرى من الوقايع في زمن الجاهلية، ولا ريب أن الاعتناء بعلم الأخبار، لم يزل من لدن الصحابة الأبرار، ومن بعدهم من التابعين الأخيار، وتابعيهم من الأئمة على ممر الأعصار، ولو لم يكن في

معرفة التاريخ إلا التحلي بما يزين، والتخلي مما يشين، لكان في ذلك للطالب كفاية، وللمسترشد هداية"[1].

وقد اعتمد على ابن الحمصي العديد من المؤرخين الذين عاصروه أو جاءوا بعده، ويعد ابن طولون في كتابه (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان) من أوائل المؤرخين الذين اعتمدوا عليه، واعتمد عليه كذلك كل من ابن الحنبلي في كتابه عن (تاريخ أعيان حلب) والغزي في كتابه (الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة).

* * *

(١) من أجل التفاصيل راجع المرجع السابق.

المبحث الرابع

تأريخ ((علم التاريخ))

وقد غدا "علم التاريخ" نفسه في هذه الفترة موضوعاً للكتابة حوله، والبحث في محاوره وأهميته وأساليب الكتابة فيه. وألف مجموعة من العلماء كتباً في ذلك، فبعد أن كتب الصفدي (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) في الوافي بالوفيات شيئاً عن التاريخ أثناء تقديم كتابه آنف الذكر، وكتب ابن خلدون (ت ٨٠٨ه/١٤٠٥م) في مقدمته عن أهمية التاريخ وحقيقته، عالج مؤرخون آخرون علم التاريخ في رسائل وكتب مستقلة، فقد ألف محمد الكافيجي (ت ٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤م) كتابه (المختصر في علم التاريخ) وأعقبه عبدالرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) بكتابه (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) الذي يتميز بنظرته الشمولية لعلم التاريخ الإسلامي ثم أعقبه السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) بكتابه (الشماريخ في علم التواريخ). وتخصص العديد من الكتب الأخرى فصولاً أو مباحث أو مقدمات أو ملاحظات عن التاريخ، وقد أشرنا إلى بعضها في مقدمة هذا الكتاب عند الكلام عن ماهية التاريخ وأهميته وأشرنا إلى البعض الآخر من ثنايا الكتاب.

يعد ما كتبه ابن خلدون في التاريخ وخاصة مقدمة كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) أهم ما يميز هذه المرحلة في الكتابة التاريخية. أراد ابن خلدون أن يدرس كل دولة منذ بدايتها حتى سقوطها على حدا، وبذلك خالف مؤلفي كتب التاريخ العام الحولي الذين ساروا على السنين. لقد كانت نية ابن خلدون كتابة تاريخ المغرب الإسلامي فقط، إلا أنه حين

زار المشرق قرر الكتابة عنه أيضاً. واعتبر بعض الباحثين[1] أن ما كتبه ابن خلدون عن البربر في المجلدين السادس والسابع من الكتاب الثالث من أحسن وأدق ما كتب عنهم. وقد استخدم ابن خلدون ما أشار إليه في مقدمته من تحليلات وتعليلات ونقد في كتابة تاريخه (العبر) حيث نراها متفرقة ومبعثرة هنا وهناك، ولكن منهجه في الكتابة التاريخية والذي أشار إليه في المقدمة أيضاً لم يستخدمه في كل أجزاء كتابه. ونلاحظ أيضاً وقوعه في أخطاء في الأحداث والأسماء وخاصة فيما يتعلق بالمشرق في القرون الإسلامية الأولى. ويبقى ابن خلدون علماً من أعلام التاريخ العربي الإسلامي ومؤسساً لعلم العمران البشري وفلسفة التاريخ بين مفكري العالم.

لقد أشرنا إلى ابن خلدون وتفسيره للتاريخ في الفصل الأول. أما فيما يتعلق (بعلم التاريخ) الذي هو موضوع بحثنا في هذا الفصل، فإن ابن خلدون ينظر لعلم التاريخ نظرة سامية ويعده علم نظر وتحقيق وتعليل وتفسير وليس مجرد أخبار تصف الأيام وتسرد ما جرى للدول في الماضي البعيد والقريب. فعلم التاريخ لا بد أن يجيب على التساؤل لماذا وقع الحدث بالشكل الذي وقع فيه. بمعنى ما هي أسباب الأحداث والمظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تتعرض لها المجتمعات البشرية عبر العصور. ولا بد للباحث من قراءة (المقدمة[2]) لابن خلدون لكي يدرك ما ذكره من فضل علم التاريخ وفوائده. والغاية التي يصبو إليها المؤرخ في أي مجتمع من المجتمعات هي العبرة والفائدة بغية تجنب الوقوع في الأخطاء أو تكرارها. فالشعوب التي لا تتعظ بأخطائها أو عثرات غيرها ستقع في الأخطاء والكوارث نفسها المرة تلو الأخرى.

ويسرد ابن خلدون الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ المفكر، والأمور التي يحتاجها في تأريخه للأحداث وتعليله للحضارات وتوضيحه نشوء الدول وازدهارها وسقوطها. وينصح ابن خلدون المؤرخ بأمور منها: شمولية المعرفة، ودقة النظر، والتثبت من الوقائع، ومقارنة الروايات في مصادرها الأصلية، وعدم الاعتماد على المنقول بل لا

(١) دائرة المعارف الإسلامية مقالة (ابن خلدون). حاطوم، المرجع السابق، ص ٣١٢. جب، دراسات، ١٦٧.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

بد أن يكون ملماً بطبيعة العمران البشري والاجتماع الإنساني وقواعد السياسة "فالتاريخ سياسة الماضي والسياسة تاريخ الحاضر"، ولا بد من معرفة الحاضر والمقارنة بينه وبين الماضي. فكثيراً ما نتلمس أسباب الأحداث الحاضرة أو المعاصرة إذا تتبعنا خيوطها في الماضي.

لقد انتقد ابن خلدون بعض المؤرخين المسلمين الذين نقلوا عن الإخباريين والقصاص والرواة، أو من المؤرخين الذين سبقوهم دون نقد أو تمحيص، وخاصة الأخبار التي تتعلق بالفترة ما قبل الإسلام، وكذلك الفترة الإسلامية، وقد أشرنا سابقاً إلى إعجابه بالمؤرخ المسعودي لأنه يؤكد على التاريخ الحضاري للإسلام وينقد رواياته، بينما يرى أن مؤرخين آخرين قبلوا قصصاً أسطورية دون مناقشة أو نقد مثل ما نقلوه من أساطير حول العباسة أخت الرشيد، وحول نسب الأدارسة وكذلك الفاطميين في بلاد المغرب وما إلى ذلك.

ويذكّر ابن خلدون المؤرخين بعدم قياس الماضي أو النظر إليه بمقاييس الحاضر، أو المفاهيم المعاصرة لهم، وبذلك يخطئون حين يحكموا على المظاهر التاريخية السالفة وكأنها معاصرة لهم فهو يرى: "من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال عند الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام... ذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر".

لم يخصص ابن خلدون كتاباً أو رسالة خاصة مستقلة حول علم التاريخ، وإنما تناولها ضمن الموضوعات التي بحثها في المقدمة. ولم ينظر المؤرخون بعد ابن خلدون في طبيعة علم التاريخ وماهيته كعلم مستقل إلا في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وما بعده.

فقد ألف محي الدين محمد بن سليمان الكافيجي[1](ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) رسالته

---

(١) الكافيجي، المختصر في علم التاريخ، ضمن كتاب روزنثال، علم التاريخ (مترجم)، ص ٣١٨.

القصيرة الموسومة (المختصر في علم التاريخ) وهي ربما كانت أقدم رسالة وصلتنا عن علم التاريخ في المجتمع الإسلامي. حيث تكلم المؤلف عن أهداف علم التاريخ وفوائده محاولاً استنباط منهج للتدوين التاريخي، ورغم أنه ذكر في النصف الثاني من الرسالة خلاصة عن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، فقد عاد وأشار إلى أنه تناول بعض معضلات التاريخ في كتاب آخر له.

أما شمس الدين السخاوي[1] (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) فيعد كتابه الموسوم (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) أهم كتاب في نمطه وفي موضوعه حيث عالج علم التاريخ الإسلامي باعتباره علماً قائماً بذاته.

لقد عرضنا للمؤرخ والمحدث المصري السخاوي في نمط سابق من أنماط التدوين التاريخي وأشرنا إلى مؤلفاته المتنوعة، ونود القول هنا أنه كان ناقداً- مثله مثل ابن خلدون- للتدوين التاريخي الذي سبق عصره، ولمعاصريه من المؤرخين وخاصة السيوطي منبهاً إلى تدهور التدوين التاريخي في القرون الإسلامية المتأخرة من العصر الوسيط. وقد اختصر هذه الآراء النقدية في كتابه آنف الذكر.

لقد عرف السخاوي علم التاريخ لغة واصطلاحاً وتناول موضوعه، وحينما عرج على فائدة التاريخ أثرت عليه نشأته ودراسته للعلوم الدينية، فهو مثل الكافيجي يتكلم عن فوائد التاريخ للعلوم الدينية من ناحية السند (سلسلة الرواة) والمتن. ولم يقصّر في ذكر آراء المؤرخين الذين سبقوه في فائدة التاريخ مقتبساً ذلك من مقدمات مؤلفاتهم اقتباسات مطولة مهاجماً كل من ذم علم التاريخ وحاول الحطّ من قدره.

ولم يكتف السخاوي بذلك بل تناول شروط المؤرخ الحق[2]، ويلاحظ مدى ارتباط التاريخ بالعلوم الشرعية في هذه الشروط التي وضعها السخاوي التي تعد في جلها مستقاة من العلوم الدينية. ثم عرج السخاوي على التاريخ الهجري، وختم كتابه

---

(١) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ، في روزنثال، المرجع السابق، (مترجم).

(٢) راجع كتابه في ملحق كتاب (علم التاريخ عند المسلمين) لروزنثال (مترجم).

بالإشارة إلى المصنفات التاريخية منذ بدء التدوين حتى زمانه. ويرى شاكر مصطفى أن السخاوي كتب كتابه من وجهة نظر العالم المتضلع بالعلوم الدينية لا من وجهة نظر المؤرخ المحترف، وكان هدفه الدفاع عن الثقافة التاريخية، ولذلك نلاحظ أنه ركز على تراجم العلماء المختصين بعلوم الدين. أما روزنثال(١) فيرى " أن السخاوي عرض علم التاريخ الإسلامي بتطوراته ومشكلاته فهو والحالة هذه صورة لإنجازاته النهائية ومواضع فشله".

أما جلال الدين السيوطي(٢) (ت ٩١١هـ/١٥١٦م) فكتب رسالة بعنوان (الشماريخ في علم التاريخ) وقد طبعت في ليدن سنة ١٨٩١م، ثم نشرت في بغداد سنة ١٩٧١م، وهذه الرسالة صغيرة ومقتضبة تتكون من حوالي العشرين صفحة مقسمة إلى ثلاثة أبواب: أولها في مبدأ التاريخ والحوادث التي أرخت بها الناس. وثانيها في فوائد التاريخ، وهي الأخرى من وجهة نظر دينية ـ أخلاقية. وثالثها تناول بعض المعارف التاريخية. وللسيوطي أرجوزة لطيفة في فوائد التاريخ منظومة شعراً يقول فيها :

وبعد فالتاريخ علم واسع   والاعتبار فيه منه نافع

* * *

(١) روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين (مترجم)، بغداد، ١٩٦٣م.

(٢) السيوطي، الشماريخ في علم التاريخ، بغداد، ١٩٧١م، طبعة ليدن، ١٨٩٤م.

المبحث الخامس

السير والمذكرات الشخصية

يعتمد هذا النمط من الكتابة التاريخية على التجربة والمعايشة والسماع والمشاهدة. وإذا تقصينا جذور مصطلح (السيرة) فإننا نجدها في القرآن الكريم في سورة طه مثلاً فقد جاء في الخطاب الإلهي إلى موسى عليه السلام : (خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى). وقد جاءت الكلمة في كتب الحديث النبوي الشريف وفي كتب التاريخ نشير إلى مثال واحد منها "أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر". ومن هذه الأمثلة نجد لاصطلاح السيرةِ دلالات لغوية مختلفة، منها السنة والهيئة وما إلى ذلك.

ولم يرتبط مفهوم السيرة بالدلالة على عمل أو تأليف أو تسجيل لمظاهر النشاط في حياة الآخرين وفق منهج سردي تاريخي محدد إلا قبيل نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي وما بعده حين بدأ الأخباريون والمؤرخون الأوائل يسجلون حياة النبي محمد ﷺ مثل عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ/٧١٢م) ومحمد بن إسحق (ت ١٥١هـ/٧٦٨م) وقد استمر المؤرخون دون كلل يكتبون عن السيرة النبوية على مدى القرون الإسلامية المتتابعة حتى رأينا السيرة النبوية التي دونها في القرن الثامن الهجري ابن سيد الناس ومن بعده الحلبي في القرن الحادي عشر الهجري وبعدهم كثير.

وإذا استثنينا المؤلفات عن السيرة النبوية الشريفة، نلاحظ مؤلفات عن سير الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة من آل البيت، وبعض الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والسلاطين من حكام الدويلات التي عاصرت خلافة العباسيين أو جاءت بعدهم.

وظهر بالإضافة إلى ذلك نوع ثاني من السير وهي كتب تعرض لجوانب من حياة المؤلف نفسه والتي نسميها (السير الذاتية) وربما المذكرات، رغم أن عناوينها لا تعكس مضمونها أحياناً، ومن هذا النوع طوق الحمامة لابن حزم (٤٥٦هـ/١٠٦٤م) والمنقذ من الضلال لابن حامد الغزالي (٥٠٥هـ/١١١١م) والاعتبار لأسامة بن منقذ (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) والنكت العصرية لعمارة اليمني، والفتح القدسي للعماد الأصفهاني (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) ومذكرات ورسائل القاضي الفاضل البيساني (ت ٥٩٦هـ) والنوادر السلطانية لابن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وغيرهم. ومن المؤسف أن رسائل القاضي الفاضل ضاعت في أغلبها وبقيت مبعثرة في كتب المؤرخين الذين جاءوا بعده. ومن هذا النوع من التأليف مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين صاحب غرناطة في كتابه (التبيان) والتي تسجل الأحداث الأخيرة التي سبقت عزله ونفيه من قبل المرابطين، أو كما فعل أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق (القرن ٦ هـ/ ق ١٢م) في تدوينه (أخبار المهدي بن تومرت) أمير الموحدين أو قد تأتي السير الذاتية والمذكرات ضمن رسائل مثل ما فعله الوزير والسفير والأديب والمؤرخ لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، أو ما دونه الرحالة في المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي من تسجيل لسيرتهم أثناء الرحلة وما شاهدوه في تجوالهم للأقاليم المختلفة. ومن هؤلاء الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) وابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) وناصري خسرو (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) وعبداللطيف البغدادي (القرن ٧هـ/ق ١٣م) وقد نشر ما دونوه تحت عنوان (أدب الرحلات). وهنا تختلط اليسر بالرحلات.

وهكذا ارتبطت السير سواء كانت فردية أم شخصية (ذاتية) أو مذكرات بالتاريخ، بل أنها غدت نوعاً من التاريخ، فهي رغم ما فيها من نواحي خاصة بحياة الفرد الذي كتبت سيرته أو كتبها هو بنفسه فإنها تزخر بالمعلومات التاريخية عن الأحداث التي عاصرها ذلك الشخص وأثرت فيها أو تأثر بها وانطباعاته عنها.

إن الرابطة الوثيقة بين السير الذاتية والمذكرات واضحة ذلك أن مؤلفها واحد.

فهو في السيرة الذاتية يسجل تجربته الشخصية في حدود زمن معين فيستخرج من ذاكرته ما تحتفظ به من معلومات وتخبئ نفسه من تفاعلات ومشاعر وجدانية. أما في المذكرات فهي أكثر انفتاحاً على المجتمع الخارجي حيث يسجل المؤلف تجاربه مع الأشخاص الذين اتصل بهم والأحداث السياسية والاجتماعية التي تفاعل معها. ويبقى التفريق بين السيرة الذاتية والمذكرات غير وارد ذلك أن أحدها جزء من الآخر ومرتبط به. فكتاب (الرحلة) لابن بطوطة هو سيرة ذاتية ومذكرات في آن واحد، (وسيرة صلاح الدين الأيوبي) لابن شداد هي سيرة فردية لصلاح الدين الأيوبي كتبها ابن شداد وفي الوقت نفسه سيرة ذاتية للمؤلف نفسه. أما أبو حامد الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) الذي ضمنه جزءاً من سيرته الذاتية أو تجربته الشخصية فقد رغب تقديم صورة للمراحل التي مر بها فكراً وروحاً حتى وصل إلى العلم اليقيني. وقد يتباهى الشخص بنبوغه وذكائه حين يتكلم عن نفسه في سيرته الذاتية وقد اختزل الزمن وهو يتلقى العلم ويتقنه وينبغ فيه، ولعل ابن سينا أحسن مثل على ذلك حيث يقول في سيرته: "أكملت العشر من العمر وأتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب... ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أن برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرؤون علي علم الطب... وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه.. ولما بلغت ثماني عشرة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها"(١).

على أن السير الذاتية والمذكرات قد يشك فيها بعض المؤرخين المحدثين الذي يدونون تاريخ الفترة التي عاش فيها صاحب السيرة أو المذكرات، وقد يرفضها آخرون مدعين أنها ليست مصدراً تاريخياً يمكن الوثوق به. كما شكك قديماً ياقوت الحموي في مذكرات سلام الترجمان عن رحلته التي كانت بأمر من الخليفة العباسي الواثق إلى سد يأجوج ومأجوج، فعلق عليها ياقوت الحموي بعد أن أوردها في كتابه بقوله: "قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب ولست أقطع بصحة ما أوردته... والله أعلم

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، ١٩٧٧م، ج٣، ص ٢٠٠.

بصحته"[١]. ويقول ياقوت الحموي نفسه عن مذكرات ابن فضلان في رحلته التي أمره بها الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة ٣٠٩هإلى بلاد البلغار ما فحواه: "هذا ما نقلته من رسالة ابن فضلان حرفاً حرفاً وعليه عهدة ما حكاه والله أعلم بصحته"[٢]. ويروي لنا عبدالرحمن بن خلدون موقف العامة من الناس من الأخبار والأعاجيب التي حكاها ابن بطوطة عن رحلته فقال: "تناجى الناس بتكذيبه"[٣].

تنوعت أنماط السير والمذكرات عبر القرون الإسلامية المتتابعة، فجاءت بأشكال ومسميات متنوعة. فقد عد بعض الباحثين(٣٣٢) الكتب والرسائل التي ألفها أصحابها بقصد التعبير عن الاحترام والتقدير لأصحابها والتي سميت (المناقب) ضمن السير الفردية ولدينا في التاريخ الإسلامي الكثير منها مثل: مناقب الشافعي ومالك بن أنس وابن حنيفة وابن حنبل وجعفر الصادق والأئمة من آل البيت وعلماء الدين بمختلف اختصاصاتهم والزهاد والصوفية والوعاظ، وتلاهم الشعراء والأدباء والمغنين. ويدخل في هذا الباب ما دونه تلاميذ كبار العلماء عن أساتذتهم تعبيراً عن الإعجاب والتقدير والاحترام ويورد المؤرخ السخاوي في كتابه (الجواهر والدرر[٤]) قائمة بأسماء هؤلاء التلاميذ النجباء وما ألفوه عن شيوخهم وأساتذتهم. ولعل أبرز مثل على ذلك ما دونه السخاوي نفسه عن أستاذه ابن حجر في كتاب سماه (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر). ويرى شاكر مصطفى[٥] أن أحد أهداف كتاب السير هو توجيه الناس إلى الطريق الأصح والمذهب الأقوم من أجل الخلاص وذلك بإعطائهم نماذج من سير الرجال الصالحين. ولا شك أن الفرد لا قيمة لحياته إذا لم يتميز في حقل أو يقدم إضافة أو إبداع في مجال ما.

تشير كتب الفهارس إلى عدد من السير الفردية لعل أولها ما ذكره السخاوي لمؤلف

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص ٨٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٢٥.

(٣) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

(٤) السخاوي، الجواهر والدرر، نقلاً عن المرجع السابق، ص ٣٦٨. انظر كذلك روزنثال، علم التاريخ، ص ٧٣٦.

(٥) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

مجهول كتب سيرة الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، وما دونه ابن عبدالحكم وابن الجوزي عن سيرة الخليفة الأموي عمر ابن عبدالعزيز، وما دونه ثابت بن سنان عن سيرة الخليفة العباسي المعتضد بالله. ثم ما دونه علي بن الحسين عن سيرة سيف الدولة الحمداني. وتتابعت سير البارزين من الرجال مثل ما كتبه العتبي عن سيرة يمين الدولة محمود الغزنوي وسميت التاريخ اليميني نسبة للسلطان محمود الملقب يمين الدولة (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) آنف الذكر.

وكلما تقادم الزمن بالدولة الإسلامية وزادت المحن والأخطار عليها من الخارج والداخل كلما ظهرت الحاجة لتدوين وإعادة تدوين سير العظماء البارزين في الأمة ابتداءً من سيرة الرسول محمد ﷺ، وسير العلماء والوزراء والسلاطين والخلفاء، وقد فاق المؤرخ ابن الجوزي غيره في تآليفه عن السير، ومن كتبه: المفاخر في أيام الملك الناصر، والمصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء، وقد أشرنا إلى الكتب العديدة التي ألفت في سيرة صلاح الدين الأيوبي محرر القدس من الإفرنج. ولعل أطرفها ما كتبه ابن مماتي الأسعد بن زكريا (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) من سيرة منظومة شعراً عن صلاح الدين الأيوبي. كما دون شهاب الدين النسوي (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) سيرة للسلطان جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين الخوارزمية الذي صمد لفترة ليست قليلة ضد الغزو المغولي. وكتب المقرّي التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) عن القاضي عياض وكذلك عن لسان الدين بن الخطيب وكان في منهجه قد جعل من الشخصية محوراً تدور حوله الأحداث محاولاً فهم الشخصية من خلال الفترة التاريخية التي عاشت فيها. ومثل ذلك ما كتب عن سيرة جنكيز خان المغولي والظاهر بيبرس البندقداري وغيرهم كثير.

وفي الوقت نفسه الذي تتابعت فيه السير الفردية استمرت كذلك السير الذاتية والمذكرات وازدادت خاصة في الفترة بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وقد أشرنا سابقاً إلى ابن سينا (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٦م) والغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) ونشير هنا إلى ابن الجوزي (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) في رسالته إلى ابنه الموسومة (لفتة الكبد في نصيحة الولد)، ومحي الدين ابن عربي الصوفي (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)

في رسالته التي عنونها (مناصحة النفس).

والواقع أننا لا نستطيع أن نرسم خطاً واضحاً بين السير الذاتية والمذكرات (السير الفردية) وقد أشرنا إلى اختلاط هذين النمطين من الكتابة بعضهما بالبعض الآخر، وأخذنا ابن شداد في سيرته عن صلاح الدين الأيوبي مثلاً على ذلك. كما ذكرنا مؤلفي المذكرات أمثال أسامة بن منقذ والقاضي الفاضل والعماد الكاتب الأصبهاني. ونشير هنا إلى استمرار نموذج كتابة المؤلف عن نفسه (سيرة ذاتية) ضمن كتابه فقد ترجم ياقوت الحموي لنفسه في كتابه (معجم الأدباء) وهذا ما فعله لسان الدين بن الخطيب في كتابه (الإحاطة بأخبار غرناطة)، وابن حجر العسقلاني في كتابه (رفع الإصر عن قضاة مصر)، والسيوطي في كتابه (حسن المحاضرة) وابن الحمصي في كتابه (حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران) وأخيراً لا آخراً عبدالرحمن بن خلدون في كتابه (العبر) حيث أنهاه بعدة فصول سماها (التعريف بابن خلدون) أوضح سيرة حياته وما جرى له من الأحداث وما تقلده من المناصب حتى أوائل ٧٩٧هـ. وتختلف ترجمة ابن خلدون الذاتية لسيرته عن غيرها من السير بأنها كانت طويلة استوعبت كتاباً كاملاً[١]. ولذلك عدّها بعض الباحثين كتاباً مستقلاً مثلما عدوا مقدمته كتاباً مستقلاً.

وسنتناول فيما يلي نماذج محددة من السير والمذكرات المهمة:

وربما كان أحسن نموذج لهذا النمط من التدوين كتاب الاعتبار[٢] لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) فقد عاش أسامة في زمن الغزو الإفرنجي الصليبي وكان من رجال السيف والقلم وعاصر الأتابكة والفاطميين ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ودعاه الأخير إلى دمشق حيث توفي فيها. اعتمد أسامة على التجربة والمعايشة والسماع والمشاهدة في سرد مذكراته، وكانت ثقافته موسوعية وخبراته عميقة وضعها كلها

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٨ فما بعد.

(٢) أسامة بن منقذ، الاعتبار. برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٣٠م، (المقدمة). كذلك دائرة المعارف الإسلامية (أسامة بن مرشد)، الطبعة القديمة. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٤٣.

في كتابه الاعتبار فأعطى صورة فريدة للسيرة الذاتية تزخر بالمعلومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحربية وغيرها عن الفترة التي عاش فيها.

ولد أسامة بن مرشد بن منقذ الشيزري الكناني في شيزر على نهر العاصي حيث تحكم أسرته بني منقذ. وموقع قلعة شيزر موقع استراتيجي مهم لأنها تقع على الطريق التي سلكها معظم الغزاة ولا سيما الفرنج الصليبيين. كان أسامة من فرسان العرب ومن الأدباء والشعراء المقربين إلى الملوك والسلاطين. ولما بلغ الرابعة من عمره استولى الصليبيون على (بيت المقدس) واستعادها صلاح الدين قبيل وفاته بعام واحد. وكان كثير الاتصال بالإفرنج في بلاد الشام يخاصمهم ويصادقهم. شارك وهو في الخامسة عشرة من عمره في صد غارة الأمير الصليبي دنكرد على شيزر. وكان كأبيه مكرساً حياته للحرب والصيد والأدب والكتابة.

اتصل بعماد الدين زنكي أتابك الموصل وبقي معه تسعة أعوام. وقضى مع الأمراء البوريين في دمشق ستة أعوام. وأتاحت له المعاهدات السلمية مع الفرنج في مملكة بيت المقدس فرصة للتقرب إليهم ومعرفة أحوالهم فصار له أصدقاء عديدون من فرسان الداوية. ثم ذهب إلى مصر وكانت دولة الفاطميين في أواخر عهدها وشارك في بعض المؤامرات السياسية هناك، وشارك في عدة حملات ضد الصليبين بفلسطين.

وفي طريق عودته إلى دمشق بالبحر غرقت مكتبته التي جلبها معه من القاهرة، وشارك نور الدين محمود في دمشق في عدة حملات ضد الصليبيين. ثم أدى فريضة الحج. ثم اعتزل في حصن كيفا وشغل وقته في التأليف. ثم اجتذبته شهرة صلاح الدين الأيوبي وحربه الموفقة ضد الصليبيين إلى دمشق مرة أخرى حيث توفى بعد عمر طويل ودفن في جبل قاسيون مطلاً على مشارف دمشق.

أما مؤلفاته فعديدة ضاع أكثرها وقد نجح بسبب اتصاله بالأحداث وبصانعي القرار السياسي في أيامه في تضمين كتبه بالأخبار والمعلومات التي عكست صورة صادقة لحياته وعصره المفعم بالاضطراب والقلق وهي صورة قلما نجد لها مثيلاً في

كتب السير والمذكرات. ولا نجد في المكتبة العربية سوى أربعة أو خمسة كتب لأسامة هي: الاعتبار والعصا والمنازل والديار ولباب الآداب.

والذي يهمنا هنا كتابه (الاعتبار) الذي حققه ونشره فيليب حتي في برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية منذ ١٩٣٠م. والكتاب يعكس صوراً من العصر الذي عاشه أسامة بن منقذ وما فيه من فروسية وحروب ولهو وكذلك يضم الكثير من المعلومات عن المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهو يتكون من ثلاثة أبواب على النحو التالي:

الباب الأول:

حروب وأسفار

١ - قتال الإفرنج.

٢ - أسامة في دمشق ١١٣٨-١١٤٤م.

٣ - أسامة في مصر ١١٤٤-١١٥٤م.

٤ - زيارة أسامة الثانية لدمشق ١١٥٤-١١٦٤م.

٥ - معارك مع الإفرنج ومع المسلمين.

٦ - مكافحة الأسود وسائر الضواري (رحلات الصيد).

٧ - اختبارات حربية.

٨ - طبائع الإفرنج وأخلاقهم.

٩ - اختبارات وملاحظات.

الباب الثاني

نكت ونوادر

١ - أخبار الصالحين.

٢ - الشفاء بطرق غريبة.

الباب الثالث

أخبار الصيد

١ - الصيد في سورية والجزيرة الفراتية ومصر.

٢ - والد أسامة صياداً.

آخر الكتاب

ويبدو أن أسامة بن منقذ كتب أغلب كتبه في فترة اعتزاله في حصن كيفا. وقد أضاف شاكر مصطفى إلى قائمة كتبه التي أوردتها دائرة المعارف الإسلامية كتباً أخرى منها (كتاب آل منقذ) وهو كتاب في الأسر الحاكمة سجل فيه تاريخ أسرته. وكتاب تاريخ القلاع والحصون وكتاب البلدان وكتاب سير النساء. ونظراً لأهمية كتاب الاعتبار فقد نشر سنة ١٩٣٠م ونشر في بيروت ١٩٨٨م وترجم إلى اللغة الألمانية والفرنسية والروسية والإنجليزية، بعد أن نشره درنبورج في أوربا منذ سنة ١٨٨٠م.

أما النموذج الثاني من كتب السير والمذكرات فلعلنا نذكر الثلاثي الذي رافق صلاح الدين الأيوبي في حياته الحافلة بالصبر والجهاد والمطاولة على العدو الإفرنجي والمنشقين في الداخل. وهم على التوالي: العماد الكاتب الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) والقاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني العسقلاني (ت ٥٩٦هـ/١٢٠٠م) وبهاء الدين بن شداد الأسدي الموصلي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٩م).

ونبدأ بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو كما سميت (سيرة صلاح الدين) لمؤلفها بهاء الدين بن شداد(١) وقد طالعنا الترجمات عن سيرة بهاء الدين بن شداد فلم نجد أفضل من المقدمة التي سطرها جمال الدين الشيال في تحقيقه للكتاب الذي نشره بالقاهرة ١٩٦٤م. وقد أوردنا معلوماتنا عن ابن شداد ومؤلفاته من هذه المقدمة.

---

(١) بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٦٤م (المقدمة). انظر كذلك: حاطوم، المرجع السابق، ص ٣٠٤. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج١، ص ٢٧٠.

بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم شُهر بابن شداد، لأن شداد جده لأمه، وقد توفي أبوه وهو طفل صغير، فربى في كنف أخواله بني شداد، ولهذا نسب إليهم.

ولد في الموصل سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م وتوفي بحلب سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٩م، فهو قد عمر وعاش ثلاثاً وتسعين سنة أي قرابة قرن من الزمان.

تلقى علومه الأولى في الموصل، فحفظ القرآن وقرأ على شيوخ الموصل الكبار كتباً في علوم الحديث والتفسير والفقه والقراءات والأدب، وكانت المدرسة النظامية في بغداد تجتذب إليها وقتذاك طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فارتحل إليها مؤرخنا ابن شداد، وترتب فيها (معيداً) بعد وصوله إليها بقليل، وكان ذلك في سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م أي وهو في السابعة والعشرين من عمره، وظل يشغل هذا المنصب نحو أربع سنوات حيث عاد إلى بلده الموصل، وعين هناك مدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، ولازم - كما يقول ابن خلكان -: "الاشتغال وانتفع به جماعة" وعلت مكانته وارتفع ذكره لما اشتهر به من الحكمة ورجاحة العقل والاتزان في التفكير، ولهذا نجد أتابك الموصل يعهد إليه بالسفارة إلى الخليفة العباسي في بغداد، وإلى صلاح الدين وكثير من الحكام المجاورين في أمور خطيرة من أمور الدولة.

وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٨م سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان يزمع في عودته أن يزور بيت المقدس - وكان قد استردها البطل صلاح الدين -، ولكنه نزل أولاً بمدينة دمشق، وكان صلاح الدين يحاصر قلعة كوكب، وعلم بوصول ابن شداد إلى دمشق، وكان يعرفه معرفة أكيدة منذ اتصل به في سفاراته السابقة، فاستدعاه إليه، "فلما دخل عليه قابله بالإكرام التام، وما زاد على السؤال عن الطريق: ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري، وقرأه عليه بنفسه".

وقد شرح ابن شداد في كتابه هذا "النوادر السلطانية" كيف اتصل بخدمة صلاح الدين، قال: "ولما ودعته ذاهباً إلى القدس خرج لي بعض خواصه ـ عماد الدين الكاتب الأصفهاني ـ، وأبلغني تقدمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل".

وأتم ابن شداد زيارته للقدس وعاد إلى دمشق، وفي عزمه أن يستأذن من صلاح الدين في العودة إلى بلده الموصل حيث يترك دنيا الوظائف ويعتكف للدراسة والعبادة، وكان ابن شداد قد ألف أثناء مقامه في دمشق هذه المرة كتاباً في الجهاد وأحكامه وآدابه، فقدمه لصلاح الدين "فأعجبه، وكان يلازم مطالعته".

ويستطرد ابن شداد فيروى كيف منعه صلاح الدين من العودة إلى الموصل، وألحقه بخدمته فيقول: " وما زلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه عليّ وذكره إياي بالجميل... ثم سيّر إلى مع الفقه عيسى، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه الجهاد، أحببته لذلك، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين".

وقد عين صلاح الدين بهاء الدين بن شداد قاضياً لعسكره وللقدس الشريف، وظل بهاء الدين في خدمته وملازماً له لا يفارقه ليلاً أو نهاراً إلى أن أدركت صلاح الدين الوفاة، وكان مقيماً هو والقاضي الفاضل إلى جوار صلاح الدين أثناء مرضه الأخير، ووصف اللحظات الأخيرة التي انتهت بوفاة هذا البطل العظيم وصفاً مؤثراً.

وبعد وفاة صلاح الدين اتجه ابن شداد إلى حلب ولعب دوراً كبيراً في التقريب بين الأخوة أولاد صلاح الدين وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصائحه، وقد عينه الملك الظاهر صاحب حلب في سنة ٥٩١هـ قاضياً لمدينة حلب ومشرفاً على أوقافها، يقول ابن خلكان: "وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها،

وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة".

وكان الملك الظاهر قد قرر لابن شداد إقطاعاً جيداً يدر عليه مبلغاً كبيراً من المال، ولم يكن ابن شداد قد تزوج ولم تكن له أسرة أو ولد، فتوفرت له ثروة لها قيمة، فعمر بها مدرسة فخمة لتدريس المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق في مدينة حلب، قبالة مدرسة نور الدين محمود زنكي، وبنى إلى جانبها داراً للحديث، وأنشأ بين المدرستين تربة ليدفن بها بعد وفاته.

ومنذ بنيت هذه المدرسة ومنذ رتب ابن شداد دروسه بها أصبحت لحلب منزلة علمية مرموقة تجذب إليها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، يقرر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلكان ـ وقد كان واحداً ممن سافروا إلى حلب خصيصاً للتتلمذ على القاضي ابن شداد في مدرسته ـ فيقول: "ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد، وحصل الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها".

وقد لعب ابن شداد دوراً كبيراً في التوفيق بين أفراد البيت الأيوبي في مصر وبلاد الشام كلما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر، ولهذا كان دائم التنقل بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف، وتذكر المراجع أنه وفد على القاهرة في هذه المهام وأشباهها في السنوات ٥٩٣ و٦٠٨ و٦١٣ و ٦٢٩هـ.

ظلت لابن شداد الكلمة النافذة والرأي المطاع في عهد الملك العزيز ابن الظاهر صاحب حلب، ولما خطب العزيز ابنة الملك الكامل محمد صاحب مصر كان ابن شداد على رأس الوفد الذي سافر إلى القاهرة في سنة ٦٢٩هـ لإحضار العروس ومرافقتها.

غير أن السنين كانت قد نالت منه وأصابته الأمراض ووهن الشيخوخة، فلزم مكاناً دافئاً يقيم فيه متدثراً، لا يقوم إلا لأداء فريضة الصلاة، ويلقى فيه بعض الدروس على وفود أصدقائه وزواره وتلاميذه الذين يترددون عليه، وقد صحبه ولازمه في أيامه الأخيرة المؤرخ ابن خلكان، وقدم لنا في الترجمة التي أرخ فيها لحياة ابن شداد في كتاب: "وفيات

الأعيان" صورة رائعة للعالم الشيخ الذي أضعفه المرض وأكدته الشيخوخة، قال: "وكنا نسمع عليه الحديث، ونتردد إليه في داره، وقد كانت له قبة تختص به، وهي شتوية، لا يجلس في الصيف أو الشتاء إلا فيها، لأن الهرم كان قد أثر عليه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف، لا يقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه، فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده منقد كبير فيه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كله لا يزال مزكوماً وعليه الفرجية البرطاس والثياب الكثيرة، وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثمينة، بحيث إنا كنا نجد عنده الحر والكرب، وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط.

ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما، وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه وكان يعجبه ذلك، وكان حسن المحاضرة، جميل الذاكرة، والأدب غالب عليه...".

وقد تتلمذ على ابن شداد - عدا ابن خلكان - عدد آخر من كبار المؤرخين المعاصرين، منهم أبو شامة صاحب كتابي "الروضتين" و"الذيل على الروضتين"، وقد ترجم له في الكتاب الأخير في وفيات سنة ٦٣٢هـ، قال : "وفيها توفى القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب، واسمه يوسف بن رافع بن تميم، وكان من رؤسائها، وكان للناس به نفع، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجاز لي جميع ما يرويه، ثم سمعت عليه بمصر وعند قبة الإمام الشافعي - رحمه الله - سنة ثمان وعشرين وستمائة".

ومن تلاميذ ابن شداد جمال الدين بن واصل مؤرخ الدولة الأيوبية وصاحب الموسوعة الكبيرة: "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، ففي سنة ٦٢٧هـ كان ابن واصل قد سافر إلى حلب، ولبث بها نحو عامين تردد في خلالهما على ما بها من مدارس ومكتبات، واتصل بمن فيها من علماء بارزين وخاصة القاضي المؤرخ بهاء الدين ابن شداد، والشيخ نجم الدين بن الخباز، والشيخ موفق الدين بن نفيس، ويبدو أنه أفاد من

هؤلاء الشيوخ فوائد جمة، فقد كان يعتز بهذه الزيارة فيما بعد، ولهذا ذكرها في كتابه "مفرج الكروب" أكثر من مرة.

قال أولاً في حوادث سنة ٦٢٨هـ: "وكنت في حلب في هذه السنة، قد توجهت للاشتغال بالعلم على الشيخ نجم الدين بن الخباز، وكان إماماً في المذهب والأصول، وعلى الشيخ موفق الدين بن نفيس في علم النحو واللغة ولتحصيل البركة بالقاضي بهاء الدين بن شداد - رحمه الله - وكان سفري إلى حلب في أواخر سنة ٦٢٧هـ فأقمت بها إلى شعبان سنة ٦٢٨ه، ثم ترددت إلى خدمة القاضي بهاء الدين بن شداد مراراً، وكان نزولي بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره". وأشار إلى هذه الزيارة مرة أخرى عند ترجمته لابن شداد بمناسبة وفاته. قال: "وقصدت خدمته بحلب سنة ٦٢٧هـ وحضرت مجلسه واستفدت منه، وأقمت بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره -رحمه الله - نحو سنة وكسر".

وأشار إليها مرة ثالثة بقوله: "وكان القاضي بهاء الدين يذكر بنفسه الدرس في مدرسته، ثم لما أسن وضعف بقى المعيدون في كل يوم يقرأ عليهم العلم، ولا يذكر أحد درساً في المدرسة إلى أن توفى، وكنت بحلب سنة ٦٢٧هـ وسنة ٦٢٨هـ وكان الأمر جارياً على ذلك، وكانت الربعة تحضر في كل يوم فيقرأ منها ما تيسر ثم يدعو الداعي له".

وحدث أثناء إقامة ابن واصل في حلب أن احتبس الغيث فخرج الناس للاستسقاء، وفي مقدمتهم شيخ البلدة بهاء الدين بن شداد، وقد حضر ابن واصل هذا الحادث وأرخ له بقوله: "واحتبس الغيث في هذه السنة احتباساً كثيراً بحلب، وارتفعت الأسعار، فخرج الناس إلى جبل بانقوسا واستسقوا، وحضر الاستسقاء بهاء الدين بن شداد، فجاء مطر يسير بعد ذلك وانحطت الأسعار قليلاً".

وفي سنة ٦٣٢هـ كان الكتاب قد بلغ أجله، وارتفعت روح ابن شداد إلى بارئها بعد أن عمّر قرابة قرن من الزمان أو ثلاثاً وتسعين سنة على وجه التحديد قضاها في الدراسة والتدريس والتأليف والعمل الصالح، ودفن في تربته التي بناها لنفسه بجوار مدرسته في حلب.

ومؤلفات ابن شداد ليست كثيرة، وسنقدم فيما يلي بياناً بالمعروف منها الذي أشارت إليه المراجع، غير أننا نحب قبل إثبات هذا البيان أن نشير إلى أن مؤرخنا ابن شداد لم يكن الوحيد بين المؤرخين العرب الذي حمل هذا الاسم، فهناك ابن شداد آخر يشترك معه مؤرخنا في أشياء كثيرة، فكل منهما كان يسمى ابن شداد، وبهذا الاسم عرفا وأشير إليهما في المراجع المختلفة، غير أن مؤرخنا صاحب سيرة صلاح الدين كان يكنى ببهاء الدين واسمه بالكامل بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن شداد، وسميه كان يكنى بعز الدين واسمه الكامل عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم ابن شداد.

ومؤرخنا بهاء الدين ولد ونشأ في الموصل، غير أنه قضى معظم حياته في بلاد الشام وتوفى في حلب في سنة ٦٣٢هـ، أما عز الدين بن شداد فقد ولد ونشأ في حلب، ولكنه قضى معظم حياته في القاهرة وبها توفى ودفن في سنة ٦٨٤هـ، أي بعد وفاة سميه باثنتين وخمسين سنة، وبهاء الدين كان فقيهاً ومحدثاً ومؤرخاً، وعز الدين كان مؤرخاً وجغرافياً.

ومع هذا فقد خلط المؤرخون وكتاب السير والببلوجرافيون بين الرجلين عند إحصاء مؤلفات كل منهما، ودفعهم إلى هذا الخلط تشابه اسمي كل منهما ونسبتهما إلى حلب واشتغالهما بالتاريخ وتأليفهما فيه، وكونهما توفيا في قرن واحد وهو القرن السابع الهجري (١٣ م).

وقد سبق المؤرخون بإلقاء الأضواء أولاً على حياة بهاء الدين بن شداد، ولهذا كان ولا زال أكثر شهرة من سميه عز الدين، ولعل هذا يرجع إلى أن بهاء الدين كتب سيرة صلاح الدين. فكانت عناية المؤرخين بدراسة هذه السيرة السبب الأكبر في شهرة بهاء الدين، ولهذا نجد الباحثين ينسبون إليه عدداً من مؤلفات عز الدين بن شداد.

وكان أول من وقع في هذا الخطأ حاجي خليفة صاحب كتاب "كشف الظنون" فقد ذكر كتاب "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة" ونسبه إلى بهاء الدين

بن شداد لا إلى مؤلفه الأصلي عز الدين بن شداد، وقد وقع في نفس الخطأ مؤرخون محدثون آخرون لأنهم نقلوا عن حاجي خليفة.

والكتاب الثاني الذي نسب خطأ إلى بهاء الدين بن شداد في حين أنه من تأليف سميه عز الدين هو كتاب "تاريخ حلب"، وأول من أخطأ في هذه النسبة بروكلمان في كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية"، فقد ذكره ضمن مؤلفات بهاء الدين.

والكتاب الثالث الذي نسب خطأ إلى بهاء الدين بن شداد في حين أنه من تأليف سميه عز الدين هو كتاب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، والمقصود هنا هو الملك الظاهر بيبرس البندقداري لا الملك الظاهر بن صلاح الدين ـ صاحب حلب ـ وقع في هذا الخطأ بروكلمان.

هذه كتب ثلاثة تنسب خطأ لمؤرخنا بهاء الدين بن شداد وإن كانت في الحقيقة من تأليف سميه عز الدين أما المؤلفات التي قام بتأليفها فعلاً مؤرخنا بهاء الدين، فمنها: دلائل الأحكام، تحدث فيه المؤلف عن الأحاديث النبوية المستنبط منها الأحكام، وكتاب فضائل الجهاد، ألفه خصيصاً لصلاح الدين، أما الكتاب الذي نؤكد عليه هنا فهو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (المعروف بسيرة صلاح الدين)، وقد نشر أول مرة في ١٧٣٢ـ١٧٥٥م، ثم أعيد نشره في القاهرة سنة ١٣١٧هـ، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية، ونشرت الترجمة في سنة ١٨٩٧م ضمن مجموعة أو سلسلة جمعية دراسات حجاج فلسطين، تحت عنوان:

The life of Saladin by Beha ad-Din Compared with the Original Arabic، and annotated with a Preface by C.W . Palestine Pilgrims Text Society Wilson, London 1897.

إن أهم مؤلفات بهاء الدين بن شداد هو هذا الكتاب "المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية" فهو الذي أكسب مؤلفه هذه الشهرة ووضعه في صفوف المؤرخين الكبار.

وقد قسم بهاء الدين بن شداد كتابه إلى قسمين:

الأول: في مولد صلاح الدين ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية وشمائله الراجحة في نظر الشرع.

والثاني: في تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه وتواريخ ذلك إلى آخر حياته.

وقد نص المؤلف في كتابه على أنه بدأ الاتصال بخدمة صلاح الدين في شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ، وعلى أنه اعتمد عند التاريخ للأحداث السابقة على هذا التاريخ على من يثق به، أما الأحداث اللاحقة لهذا اليوم فقد وصفها كما شاهدها بنفسه، أو على حد قوله هو: "ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان".

ومن مميزات مخطوطة القدس للكتاب آنف الذكر أنها تنفرد في نهايتها بفصل أحصى فيه المؤلف أسماء المدن والقلاع التي فتحها صلاح الدين في المدة من ٥٨٣ إلى ٥٨٦هـ.

وقد أشرنا من قبل إلى أن صلاح الدين كان قد عين بهاء الدين بن شداد قاضياً لعسكره في سنة ٥٨٤هـ، ولهذا نجد ابن شداد يلازم صلاح الدين طول الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها في بلاد الشام أي من ٥٨٤هـ إلى ٥٨٩هـ ويخالطه مخالطة تامة، ولذلك فهو يروي معظم هذه السيرة وأحداثها عن مشاهدة، وهو ينص في معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التي يؤرخ لها أو سمع الأقوال التي يرويها، أما إذا لم يكن قد شاهد حادثة ما بنفسه فإن الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن ينص على أنه كان متغيباً، فهو يصف مثلاً وقعة الرمل في سنة ٥٨٥هـ. ويعقب على الوصف بقوله: "وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً، وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلى، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور".

ولهذا اعتبرت هذه السيرة أوثق المراجع للتأريخ لحياة صلاح الدين، وعليها اعتمد

جل المؤرخين اللاحقين من عرب وأوروبيين مثل هامتلون جب عند الكتابة عن حياة صلاح الدين، وخاصة الفترة الأخيرة من هذه الحياة (٥٨٤ـ٥٨٩هـ) وهي فترة حافلة بالنضال ضد الفرنج الصليبيين، فإن انتصار صلاح الدين في موقعة حطين واستعادته لبيت المقدس في سنة ٥٨٣هـ أحدثتا ضجة كبرى في أوروبا، ناهيك عن دار الإسلام، وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوروبا وهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا، وفردريك بارباروسا ملك ألمانيا.

واحتدم القتال في أعنف صورة بين جيوش هذه الحملة وجيوش صلاح الدين طوال هذه السنوات الأربع إلى أن انتهى بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨هـ (سبتمبر ١١٩٢م).

وهذه السيرة التي كتبها ابن شداد تقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً للأحداث التاريخية وللمعارك الحربية ولأدوات القتال والحرب المستعملة في الجيشين مما لا نجده في مرجع آخر.

وفي الكتاب مصطلحات حربية أخرى ألفت إليها الأنظار لأهميتها ولأنها تعني كل المشتغلين بالتأريخ الحربي لهذا العصر.

وإلى جانب هذه المصطلحات الحربية توجد في النص فقرات كثيرة ذات أهمية كبرى وصف فيها المؤلف بعض هذه الآلات وصفاً جديداً مفيداً، ومثل ذلك وصفه الدقيق النادر للدبابة والكبش، وللسنور ـ وهو نوع جديد من الأسلحة ـ، وللبرج ذي الخرطوم، ووصفه للدبابة ذات الأبراج الأربعة.

وينفرد الكتاب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الصليبي والإسلامي، فهو يشير إلى بعض تقاليد الصليبيين في التشاور والتحكيم فيقول: "ومن عادتهم أنهم يتشاورن للحرب على ظهور الخيل، وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم".

وفي الكتاب نص هام يصف فيه كيف كان يجلس صلاح الدين للنظر في المظالم.

ونص آخر يفيد أن المسلمين المقيمين في الأراضي الخاضعة للصليبيين كانوا يرجعون في خصوماتهم إلى قاض منهم.

وفي نص آخر يدل على أن بعض أمراء الصليبيين في بلاد الشام "كان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث".

وفيه وصف طريف لبعض الشرائع والأحكام التي كان يؤخذ بها جنود ملك الألمان، ومنها "أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة".

وفيه وصف آخر طريف ونادر لعلم الجيوش الصليبية حيث يقول: ".. وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، خرقته بياض، ملمع بحمرة على شكل الصلبان".

وفي الكتاب عدد من الوثائق الهامة التي تلقي أضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة، ومن بينها نصوص الخطابات المرسلة من كل من الكاغيكوس مقدم الأرمن، وإمبراطور بيزنطة إلى صلاح الدين ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الوثائق الوصف الوافي المفصل للسفارة التي أرسلها صلاح الدين إلى القسطنطينية ولكيفية إقامة الخطبة في المسجد المقام في عاصمة الدولة البيزنطية.

من هذا كله نلاحظ أن "النوادر السلطانية" هي في حقيقتها سيرة مزدوجة لصلاح الدين وابن شداد أكد فيها بهاء الدين بن شداد أن ما رواه من أحداث وأخبار هي "ما أملاه عليّ العيان، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الإيقان".

أما القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني العسقلاني(١) فهو كاتب صلاح الدين

---

(١) عن القاضي الفاضل انظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٥٥. ابن خلكان، وفيات، رقم ٣٨٤، ٨٥٧. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦٦. السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٢٥. دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص ٦٠٨. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ١٩٣.

الأيوبي وكان قلمه ـ كما قيل ـ يعدل سيف صلاح الدين دلالة على تمكنه في الأدب وقدرته على التأثير من خلاله على الآخرين.

وقد جمع القاضي الفاضل رسائله التي كتبها لصلاح الدين في مجلدات كثيرة سماها "المنشئات" وقد تبعثرت ووجد بعضها مخطوطاً والبعض الآخر متناثراً في العديد من الكتب منها مؤلفات أبو شامة "الروضتين" والعماد الكاتب الأصبهاني "الفتح القسي" و"البرق الشامي" وكذلك ابن العديم "بغية الطلب في تاريخ حلب".

كما جمع القاضي الفاضل سجل أعماله اليومية (السيرة الذاتية) في كتاب سماه المتجددات أو المياومات لم يبق منها إلا القليل مقتبسة من قبل المؤرخين الذين جاءوا بعده. على أن القاضي الفاضل لم يدون في كتاب واحد ما خبره من أمور السياسة والدبلوماسية والأحداث كما فعل العماد الأصفهاني ـ رغم أنه كان في مركز يؤهله ويمنحه الفرصة لكتابة مثل هذه المذكرات.

أما ثالث الصحابة الذين اختص بهم صلاح الدين فهو العماد الكاتب الأصبهاني[(١)] الذي يعد علماً مشهوراً من أعلام الأدب العربي وأحد المساهمين في التزويق اللفظي والمحسنات البديعية والسجع التي جعلت النثر يتصف بالتكلف والتصنع. وكان العماد الأصبهاني يفخر بسحر بيانه ويتباهى بقلمه ويجعله على المستوى نفسه بل ربما أكثر في التأثير مع رجال السيف فيقول: "إن قلمي من سيوفهم أضرى وأضرب، ومن رماحهم أخطى وأخطب ومن سهامهم أنجى وأنجب، ومن قسيهم أكسى وأكسب ومن جيادهم أسرى وأسرب، ومدادي من نفعهم أغلى وأغلب وقرطاسي من راياتهم أجلى وأجلب"[(٢)].

ومما لاشك فيه أن الخطابة والكلمة فعلت فعلها المؤثر في تجييش جيوش صلاح الدين وفي بعث عزيمة العلماء والوعاظ والفقهاء، وفي حشد همة عامة الناس للوقوف

---

(١) عن العماد الكاتب الأصبهاني انظر: شاكر مصطفى، ج٢، ص ٢٤٦-٢٤٨.

(٢) العماد الأصبهاني، ص ٥٥.

مع صلاح الدين في جهاده ضد الغزاة، وقد نسب إلى صلاح الدين الأيوبي قوله في خطبة أمام الجند أنه انتصر بقلم هؤلاء الكتاب والعلماء قبل سلاح العساكر إلا أن الأمر لا يقتضي من العماد الأصفهاني أن يجعل دوره أكبر من منجزات الرجال المقاتلة المجاهدين الذين فتحوا القدس وحققوا الانتصار بدمائهم وأرواحهم.

والعماد الأصبهاني من مواليد أصبهان في بلاد فارس وكان من بيت علم ورئاسة، ثم سافر إلى بغداد مدينة العلم والحضارة ودرس في المدرسة النظامية وخالط الكتاب والعلماء ورجالات الدولة. وبعد زيارة قصيرة إلى أصبهان لعدة سنين عاد إلى بغداد ثم عرج بعدها إلى نور الدين محمود بن زنكي في بلاد الشام ثم في خدمة صلاح الدين الأيوبي فكان كاتباً ورفيقاً له. وقد زار مصر ثم عاد إلى دمشق معتزلاً الحياة العامة بعد وفاة صلاح الدين. وخلال هذه الفترة الأخيرة كتب العماد الكاتب الأصبهاني أغلب نتاجه الفكري والتاريخي.

والذي يهمنا من كتبه هو المؤلفات التاريخية: وأولها "الفتح القسي في الفتح القدسي" وفيه يتناول معارك صلاح الدين ابتداءً من معركة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وما أعقبها حتى ٥٨٩هـ/١١٩٣م وقد طبع الكتاب لأول مرة في ليدن ١٨٨٨م ثم طبع في مصر.

أما كتابه الثاني فهو من كتب السيرة الشخصية أو المذكرات حيث يتكلم عن حياته وتنقلاته ثم يتكلم عن أخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وإنجازاتهما وقد أشار بعض مؤرخي التراجم أنه يتكون من سبعة مجلدات لم يبق منها إلا جزئين. أما اسم الكتاب فهو "البرق الشامي" وقد لخصه البنداري في جزئين وسماه "سنا البرق الشامي" طبع في بيروت ١٩٧١م. ولابد أن نشير هنا إلى كتاب آخر من بين مؤلفاته العديدة وهو "خريدة القصر وجريدة العصر" وفيه تراجم لشعراء وأدباء زمانه في كافة أقاليم الدولة الإسلامية وصنفه إلى أربعة أقسام منها العراق ومنها لإيران ومنها لبلاد الشام والجزيرة الفراتية واليمن وآخرها لمصر وبلاد المغرب العربي. توفي العماد

الأصبهاني في دمشق ٥٩٧هـ/١٢٠١م.

أما عن المغرب والأندلس فنشير إلى مؤرخين ذكرناهما في محاور أخرى لشمولية ثقافتهما وتعدد الأنماط التاريخية التي دونا فيها وهما:

❖ الوزير لسان الدين بن الخطيب الأندلسي الغرناطي[١] (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م) وكان لسان الدين بن الخطيب سياسياً ومؤرخاً وأديباً من الطراز الأول. والذي نريد الإشارة إليه في هذا الباب هو (الرسائل) التي دونها حين كان رئيساً للبلاط في غرناطة، والتي تعد نصوص رائعة من الأدب العربي، وكذلك ما دونه عن رحلاته وسفراته كسفير للدولة المرينية ولمملكة غرناطة وهي سيرة ذاتية لمسؤول سياسي ودبلوماسي ومؤرخ مفكر بالإضافة إلى كونها مذكرات هامة عن تاريخ الفترة الزمنية التي عاصرها ابن الخطيب.

❖ أما الثاني فهو المقرّي التلمساني[٢] (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) في كتابه عن لسان الدين بن الخطيب الذي دمجه مع كتابه نفح الطيب وجعله القسم الثاني وعنونه "التعريف بلسان الدين ابن الخطيب"، ذكر فيه نشأته ونسبه ومناصبه الوزارية ومشايخه ومقابلاته مع الملوك والأكابر والرسائل المتبادلة بينهم، ثم إيراد جملة من نثره وشعره ومصنفاته ثم أخيراً ذكر أولاده. وهي كما نلاحظ سيرة فردية لابن الخطيب.

وفي كتاب المقرّي الثاني الموسوم "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض[٣] " وقد ألفه حين كان مقيماً بمدينة فاس وصدر في خمسة أجزاء ١٩٩٤م. والكتاب سيرة فردية للقاضي عياض.

❖ وتأتي "مذكرات" المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران موسى الشيرازي[٤]

---

(١) راجع: (ص).(I.٢)

(٢) المقري، نفح الطيب، بيروت، ١٩٩٥م، (المقدمة).

(٣) المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، خمسة أجزاء، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٤م (المقدمة).

(٤) راجع المؤيد في الدين، مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية، بيروت، ١٩٨٣م (المقدمة ٥-١٨).

داعي دعاة الدولة الفاطمية (في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) لتمثل الأحداث والوقائع والتجارب التي عاشها في بلاد فارس والعراق ومصر وبلاد الشام وهو يدعو للمذهب الإسماعيلي بتأييد من الدولة الفاطمية بمصر.

كان داعي الدعاة المؤيد في الدين من ألمع الشخصيات في مجال المذهب الإسماعيلي وفقهه، وكذلك في النشاط السياسي لترويج المذهب ولكسب التأييد للدولة الفاطمية في مصر التي كانت في تنافس مذهبي وسياسي مع الخلافة العباسية في العراق والأتابكة في بلاد الشام. وقد نجح لفترة قصيرة من الزمن وبمساندة من القائد البساسيري في إعلان النفوذ الفاطمي في بغداد سنة ٤٥٠هـ حيث أجبر الخليفة العباسي القائم بأمر الله على مغادرة بغداد إلى الحديثة على نهر الفرات وذكر اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على مساجد بغداد ورفعت الأعلام والشعارات الفاطمية على مبانيها. ثم ما لبثت الأمور أن عادت إلى نصابها.

ولد المؤيد في الدين في شيراز من بلاد فارس وشب هناك، ثم سافر إلى القاهرة زمن الفاطميين فراراً من العباسيين الذين لاحقوه بسبب دعوته للمذهب الإسماعيلي، وبقي في القاهرة ثلاثة عقود بكاملها يحاضر على طلبته فأثر في الحركة الفكرية والأدبية والسياسية هناك.

ويشير المؤيد في مذكراته إلى حياته الأولى ويذكر والده الذي يبدو أنه كان من أعلام المذهب الإسماعيلي في إقليم فارس. كما يذكر اتصاله بالبويهيين في عهد الملك أبي كاليجار وكان يحضر المناظرات التي يعقدها هذا الملك مع علماء المعتزلة والزيدية والسنة. كما زاد من نشاطه في الأهواز لدرجة تحدى فيها السلطة العباسية مما اضطر الخليفة العباسي إلى تهديد الملك البويهي أبي كاليجار الذي أوعز إلى المؤيد بترك شيراز والأهواز خوفاً من بطش العباسيين به فتوجه المؤيد إلى مصر ٤٣٩هـ.

وفي مصر كانت خيبة الأمل للداعية الإسماعيلي المؤيد في الدين كبيرة فقد وجد الدولة الفاطمية في حالة من التدهور السياسي والفساد الإداري، والخليفة الفاطمي

ألعوبة بيد حفنة من الوزراء والقادة والإداريين الذين يشكلون مراكز قوى وتكتلات سياسية متنافسة داخل البلاط وفي مؤسسات الدولة. وقد انعكس ذلك على قصائده التي نظمها خلال تلك الفترة.

ويبدو أن المؤيد في الدين لم ينجح في دخول أي تكتل ولم تقبله أية زمرة ضمن أعضائها فكان يقرب مرة ويبعد أخرى، مع أنه كان يلاقي الاحترام من الخلفاء الفاطميين وكبار المسؤولين الذين لم يكونوا راغبين في إشراكه في النفوذ والسلطة. وعبثاً حاول مقابلة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله. ثم تحسنت حاله حين تولى الوزارة اليازوري فأصبح ناظراً للمجلس الخاص لفترة قصيرة عزل بعدها لخوف الوزير من تأثير المؤيد على الخليفة ووالدته، فعينه رئيساً لديوان الإنشاء، ثم لم يلبث أن عزل لخوف المتنفذين في السلطة من تأثيره خاصة بعد أن تكررت مقابلات الخليفة المستنصر له. وبعد مداولات سلمه الخليفة شؤون الدعوة الإسماعيلية في المشرق بوصفه خبيراً بأحوال أقاليم المشرق الإسلامي. وفي هذه الفترة نجح المؤيد بالاتفاق مع البساسيري في احتلال بغداد وإعلان الخلافة الفاطمية فيها لفترة لا تتجاوز السنة حيث منحه الخليفة الفاطمي لقب "داعي الدعاة" تقديراً لجهوده. وعبثاً حاول المؤيد الحصول على المال والعسكر من أجل تثبيت النفوذ الفاطمي في بغداد ثم الامتداد نحو الأقاليم الأخرى. فقد كانت الدولة الفاطمية من الضعف بحيث لا يمكنها أن تستجيب لطلبات داعي الدعاة، بل أن الوزير ابن المدبّر نفاه تخلصاً من نشاطاته وطلباته المتكررة.

وأخيراً أيقن داعي الدعاة المؤيد أن لا جدوى من الاستمرار في العمل السياسي ولا الدعوة الإسماعيلية فاعتزل وتفرغ لنشاطه العلمي، وقد أشار إلى ذلك في (المذكرات).

لقد ترك المؤيد في الدين، عدا (المذكرات)، مؤلفات أخرى منها المجالس المستنصرية، والمجالس المؤيدية وهي محاضرات كان يلقيها على الطلبة والدعاة الإسماعيلية. وله عدد من كتب الفقه والتأويل. وتعد كتبه من أهم المصادر الإسماعيلية

في الفقه والفلسفة والرد على الفرق. وفي محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة. واشتهر بتنظيره للإمامة على المذهب الإسماعيلي.

توفي داعي الدعاة المؤيد في الدين سنة ٤٧٠هـ ودفن بدار العلم في القاهرة وصلى عليه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله. وقد نشرت (مذكراته) في بيروت ١٩٨٣م بتحقيق عارف تامر الذي قدم لها وعلق عليها وشرح غوامضها، ولعل مما يدل على اعتزازه بنفسه وإدراكه لقابلياته العلمية والسياسية ما قاله للوزير الفاطمي اليازوري حين اقترح تعيينه رئيساً لديوان الإنشاء: "معلوم ما كان لمتولي هذا الديوان من الجاه الوسيع، والرزق السني الكثير، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة، فإن آثارهم في صناعتهم حاضرة موجودة... وأنت كاتب تفرق بين الجيد والرديء والضعيف في الصناعة والقوى، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب منذ خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إليّ، فإن كنت ممن يجري في حلبتهم فرسه، ويطول نحو أمرهم باعه، فانزلني منزلتهم من الجاه والمال، وإلا فقل لي ما أنت مثلهم ولا في آفاقهم"[(١)].

أما الأمير عبدالله بن بُلقين بن باديس بن زيري[(٢)] آخر ملوك مملكة غرناطة والمتوفى سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، فقد دون مذكراته المتضمنة سيرته وتجاربه في كتابه الموسوم "التبيان" الذي حققه المستشرق ليفي بروفنسال ونشر في القاهرة ١٩٥٥م.

يرى محقق الكتاب أنه ليس من المألوف في تاريخ العالم العربي (في العصر الوسيط) أن نجد ملوكاً أو شخصيات رفيعة اعتنوا بكتابة سيرتهم الشخصية أو مذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة[(٣)].

أما الأمير عبدالله فقد قصد من تدوين مذكراته توضيح سرد تاريخ دولته وما وقع له أثناء عزله ونفيه خارج البلاد. فقد اعتلى الأمير عبدالله عرش غرناطة ٤٦٩هـ/

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨.

(٢) الأمير عبدالله بن بلقين، المذكرات الموسومة (التبيان)، القاهرة، ١٩٥٥م، (المقدمة ٥-١٠).

(٣) المصدر السابق، ص ٥.

١٠٧٧م وزادت الاضطرابات في عهده وكثرت النزاعات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين والمواطئات مع ملك قشتاله ألفونس السادس. وساهم الأمير عبدالله في موقعة الزلاقة عند تدخل المرابطين في الأندلس. لكن اتفاقه مع الملك المسيحي أدت إلى ضياع عرشه فقد حاصره أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في غرناطة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م فاستلم وعزل عن العرش ونفي إلى جنوبي المغرب الأقصى في مدينة أغمات، حيث توفي هناك. ويستطرد المستشرق نفسه قائلاً عن (مذكرات) الأمير عبدالله[1]: "أما كتابة عبدالله لمذكراته، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية في آغمات. وإن هذه الترجمة الشخصية تكوّن أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة. وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلف أن يبرر موقفه السياسي أمام الأخطار التي كانت تهدم مملكته، فإن كتاب "التبيان" يقدم لنا سرداً مفصلاً جداً لجميع الحوادث التي أدت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وإلى تدخل المرابطين في شبه جزيرة إبريا (الأندلس) في السنة التالية.

كما أن مذكرات عبدالله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول، تساعد بصورة أفضل من كتب التأريخ التي ألفت من بعد، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعي والسياسي في الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها، وعلى التقدم الذي حققه في هذا الوقت أنصار استرجاع الأندلس من المسيحيين (حركة الاسترداد) في شمالي شبه الجزيرة".

وتكتنف المذكرات بعض التعابير التي قد تعطي الانطباع لأول وهلة أنها غير صحيحة من الناحية اللغوية ولكنها في واقع الأمر تعابير صحيحة تأثرت إلى حد ما باللغة العامية الأندلسية.

---

(١) المصدر السابق، ص٨.

أما كتب السير العمانية[1]. فالمعروف أن عمان شهدت أوج نشاطها السياسي والعقائدي في القرنين الثاني والثالث الهجريين/السابع والثامن الميلاديين حيث انتشرت الدعوة الإباضية وأثمرت بتأسيس كيان سياسي هو (الإمامة الإباضية). وقد عاصر هذه الأحداث العديد من العلماء والفقهاء ورجال السياسة والحرب وعبر هؤلاء عن وجهة نظرهم تجاه الأحداث التي عاصروها أو تلك التي سبقت عهدهم. ودونوا مواقفهم وانطباعاتهم في مذكرات شخصية اصطلح عليها (بالسير). وهي مذكرات سياسية وعقائدية قصيرة لا تتجاوز بضعة صفحات عبرت عن وجهة نظر شخصية حول الأحداث.

إن هذه السير (المذكرات) تعتبر أقدم ما وصلنا من مصادر في تاريخ إقليم عمان وعليها اعتمد المؤرخون المحليون الذين كتبوا فيما بعد تاريخ عمان مثل العوتبي والأزكوي والسالمي وغيرهم.

والسير عديدة منها: سيرة عبدالله بن إباض وسيرة شبيب بن عطية العماني، وسيرة أبي الحسن علي البسيوي وسيرة أبي المؤثر الصلت بن خميس الخروصي الموسومة (الأحداث والصفات) وغيرها.

أما مصادر السير فالمؤلف يعد شاهد عيان للأحداث التي عاصرها، وهو يدافع عن وجهة نظره بأحداث ووقائع شاهدها ويدعمها بحجج فقهية وشرعية. ومع ذلك فلا بد لصاحب السيرة أن يعتمد على العديد من العلماء ولكنه لا يذكر أسماؤهم، وإنما يكتفي بالقول "السلف" أو "آثار السلف". ثم إن كثرة السير تزودنا بوجهات نظر مختلفة حول الأحداث والأمور التي شهدتها عُمان.

ونتناول اثنتين من السير العُمانية لنرى ما تتضمنه هذه السير من معلومات وآراء. أما الأولى فهي (سيرة شبيب بن عطية العماني) الذي عاصر الإمامة الإباضية الأولى

---

(١) انظر: فاروق عمر فوزي، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني، بغداد، ١٩٧٩م.

(١٣٢هـ/٧٤٩م) وكتب انطباعاته عنها. فهو يدافع عن الخوارج ويبرز بحجج قوية سبب ثورتهم على الأمويين وينفي تهمة المروق عنهم فيقول: "إن الذين مرقوا من الدين هم الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وادعوا الحجة والعذر لأنفسهم ما لم يأذن الله به. فهم حين وقعت الفتنة واختلطت الأمور زعموا أنهم لا يعرفون المخرج منها ولا يعرفون المحق من المبطل ولا يعرفون الظالمين ولا يعرفون المهتدين"[١].

ومن الموضوعات التي عالجها شبيب العماني في سيرته: الموقف من الأمويين والعباسيين الأوائل، وعدم جواز التقية، الثورة واجبة على أئمة الجور. من هم الممثلين الحقيقيين للأمة؟ من هي الفرقة الناجية؟ هل الخوارج مارقة؟ أصول البيعة ونكثها.

أما الموضوعات التي تناولتها السيرة الثانية لأبي المؤثر الصلت بن خميس الخروصي[٢] فهي: الغلبة والقهر والقوة ليست وسيلة أو حجة. مسألة الولاية والبراءة من الإمام الصلت بن مالك. هل يحق للإمام الشاري أن يعتزل؟ وقعة الروضة بين أنصار الإمام الصلت وأعوان الثائر راشد. والمعروف أن الصلت بن خميس كان من أنصار الإمام الصلت بن مالك وكان قد شهد بيعته ٢٣٧هـ/٨٥١م.

* * *

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق،

المبحث السادس

التدوين التاريخي بلغات الشعوب الإسلامية (غير العربية)

وثمة ظاهرة أخرى برزت في هذه الفترة وهي التدوين التاريخي العام العالمي بلغات الشعوب الإسلامية (غير العربية).

إن الظاهرة التي يمكن ملاحظتها في المجتمع العربي الإسلامي الوسيط: "إن ثمة جماعتين ظلتا ضمن إطار الحضارة العربية الإسلامية محتفظتين بلغتهما (الفارسية والسريانية) وإن تعلمتا أو تعلم قطاع واسع من أبنائهما اللغة العربية، كما ظلتا محتفظتين عدة قرون بديانتيهما (الزرادشتية والمسيحية) وإن اجتذب الإسلام الكثير من أبنائهما جزئياً أو كلياً"[١].

فالمعروف أن الفرس كتبوا التاريخ باللغة العربية خلال الثلاثة قرون الأولى من الفترة العربية الإسلامية، فظهرت مؤلفات في (التاريخ المحلي الإقليمي) أشرنا إليها سابقاً عند الكلام عن التواريخ المحلية مثل تاريخ سيستان وطبرستان وأصفهان وقم وبخارى.

ولعل أشهر من كتب تاريخ الفرس الساساني أبو منصور عبدالملك الثعالبي (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وكتابه الموسوم (غرر سير ملوك الفرس) وفي الشاهنامة للفردوسي (٤١١هـ/١٠٢٠م) تختلط الحقيقة بالأسطورة في أخبار الفرس وتراثهم. من هنا لا بد من القول بأن البحث عن تاريخ بلاد فارس في العصر الإسلامي حتى حوالي القرن

(١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ص ٣٦٢.

السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يجب أن يعتمد في غالبيته على كتب التاريخ التي كتبت باللغة العربية لعدم وجود كتاب تاريخي باللغة الفارسية يتعلق بتاريخ الفرس بالمعنى الصحيح حتى بدايات العصر المغولي سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٥م.

لقد أصبحت اللغة العربية لغة الدين والدواوين (الإدارة) والثقافة بالنسبة لكل العالم الإسلامي. وقد تراجعت (اللغة البهلوية) لغة الساسانيين الرسمية وشاعت في القرون الإسلامية الأولى لغة فارسية حديثة محكية مشتقة من البهلوية. وبقيت اللغة (الفارسية الحديثة) حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي لكي تكتمل وتصبح لغة كتابة وأدب، وقد شجعت الإمارات الفارسية الجديدة مثل الصفاريين والسامانيين هذه اللغة الفارسية الحديثة وخاصة في مجال الشعر والأدب الفارسي، وهذا يفسر ظهور الشعراء الفرس الرودكي والدقيقي ثم الفردوسي صاحب الشاهنامة المشهورة. وترجمت بعض أمهات الكتب التاريخية من اللغةالعربية إلى اللغة الفارسية مثل ترجمة البلعمي لتاريخ الطبري كما ترجم كتاب اليميني للعتبي وتاريخ قم للصاحب بن عباد وتاريخ طبرستان وغيرها. وتعد ترجمة البلعمي ٣٥٣هـ/٩٦٤م من أقدم النصوص النثرية الفارسية في الفترة الإسلامية.

وحين غدت بلاد فارس تحت سيطرة كيانات سياسية تركية كالغزنويين والسلاجقة، تبنى هؤلاء سياسة تشجيع اللغة الفارسية بحيث غدت اللغة الثانية في المشرق الإسلامي ولكن ذلك لا يعني احتكار اللغة الفارسية للكتابة بل ظلت ثقافة إيران ثنائية اللغة لأكثر من ثلاثة قرون أخرى حيث كتب بعض المؤرخين باللغتين العربية والفارسية، حتى جاء الحكم المغولي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي فاختفت اللغة العربية وخلى المسرح للغة الفارسية وظهر مؤرخون فرس أمثال: الكرديزي (٤٤٢هـ/١٠٥٠م) في كتابه زين الأخبار الذي يعده الباحثون أول مؤلف تاريخي أصيل كتب باللغة الفارسية ودون الأحداث التاريخية حتى منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وخاصة تاريخ خراسان والهند وقبائل الترك والشعوب الهندية الأوربية. والمرعشي ٤٢١هـ/١٠٣٠م في كتابه (غرر السير)، ونظام الملك الطوسي (٤٨٥هـ)

في كتابه (سياسة نامه). وعلاء الدين عطا ملك الجويني (٦٨١هـ/ ١٢٢٨م) وتاريخه جيها نكشاي (فاتح العالم)، ورشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) وتاريخه (جامع التواريخ). وباستثناء البيهقي (ت ٤٧١هـ/١٠٧٨م) وكتابه (تاريخ البيهقي) فإن قيمة المؤلفات التاريخية الفارسية قبل الفترة المغولية ليست كبيرة بل أن "مجمل الأعمال التاريخية السابقة له والتالية لم تؤد إلا إلى نتائج هزيلة وإلى مؤلفات يغلب عليها الطابع الأدبي وجمع النوادر".[١] أما في الفترة المغولية فيقول شاكر مصطفى[٢]: "فإذا استثنينا الجويني ورشيد الدين فضل الله فإن ما تبقى من كتب لا تضيف في غالبيتها معلومات جديدة أو مهمة إلى ما تقدمه مصادر التاريخ باللغة العربية عن الفترة نفسها، وهي مختصرة وتؤكد على تاريخ إيران وتعتمد أسلوباً فيه الكثير من التكلف والمحسنات البديعية وأوضح مثال على ذلك كتاب الشيرازي (وصاف الحضرة) الموسوم تجزية الأمصار وتزجية الأعصار. وخواندمير (٩٤٢هـ) في كتابه (حبيب السير) وقد استمر الاهتمام بالأسلوب البلاغي على حساب الحدث التاريخي لمدة طويلة في المؤلفات التاريخية الفارسية.

أما الأتراك فيعد كتاب محمود الكاشغري الموسوم (ديوان لغات الترك[٣]) رغم عنوانه من أقدم المصادر المكتوبة باللغة التركية في حوالي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. والكتاب إضافة إلى صفته المعجمية باللغتين التركية والعربية فهو موسوعة عن الأتراك وتراثهم. لقد تكلمنا سابقاً عن التواريخ المحلية أو الإقليمية والذي يهمنا في هذا المبحث هو الكلام عن التواريخ العالمية العامة التي دونت بلغات الشعوب الإسلامية غير العربية.

وسنتناول ثلاثة نماذج من المؤلفات الفارسية التاريخية العالمية العامة (وليس المحلية) وهي: تاريخ البيهقي، وتاريخ جيهانكشاي لعلاء الدين الجويني، وجامع

(١) المرجع السابق، ج٢، ص ٣٨٦-٣٨٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) محمود الكاشغري، ديوان لغات الترك (مخطوطة مطبوعة بالأوفست) أنقرة.

التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمذاني. ويبدو أن النزعة لكتابة التواريخ العالمية العامة والتي ظهرت لدى المؤرخين الفرس مردها الدين الإسلامي الذي اعتنقوه حيث أوجد عند فئة من المؤرخين الفرس دافعاً لتدوين تاريخ الشعوب المختلفة وليس تاريخ الفرس وبلاد فارس وحدها.

ولعل أول مثال نود الإشارة إليه هو (تاريخي بيهقي[1]) أو كما يسميه البعض (تاريخ مسعودي) لأن مؤلفه أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي (ت٤٧١هـ) أهداه إلى السلطان مسعود الغزنوي من آل سبكتكين. ويعد الكتاب من أهم المصادر عن العصر الغزنوي.

عاش البيهقي في نيسابور وتلقى دراسته الدينية والأدبية هناك، وتعلم اللغتين العربية والفارسية، ثم عين في ديوان الرسائل في بلاط السلطان محمود الغزنوي والسلاطين الذين جاءوا من بعده حيث نال حظوة كبيرة لديهم.

ثم سجن بعد ثورة طغرل على الغزنويين، إلا أنه خرج من السجن فاعتزل الحياة الإدارية والسياسية حتى وفاته.

أما كتابه "تاريخ البيهقي" فقد عده الباحثون معلماً بارزاً من معالم كتب التاريخ الإسلامية باللغة الفارسية، بسبب منهجه الرصين والواضح في التأليف وبسبب اعتماده على الوثائق في رصد الحدث التاريخي لقربه من السجلات الموجودة في الدواوين باعتباره موظفاً في الديوان. كما أنه كان شاهد عيان لكثير من الأحداث. والكتاب ضخم يتكون من ثلاثين جزءاً رغم أن المدة التي يتكلم عنها حوالي نصف قرن من الزمان يتناول فيها تاريخ الغزنويين منذ ٤٠٩هـ حتى ٤٥١هـ.

كتب البيهقي كتابه بالفارسية بأسلوب سهل ولكنه مسهب، يذكر خلاله القصص والنوادر ويذكر كذلك نقداً لسياسات السلاطين. ولا يقتصر الكتاب على النواحي

---

(١) عن البيهقي انظر: عباس اشتياني، تاريخ إيران، (مقدمة المترجم)، القاهرة، ١٩٨٩م.

السياسية بل يتكلم عن نظم الغزنويين ومؤسساتهم.

ويذكر شاكر مصطفى[1] أن الكتاب مفقود سوى خمس مجلدات منه، بينما يرى باحثون آخرون أن مجلداً واحداً هو الجزء الخامس بقي من تاريخ البيهقي، والمهم أن الجزء الخامس قد ترجم إلى العربية في القاهرة ١٩٥٦م عن النسخة المحققة في طهران. كما نشر قبل ذلك في الهند ١٨٦٢م[2].

وحين ظهر المغول على الساحة السياسية في المشرق الإسلامي حاول بعض سلاطينهم تخليد تاريخهم وذكراهم مما يشير إلى مؤلفات تاريخية كتبها مؤرخون شاركوا في أحداث هذه الفترة منهم:

علاء الدين عطا ملك الجويني[3] الذي ألف كتاباً في ثلاث مجلدات سماه (جهانكشاي) أو تاريخ فاتح العالم ويقصد به جنكيز خان.

ولد علاء الدين الجويني في بغداد ولعب دوراً سياسياً في العراق بعد الغزو المغولي. ويعد علاء الدين من أسرة عرفت بمكانتها السياسية والعلمية خلال العصر العباسي وفي أيام السلاجقة والمغول عملت في دواوين الدولة.

والذي يطلع على ترجمة الجويني في (تلخيص معجم الألقاب) لابن الفوطي وابن كثير والصفدي والذهبي يلاحظ أن والد الجويني دخل في خدمة المغول مما مهد السبيل لابنه علاء الدين للمشاركة بعده في الإمارة المغولية فأصبح وزيراً بعد احتلال المغول للعراق. وظل قريباً من الأمراء والسلاطين المغول وجاب البلدان معهم في غزواتهم في المشرق الإسلامي فصارت لديه خبرة واسعة عن هذه الأقاليم. وفي ٦٥٤هـ دخل في

---

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٣٨٦-٣٨٨.

(٢) راجع: عباس إقبال اشتياني، تاريخ إيران، (مترجم)، القاهرة، ١٩٨٩م.

(٣) عن علاء الدين الجويني انظر: ابن الفوطي، تلخيص معجم الألقاب. الصفدي، الوافي بالوفيات، النويري، نهاية الأرب. ابن تغري بردي، المنهل الصافي. عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين، ص ١٠ فما بعد. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ٣١١.

خدمة هولاكو فقربه منه وشهد تدمير المغول لقلاع الإسماعيلية في شمالي إيران وأخذ نصيبه من الكتب التي نهبت بعد سقوط قلعة ألموت الإسماعيلية. كما شهد سقوط بغداد على يد المغول ٦٥٦هـ وما حل بها من تدمير وخراب.

وفي ٦٥٦هـ نفسها أصبح وزيراً وممثلاً للمغول في بغداد. ثم غدا ٦٦٠هـ حاكماً إدارياً للمغول في العراق وبقي كذلك حتى قبيل وفاته. وتشير روايات تاريخية أنه كان يدرك أهمية بغداد وحضارة العراق القديمة والعربية الإسلامية العتيدة، ولذلك عمل ما في وسعه لإعادة إعمار ما خربه الجيش المغولي الهمجي وتنشيط التجارة والاقتصاد والحياة العلمية التي دمرها المغول عن قصد.

إلا أن أهل بغداد لم يرتضوا إدارته باعتباره ممثلاً للمغول الغزاة، فتعرض لعدد من محاولات الاغتيال التي فشلت. إلا أن عودة الاستقرار والأمن إلى العراق تحت سيطرة الجويني دفع بالعديد من السكان إلى العودة إلى قراهم ومدنهم، ولم يتوانى الجويني عن شق الترع والأنهار وإعادة إعمار العديد من القرى وتشجيع الزراعة فيها. ونجح الجويني في إعادة جذب العلماء إلى بغداد وكسبهم وتشجيعهم بالجوائز. إلا أنه مات فجأة بعد سقوطه عن فرسه ودفن في تبريز.

ويعد جهانكشاي (تاريخ فاتح العالم[1]) والذي يتناول جنكيز خان من أهم مؤلفاته. ورغم اسم الكتاب فهو لا يتعلق بالفاتح جنكيز خان وحده بل يعالج في مجلده الأول أصل المغول وفتوحات جنكيز خان، وفي المجلد الثاني يتكلم عن ملوك الخوارزمية. أما في المجلد الثالث فيتكلم عن الحشاشين (الإسماعيلية) وحروب هولاكو ضدهم.

ويعلق شاكر مصطفى[2] على الكتاب فيقول: "والكتاب وثيقة معاصرة يأخذ قيمته من منصب صاحبه الرفيع ومن اتصاله المباشر بالأحداث التي شهد، ومن أنه أول كتاب جامع عن المغول.. وقد استفاد المؤرخون العرب المسلمون من معلوماته مثل أبو شامة

---

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٣١١ فما بعد.

(٢) المرجع نفسه.

وابن كثير وابن تغري بردي والقلقشندي، ومما يدل على اشتهاره كثرة المخطوطات التي بقيت منه.." .

وقد طبع الكتاب لأول مرة في طهران طبعة رديئة على الحجر، إلا أن الطبعة العلمية الأنيقة هي طبعة ليدن ١٩١٢م وفيها ترجمة مفصلة للمؤلف وتعليقات على النص وفهارس، وكان الكتاب موضوع رسالة دكتوراة في القاهرة درست الكتاب منهجياً وموضوعياً وترجمت المجلد الأول منه[١].

أما المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمذاني[٢] (المقتول ٧١٧هـ/ ١٣١٨م) فقد كان طبيباً ووزيراً في البلاط المغولي وكتب كتابه "جامع التواريخ" بأمر من السلطان غازان خان، باللغة الفارسية. وقد ذكر أن جده كان يهودياً دخل في خدمة المغول. أما رشيد الدين فقد أسلم وعمل عطاراً (في مهنة الطب) ودرس علوم الأوائل. وقد تقلد رشيد الدين مناصب رسمية في الدولة الإيلخانية. حتى أصبح طبيباً للسلطان المغولي ووزيره.

وتعكس مؤلفات رشيد الدين فضل الله الهمذاني حماسه للإسلام بعد اعتناقه له، فقد ألف في العقيدة والتصوف، وله تفسير للقرآن جرى فيه على منهج الفلاسفة سماه (مفتاح التفاسير). ومن هنا اتهمه أعداؤه برقة الدين إلا أن هذا الاتهام لم يؤثر عليه. وقد عرف عنه بالذب عن المسلمين عند المغول وبناء المساجد والخوانق وغيرها.

اتهم رشيد الدين بقتل ملك التتار بعد أن سقاه دواءً غير مناسب، فقتله الخان الجديد، وترك ثروة طائلة وكتباً أحرقها المغول بعد قتله رغم أنه كان حريصاً جداً على بقائها وانتشارها بعد موته حيث نسخ منها عدة نسخ ووزعها على البلدان لمن يريد أن

---

(١) راجع: عباس إقبال اشتياني، المرجع السابق، صفحة ه.

(٢) عن رشيد الدين فضل الله الهمذاني انظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٣٢. عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين، ص١٣٨-١٥٨. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٦، ص ٧٤. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٤، ص ٣٢١-٣٢٦.

ينسخ منها.

أما كتابه "جامع التواريخ" فيقع في ثلاثة مجلدات جمع فيه رشيد الدين تاريخ المغول وتواريخ الدول الإسلامية الأخرى المعاصرة لعصره ودونه باللغتين العربية والفارسية. وكان رشيد الدين يهدف في البداية إلى كتابة تاريخ المغول وخاصة تاريخ السلطان غازان، ولكن رشيد الدين وسعه وأضاف إليه تواريخ الأمم الأخرى بأمر من السلطان المغولي الجديد.

ويبقى القسم الأول من الكتاب والمتعلق بالتاريخ المغولي القسم الأهم والأصيل من هذا الكتاب[١]: "...وضع المغول في موضعهم من التاريخ العام ولم يكونوا من قبل سوى شعب ملحق بالشعوب الأخرى يتناولونه ذماً أو مدحاً ويتحدثون عن قسوته وجبروته، فكان كتاب رشيد الدين أول الكتب التي أدخلت المغول بوصفهم دولة في مصاف دول التاريخ عامة والإسلامي في النهاية". أما المجلدات الأخرى فهي عامة ومعلوماتها معروفة.

لقد استخدم رشيد فضل الله الهمذاني الوثائق المغولية، وتلقى أخبار المغول وتقاليدهم وعاداتهم من الخبراء بأمر المغول من الترك والصينيين. كما أن معرفته بعدد من اللغات ساعده على جمع مادة أكبر من الرواة والوثائق فقد كان يتقن اللغات العربية والفارسية والمغولية والتركية. ويذكر عباس العزاوي[٢] أن جزءاً من كتابه وهو المسمى "التاريخ المبارك الغازاني" نسبة إلى غازان خان كتب باللغتين العربية والفارسية، وقد نشر النسخة العربية منه، إلا أن النص العربي ركيك في لغته وضعيف في أسلوبه. ولعل غازان خان قد أدرك بعد دخوله الإسلام ضرورة كتابة تاريخ المغول كتابة منظمة متكاملة فكان له ما أراد على يد المؤرخ رشيد الدين فضل الله الذي غدا كتابه مرجعاً للمؤرخين الذين خلفوه.

---

(١) انظر: شاكر مصطفى، المرجع السابق.

(٢) عباس العزاوي، المرجع السابق.

لقد أشار رشيد الدين إلى الأسباب الداعية لتدوين تاريخ المغول فقد لاحظ "أن الدول الماضية في العراق وفارس أبقت أثراً مشهوراً وعملاً محسوساً في التاريخ وسجلت أعمالها فكان لها الذكر، وليس من الصواب أن يبقى المغول دون تاريخ في حين أنهم أحدثوا دوياً في العالم الإسلامي وغيره وهزوا العالم هزة عنيفة"(١).

وقد طبع المجلد الأول من الكتاب بالفارسية في باريس ١٨٣٦م، وطبع المجلد الثاني في لندن ١٩١١م ثم توالت الطبعات في الشرق العربي الإسلامي.

❖ وأخيراً نشير إلى النصوص والكتابات الخميادية الأندلسية(٢):

يمكن أن تعد الكتابات التي دونها مسلمو الأندلس (الموريسكيون) الذين استمروا في البقاء في وطنهم الأندلس بعد سقوطها بيد الإسبان ١٤٩٢م/٨٩٨هـ من نمط السير والمذكرات الشخصية التي كتبها شعب مسلم بلغة إسبانية ـ برتغالية وبحروف عربية.

لقد عانى الموريسكيون معاناة كبيرة في الأندلس بسبب تمسكهم بدينهم وثقافتهم. وقد ابتدع الموريسكيون رغم قسوة الظروف وملاحقة محاكم التفتيش الإسبانية لغة سميت الخميادية عبروا فيها عن حالتهم وآمالهم وتطلعاتهم وما كانوا يعانون منه من مضايقات بسبب حفاظهم على دينهم وهويتهم وحضارتهم الإسلامية ولغتهم العربية.

لقد كانت اللغة الخميادية مظهراً من مظاهر التقية لدى مسلمي الأندلس الذين اختاروا البقاء في بلادهم تحت الحكم الإسباني بدل الهجرة إلى المغرب، متظاهرين بالمسيحية علناً ومتمسكين بالإسلام سراً. وكانت اللغة الخميادية وسيلتهم للتعبير والتواصل بين بعضهم البعض الآخر. والخميادية تحريف للفظ إسباني Al Jamiadia بمعنى الأعجمية أو الأجمية. تطور بمرور الوقت إلى الخمية ثم الخامية ثم الخميادية.

---

(١) رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، باريس، ١٨٣٦م، ج١، ص ٤ فما بعد.

(٢) محمد عبده حتامله، ثقافة الموريسكيينن (المسلمين) في الميزان، ص ٢ فما بعد. دائرة المعارف الإسلامية (الخميادو)، ج١، ص٣٠٣. عبدالجليل التميمي، واقع ومستقبل البحث في تاريخ الموريسكيين الأندلسيين، أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٩١م.

والخميادية هي لغة رومانثية (إسبانية برتغالية) مكتوبة بحروف عربية غالباً. كما وجدت بعض النصوص الخميادية مكتوبة بحروف عبرية أو لاتينية. ويطلق على من يتكلم هذه اللغة الخميادو Al- Jamiado أي الأعجمي أو المستعجم.

لقد دون الموريسكيون بالخميادية ما اعتقدوا بأهميته مثل القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة والمدائح النبوية وكتب الفقه والحديث المهمة وكذلك كتبوا فيها شعرهم ونثرهم ومذكراتهم المعبرة عن آلامهم وآمالهم، فقد قال أحد الشعراء الموريسكيين معبراً عن حالة شعبه:

يارب ... يا من ترى ما يعانيه عبادك
وهم أموات على قيد الحياة.... وأجسادهم تتلظى..
يتعذبون بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون بغير وازع.

* * *

الفصل الخامس

«التاريخ علم غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقلـه، ويصير مجر باً غير غر ولا غمر، وأنه أيضاً جم الفوائد كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر».

السخاوي، التبر المسبوك، ص٢

«لما كان قصدي أن أكتب شيئاً يستفيد منه من يفهمون، فإني أرى أن من الأفضل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلاً من تناول خيالاته، لاسيما وأن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لن يكن لها وجود في عالم الحقيقة. وأن الطريقة التي نحيا فيها تختلف كثيراً عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها وأن الذي يتنكر لما يقع سعياً وراء ما يجب أن يقع إنما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلاً مما يؤدي إلى الحفاظ عليه».

ميكيافلي، الأمير، ص١١١.

التدوين التاريخي عند المؤرخين غير المسلمين في دار الإسلام

أما المصادر غير الإسلامية التي تناولت التاريخ الإسلامي وعاش مؤلفوها في دار الإسلام، فلا بد لنا أن نشير بدءاً بأن شعوب البلاد المفتوحة لم تتعرض لأي ضغط لحملها على الإسلام بل أسلمت فئة وبقيت فئة ثانية على دينها من مسيحيين ويهود وصابئة ومجوس. والذي يهمنا في هذا الفصل من غير المسلمين هم المسيحيين في العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب[1]. وكانت لغتهم الأرامية (السريانية) في العراق وبلاد الشام و(القبطية) القديمة في مصر. على أن الثقافة السريانية كانت على عكس الثقافة القبطية ثقافة فاعلة وحيوية تثاقفت مع الثقافة العربية الإسلامية الجديدة. وقد ظهرت أسماء عديدة في العصر الأموي والعباسي لمؤرخين مسيحيين من النساطرة واليعاقبة أمثال يعقوب الرهاوي الذي عاش في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك وبعده. ثم البطريرك ديونيسوس التلمحري (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م) وله كتاب في التاريخ لم نعثر عليه. ونسب إليه كتاب آخر في التاريخ لمؤلف مجهول (١٥٩هـ/٧٧٥م) وقد طبع بالسريانية سنة ١٩١٠م وترجم إلى اللغة العربية في بيروت سنة ١٩٧٩م. على أن الثقافة السريانية بدأت بالضعف في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وذلك واضح من قلة المؤلفات المتميزة فيها، ولكنها استمرت في الوجود متمثلة في عدد من الأساقفة والبطاركة والكتاب الذين آلفوا فيها مثل ساويرس بن المقفع (ت. ق ٤هـ/ ١٠م) وهو

---

(١) عن تفاصيل تراجم المؤرخين المسيحيين ومؤلفاتهم في المجتمع العربي الإسلامي. راجع: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢، ص ٤١١-٤٥٦. روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، مترجم، ص ١٩٠ فما بعد.

أسقف مصري ألف تاريخاً في سير الآباء البطاركة الأقباط. ومن المؤرخين النصارى الذين تميزوا في الفترة موضوع البحث اثنين: أولهما ميخائيل السرياني (ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) وهو بطريرك اليعاقبة الذي كتب تاريخاً باللغة السريانية في ثلاث مجلدات انتهى فيه إلى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م. وثانيهما غريغوريوس أبو الفرج ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) وهو من الجزيرة الفراتية وكتابه (تاريخ مختصر الدول) كتبه بالعربية والسريانية ويبدأ بالخليقة وينتهي بملوك المغول، وله اهتمامات حضارية وثقافية خاصة المتعلقة منها بالمسيحية ورجالها. ونشير كذلك إلى أيليا (الياس) النصيبي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي الذي كتب كتابه (التاريخ) باللغتين السريانية والعربية، وقد سبق النصيبي ابن العبري في هذا المجال. وسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (ت ٣٢٨هـ) وله كتاب (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) وهو تاريخ عام منذ الخليقة حتى خلافة الراضي العباسي سنة ٣٢٩هـ/٩٣٩م. وابن مماتي شرف الدين الأسعد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) وله كتاب (قوانين الدواوين).

ومن المؤرخين المسيحيين الذين أسلموا وآلفوا في التاريخ علي بن ربان الطبري (ت ٢٤٧هـ) الذي ألف للخليفة المتوكل العباسي كتاب (الدين والدولة) فند فيه مزاعم أهل الذمة ضد الإسلام. وكذلك قدامة بن جعفر (ت ٢٢٠هـ) الذي أسلم في عهد المكتفي العباسي واشتهر بكتابه (الخراج وصنعة الكتابه)، ثم سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت٣٣١هـ) وكان من الصابئة أسلم في عهد القاهر العباسي وكان رئيس أطباء بغداد إلا أنه ألف في التاريخ أيضاً عدداً من الرسائل خاصة في تاريخ السريان وفي تاريخ مذهب الصابئة وفي السلطانيات.

ولعل اهتمام اليهود بالنشاط الاقتصادي وكذلك قلة أعدادهم نسبياً كانت من العوامل التي جعلت مساهمتهم في الكتابة التاريخية في المجتمع الإسلامي نادرة. ولعلنا نشير هنا إلى ما شاء الله اليهودي (ت في مطلع القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) وعاش حتى عهد الخليفة المأمون العباسي وألف في التاريخ كتباً لم تصلنا

أشار إليها ابن النديم في فهرسته. ولا بد من الإشارة بأن الوثائق اليهودية (الجنيزا[1]) والتي اكتشفت في بعض المعابد بمصر والتي تعود إلى القرون من الثالث الهجري إلى السادس الهجري وكتبت باللغة العبرية وبالعربية ولكن بحروف عبرية تسجل أحوال اليهود في مصر وبلاد الشام وأماكن أخرى. وقد أمدتنا الوثائق بمعلومات مهمة عن نشاطات هذه الطائفة في الحقبة الإسلامية.

وسنتناول فيما يلي نماذج من المؤرخين غير المسلمين الذين دونوا مصنفاتهم التاريخية في الفترة موضوع البحث.

❖ دايونيسس التلمحري وكتابه (التاريخ): بطريرك اليعاقبة خلال الفترة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨م حتى وفاته ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م. وقد ضاع الكتاب في غالبيته إلا أن المؤرخين وخاصة ميخائيل السرياني اقتبس منه الكثير وأشار إليه.

ونُسب إلى دايونيسس خطأً كتاب آخر في (التاريخ) وفيه قسم يضم أخباراً عن الفترة الإسلامية حتى العصر العباسي الأول. وقد طبع الكتاب المنسوب إلى دايونيسس في باريس ١٩١٠م[2]. ونظرة فاحصة إلى محتوياته تشير إلى أن المؤلف المجهول لهذا الكتاب الذي كان راهباً لم يهتم بالترتيب الزمني ولا بأسلوب الكتابة، ولكن الكتاب يحتوي على معلومات سياسية اجتماعية واقتصادية لا نجدها عند غيره كما يحوي تفاصيل عن الطوائف المسيحية وخاصة في الفترة التي عاصرها في عهد الخليفة العباسي المنصور.

يختص كتاب التاريخ المنسوب لدايونيسس التلمحري[3] بأحداث إقليم الجزيرة الفراتية (شمالي العراق) ويتخذ نظام الكتابة حسب السنوات ولكنه مرتبك وغير منظم ويبدأ كل حادثة بعنوان كبير.

---

(١) راجع: شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٣٤. كذلك راجع المقالات التي كتبها S.Goit(ص)in عن وثائق الجنيزا G(ص)niz .

(٢) نشر الكتاب في باريس من قبل شابو باللغة السريانية، ١٩١٠م.

(٣) راجع: فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، (مقدمة عن المصادر).

والكتاب في أصله باللغة السريانية إلا أنه ترجم إلى الفرنسية كما وترجمت نصوص منه إلى اللغة العربية. إن المعلومات السياسية التي يوردها عن نهاية الأمويين والعصر العباسي الأول مرتبكة وأحياناً غامضة ذلك لأنه يفسر الحوادث التاريخية ضمن إطار التنبؤات والملاحم الدينية المسيحية فيلوي الحادثة ويحور فيها من اجل أن توافق تلك التنبؤات. ومع ذلك فكونه شاهد عيان لبعض الوقائع تزيد من أهمية ما يذكره فهو يقول مثلاً:

- عن أهل خراسان لم تكن وجوههم سوداً فقط بل ملابسهم أيضاً لذلك سموا بالمسودة.

- يذكر سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة الجزيرة الفراتية بسبب ما حل بها من الدمار نتيجة عدم الاستقرار الذي واكب الثورات هناك وخاصة ثورات الخوارج.

- يذكر ردود الفعل السياسية لسكان الجزيرة الفراتية ضد السلطة العباسية، ويشير إلى عدم حبهم للمركزية الإدارية والضغط الذي كان يمارسه الوالي العباسي. وأن قسماً منهم كان ميالاً للأمويين. وقد قُتل كثير منهم وضاق الباقون ذرعاً فبيضوا أي أعلنوا الثورة ضد العباسيين ورفعوا الأعلام البيضاء فيذكر ثورات الموصل والمدن السورية.

- يشير كذلك إلى ظهور مصلحين ومدعي النبوة بين النصارى من سكان الجزيرة الفراتية مثل (جون) الذي ظهر في إحدى القرى ووحد سكان المنطقة محذراً إياهم من مخاطر استسلامهم للعرب المسلمين. وقد استطاع هذا أن يفرض وجوده على السلطة العباسية التي اعترفت به وتفاوضت معه.

- يظهر أن تردي الحالة الاقتصادية والاجتماعية أدى إلى ظهور أنبياء كذابين أو أدعياء بالمهدية، فيذكر المؤلف أحدهم الذي عاش في دير مار متى في

الموصل ثم خرج إلى قرية بيت راما. وقد أصبح له أتباع كثيرون واندفع الناس نحوه لينفسوا عن الكرب الذي يعانونه ولكن دايونيسس يكذب دعواه، ويذكر بأن رجال الدين المسيحيين والسلطة العباسية تعاونوا على القبض عليه وسجنه.

- يشرح دايونيسس أخبار القسس والبطاركة المسيحيين في منطقته وصلاحهم وتقواهم. فيذكر مثلاً عن القس شمعون أنه كان عفيفاً زاهداً وقد أجبر على قبول البطريركية إلا أنه تنازل عنها بعد مدة قصيرة مفضلاً العزلة وكان محبوباً "من العرب والنصارى" على السواء.

- ويذكر أن لقب (عبدة الرؤوس) كان يطلق على المانوية في تلك الفترة ويظهر أن عددهم كان لا بأس به في منطقة الجزيرة الفراتية.

- يتكلم عن العلاقات البيزنطية ـ العربية ويظهر عطفه وميله نحو دولة البيزنطيين. ويندد بالدور "الانتهازي" الذي وقفه الأرمن من الحروب العربية البيزنطية بسبب مساعدتهم للجيش العربي الإسلامي ونقلهم المعلومات عن تحركات الجيش البيزنطي في المنطقة.

أما من حيث المعلومات الاقتصادية والاجتماعية فمادته المتعلقة بالقضايا الاقتصادية والمالية غزيرة، تتضمن معلومات لا بأس بها عن نوعية الأراضي والعقارات في المدن والقرى وكذلك يوضح العلاقة بين المدينة والقرية والتصادم الموجود بين طبقات المجتمع ذات المستويات الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة.

كما وأن ولعه يظهر في توضيحه حالة الطبقة "دون المتوسطة" والفلاحين والزرّاع وفي هذا لا يضاهيه أي مؤرخ في عصره. وقد يكون هذا الولع نتيجة عدم ارتباط جماعة الـ Monophites بأية طبقة أرستقراطية أو سلطة حكومية.

ويشرح المؤرخ الإجراءات التي اتخذتها السلطة العباسية تجاه الفلاحين والمزارعين وخاصة إجراءات الوالي العباسي موسى بن مصعب وكيف أن الضريبة كانت

أحياناً تؤخذ قسراً قبل الوقت المحدد لها. وأن سكان القرى كانوا يوشمون بختم خاص يدل على اسم قريتهم لمنعهم من الهجرة إلى المدن وهي تذكرنا بإجراءات الحجاج الثقفي في سواد العراق.

كما وأن ممتلكات الكنيسة كانت تسجل في سجلات خاصة لمنع الناس من إيداع أموالهم أو هبتها أو إعطاء أراضيهم إلى الكنيسة من أجل إعفائها من الضريبة.

كما وأنه يذكر المجاعات والأوبئة التي حلت بالجزيرة الفراتية وقتها، إلا أن الذي يؤخذ عليه في هذا الصدد أنه يعزوها إلى تنبؤات وردت في الأساطير والملاحم المسيحية أو الكتب الدينية المسيحية فيقول مثلاً معللاً سبب مجاعة حلت بالجزيرة الفراتية "هذا يتفق مع تنبؤات الرسل تزرع حنطة تحصد شوك".

وإذا ما قارنا تاريخ دايونيسس بتاريخ أبي زكريا الأزدي فهو لا يقل أهمية من حيث كونه تاريخاً محلياً. فكلاهما يتناول الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويتفق كلاهما في موقفه العدائي من السلطة العباسية المركزية وسياستها تجاه الجزيرة الفراتية.

والواقع فإن مثل هذا الموقف السلبي تجاه السلطة المركزية نلاحظه في أغلب التواريخ المحلية مثل تاريخ طبرستان وتاريخ سجستان وتاريخ بخارى... إلخ.

ولعل تاريخ دايونيسس يفصل في معلوماته الاقتصادية، أما تاريخ الأزدي فيفصل في معلوماته السياسية كما وأنه يذكر أخباراً أخرى عن أقاليم مختلفة عدا الجزيرة الفراتية. ويتفق كلا المؤرخين في أن كثرة الضرائب وعنف أسلوب الجباية هي التي أجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدن وبالتالي أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية.

❖ سعيد بن البطريق: بطريرك كرسي مار مرقس بالإسكندرية بالديار المصرية ويعرف باسم (يوتيخيوس) توفي ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م وكتابه معروف بعنوان (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) نشر في جزئين في بيروت ١٩٠٥م ثم طبع في فرنسا مرة ثانية ١٩٦٢م تحت عنوان (حوليات).

وكتاب التاريخ المجموع هو كتاب في التاريخ العام الحولي منذ بدأ الخليقة حتى خلافة الخليفة العباسي الراضي ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م. وأهم ما فيه أنه استند على التواريخ البيزنطية والتواريخ الإسلامية. وفيه تفاصيل عن فترة ما قبل الإسلام من وجهة نظر مسيحية. وتناول تواريخ بني إسرائيل واليونان والرومان وتاريخ المسيحية ثم الروم والفرس. ويشير إلى المانوية والنسطورية والأحداث الهامة في تاريخ الكنيسة والمجامع الكنسية.

ورغم اعتباره الهجرة النبوية الشريفة حداً فاصلاً وحدثاً مهماً في التاريخ إلا أنه لا يفصل فيها بل يتجاوزها إلى تاريخ الإسلام السياسي في عصر الراشدين والأمويين والعباسيين.

❖ ميخائيل السرياني بطريرك اليعاقبة المتوفى سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م وهو من مؤرخي عصر الحروب الصليبية البارزين حيث شهد الصراع الإسلامي ـ الفرنجي وظهور نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية.

كتب باللغة السريانية كتاب (التاريخ) فنشر في باريس ١٨٩٩م كما ترجم إلى اللغة الفرنسية في ثلاثة أجزاء. ويهتم الكتاب بالشأن الديني مع اهتمامه بالشأن السياسي. وينظر إلى الأحداث من وجهة نظر طائفته اليعاقبة. ولعل ما يهم المؤرخ لتاريخ الإسلام ما يذكره ميخائيل السرياني عن أوضاع الذميين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية والعراق ويصبغها بشيء من التحامل ضد الإدارة الإسلامية[1].

❖ ابن مماتي شرف الدين الأسعد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) قبطي مصري من أسرة عملت في الإدارة المالية في مصر وكان ناظراً للديوان في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ثم في عهد ابنه. إلا أن خلافاً أدى به إلى ترك مصر والهرب إلى حلب حيث استقر فيها حتى وفاته.

---

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٤٢٣-٤٢٤.

إن أهم مصنفاته في التاريخ هو كتابه (قوانين الدواوين) وفيه تفاصيل عن الإدارة المالية في مصر من حيث الضرائب والرسوم العينية والنقدية لكل ضيعة من أعمال مصر في عهد الأيوبيين. ولم يبق من الكتاب على حد قول المقريزي إلا مختصره الذي طبع في القاهرة ١٩٤٣م.

ولابن مماتي كتاب آخر في (سيرة صلاح الدين الأيوبي) نظمها شعراً ولكنها فقدت ولم يعثر عليها لحد الآن. كما كتب في عهد صلاح الدين الأيوبي كتاباً في النصائح السياسية للحكام والسلاطين على نمط ما يسمى مرايا الأمراء، وفيه إرشادات إلى الحكام لتحقيق العدالة. ويشير المقريزي أن صلاح الدين الأيوبي كان يكثر من مطالعة الكتاب ويرى القاضي الفاضل الذي كان من صحابة صلاح الدين أن كتاب (حجة الحق على الخلق) لابن مماتي من أهم ما يطالعه الملوك وأنه ما من كتاب يعادل فصلاً واحداً منه[1].

❖ ابن العبري غريغوريوس أبو الفرج الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) مؤرخ سرياني آخر[2]. يمثل امتزاج الثقافتين العربية الإسلامية والمسيحية السريانية. من سكان مدينة ملطية، وكان والده طبيباً يهودياً اعتنق المسيحية فغلب عليه لقب (ابن العبري).

أما غريغوريوس فقد كان إعداده ليكون في سلك رجال الدين المسيحي، وحين انتقل إلى أنطاكية كان راهباً ثم تدرج في مناصب كنسية في مدن عديدة حتى توفي في مراغة بأذربيجان.

درس ابن العبري إضافة إلى اللاهوت الطب والفلسفة وكتب في التاريخ. وقد أثرت الأوضاع السياسية في المنطقة بسبب غزوات المغول عليه فآثر الزهد وسلك طريق الرهبنة. وقد نجح في مهادنة المغول فحمى طائفته منهم.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) نشر الكتاب في بيروت ١٩٥٨م. ثم نشر مرة أخرى في بيروت ١٩٩١م.

وقد اشتهر لابن العبري كتاب عنوانه (تاريخ مختصر الدول) أو يعنون أحياناً (مختصر تاريخ الدول). وقد دونه باللغتين العربية والسريانية مع اختلاف بين النسختين. والكتاب في التاريخ السياسي العام للعالم تكلم فيه عن ابتداء الخلق ثم أوائل الأنبياء وبني إسرائيل ثم الكلدانيين والفرس والإغريق والإفرنج ثم اليونان والمسيحيين والروم ثم دولة العرب المسلمين ثم دولة المغول في زمانه. وغالبية الكتاب في التاريخ العربي الإسلامي ويعطي جانباً من عنايته للمظاهر الحضارية والفكرية وخاصة تراجم رجالات الكنيسة في الفترة العربية الإسلامية . وكذلك الأطباء والكتاب والنقله منهم. ويتحرز في النسخة العربية من ذكر أمور وملاحظات وآراء أشار إليها في النسخة السريانية، مع أن النسخة العربية كما يقول نسخة مختصرة مترجمة عن السريانية.

أما مصادره فهي عربية وفارسية وسريانية وبذلك يكون ابن العبري قد عرفنا على أخبار ومعلومات من المصادر الفارسية والمسيحية تفيدنا في توضيح بعض الأحداث التاريخية. والكتاب مطبوع باللغتين العربية والسريانية عدة طبعات. كما أنه ترجم إلى اللاتينية والألمانية. ويرى آخر محقق للكتاب الأب سليم دكاش اليسوعي أن عنوان النسخة الأصلية للتاريخ المطول لابن العبري هو (تاريخ الزمان) كما ورد في المخطوطات السريانية القديمة. وقد نشره بهذا الاسم من بيروت ١٩٩١م. ومعنى ذلك أن لابن العبري كتابين الأول (تاريخ مختصر الدول) آنف الذكر والثاني (التاريخ المطول) الذي سمي كذلك (تاريخ الزمان)[١].

* * *

(١) راجع: مقدمة المحقق لكتاب ابن العبري (تاريخ الزمان)، بيروت، ١٩٩١م.

الفصل السادس

«وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لا يحتاج السامع فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه من غريب الإعراب ووحشي الكلام، وليس له أن يهذبه جداً وينقحه ويصفيه ويزوقه... لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم».

الجاحظ، الحيوان، ج١، ص ٨٩-٩٠

«وحين أعرته (أي الكتاب) على الأيام بَصَري، وأعدت فيه نظري، تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب: أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غداها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة فكيف في سنين عديدة؟».

الثعالبي، يتيمة الدهر، المقدمة

«رأيت ـ أعزك الله ـ أكثر المتحلين بالأدب في زماننا هذا على خلاف ما عهدت عليه القدماء الماضين والعلماء الأستاذين: يطلب الرجل منهم فناً من فنون الآداب فيقسم له حظ فيه، وينال درجة منه، فلا يرى أن اسم العالم يتم له، ولا الرياسة تنجذب إليه إلا بالطعن على العلماء، والوضع من ماضيهم، والاستحقار لباقيهم. ويكثر ذاك على لسانه حتى يكون أجل فوائده وأكثر ما يمر في مجلسه. ثم لا يقنع بالعلم الذي جذب أطرافه وادعى جملته واحتجز عن المناظر له والمبين عن مقداره بالحجة عليه، بقوم أعدهم لمواثبة من يسأله والانتهار لمن يطالبه، حتى يدعي من العلوم ما لم يخطر له ببال ولا كد فيه ذهناً ولا حمل إلى أهله قدماً ولا عرف له طالباً. ويظن أنه متى لم يعلمه لم يعد عالماً ذهناً ولا حمل إلى أهله قدماً ولا عرف له طالباً. ويظن أنه متى لم يعلمه لم يعد عالماً ولم يحسب رئيساً».

الصولي، أخبار أبي تمام، ص٦ وما بعدها

المعرفة التاريخية
في كتب التراث العربي الإسلامي

من صفات التاريخ الإسلامي تغلغله في أغلب مصادر التراث العربية الإسلامية، حيث نجد معلومات تاريخية ثرة في كتب الجغرافيا والرحلات الإسلامية وفي كتب الأدب العربي وفي المعاجم اللغوية العربية، وكتب الفرق الإسلامية وكتب الإدارة والمال وفي الموسوعات وحتى في كتب البيليوغرافيا (الفهارس). ومن هنا جاءت تسمية علم التاريخ عند العرب (بالعلم المستطيل) أي العلم الذي يستطيل ويمتد إلى كل العلوم الأخرى من عقلية أو نقلية فالمؤرخ بإمكانه أن يكتب تاريخ علم الطب أو علم النبات أو علم الفلاحة، كما وأنه بإمكانه أن يكتب عن طبقات الأطباء والفقهاء والمحدثين في نفس الوقت الذي يكتب في التاريخ العام أو تاريخ الدول والأسر الحاكمة والفتوحات وقد فعل المؤرخون المسلمون ذلك. وأكثر من ذلك فإن كتب التراجم العربية الإسلامية تحوي نسبة كبيرة من المعلومات المتعلقة بمظاهر الحضارة والمعرفة علمية وإنسانية.

وسنتناول فيما يلي بعض كتب التراث العربي الإسلامي التي حوت بين دفاتها معلومات تاريخية والتي يمكن أن نطلق عليها المصادر الرافدة للتاريخ عند المسلمين.

* * *

(١)

كتب الأدب والثقافة العامة:

تزخر كتب الأدب من شعر ونثر ومعاجم لغوية بالمعلومات التاريخية ولذلك فإن المؤرخ لا يستغني البتة عنها في كتابته للتاريخ، ويمكنه أن يستنبط منها الكثير من حقائق التاريخ أو يسند بها رواياته التاريخية[١]. والمعلومات التاريخية الموجودة في المصادر الأدبية تعد عموماً معلومات موثوقة من حيث المبدأ لأنها وردت بطريقة غير مباشرة وغير مقصودة. ولعل أهم المصادر الأدبية علاقة بالتاريخ مؤلفات الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٨م) ورسائله المتنوعة وكتب ابن قتيبة (٢٧٦هـ) وأبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) وكتاب المبرد (٢٨٦هـ) الموسوم بالكامل. وكتاب ابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٧هـ) المسمى (العقد الفريد)، ومؤلفات الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) مثل لطائف المعارف ويتيمة الدهر. هذا بالإضافة إلى دواوين الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين المعاصرين للفترة الزمنية موضوع البحث، ورسائل الأدباء أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن عبدون ولسان الدين بن الخطيب وابن حزم الأندلسي والمقريّ وغيرهم.

أما الجاحظ فيعد من ألمع الأدباء الذين تمتعوا بقابليات فذة في الملاحظة الثاقبة والنقد الصحيح لمجتمع عصره[٢]. وتزودنا مؤلفاته العديدة مثل: البيان والتبيين والحيوان والبخلاء والعثمانية وكذلك مجموعة رسائله بمعلومات تاريخية وحضارية وثقافية مهمة عن العصر الإسلامي لا يستغني أي مؤرخ عنها.

---

(١) راجع: فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، (المقدمة).

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٦. كذلك شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٢١٨. فاروق عمر، الجاحظ مؤرخاً، مجلة آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٢م. محمد الدروبي، فصول مختارة لأبي عثمان الجاحظ، دار البشير، عمان، ٢٠٠٢م.

لقد كان الجاحظ معتزلي المذهب عباسي الولاء، عاش في العصر العباسي الأول عصر الازدهار الحضاري، ولد واستقر في البصرة وشهد مساجلات شعرائها وأدبائها في (المربد) فنشأ مثقفاً واعياً لهموم عصره لاختلاطه بالناس وحضوره مجالس الأصمعي وأبي عبيد معمر بن المثنى فأخذ منها لغة عربية متقنة وثقافة عامة بمستوى رفيع.

وكانت بيئة البصرة بيئة تجارية حيث تختلط العناصر المتنوعة، وبيئة ثقافية سياسية حيث يدور النقاش في أمور عديدة مثل علم الكلام والتوفيق بين العقيدة والعقل ومسائل السياسة وخاصة مسألة الخلافة والنزاع بين الفرق والحركات الدينية السياسية والزندقة والشعوبية ومسألة الموالي وعلاقتهم بالعرب، خاصة وأنه ينتمي إلى الموالي المرتبطين ببني كنانه. وقد كانت ملاحظاته الذكية تستقي معينها من ثقافة البصرة الثرة.

وفي بغداد درس الفلسفة اليونانية المترجمة إلى العربية في بيت الحكمة، وتسلح بالمنطق والجدل وعلم الكلام وتعرف على زعماء المعتزلة النظام وثمامة بن أشرس، كما اتصل بقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد وابنه محمد والفتح بن خاقان والوزير محمد بن عبدالملك الزيات وكانت نهاية هذا الأخير هي نهاية الجاحظ أيضاً[١].

أما مؤلفاته فتعد مشاركة حية في التاريخ الحضاري والاجتماعي والسياسي للأمة الإسلامية، ولعل ما ألفه عن الخلافة هي التي جعلته مقرباً للعباسيين فقد كانت كتاباته تهدف إلى تبرير حق العباسيين بالخلافة مظهراً دور العرب في الثورة العباسية، وكانت رسائله موجهة إلى المسؤولين وربما كانت أيضاً مستوحاة من رغبة السلطة. ومن هنا فإنها تبدأ بشكل إجابة على سؤال أو طلب من وزير أو مسؤول كبير.

كما وأنه دافع عن مذهب الاعتزال الذي غدا عقيدة رسمية للدولة العباسية منذ

---

(١) شارل بلاث، بيئة البصرة وتكوين الجاحظ (مترجم)، دمشق، ١٩٦١م.

أواخر عهد الخليفة المأمون ودافع عنه مهاجماً المشبهة والحشوية أو العامة من الناس الذين لا يفهمون الاعتزال. وأكثر من ذلك فقد كان الجاحظ رأس الرمح في الدفاع عن النزعة العربية الإسلامية المرنة الوسطية المنفتحة على مختلف الثقافات مفنداً النظرة الشعوبية الزندقية التي حاولت إعادة القديم إلى قدمه وأنكرت دور العرب التاريخي والحضاري وهاجمت لغتهم ودينهم الإسلام.

لقد غدت مؤلفاته في الأدب متميزة حتى سماها الدارسون (الأدب الجاحظي) ومع ذلك فهي تحوي ملاحظات ذكية حول مختلف الأمور. ففي كتاب الحيوان معلومات في علم الكلام وما وراء الطبيعة وعلم الاجتماع. ويحوي البيان والتبيين موضوعات في الإنسانيات. أما في الفكر السياسي فكتابه البخلاء يدافع عن العرب ويهاجم الشعوبية العنصرية. أما كتابه العثمانية فيؤكد شرعية انتخاب الخلفاء الراشدين وينتصر لمذهب أهل الحديث الذي تبلور فيما بعد إلى مذهب أهل السنة والجماعة الذي تبناه العباسيون ويهاجم دعاوى الفرق المعارضة ويبرر وصول العباسيين إلى السلطة. وفي رسالته في النابتة رد على أنصار الأمويين. وفي رسالته (في مناقب الترك) أوضح دور الأتراك في إسناد الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني. وفي كل ذلك تبنى الجاحظ المعيار الذي شاع وانتشر خلال العصر العباسي والقائل بأن الثقافة والفكر والولاء هي المعيار لتقويم الشخص وليس الدم والنسب والقبيلة كما كان شائعاً في العصر الأموي. أما الدولة فكانت عند الجاحظ محوراً لحركة التاريخ الحضاري أكد على دورها في تحقيق العدل فقد قرن صلاح المجتمع بصلاح الحاكم وعدالته.

وظل الجاحظ مدافعاً عن الفكر الاعتزالي باعتباره الفكر الأنسب للمجتمع الإسلامي المتطور، ولكن ما أن انتصر "الفكر السني" بعد الأخطاء السياسية التي ارتكبها المعتزلة حين وصلوا إلى السلطة حتى انعزل الجاحظ عن المجتمع، وظلّ منكباً على رسائله وكتبه التي جعلته في عداد أشهر الموسوعيين المسلمين.

❖ أما أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ أو ٣٦٢هـ) فهو علي بن الحسين المرواني

الأموي[1]. عاش في أصفهان ونشأ في بغداد وكان على صلة بوزير البويهيين المهلبي. وأبو الفرج مثل الجاحظ قبله والمسعودي معاصره كان موسوعياً كتب في موضوعات متنوعة مثل أيام العرب والديارات وجمهرة النسب ونسب المهالبة. ولعل أهم مؤلفاته (كتاب الأغاني) الذي يقع في إحدى وعشرين مجلداً تزخر بالمعلومات التاريخية والحضارية. وقد أشار إلى أسانيده ومصادره وبعضها مفقود. كما انتقد بعض المعلومات التي رواها المؤلفون قبله مثل ابن الكلبي وابن خرداذبه.

ولأبي الفرج كتاب آخر في التاريخ هو (مقاتل الطالبيين) الذي يتضمن أخبار من قتل من آل أبي طالب من علويين وجعفريين وغيرهم.

❖ أما أبو الحسن محمد بن أبي طاهر الحسين الموسوي والمعروف (الشريف الرضي[2]) والمتوفى سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م فقد خاض هو الآخر غمار السياسة وكتب في التاريخ رغم كونه شاعراً وأديباً. عاش في بغداد أيام النفوذ البويهي واختير نقيباً للطالبيين فيها وهي نفس المسؤولية التي كان يضطلع بها أبوه. وكانت علاقته بالخلافة العباسية بين مد وجزر إلا أنها كانت عموماً علاقة هادئة وحذرة.

ومؤلفات الشريف الرضي عديدة فله ديوان شعر مطبوع، وله كتاب في معجزات القرآن والتأويل، كما أنه جمع مختارات من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في كتاب أسماه نهج البلاغة، وكتب سيرة والده، كما ألف كتاباً في أخبار القضاة.

❖ ويعد أبو محمد علي بن أحمد بن حزم[3] المولود في قرطبة والمتوفى في ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م من أشهر المؤرخين والشعراء والفقهاء والفلاسفة الأندلسيين، ومن مؤسسي

---

(١) راجع: ابن خلكان، وفيات الأعيان. ياقوت الحموي، معجم البلدان. كذلك : شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص ٥٤.

(٢) ديوان الشريف الرضي، بيروت، د.ت. كذلك عبدالفتاح الحلو، الشريف الرضي، القاهرة، ١٩٨٦م. محمد عبدالغني، الشريف الرضي، دار المعارف، ١٩٧٠م. دائرة المعارف الإسلامية، (الشريف الرضي).

(٣) انظر مقالة (ابن حزم الأندلسي) في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، الجزء الثالث.

المذهب الظاهري الذي انتشر في الأندلس.

درس على شيوخ أكفاء في الفقه الحديث واللغة وعلم الكلام في جامع قرطبة الكبير. وكان أبوه موظفاً إدارياً. إلا أن عصره كان عصر الأزمات والمحن والتقلبات السياسية. وبقي موالياً للأمويين في الأندلس، ثم غدت الأندلس مسرحاً لملوك الطوائف فقرر ابن حزم الاعتزال في موطن ولادته واتخذت إجراءات حكومية لإسكاته وعدم السماح له بالعمل في حقل التدريس. أما مؤلفاته فقد ترك أربعمائة مؤلفاً بين كتاب ورسالة: منها كتاب في تاريخ الفرق والمذاهب بعنوان (الفصل في الملل والنحل) ورسالة في (مراتب العلوم) حيث يرى أن كل العلوم بمختلف أنواعها مرتبطة ببعضها، وتهدف كلها الوصول بالإنسان إلى النجاح والسعادة في الحياة الآخرة. كما يرى بأن كل العلوم تحتاج من دارسها التحري والبحث العميق وهو أمر لا يمكن تحقيقه دون ترك مباهج الحياة ومغرياتها.

ولشخصية ابن حزم جوانب متعددة فهو أديب لامع وفقيه وعالم كلام وفيلسوف ومفكر ولكن الذين يهمنا منه هو ابن حزم المؤرخ فقد أرخ في الفكر الديني وتاريخ الفرق الإسلامية. ويعد كتابه آنف الذكر (الفصل) موسوعة شاملة للفكر الديني قبل الإسلام وبعده. حيث يورد تفاصيل دقيقة وموثقة مما يجعل هذا الكتاب في مصاف الكتب التاريخية القيمة.

❖ ويأتي القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني العسقلاني[(١)] (ت ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) في مقدمة أدباء عصره. وكان كاتباً لصلاح الدين الأيوبي في الديوان. وله مجموعة من الرسائل والمذكرات. وقد عنون الأولى (بالمنشآت) وهي تلك الرسائل التي كتبها لصلاح الدين، وأما المذكرات فسماها (المتجددات) وتشتمل على مذكراته اليومية أثناء قيامه بالعمل. ورغم أهمية هذه المؤلفات فإن المرء يتوقع من القاضي الفاضل وكان قريباً من صلاح الدين أن يكتب كتاباً في سيرة السلطان ومنجزاته وتاريخ

(١) انظر: شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ١٩٣.

ذلك العصر كما فعل صاحباه ابن شداد والعماد الكاتب الأصفهاني. وقد أتينا على ذكره سابقاً في محور آخر.

❖ أما المؤرخ والأديب والوزير أبو عبدالله محمد بن عبدالله لسان الدين ابن الخطيب[1]، فهو من أبناء مدينة غرناطة، وهو عربي من قبيلة مراد اليمانية التي هاجرت من بلاد الشام إلى الأندلس في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. توفي ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م.

درس ابن الخطيب في غرناطة بالأندلس على يد شيوخ بارزين في العلم، ثم دخل في الإدارة وعمل سكرتيراً للوزير وكاتباً للإنشاء ورئيساً للديوان بلقب وزير، ثم رقي إلى مرتبة (ذي الوزارتين). وبسبب التقلبات السياسية في عصره دخل السجن ثم عفي عنه وسمح له بالسفر إلى مراكش بالمغرب فاستقرت به الحال وكتب هناك العديد من مؤلفاته المعروفة التي تجاوزت ستين كتاباً.

إلا أن لسان الدين ابن الخطيب عاد مرة ثانية إلى الأندلس وأعيد إلى الوزارة لفترة من الزمن تعرض بعدها إلى دسائس ومؤامرات من قبل منافسيه وأعدائه الذين اتهموه بالزندقة حيث حوكم وأعدم.

ومع أن لسان الدين ابن الخطيب المرجع غير المنافس لتاريخ الأندلس وثقافتها في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، فقد ألف في مجالات أخرى عديدة منها الأدب والشعر والفلسفة والتصوف والطب. وقد كانت (رسائله) التي كتبها حين كان رئيساً للبلاط من النصوص الرائعة في الأدب العربي. وكذلك ما كتبه عن رحلاته وأسفاره كسفير للدولة المرينية ولمملكة غرناطة.

على أن شهرته كمؤرخ طغت على سائر النشاطات الفكرية التي اتصف بها فقد ألف كتاب (الإحاطة بتاريخ غرناطة) وكذلك (اللمعة المرضية في الدولة النصرية)

---

(١) عن لسان الدين بن الخطيب والمصادر التي تكلمت عنه راجع: دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة.

وفي هذين الكتابين يدون لسان الدين معلومات موسوعية عن الحضارة الإسلامية في غرناطة مع تراجم لسير ملوك الدولة النصرية. وكان كتاب (أعمال الأعلام) من آخر أعماله التي لم يكملها وهو كتاب في تاريخ الإسلام يختص القسم الأول منه بالمشرق الإسلامي والقسم الثاني بالأندلس والثالث بتاريخ المغرب العربي وصقلية. ونشير إليه هنا كأديب ونقول بأن رسائله تحوي معلومات تاريخية ثرة.

❖ويحوي كتاب (الكامل) للمبرد (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)[١] معلومات تاريخية مهمة خاصة ما يتعلق منها بفرقة الخوارج وتاريخ الأمويين. وفيه العديد من الرسائل المتبادلة والخطب السياسية. أما ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) فهو عالم في اللغة والأدب والقرآن والحديث وله في ذلك كله مؤلفات عديدة ولكن الذي يهمنا في مجال التاريخ هما كتابي المعارف وعيون الأخبار. أما الأول فموجز غاية الإيجاز ويحوي معلومات أساسية في التاريخ لسد حاجة كتاب الدواوين منتهياً في عهد المعتصم. أما الثاني فيتحدث في أمور متنوعة تتعلق بالحضارة والثقافة والنظم لا علاقة لها بالسياسة. ويبدو أن ابن قتيبة من خلال كتبه ناقداً بارعاً للمعلومات ولمصادرها مبدياً وجهة نظره في بعض الأمور التي يوردها.

❖ أما كتاب التنوخي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"[٢] فهو من كتب الثقافة العامة ويضم بين دفتيه أخباراً اجتماعية واقتصادية وسياسية وإدارية ولفئات متنوعة من الناس. أما الثعالبي (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) فكتب يوضح هدفه من تأليف كتابه "يتيمة الدهر" فقال[٣]: "وقد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم وتدوين كلماتهم، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم؛ فكم من كتابٍ فاخرٍ عملوه، وعقدٍ باهرٍ نظموه، لا يشينه الآن إلاَّ نبوّ العين عن إخلاق جدته، وبِلَى بردته، ومجّ السمع لمردداته، وملالة

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٨٧. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج١، ص ٢٢١.

(٢) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، لندن، ١٩٢١م.

(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر، ص ٨٣.

القلب من مكرراته، وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ولذّة الجدة وحلاوة قرب العهد وازدياد الجودة على كثرة النقد غير محصورة بكتاب يضم نشرها، وينظم شذرها، ويشد أزرها، ولا مجموعة في مصنف يقيد شواردها ويخلد فوائدها. وقد كنت تصديت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلاثمئة والعمر في إقباله، والشباب بمائه فافتتحته باسم بعض الوزراء مجرياً إياه مجرى ما يتقرب به أهل الأدب إلى ذوي الأخطار والرتب، ومقيماً ثمار الورَق مقام ثمار الورِق، وكتبته في مدة تقصر عن إعطاء الكتاب حقه، ولا تتسع لتوفيه شرطه فارتفع كعجالة الراكب وقبسة العجلان، وقضيت به حاجة في نفسي، وأنا لا أحب المستعيرين يتعاورونه، والمنتسخين يتداولونه، حتى يصير من أنفس ما تشح عليه أنفس أدباء الإخوان، وتسير به الركبان إلى أقاصي البلدان، فتواترت الأخبار وشهدت الآثار بحرص أهل الفضل على غدره، وعدهم إياه من فرص العمر وغرره، واهتزازهم لزهره وافتقارهم لفقره، وحين أعرته على الأيام بصري، وأعدت فيه نظري تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب، "أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، وهذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة".

❖ أما أبو الفضل الميداني (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م) الأديب واللغوي فألف كتاباً لم يؤلف مثله في موضوعه هو "مجمع الأمثال" وأشار إلى منهجه وغايته من تأليفه في مقدمة طويلة نافعة نذكر منها[١]:

"وبعد فإن من المعلوم أن الأدب سلم إلى معرفة العلوم، به يتوصل إلى الوقوف عليها، ومنه يتوقع الوصول إليها، غير أن له مسالك ومدارج ولتحصيله مراقي ومعارج، من رقى فيها درجاً بعد درج، ولم تهم شمس تشميره بعرج، ظفرت يداه بمفاتح إغلاقه وملكت كفاه نفائس أعلاقه، ومن أخطأ مرقاة من مراقيه بقي في كد الكدح غير ملاقيه وإن أعلى تلك المراقي وأقصاها وأوعر هاتيك المسالك وأعصاها هذه الأمثال.. ولهذا

(١) الميداني، مجمع الأمثال، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

السبب خفي أثرها وظهر أقلها وبطن أكثرها... وإن لا وقوف عليها إلا للكامل العتاد كالسلف الماضين الذين نظموا من شملها ما تشتت وجمعوا من أمرها ما تفرق فلم يبقوا في قوس الإحسان فزعاً....".

يشير الميداني إلى أن تأليفه للكتاب جاء بطلب من ضياء الدولة محمد ابن أرسلان السلجوقي ثم يعتذر في نهاية مقدمته عما يمكن أن يجده القارئ من الخلل أو التقصير فيقول: "وأنا أعتذر إلى الناظر في هذا الكتاب من خلل يراه أو لفظ لا يرضاه فأنا كالمنكر لنفسه المغلوب على حسه وحدسه منذ حط البياض بعارضيّ رحاله وحال الزمان على سوادهما فأحاله.. وانحى على عود الشباب فمص ريّه وملكت يد الضعف زمام قواي.. وكأني أنا المعني بقول الشاعر:

وهت عزماتك عند المشيب	وما كان من حقها أن تهي
وأنكرت نفسك لما كبرت	فلا هي أنت ولا أنت هي
وإن ذكرت شهوات النفوس	فما تشتهي غير أن تشتهي

وأعيذه أن يرد صفو منهله التقاطاً... بل المأمول أن يسد خلله ويصلح زلله فقلما يخلو إنسان من نسيان وقلم من طغيان".

ولعلنا ننتهي إلى القول بأن الباحث الواعي في التاريخ والمؤرخ المفكر يستنبط من المصادر الأدبية الكثير من المعلومات التي تسند الأخبار الموجودة في كتب التاريخ.

***

(٢)

كتب الجغرافية والرحلات:

إن المادة التاريخية في هذه المصادر رغم قلتها بالمقارنة مع غيرها، ولكنها مهمة وتحل العديد من الإشكالات التاريخية وتوضحها وخاصة في المظاهر الاجتماعية والاقتصادية والإدارية. وكان للاهتمام بالجغرافية دوافع عديدة عند المسلمين لعل أولها التجارة ثم الرحلة في طلب العلم والرغبة في المشاهدة والاطلاع وزيادة المعرفة والمغامرة والحج وحينما توسعت دار الإسلام زادت رغبة الدولة والمجتمع إلى معرفة ثروات البلدان المفتوحة الجديدة وتقدير ضرائبها والتعرف على مناخها وطرقها ومسالكها ومحاصيلها فزاد الاهتمام بجغرافيتها.

ولعل من أوائل كتب الجغرافية ما كتبه هشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٤هـ)عن البلدان وكذلك عبدالملك الأصمعي (ت ٢١٧هـ) في وصف جزيرة العرب ونباتها ومياهها وأنوائها. ولكن هذه الكتب مثلت البدايات، أما فترة النضج في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي - فقد ظهر فيها جغرافيون لامعون من أقدمهم ابن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ) في كتابه المسالك والممالك، وقدامه بن جعفر (ت ٣٢٠هـ) في كتابه الخراج وصنعة الكتابه ومحمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣هـ) في جغرافية الأندلس. وتأثرت الجغرافية الإسلامية باليونان وذلك واضح فيما كتبه اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في البلدان والكندي (ت ٢٦٠هـ) في رسم المعمور من الأرض وابن خرداذبه وابن رسته (القرن الرابع الهجري) في الأعلاق النفيسة. إلا أن الجغرافية الإسلامية الخالصة ظهرت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده واعتمدت على المشاهدة

والرحلة والتجربة وتفرعت كما أشار سيد مقبول أحمد إلى فروع عدة نذكر منها[1]:

(١) الجغرافية التي وصفت أقطار العالم الإسلامي وتتمثل بالبلخي (٣٢٢هـ) في كتابه صورة الأرض والذي ربما كان أول من استقل عن الجغرافية اليونانية. ثم الاصطخري (ت. ق ٤ هـ) في المسالك والممالك ثم ابن حوقل (ت ٣٨٠هـ) في المسالك والممالك ثم المقدسي (ت ٣٨٧هـ) في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ثم الإدريسي (٥٦٠هـ) في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

(٢) الجغرافية التي تخصصت في قطر واحد مثل الهمداني (ت ٣٣٤هـ) في صفة جزيرة العرب، والبيروني (ت ٤٤٠هـ) في تحقيق ما للهند من مقولة والبكري القرطبي (٤٨٧هـ) فيما ذكره عن الأندلس في كتابه (المسالك والممالك).

(٣) المعاجم الجغرافية مثل البكري (في معجم ما استعجم) وياقوت الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) في (معجم البلدان). أما الأول فهو أول معجم جغرافي عربي صدر في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. أورد فيه جملة من الأخبار والتواريخ والمنازل والديار مرتبة على حروف المعجم. وقد أحاط المؤلف بكل الكتابات السابقة لعصره. أما الكتاب الثاني فقد وضعه ياقوت بعد تجربة وخبرة اكتسبها من خلال الرحلة والتجارة ورتبه على حروف المعجم وفيه وصف جيد عن ديار الإسلام من الأندلس إلى بلاد ما وراء النهر. وقد اختصره ابن البغدادي في (مراصد الاطلاع) واختصره السيوطي في (مختصر معجم البلدان).

(٤) الموسوعات الجغرافية مثل ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار التي يتكون من عشرين جزءً، والحميري

---

(١) راجع: Sayd Maqbul Ahmad. A History of Arab-Islamic G(ص)ography. Amman. 1995. كذلك: نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافية (مترجم)، ص ٢٥. انظر: المكتبة الجغرافية العربية، تحقيق: دي خويه، ليدن، ١٨٨٩م.

(ت ٨٦٦هـ/١٤٦١م) في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار).

وهناك موسوعات عامة تحتوي على معلومات لغوية وأدبية وجغرافية وتاريخية وإدارية وغيرها مثل كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لشهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ويتكون من ٣١ مجلداً ويهمنا من الكتاب في هذا المحور بصفة خاصة القسم الخامس الذي يحوي معلومات عن طبائع البلاد والمدن والناس.

❖ وكتب أبو العباس القلقشندي[١] (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) كتاباً موسوعياً عاماً وشمولياً سماه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ويحوي على معلومات تاريخية متنوعة ومفيدة.

أما لقبه فيرجع إلى قرية قلقشندة إحدى قرى مديرية القليوبية بمصر. وهو عربي في نسبه الذي يعود إلى فزارة من قيس عيلان التي نزلت مصر منذ أيام الفتوحات الإسلامية. درس الفقه في القاهرة وبرع في اللغة والأدب وحصل على الإجازة بالفتيا والتدريس على المذهب الشافعي. على أن براعته في الكتابة والإنشاء لفتت إليه الأنظار ورشحته للعمل في ديوان الإنشاء حيث التحق بهذا الديوان ٧٩١هـ. ويذكر القلقشندي ذلك في مقدمة كتابه: "وقد كانت لديوان الإنشاء أهمية خاصة في هذا العصر وكان للمرشح لهذا العمل أن يكون من أقطاب النثر والبلاغة الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شؤون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية وسير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم".

ويبدو أن القلقشندي ظل قائماً على ديوان الإنشاء حتى قبيل وفاته، وقد كتب كتابه وهو على رأس عمله وهذا يفسر كثرة استخدامه للسجلات والوثائق والعهود الموجودة في الديوان. وقد أمضى أعواماً طويلة يراجع السجلات ويختار منها الأفضل والأكثر فائدة من خزانة أسرار الدولة.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة، ١٩١٣م-١٩١٧م.

أما الكتاب فقد قسمه القلقشندي إلى عشر مقالات ومقدمة وخاتمة، أفرد للجغرافية مقالته الثانية التي قسمها إلى أقسام أربعة ذكر في قسمها الأول الأرض وطبيعتها، وتناول القسم الثاني الخلافة ومن وليها من الخلفاء وعالج الثالث تاريخ الديار المصرية، أما الرابع فيتعلق بالبلدان المحيطة بمصر، ويتميز القلقشندي بأمانته العلمية ودقته في عدم التصرف فيما ينقله. وإذا أراد أن يضيف شيئاً من رأيه فإنما يفعل ذلك مع التزام كامل باحترام آراء غيره. هذا مع تميز في الأسلوب والثقافة الشمولية. ويقع الكتاب في أربعة عشر جزءاً كل جزء يختلف في موضوعاته عن الجزء الآخر، فهو والحالة هذه موسوعة معرفية ولعله من أغنى المصادر العربية في النصوص التي احتواها.

وتتبين أهمية الجغرافية الإسلامية وغناها المعرفي في قول كراتشكوفسكي "أن الجغرافية أعظم تراث تركه العرب للمعرفة البشرية".

أما الرحلات[1] التي قام بها أناس عديدون ومن ثم كتبوا أخبارهم في رحلاتهم تلك فهي الأخرى كثيرة. أما دوافعهم فلا تتعدى الحج أو التجارة أو حب الاستطلاع وطلب العلم أو السفارة في مهمات رسمية مثل ابن فضلان (٣٠٩هـ) الذي أوفد إلى ملك البلغار وسجل رحلته في كتاب استفاد منه المسعودي والاصطخري وياقوت الحموي. وقد دمج بعضهم مشاهداتهم في كتبهم مثلما فعل المسعودي واليعقوبي والمقدسي وابن خلدون. ومع كثرة الرحلات الإسلامية فإن ما وصلنا القليل من كتب الرحلات، ولعلنا نشير هنا إلى رحلة السيرافي من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ورحلة بزرك بن شهريار إلى الهند في القرن الرابع الهجري. وشهد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وما بعده العديد من الرحالة المشارقة مثل ناصري خسرو (٤٨١هـ/١٠٨٨م) في كتابه سفرنامه والهروي (ت ٦١١هـ) الإشارات إلى معرفة الزيارات وعبداللطيف البغدادي (القرن السابع الهجري) في الإفادة والاعتبار. أما

---

(١) نيقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، ١٩٦٢م. السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ٢١١-٢٣٤.

المغرب فهناك أبو حامد الغرناطي (ت ٥٦٥هـ) في تحفة الألباب وابن جبير البلنسي (ت ٦١٤هـ) الرحلة وابن بطوطة الطنجي (ت ٧٧٠هـ) في الرحلة والعبدري (القرن السابع الهجري) في رحلته إلى المشرق والونشريسي (ت ٧٠٠هـ) في رحلته إلى المشرق كذلك.

لقد أغنت هذه الكتب معلوماتنا التاريخية عن البلدان والمناطق التي زارها الرحالة المشارقة والمغاربة، خاصة وأن قسم من هذه الرحلات يمكن عدّها وثائق تاريخية عن الفترة التي عاصرها المؤلف.

❖ ولعلنا نعطي نموذجاً للرحالة المشارقة في رحلة ناصر خسرو علوي الفارسي من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي الذي جاب البلاد واستمتع برحلته التي شملت مناطق إيران وتركستان والهند وبلاد الشام والقدس بفلسطين ثم الحجاز حيث أدى فريضة الحج. ثم سافر إلى مصر واستمرت رحلته حوالي خمسين سنة عايش فيها الناس وشاهد المواقع، ثم عاد إلى وطنه في خراسان.

وفي خراسان باشر ناصر خسرو يسجل انطباعاته ومشاهداته متخذاً التسجيل على شكل يوميات ومصوراً الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في الأقاليم التي زارها[١].

❖ أما الرحلات المغاربية فيمثلها أكثر من رحالة ويبدو أن المغاربة ولعوا بالرحلات أكثر من المشارقة وتنوعت رحلاتهم فشملت الرحلة الدينية إلى الحجاز (مكة والمدينة) والقدس والرحلة العلمية والرحلة للراحة والاستجمام مع التجارة. ويرى أبو القاسم سعد الله أن اهتمامهم بالرحلة يعود إلى أسباب عديدة منها[٢]:

١ - بعدهم عن مراكز العلم والحضارة في المشرق الإسلامي.

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة (مترجم)، القاهرة، ١٩٤٥م (المقدمة). زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٥م.

(٢) أبو القاسم سعد الله، وسائل الاتصال والتواصل بين المسلمين في العصر الحديث، في مدخل إلى التاريخ الإسلامي، تحرير: فاروق عمر فوزي، المفرق، الأردن، ٢٠٠١م.

٢ - انعزالهم في إقليمهم حيث تحدهم أفريقيا الاستوائية في الجنوب وأوربا المعادية لهم في الشمال وقد دفعهم هذا إلى الاتجاه نحو الشرق الإسلامي للخروج من العزلة والمشاركة في النشاط الفكري أخذاً وعطاءً.

٣ - إحساس المغاربة بأن الإسلام جاءهم من المشرق وأن دينهم ولغتهم العربية لا تتعمق إلا إذا زاروا الشرق وخالطوا علماءه واطلعوا على تراثه.

٤ - المذهب المالكي الذي دانوا به جعلهم أكثر حرصاً على زيارة المشرق وأخذ أصول المذهب وفروعه والعلوم الدينية الأخرى من منابعها الأصلية.

وتشير الأبحاث عن الرحلات المغربية بكثرتها إلى بلاد الحجاز بل يقال بأن المغرب "صاحبة الفضل في ابتكار الرحلات الحجازية"، وكانت رحلاتهم تتميز عن غيرها "بدقة ما دونوه و الإسهاب في التفاصيل والحرص على رؤية ما يصفونه"[(١)].

وإذا كان ابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) من رواد الرحلات المغربية، ورحلته الموسومة (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار[(٢)]) أشبه بمذكرات يومية عن البلدان التي زارها في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج.

❖ فإن الرحالة المغربي الأكثر شهرة هو ابن بطوطة اللواتي الطنجي (ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) الذي كتب عن رحلته في كتاب سماه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[(٣)]). شملت كل البلدان التي زارها من الصين والأناضول والقوقاز وإيران إضافة إلى بلاد العرب.

ويعد ابن بطوطة (شيخ الرحالة) وأعظم الرحالة المسلمين وعاش في رحلته ثلاثين سنة وهو يطوف بلدان الأرض في البر والبحر. وفي الرحلة البرية زار ابن

---

(١) المرجع السابق. كراوتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي (مترجم)، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٢) رحلة ابن جبير، طبعة ليدن، ١٩٠٧م. أبو القاسم سعد الله، حول أدب الرحلة عند المغاربة، الندوة التأسيسية لدراسة تاريخ العرب، جامعة آل البيت.

(٣) رحلة ابن بطوطة، بيروت، ١٩٦٠م. سيد عبدالعزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣٢.

بطوطة كل بلاد الإسلام في إفريقيا وآسيا كما زار بلداناً خارج دار الإسلام ومنها سيلان والصين. وفي الرحلة البحرية زار بعض الجزر في المحيط الهندي في جنوبي شرقي آسيا، وزودنا من رحلاته هذه بمعلومات تاريخية مهمة وبيانات مفيدة عن فترة متأخرة من العصر الإسلامي الوسيط. وفي الوقت الذي تعد رحلة ابن بطوطة أغنى الرحلات وأشهرها فإنها في الوقت نفسه تعد المحطة الأخيرة في النشاط الإسلامي في مجال الأسفار والرحلات حيث اضمحل هذا النشاط اعتباراً من القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري.

ومن المعلومات الطريفة التي ذكرها ابن بطوطة أخبار الهنود السحرة وجماعات الأخية والفتيان في الأناضول وضيافاتهم وعن الفرقة الإسماعيلية (الفداوية) وحصونهم في شمالي إيران. وكذلك أخباره عن الأقاليم الأفريقية التي زارها.

استقر ابن بطوطة بعد رحلاته في ضيافة سلطان بني مرين في فاس بالمغرب، الذي أشار عليه بأن يكتب أخبار رحلاته فأملى عن ظهر قلبه ما تذكره عن هذه الرحلات بعد أن ضاعت مدوناته في الهند. وقد أملى رحلته ٧٥٦هـ على تلميذه محمد بن جزي الكلبي. وقد كتبها ابن جزي في جزئين وقد تضمنت رحلاته الثلاث التي احتوت أخباراً عن أهل الدين وأهل السياسة وعن عامة الناس والبلدان وما فيها من أساطير وخرافات رغم أنه لا يصدقها أو يشك فيها فيقول: "يزعمون" أو يقول "هذا في زعمهم". مما يدل على أنه كان أميناً في نقله الأخبار رغم عدم تصديقه لها.

لقد نشرت رحلة ابن بطوطة مرات عديدة، وقام البعض بوضع مختصرات لها. كما ترجمت الرحلة إلى عدة لغات منها الفرنسية ١٨٥٣م والإنجليزية ١٩٢٩م وترجمت كذلك إلى اللغة الألمانية والبرتغالية والتركية.

❖ أما الإدريسي[١] صاحب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) والذي أشرنا

(١) حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد ٩ و ١٠.

إليه سابقاً فهو أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٦م) ولد في سبتة وينتمي إلى بيت الأشراف العلويين الأدارسة المعروف بالمغرب الأقصى. والذين حكموا جزءاً من المغرب ابتداءً من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد ولمدة قرنين من الزمان تقريباً، ومن هنا جاءت تسميته (بالشريف) ولقبه الإدريسي.

كما حكم بعض أجداده مالقاً في الأندلس ولكنهم لم يتمكنوا من الإبقاء على سلطتهم فهاجروا إلى سبتة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

تلقى الشريف الإدريسي تعليمه الأوّلي في قرطبة ثم سافر إلى أوربا وشمالي أفريقيا. ويبدو أنه بدأ رحلاته في عمر مبكر لا يتجاوز السادسة عشرة سنة. فقد زار آسيا الصغرى (الأناضول) والساحل الجنوبي لفرنسا وإنكلترا ثم تجول في الأندلس (إسبانيا) ومراكش (المغرب الأقصى).

وفي حوالي سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨م تلقى الإدريسي دعوة من الملك النورماندي روجز الثاني للمجيء إلى (صقلية) والاستقرار هناك قائلاً له: "إنك تنتمي إلى بيت الخلافة. فإذا عشت بين المسلمين فإن حكامهم سيتآمرون على قتلك. أما إذا بقيت معي فستكون آمناً". وقد تقبل الإدريسي هذه الدعوة وبقي في بلاطه حتى آخر سنوات حياته، حيث عاد إلى سبتة بعد وفاة روجر في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م. وقد توفي فيها.

ويبدو أن دعوة روجر للشريف الإدريسي لم تكن لحمايته من أعدائه في (دار الإسلام) بقدر ما كانت لتحقيق مآرب علمية وطموحات سياسية كان يخطط لها الملك النورماندي لتوسيع دولته في شمالي إفريقيا. فالأخبار التي أوردها الإدريسي في كتابه تذكر بأن روجز كان له أسطولاً بحرياً قوياً في البحر الأبيض المتوسط وأنه نجح في احتلال جزيرة جربة (في تونس) سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م وطرابلس الغرب سنة ٥٤٠هـ وطفاقس ٥٤٣هـ وبونة والمهدية. وكان الملك النورماندي يرغب في استغلال الشريف الإدريسي واسطة لمد نفوذه في الأقاليم الإسلامية وللتفاهم مع أهل البلاد من المسلمين. هذا بالإضافة على أن صقلية وأهلها كانوا يمتلكون ثروة ثقافية عربية

- إسلامية غنية التقت وامتزجت بالثقافة الأوربية. وفي هذا الجو المشحون بالمعرفة بدأت قدرات الشريف الإدريسي تتفتح حتى برز عالماً جغرافياً ومختصاً متميزاً بالخرائط.

كان روجر الثاني مولعاً بعمل خارطة للعالم وطلب من الإدريسي إنجاز هذا العمل، وبدأ الإدريسي بعمل خارطة دائرية للعالم من الفضة، مستعيناً بخبرته ومشاهداته وبالمصادر الإسلامية الموجودة لديه وكذلك بكتاب الجغرافيا لبطليموس. وقد ثمن روجر عمله وأعطاه مكافئته بالفضة. ومما يؤسف له أن تكون الخارطة قد ضاعت ولكن نسخة مصغرة لها حفظت ضمن نسخة لمخطوط له محفوظ في مكتبة بودليان في أكسفورد هو "نزهة المشتاق". ثم طلب الملك روجر من الشريف الإدريسي بعد إنجازه خارطة العالم أن يكتب له كتاباً عن جغرافية العالم، وتلبية لهذا الطلب كتب الإدريسي كتابه الموسوم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".

يعد "نزهة المشتاق" مصدراً زاخراً بالمعلومات عن جغرافية العالم الوصفية والبشرية والثقافية والسياسية. ولم يقدم جغرافي مسلم قبل الإدريسي وبعده معلومات ثرة كتلك التي قدمها الإدريسي.

لقد اتبع الشريف الإدريسي في منهجه المفاهيم البطليموسية ومفاهيم مدرسة البلخي الجغرافية وكذلك جغرافيين مسلمين آخرين مثل ابن خرداذبه وابن حوقل وآخرين. ولعل أوثق المعلومات وأدقها عند الإدريسي تلك التي تخص أوربا وحوض البحر المتوسط وشمالي أفريقيا وغربي وأواسط آسيا. كما وأن البحرية النورماندية زودته بمعلومات دقيقة عن مساحات ومقاييس الخلجان الموجودة في البحر المتوسط.

ويمكن القول بأن مساهمات الشريف الإدريسي في ميدان الجغرافية والخرائط تمثل نموذجاً فريداً للتعاون العربي - النورماندي نتج عنه تطور ملحوظ في المعرفة الجغرافية. وقد ترجم كتابه "نزهة المشتاق" باختصار إلى اللاتينية سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م ونشرت نسخة مختصرة من الأصل العربي قبل ذلك سنة ١٠٠١هـ/١٥٩٢م. كما ترجم الكتاب إلى اللغة الفرنسية.

(٣)

المعاجم اللغوية العربية:

وتحوي المعاجم اللغوية معلومات تاريخية مفيدة وتساعدنا في معرفة تطور المصطلحات لغوياً وتاريخياً. وتأتي في مقدمة هذه المعاجم معجم ابن منظور (ت ٧١١هـ/١٣١١م) الموسوم لسان العرب والفيروز آبادي (ت٨١٧هـ/١٤١٥م) في القاموس المحيط، والزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) في تاج العروس. ثم الثعالبي في فقه اللغة وابن سيدة في المخصص وغيرها كثير.

❖ أما ابن منظور المصري فكان إماماً في اللغة عمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة وتولى القضاء بطرابلس وألف مصنفات عديدة أشهرها (لسان العرب) ضم فيه معلومات مهمة من كتب اللغة المعروفة قبله. قال في مقدمته:

" أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان، وفضله بالنطق على سائر الحيوان، وشرف هذا اللسان العربي بالبيان على كل لسان كفاه شرفاً أنه به نزل القرآن وإنه لغة أهل الجنان. روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ"أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي..." وأني لم أزل مشغولاً بمطالعات كتب اللغات والاطلاع على تصانيفها وعلل تعاريفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أما من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع..".

❖ أما الفيروزآبادي فهو من فطاحل اللغة والأدب، ولد في نواحي شيراز وانتقل إلى

العراق ورحل إلى مصر وبلاد الشام والهند وبلاد الروم، تولى القضاء باليمن وتوفي فيها، قال في مقدمة كتابه (القاموس المحيط):

" وبعد فإن للعلم رياضاً وحياضاً وخمائل وغياضاً وطرائق وشعاباً وشواهق وهضاباً يتفرع عن كل أصل منه أفنان وفنون ونشق عن كل دوحة منه خيطان وغصون، وإن علم اللغة هو الكافل بإبراز أسرار الجميع... وأن بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب وكان العمل بموجبه لا يصح إلا بإحكام العلم بمقدمته... وقد عني به من الخلف والسلف في كل عصر عصابة هم أهل الإصابة أحرزوا دقائقه".

ويقول كذلك: "وأسميته القاموس المحيط لأنه البحر الأعظم، ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر إما بأهمال المادة أو بترك المعاني الغريبة النادرة، أردت أن يظهر للناظر بادئ ذي بدء فضل كتابي هذا عليه فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه وفي سائر التراكيب تتضح المزية بالتوجه إليه، ولم اذكر ذلك إشاعةً للمفاخر بل إذاعة لقول الشاعر: (كم ترك الأول للآخر)...".

ويقول الفيروزآبادي في آخر مقدمته مفتخراً بكتابه:

" وكتابي هذا بحمد الله تعالى صريح ألفي مصنف من الكتب الفاخرة وسنيح ألفي قلمس من العيالم الزاخرة، والله تعالى أسأل أن يثيبني به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة ضارعاً إلى من ينظر من عالم في عملي أن يستر عثاري وزللي ويسد بسداد فضله خللي ويصلح ما طفى به القلم وزاغ عنه البصر وقصر عنه الفهم وغفل عنه الخاطر، فالإنسان محل النسيان وإن أول ناس أول الناس وعلى الله تعالى التكلان".

* * *

(٤)

كتب الفرق والمقالات والعقائد:

تضم كتب الفرق الإسلامية معلومات تاريخية ولكنها قليلة ومبعثرة، ويرى مؤلفو هذه الكتب أن الفرقة التي ينتمون إليها هي "الفرقة الناجية" وينتقد بعضهم بعضاً. وقد أشار إلى هذه الظاهرة الأشعري (ت ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) حيث يقول[١]:

"أما بعد، فإنه لا بد لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها من معرفة المذاهب والمقالات ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات، بين مقتصر فيما يحيكه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه ومن بين متعمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه وبين تارك للتقصي في روايته من اختلاف المختلفين وبين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين".

وأكد هذا المنحى فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) بقوله[٢]:

"كتاب الملل والنحل للشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) كتاب حكى فيه مذاهب أهل العلم بزعمه إلا أنه غير معتمد عليه لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى الفرق بين الفرق من تأليف أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ شديد التعصب على المخالفين فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه".

كما وإن هذه المصادر رغم أهميتها تحوي بعض السلبيات التي لا بد من الانتباه إليها

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين، استانبول، ١٩٢٩م.

(٢) فخر الدين الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، القاهرة، ١٩٣٥م.

والاحتراز منها، فهي لا تهتم بعنصر الزمن ولا تراعي الأفكار وإنما تذكرها متراكمة زمن المؤلف وكأنها موجودة منذ البداية وبذلك أسقطوا الآراء المتأخرة على فترات سابقة متقدمة وانجرفوا مع ميولهم واتجاهاتهم في الحكم عليها. وقد كتب بعض هذه الكتب رداً على الاتجاهات المعارضة والنزعات التي لا تتفق مع نزعتهم. وأغلب مصادر الفرق متأخرة وقد أوجد ذلك غموضاً فيما يتعلق بأسماء الأشخاص والأمكنة، أو قبولها روايات ضعيفة قصد منها الحط من شأن الفرق المخالفة لها وفيها الكثير من الردود والحجاج بين الفرق المتعددة. والذي يؤخذ عليها أيضاً عدم ذكرها للمصادر التي استقت منها المعلومات إلا نادراً ولذلك من الصعوبة معرفة من نقل وعن من؟ وما قيمة المعلومات التي أوردها الكاتب؟ وما هي أسانيد الأحاديث ومن هم رواتها الأوائل وهل ورد ذكرها في كتب الحديث الصحيحة. وهي حين تتكلم عن الفرق الإسلامية نفسها لا توضح كيفية انتظام هذه الفرق تاريخياً وما مكانة كل فرقة في الحياة السياسية والفكرية العامة في المجتمع الإسلامي إلا نادراً وبإيجاز مخلّ.

ولعل من أوائل كتب الفرق كتاب (المقالات والفرق) لسعد بن عبدالله القمي (ت ٣٠١هـ) و(فرق الشيعة) للنوبختي (ت ٣١٠هـ) و(مقالات الإسلاميين) للأشعري (ت ٣٢٤هـ) (والفرق بين الفرق) للبغدادي (ت ٤٢٩هـ) و(الفصل في الملل والنحل) لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٩هـ) و(الملل والنحل) للشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) وكتاب (الزينة) للرازي الإسماعيلي (٣٢٩هـ) و(الكافي) للشيخ الكليني (ت ٣٢٨هـ) وكتب النعمان بن حيون الإسماعيلي والشيخ المفيد والطوسي من الطائفة الإمامية ومؤلفات الجاحظ وابن المرتضى وعبدالجبار المعتزلي من الفرقة المعتزلة وغيرهم كثير.

وسنتناول ابن حزم الظاهري الأندلسي[1] باعتباره مؤرخاً للفكر الديني ولتاريخ الفرق الإسلامية. ولد أبو محمد علي بن أحمد في قرطبة وله جوانب متعددة كمؤرخ وشاعر وفقيه وفيلسوف ومتكلم، ويعد من مشاهير المفكرين العرب المسلمين في

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، القاهرة، ١٣١٧هـ- ١٣٢٠م

الأندلس. وقد أسس المذهب الظاهري وإشاعة في الأندلس.

كان عصره عصر التقلبات السياسية والأزمات والمحن وهو القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان أبوه يعمل موظفاً في الإدارة، وبقي موالياً للأسرة الأموية التي أسست الخلافة في الأندلس. ولما عمَّت الفوضى بين ملوك الطوائف قرر ابن حزم الاعتزال في بلدته الخاصة بعد أن اتخذت إجراءات حكومية لإسكاته عن الكلام وعدم السماح له بالعمل بالتدريس.

ترك ابن حزم حوالي أربعمائة كتاب ورسالة من تأليفه فقد كان أساسه متيناً حيث تلقى التدريس على شيوخ مبرزين. ومن أشهر كتبه كتاب (الفصل في الملل والنحل) وهو في تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية. وقد عدَّهُ الباحثون موسوعة شاملة للفكر الديني قبل الإسلام وبعده، ذلك أن التفاصيل التي يوردها والدقة في المعلومات والتوثيق يجعل هذا الكتاب في مصاف الكتب القيمة في مجال اختصاصه. وهو بهذا يميز غالبية كتب الفرق الأخرى.

ولابن حزم عدا ذلك مجموعة رسائل أدبية وفلسفية وأخلاقية راقية. وله كذلك رسالة في العلوم حيث يرى أن العلوم كلها ترتبط ببعضها. وأن كل العلوم تحتاج من دارسها التحري والبحث العميق، وهو أمر لا يمكن تحقيقه دون ترك مباهج الحياة ومغرياتها. وأن هدف العلوم وغايتها هو الوصول بالإنسان إلى النجاح والسعادة في الحياة الآخرة.

* * *

(٥)
كتب المال والإدارة والحسبة:

وهذه المصادر تعالج الأوضاع المالية والإدارية في دار الإسلام وتحتوي على معلومات تاريخية إدارية واجتماعية واقتصادية مهمة. وقد وصل عدد منها إلينا من أهمها وأولها: كتاب (الخراج) لأبي يوسف القاضي (ت ١٨٢هـ) ثم كتاب (الأموال) ليحيى بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ) و(الأموال) لابن زنجويه (ت ٢٥١هـ) وكتاب (الخراج وصنعة الكتابة) لقدامة بن جعفر (ت ٣٢٩هـ) و(قوانين الدواوين) لابن مماتي (ت القرن الثامن الهجري) و(الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلّام. أما أهم كتب الحسبة فكتاب الشيرازي الموسوم (نهاية الرتبة في طلب الحسبة)، وابن عبدون الذي كتب في آداب الحسبة وابن تيمية وله كتاب (الحسبة في الإسلام) وغيرهم.

وسنأخذ مثالاً واحداً عن هذه الكتب لتوضيح مدى أهميته للمؤرخ واحتوائه على معلومات تاريخية غاية في الفائدة. والكتاب هو (الخراج وصنعة الكتابة) لمؤلفه قدامة بن جعفر[1] من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، حيث أشار شاكر مصطفى أن ثلث الكتاب في التاريخ.

أما المؤلف هو أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، كان نصرانياً وأسلم في عهد الخليفة العباسي المكتفي بالله. تميز ببلاغته وفصاحته وعمقه في علم المنطق

---

(١) راجع: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٧، ص ١٢. كذلك قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، بغداد، د.ت. مصطفى الحياري، السياسية من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، عمان، ١٩٨١م. إبراهيم السامرائي، كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣، عدد٢، ١٩٨٣م. عبدالرحمن بدوي، الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام، القاهرة، د.ت.، إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، بيروت، ١٩٧٧م. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج٢، ص٤١١.

وله تصانيف كثيرة. عاش في الفترة التي سبقت البويهيين ولعله في بعض الروايات شهد أوائل العصر البويهي، عمل في دواوين الدولة العباسية وتولى الكتابة للوزير ابن الفرات في ديوان الزمام.

ولقدامة بن جعفر عدد من المؤلفات عدا كتاب الخراج وصنعة الكتابة، حيث تشير المصادر إلى كتاب السياسة وكتاب ترياق الفكر وكتاب صناعة الجدل وكتاب جلاء الحزن وكتاب نقد الشعر وغيرها. والذي يهمنا من هذه الكتب كتاب (الخراج وصنعة الكتابة) أنف الذكر. ومن الواضح أن المؤلف أراده أن يكون دليلاً للكتّاب الذي هو منهم ويكتب عن دراية وخبرة ليعرفهم بدقائق صناعة الكتابة وما يرتبط بها من ثقافة عامة ضرورية لمن أراد أن يشغل هذه المناصب الإدارية والكتابية في دواوين الدولة على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم. وقد أشاد كل من المسعودي في مروج الذهب وأبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة بهذا الكتاب.

أما خطة الكتاب فقد قسمه إلى عدة منازل تناول فيها الكتاب والكتابة والبلاغة، كما عالج دواوين الدولة ذات العلاقة بالأمور المالية والمعمور من الأرض وسائر وجوه الأموال ثم تطرق في المنزلة الثامنة إلى السياسة. وقد عالج قدامة في موضوع السياسة شؤون المجتمع البشري وعوامل ازدهاره وأسباب انحطاطه، وشرح نظم الحكم وما ينبغي للحكام عمله، وتعكس مفاهيم قدامة السياسية الآراء التي كانت سائدة في عصره. واعتمد على موارد متعددة منها التراث اليوناني والتراث العربي الإسلامي والتراث الفارسي حيث أخذ عن (الأدب الكبير والأدب الصغير) المنسوب لابن المقفع. وأخذ قدامة عن فتوح البلدان للبلاذري والمسالك والممالك لابن خرداذبه والأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام وأشار إلى آراء وتخريجات عدد من الفقهاء مثل أبي حنيفة ومالك بن أنس.

❊ ❊ ❊

(٦)

الفهارس (الببليوغرافيا):

تضم كتب البيبليوغرافيا العربية الإسلامية أسماء الكتب وتعرف بموضوعاتها. ومنها الكتب التاريخية. ولعل كتاب (الفهرست) لابن النديم (ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م) يعد أول فهرسة شاملة لكتب التراث العربي الإسلامي، ويقول مؤلفه في المقدمة: "فهذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجودة منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم... وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة".

وابن النديم هو محمد بن إسحق أبي يعقوب بن النديم (الوراق) البغدادي. حيث ولد ببغداد. وقد أخذ مهنة الوراقة عن أبيه.

أما كتابه الفهرست فقد قسمه إلى مقالات وفنون وكان على إدراك تام بأهمية وصف الكتاب حيث يقول عن الشعراء مثلاً: "إنما غرضنا أن نورد أسماء ومقدار حجم ديوان كل شاعر منهم لا سيما المحدثين والتفاوت الذي يقع في أشعارهم ليعرف الذي يريد جمع الكتب والأشعار ذلك ويكون على بصيرة فيه..".

ونظراً لأهمية كتاب الفهرست نحاول إعطاء فكرة عن ترتيب المؤلف له وهي كالتالي:

❖ **المقالة الأولى: وهي ثلاثة فنون:**

الفن الأول: في وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها.

الفن الثاني: في أسماء كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذاهب أهلها.

الفن الثالث: في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأسماء الكتب المصنفة في علومه، وأخبار القراء وأسماء رواتهم والشواذ من قراءاتهم.

❖ **المقالة الثانية: وهي ثلاثة فنون في النحويين واللغويين:**

الفن الأول: في ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين وفصحاء الأعراب وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في ذكر قوم من النحويين خلطوا مذهبين وأسماء كتبهم.

❖ **المقالة الثالثة: وهي ثلاثة فنون في الأخبار والآداب والسير والأنساب:**

الفن الأول: في أخبار الأخباريين والرواة والنسابين وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار الملوك والكتاب والمترسلين وعمال الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار الندماء والجلساء والمغنيين والصفادمة والصفاعنة والمضحكين وأسماء كتبهم.

❖ **المقالة الرابعة: وهي فنان في الشعر والشعراء:**

الفن الأول: في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ممن لحق الجاهلية وصناع دواوينهم وأسماء رواتهم.

الفن الثاني: في طبقات شعراء الإسلاميين وشعراء المحدثين إلى عصرنا هذا.

❖ **المقالة الخامسة: وهي خمسة فنون في الكلام والمتكلمين:**

الفن الأول: في ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار متكلمي الشيعة والإمامية والزيدية وغيرهم من الغلاة والإسماعيلية وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار متكلمي المجبرة والحشوية وأسماء كتبهم.

الفن الرابع: في أخبار متكلمي الخوارج وأصنافهم وأسماء كتبهم.

الفن الخامس: في أخبار السياح والزهاد والعبّاد والمتصوفة والمتكلمين على الوساوس والخطرات وأسماء كتبهم.

❖ **المقالة السادسة: وهي ثمانية فنون في الفقه والفقهاء والمحدّثين:**

الفن الأول: في أخبار مالك وأصحابه وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار أبي حنيفة النعمان وأصحابه وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار الإمام الشافعي وأصحابه وأسماء كتبهم.

الفن الرابع: في أخبار داود وأصحابه وأسماء كتبهم.

الفن الخامس: في أخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم.

الفن السادس: في أخبار فقهاء أصحاب الحديث والمحدثين وأسماء كتبهم.

الفن السابع: في أخبار أبي جعفر الطبري وأصحابه وأسماء كتبهم.

الفن الثامن: في أخبار فقهاء الشراة وأسماء كتبهم.

❖ **المقالة السابعة: وهي ثلاثة فنون في الفلسفة والعلوم القديمة:**

الفن الأول: في أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجود منها وما ذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم.

الفن الثاني: في أخبار أصحاب التعاليم والمهندسين والأرثماطيقيين والموسيقيين والحساب والمنجمين وصناع الآلات وأصحاب الحيل والحركات.

الفن الثالث: في ابتداء الطب وأخبار المتطببين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها.

❖ **المقالة الثامنة: وهي ثلاثة فنون من الأسمار والخرافات والغرائم والسحر والشعوذة:**

الفن الأول: في أخبار المسامرين والمخرفين والمصورين وأسماء الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات.

الفن الثاني: في أخبار المعزمين والمشعوذين والسحرة وأصحاب كتبهم.

الفن الثالث: في الكتب المصنفة في معاني شتى لا يعرف مصنفوها ولا مؤلفوها.

❖ **المقالة التاسعة: وهي فنان في المذاهب والاعتقادات:**

الفن الأول: في وصف مذاهب الحرانية الكلدانيين المعروفين في عصرنا بالصائبة ومذاهب الثنويه من المنانية والديصانية والخرميّة والمرقيونية والمزدكية وغيرهم وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: وفي وصف المذاهب الغريبة الطريفة كمذاهب الهند والصين وغيرهم من أجناس الأمم.

❖ **المقالة العاشرة وتحتوي على:**

أخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم.

ولعل الانطباع الذي يشكله القارئ لدى مطالعته (الفهرست) هو ثراء الحياة العلمية والثقافية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في المجتمع الإسلامي. ومدى ما وصلت إليه العلوم العقلية والنقلية من ازدهار.

وهناك مفهرسين آخرين مثل طاش كبرى زاده (ت ٩٦٩هـ/١٥٦١م) وكتابه (مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم) وفيه تراجم مختصرة للمؤلفين مع كتبهم، ثم حاجي خليفة وكتابه (كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون) وقد بلغ عدد العلوم التي صنف لها كبرى زاده ثلاثمائة علم لكل علم مراتب ودرجات. وقد سار على نهجهم المفهرسون المحدثون أمثال بروكلمان وسيزكين وكوركيس عواد وغيرهم.

❊ ❊ ❊

(٧)

كتب الفقه والتفسير والحديث:

تحتاج هذه الكتب الدينية لإسناد أحكامها وتوضيح تفسيرها وتبرير أسباب نزول الآيات القرآنية وتبيان أسباب ورود الأحاديث النبوية الشريفة إلى المعلومات والأخبار التاريخية، ومن هنا جاءت أهميتها في الكتابة التاريخية. والمؤلفات من هذا النوع كثيرة تتوزع على مختلف القرون لعل من أوائلها كتاب الأم للشافعي وكتاب الكسب والاكتساب وكتاب المخارج من الحيل للشيباني وكتاب اختلاف الفقهاء للطبري والجامع لأحكام القرآن للقرطبي والصحاح الستة ومسند أحمد بن حنبل وفتح الباري للعسقلاني وغيرها كثير.

أما التفاسير فكثيرة ومتنوعة ولعل أولها من حيث القدم تفسير محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) والموسوم (جامع البيان في تفسير القرآن) وله منهجه حيث يذكر الآية أو الآيات العديدة ثم يعطي معناها وأشهر الأقوال فيها، ويورد الشواهد حولها. والطبري يرجح بعض الأقوال على بعض ولديه استنباطات دقيقة.

ويأتي بعد الطبري من حيث التسلسل التاريخي محمد بن علي الماوردي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) وله كتاب (النكت والعيون) في تفسير القرآن الكريم. وقد اهتم بالتفسير اللغوي حيث يذكر أصول الكلمات ويستشهد بالشعر. أما علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨هـ/١٠٧٥م) فله كتاب (أسباب النزول) وهو من أقدم المؤلفات في هذا المجال. حيث ذكر كل سورة وأوضح أسباب نزول آياتها مع ذكر السند.

أما تفسير الزمخشري (ت ٥٣٨هـ/١١٤٣م) المعروف (بالكشاف) فهو من

التفاسير المشهورة للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة. أما في القرن السابع الهجري فيبرز تفسير الرازي (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) المعروف بالتفسير الكبير أو (مفاتيح الغيب) وهو من التفاسير التي تقول على التفسير بالرأي أو المعقول ويكثر فيه من الاستنباطات العقلية، وينتصر لمذهب أهل السنة ويرد على آراء الفرق الأخرى. على أن الرازي لم يكمل تفسيره وجاء بعده من أتمه.

ومن التفاسير الأخرى تفسير القرطبي (ت ٦٧١هـ) الموسوم (الجامع لأحكام القرآن) أهمل فيه القرطبي الكثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ورد على الفلاسفة والمتصوفة والمعتزلة وغيرها من الفرق. ثم تفسير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) المعروف بتفسير القرآن العظيم ولعل ما يميزه هو اقتصاره على التفسير بالمأثور حيث يفسر آية بآية أخرى وهو ما يسمى تفسير القرآن بالقرآن، ثم يسرد الأحاديث وأقوال علماء السلف. وتفاسير القرآن كثيرة قديماً وحديثاً ولعلنا نورد هنا من التفاسير الحديثة تفسير الشوكاني (ت ١٨٣٤م) وتفسير محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥م).

***

(٨)
المسكوكات والنقوش والوثائق :

في المسكوكات[1] (السكة) وهو يسمى كذلك علم النميات Numismatics والنقوش والكتابات الاثارية والأختام والرنوك معلومات تاريخية مفيدة تصحح أحياناً أخطاءً في روايات المصادر أو تسند المعلومات التاريخية وتكشف حقائق جديدة لم تكن معروفة. ومثل ذلك يقال عن الوثائق والسجلات الرسمية في دواوين الدولة ابتداءً من العصر الأموي. ومنها (أوراق البردى) التي وجدت في مصر وتعالج موضوعات الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بدءاً بفترة صدر الإسلام، وقد اهتم بها المؤرخون المسلمون والمستشرقون على حد سواء ونشروا مجموعات منها.

لقد استخدم الأمويون النقود البيزنطية بعد أن نقشوا على وجهها عبارات إسلامية، وكثرت النقود الذهبية والفضية في العصر العباسي وازدادت معها دور الضرب. والملاحظ أن أغلب الخلفاء العباسيين الأوائل[1] لم ينقشوا أسماءهم على السكة (النقود) إلا أن تاريخ السك يدل على عهد الخليفة. ويمكن التعرف على النقود العباسية الأولى من خلال الآية القرآنية شعار الثورة العباسية المنقوش على بعض النقود: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى**﴾.

كما نستدل من النقود على أن لقب أبي مسلم الخراساني كان "أمير آل محمد"

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٦٣٩. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٤٠. المقريزي، الأوزان والأكيال الشرعية، ص٨٦. خلف فارس الطراونة، المسكوكات وقراءة التاريخ، عمان، ١٩٩٤م. نايف القسوس، المسكوكات وثائق رسمية أهملها المؤرخون، الندوة التأسيسية لدراسة مصادر تاريخ العرب الحديث، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٨م.

(٢) راجع: فاروق عمر، الثورة العباسية، عمان، ٢٠٠١م (المقدمة).

واستخدم الخليفة أبو جعفر المنصور النقود للدعاية لابنه وولي عهده المهدي لإبراز اسمه للناس فنقش اسمه على النقود التي سكت بالري ١٤٦هـ مع التأكيد على لقب "المهدي". وصححت لنا النقود بعض تواريخ الأحداث التي وقعت في عصر المأمون. كما تخلد بعض المسكوكات الانتصارات التاريخية مثل ما ضربه صلاح الدين بعد معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م من دنانير ودراهم وفلوس تخليداً لانتصاره على الصليبيين. أما بعد العصر العباسي الأول فقد سار أغلب الخلفاء والحكام والسلاطين على عادة نقش أسمائهم على النقود.

أما بالنسبة للنقوش فنشير إلى مثل واحد حيث تذكر المصادر أن الخليفة المهدي العباسي حذف اسم الخليفة الوليد الأموي من مسجد الرسول ص في المدينة المنورة ووضع اسمه بدله ولكن النحات نسي أن يبدل التاريخ!!

أما الأختام والرنوك[1] فلها أهميتها التاريخية حيث تعد نوع من الوثائق الرسمية. وكانت الأختام متنوعة وتختلف من عصر إلى عصر حيث كان لبعض الملوك أختاماً من الذهب عليها عبارات تميز بعضها عن بعض. واستخدمت الأختام كتواقيع للخلفاء المسلمين وجعل لها ديوان خاص بهم هو (ديوان الخاتم). والرنوك هي شارات وعلامات تظهر على الدروع والأعلام وملابس القادة والجند وتكون على شكل من الأشكال مثل السيف والنسر أو الهلال أو الوردة أو الورقة واستخدمت في العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية بصورة واسعة. وتساعدنا الأختام والرنوك على إثبات صحة الوثائق وتحديد مكانها وزمانها.

* * *

(١) عبدالواحد ذنون طه، أصول البحث التاريخي، الموصل، العراق، ١٩٩٠م.

الخاتمة

كان للعرب قبل الإسلام تراث معرفي في مجالات مختلفة كان التاريخ واحداً منها حيث اهتم العرب بحفظ أيامهم (أيام العرب وحروبها) وأخبارهم وأنسابهم وكانوا يتداولونها جيلاً عن جيل حفظاً بواسطة الرواة والقصاص الذين يزوّقونها بالأساطير والخرافات. ورغم طغيان الرواية الشفوية فلم تعدم الحقبة من رقع وصفائح مكتوبة.

وجاء الإسلام فاهتم بالعقيدة ونشرها، ثم بدأ الاهتمام بسيرة الرسول ﷺ وكذلك بمغازيه وكان أكثر المهتمين من المحدّثين والفقهاء وهكذا نشأ علم التاريخ من ضلع علم الحديث النبوي الشريف، فاهتم بالسند (سلسلة الرواة) وكذلك بالمتن (النص) وطبق المؤرخون المسلمون (علم الجرح والتعديل) ذي الصلة بعلم الحديث على علم التاريخ.

ولكن علم التاريخ ما لبث أن انفصل عن علم الحديث واستقل عنه وبرزت منذ أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي أنماط متنوعة من الكتابة التاريخية حسب الحاجة ورغبة المؤلف وولعه فظهر التاريخ العام العالمي الحولي والتاريخ الحضاري وكتب الفتوح وكتب التراجم والطبقات وكتب الأنساب والتواريخ المحلية والموسوعات وغيرها. بل أن المادة التاريخية تتواجد كذلك في كتب أخرى من التراث الإسلامي مثل: كتب الجغرافية والرحلات والأدب والفرق والإدارة وكتب الأموال. ويعكس الشعر وهو مرآة العصر وديوان العرب العديد من الجوانب التاريخية والحضارية في المجتمع الإسلامي. واتسمت الكتابة التاريخية في غالبيتها بالحيدة والموضوعية بسبب آليتها المستندة على

سلسلة الرواة الثقاة (السند) ونقد النص (المتن). وكان للمؤرخ أساليب وطرق أخرى لإيضاح موقفه من الحدث منها إيراد روايات متعددة تمثل وجهات نظر مختلفة ورواة متنوعين بعضهم ثقة وبعضهم ضعفاء ويترك للقارئ المحقق اختيار الرواية الأنسب، كما كان المؤرخ يبدي وجهة نظره صراحة أحياناً أو يستخدم اصطلاحات تدل على عدم تصديقه بالرواية وهي اصطلاحات كثيرة تختلف من مؤرخ إلى آخر ومن فترة إلى أخرى.

كما وأن "علم التاريخ" بات موضوعاً للبحث فيه من حيث طبيعته وأهميته في أواخر القرون الإسلامية الوسيطة وظهر مؤرخون كبار اهتموا بالتاريخ كعلم وأبرزوا ميزاته وموقعه بين سائر العلوم الأخرى وفائدته للمجتمع والدولة.

* * *

الملحق

نماذج من المقدمات التي كتبها المؤلفون لكتبهم
والتي توضح هدفهم والمنهج الذي اتبعوه في التأليف

(١)

مقدمة محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) لكتابه المغازي

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو محمّد الحسن بن عليّ بن محمد الجَوْهَريّ، قال: حدثنا أبو عمر محمّد بن العبّاس بن محمّد بن زكريا بن حَيُّوَيْه لفظاً، قال: قُرئ على أَبي القاسم عبدالوهاب بن أبي حيَّة من كتابه وأنا أَسمع، وأقرّ به، يوم السبت بالغداة، في دار أبي عبدالله الوَرَّاق، مُرَبَّعَةِ شبيب، باب الشام، في باب الذهب، في درب البلخ، في جمادى الآخرة سنة ثماني عشرة وثلثمائة، قال: حدثنا أبو عبدالله محمد بن شجاع الثلجي، قال: حدثني محمد بن عمر الواقدي، قال: حدثني عمر بن عثمان بن عبدالرحمن بن سعيد بن يربوع المخزومي، وموسى ابن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، ومحمد بن عبدالله بن مسلم، وموسى ابن يعقوب بن عبدالله بن وهب بن زمعة، وعبدالله بن جعفر بن عبدالرحمن ابن المسور بن مخرمة، وأبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أبي سبرة، وسعيد ابن عثمان بن عبدالرحمن بن عبدالله التيمي، ويونس بن محمد الظفري، وعائذ ابن يحيى، ومحمد بن عمرو، ومعاذ بن محمد الأنصاري، ويحيى بن عبدالله ابن أبي قتادة، وعبدالرحمن بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عثمان بن حنيف، وابن أبي حبيبة، ومحمد بن يحيى بن سهل بن أبي حثمة، وعبدالحميد بن جعفر، ومحمد بن صالح بن دينار، وعبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر، ويعقوب بن محمد بن أبي صعصعة، وعبدالرحمن بن أبي الزناد، وأبو معشر، ومالك بن أبي الرجال، وإسماعيل بن إبراهيم بن عقبة،

وعبدالحميد بن عمران ابن أبي أنس، وعبدالحميد بن أبي عبس، فكل قد حدثني من هذا بطائفة، وبعضهم أوعى لحديثه من بعض، وغيرهم قد حدثني أيضاً، فكتبت كل الذي حدثوني، قالوا: قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول، ويقال لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، والثابت لاثنتي عشرة. فكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ لحمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه في شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبي ﷺ.

* * *

(٢)

مقدمة ابن قتيبة الدينوري
(ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) لكتابه (عيون الأخبار)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الإمام أبو محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري رضي الله عنه: الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين وتفوت آلاؤه عدد العادين وتسع رحمته ذنوب المسرفين، والحمد لله الذي لا تحجب عنه دعوة ولا تخيب لديه طلبة ولا يضل عنده سعي، الذي رضي عن عظيم النعم بقليل الشكر وغفر بعقد الندم كبير الذنوب، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين، والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير السراج المنير هادياً إلى رضاه وداعياً إلى محابته ودالاً على سبيل جنته ففتح له باب رحمته وأغلق عنا باب سخطه. صلى الله وملائكته المقربون عليه وعلى آله وصحبه أبداً ما طما بحر وذر شارق وعلى جميع النبيين والمرسلين.

أما بعد، فإن لله في كل نعمة أنعم بها حقاً وعلى كل بلاء أبلاه زكاة: فزكاة المال الصدقة، وزكاة الشرف التواضع، وزكاة الجاه بذله، وزكاة العلم نشره، وخير العلوم أنفعها. وأنفعها أحمدها مغبة، وأحمدها مغبة ما تعلم وعلم لله وأريد به وجه الله تعالى.

ونحن نسأل الله تعالى، جل وعلا، أن يجعلنا بما علمنا عاملين وبأحسنه آخذين

ولوجهه الكريم بما نستفيد ونفيد مريدين ولحسن بلائه عندنا عارفين وبشكره آناء الليل والنهار هارفين إنه أقرب المدعوين وأجود المسؤولين.

وإني كنت تكلفت لمغفل التأدب من الكتاب كتاباً من المعرفة وفي تقويم اللسان واليد حين تبينت شمول النقص ودروس العلم وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس، بلغت به فيه همة النفس وثلج الفؤاد وقيدت عليه به ما أطرفني الإله ليوم الإدالة، وشرطت عليه مع تعلم ذلك تحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كاتَبَ، ويستعين بما فيها من معنى لطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور. ولما تقلدت له القيام ببعض آلته دعتني الهمة إلى كفايته وخشيت إن وكلته فيما بقي إلى نفسه وعولت له على اختياره أن تستمر مريرته على التهاون ويستوطئ مركبه من العجز فيضرب صفحاً عن الآخر كما ضرب صفحاً عن الأول، أو يزاول ذلك بضعف من النية وكلال من الحد فيلحقه خور الطباع وسآمة الكلفة. فأكملت له ما ابتدأت وشيدت له ما أسست وعملت له في ذلك من طب لمن حب بل عمل الوالد الشفيق للولد البر ورضيت منه بعاجل الشكر وعولت على الله في الجزاء والأجر.

فإن هذا الكتاب، وإن لم يكن في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام، دال على معالي الأمور ومرشد لكريم الأخلاق زاجر عن الدناءة ناه عن القبيح باعث على صواب التدبير وحسن التقدير ورفق السياسة وعمارة الأرض. وليس الطريق إلى الله واحداً ولا كل الخير مجتمعاً في تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام، بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة وصلاح الدين بصلاح الزمان، وصلاح الزمان بصلاح السلطان، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التبصير.

وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدباً وللملوك مستراحاً من كد الجد والتعب، وصنفتها أبواباً وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس

حفظها، وعلى الناشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض وحلية الأدب وأثمار طول النظر والمتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف. جمعت لك منها ما جمعت في هذا الكتاب لتأخذ نفسك بأحسنها وتقومها بثقافها وتخلصها من مساوئ الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها، وتروضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم، وتصل بها كلامك إذا حاورت وبلاغتك إذا كتبت، وتستنجح بها حاجتك إذا سألت، وتتلطف في القول إن شفعت، وتخرج من اللوم بأحسن العذر إذا اعتذرت فإن الكلام مصايد القلوب والسحر الحلال، وتستعمل آدابها في صحبة سلطانك وتسديد ولايته ورفق سياسته وتدبير حروبه، وتعمر بها مجلسك إذا جددت وأهزلت وتوضح بأمثالها حججك وتبذ باعتبارها خصمك حتى يظهر الحق في أحسن صورة وتبلغ الإرادة بأخف مؤونة، وتستولي على الأمد وأنت وادع وتلحق الطريدة ثانياً من عنانك وتمشي رويداً وتكون أولاً هذا إذا كانت الغريزة مواتية والطبيعة قابلة والحس منقاداً، فإن لم يكن كذلك ففي هذا الكتاب، لمن أراه عقله نقص نفسه فأحسن سياستها وستر بالأناة والروية عيبها ووضع من دواء هذا الكتاب على داء غريزته وسقاها بمائة وقدح فيها بضيائه، ما نعش منها العليل وشحذ الكليل وبعث الوسنان وأيقظ الهاجع حتى يقارب بعون الله رتب المطبوعين.

ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفيت كل فريق منهم قسمة ووفرت عليه سهمه وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك لعل الله يعطف به صادفاً، ويأطر على التوبة متجانفاً، ويردع ظالماً ويلين برقائقه قسوة القلب. ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض أخذ فيها القائلون، ولأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وإتعاب الحق فإن الأذن مجاجة والنفس حمضة، والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً ولأحايينه وأوقاته

وأسباب أوجبته مشاكلاً ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله.

وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما، فإذا مر بك، أيها المتزمت، حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به.

وأعلم انك إن كنت مستغنياً عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه، وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك، ولو وقع فيه توقي المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك.

وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين.

وإن مر بك خبر أو شعر يتضع على قدر الكتاب وما بني عليه فاعلم أن لذلك سببين: أحدهما قلة ما جاء في ذلك المعنى مع الحاجة إليه، والسبب الآخر أن الحسن إذا وصل بمثله نقص نوراهما ولم يتبين فاضل بمفضول. وإذا وصل بما هو دونه أراك نقصان أحدهما عن الآخر الرجحان، ومدار الأمر وقوامه على واحدة تحتاج إلى أن تأخذ نفسك بها وهي أن تحضر الكلمة موضعها وتصله بسببها ولا ترى غبناً أن يتكلم الناس وأنت ممسك، فإذا رأيت حالاً تشاكل ما حضرك من القول أحضرته وفرصة تخاف فوتها انتهزتها، وكان يقال: انتهزوا فرص القول فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب، وقالوا: رب كلمة تقول : دعني.

وإن وقفت على باب من أبواب هذا الكتاب لم تره مشبعاً فلا تقض علينا بالإغفال حتى تتصفح الكتب كلها، فإنه رب معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع فنقسم ما جاء فيه على مواضعه، كالتلطف في القول يقع في كتاب السلطان ويقع في كتاب الحوائج ويقع

في باب البيان، وكالاعتذار يقع في كتاب السلطان وفي كتاب الإخوان، وكالبخل يقع في كتاب الطبائع وفي كتاب الطعام، وكالكبر والمشيب يقع في كتاب الزهد، ويقع في كتاب النساء.

وإني حين قسمت هذه الأخبار والأشعار وصنفتها وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب بعد الذي رأيت إفراده عنها وهو أربعة كتب متميزة، كل كتاب منها مفرد على حدته، كتاب الشراب، وكتاب المعارف، وكتاب الشعر، وكتاب تأويل الرؤيا.

فالكتاب الأول من الكتب العشرة المجموعة "كتاب السلطان" وفيه الأخبار من محل السلطان واختلاف أحواله وعن سيرته وعما يحتاج صاحبه إلى استعماله من الآداب في صحبته وفي مخاطبته ومعاملته ومشاورته له وما يجب على السلطان أن يأخذ به في اختيار عماله وقضاته وحجابه وكتابه وعلى الحكام أن يمتثلوه في أحكامهم وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الثاني "كتاب الحرب" وهذا الكتاب مشاكل لكتاب السلطان فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً وفيه الأخبار عن آداب الحرب ومكايدها ووصايا الجيوش وعن العدد والسلاح والكراع وما جاء في السفر والمسير والطيرة والفأل وما يؤمر به الغزاة والمسافرون، وأخبار الجبناء والشجعاء وحيل الحرب وغيرها وشيء من أخبار الدولة والطالبيين وأخبار الأمصار وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الثالث "كتاب السؤدد" وفيه الأخبار عن مخايل السؤدد في الحدث وأسبابه في الكبير وعن الهمة السامية والخطار بالنفس لطلب المعالي واختلاف الإرادات والأماني والتواضع والكبر والعجب والحياء والعقل والحلم والغضب والعز والهيبة والذل والمروءة واللباس والطيب والمجالسة والبناء والمزاح وترك التصنع والتوسط في الأشياء وما يكره من الغلو والتقصير واليسار والفقر والتجارة والبيع والشراء والمداينة

والشريف من أفعال الأشراف والسادة وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الرابع كتاب "الطبائع والأخلاق" وهذا الكتاب مقارب لكتاب السؤدد فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً وفيه الأخبار عن تشابه الناس في الطبائع وذمهم وعن مساوئ الأخلاق من الحسد والغيبة والسعاية والكذب والقحة وسوء الخلق وسوء الجوار والسباب والبخل والحمق ونوادر الحمقى وطبائع الحيوان من الناس والجن والأنعام والسباع والطير والحشرات وصغار الحيوان والنبات وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الخامس "كتاب العلم " وفيه الأخبار عن العلم والعلماء والمتعلمين وعن الكتب والحفظ والقرآن والأثر والكلام في الدين ووصايا المؤدبين والبيان والبلاغة والتلطف في الجواب والكلام وحسن التعريض والخطب والمقامات وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب السادس "كتاب الزهد" وهذا الكتاب مقارب لكتاب العلم فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً وفيه الأخبار عن صفات الزهاد وكلامهم في الزهد والدعاء والبكاء والمناجاة وذكر الدنيا والتهجد والموت والكبر والشيب والصبر واليقين والشكر والاجتهاد والقناعة والرضا ومقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك ومواعظهم وغير ذلك وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب السابع "كتاب الإخوان" وفيه الحث على اتخاذ الأخوان واختيارهم والأخبار عن المودة والمحبة وما يجب للصديق ومخالفته الناس وحسن محاورتهم والتلاقي والزيارة والمعانقة والوداع والتهادي والعيادة والتعازي والتهاني وذكر شرار الإخوان وذكر القرابات والولد والاعتذار وعتب الإخوان وتعاديهم وتباغضهم وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب الثامن "كتاب الحوائج" وهذا الكتاب مقارب لكتاب الإخوان فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً فيه الأخبار عن استنجاح الحوائج بالكتمان والصبر والجد والهدية والرشوة ولطيف الكلام ومن يعتمد في الحاجة ومن يستسعى لها والإجابة إلى الحاجة والرد عنها والمواعيد وتنجزها وأحوال المسؤولين عند السؤال في الطلاقة والعبوس والعادة من المعروف تقطع والشكر والثناء والتلطف فيهما والترغيب في قضاء الحوائج واصطناع المعروف والحرص والإلحاح والقناعة والاستعفاف وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب التاسع "كتاب الطعام" وفيه الأخبار عن الأطعمة الطيبة والحلواء والسويق واللبن والتمر والخبائث منها التي يأكلها فقراء الأعراب، ونازلة الفقر وأدب الأكل وذكر الجوع والصوم وأخبار الأكلة والمنهومين والدعاء إلى المآدب والضيافة وأخبار البخلاء بالطعام وسياسة الأبدان بما يصلحها من الغذاء والحمية وشرب الدواء ومضار الأطعمة ومنافعها ومصالحها ونتف من طب العرب والعجم وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

والكتاب العاشر "كتاب النساء" وهذا الكتاب مقارب لكتاب الطعام، والعرب تدعو الأكل والنكاح الأطيبين فتقول: قد ذهب منه الأطيبان، تريدهما، فضممته إليه وجعلتهما جزءاً واحداً وفيه الأخبار عن اختلاف النساء في أخلاقهن وخلقهن وما يختار منهن للنكاح وما يكره واختلاف الرجال في ذلك والحسن والجمال والقبح والدمامة والسواد والعاهات والعجز والمشايخ والمهور وخطب النكاح ووصايا الأولياء عند الهداء وسياسة النساء ومعاشرتهن والدخول بهن والجماع والولادات ومساويهن خلا أخبار عشاق العرب فإني رأيت كتاب الشعراء أولى بها فلم أودع هذا الكتاب منها إلا شيئاً يسيراً، وما جاء في ذلك من النوادر وأبيات الشعر المشاكلة لتلك الأخبار.

فهذه أبواب الكتب جمعتها لك في صدر أولها لأعفيك من كد الطلب وتعب التصفح وطول النظر عند حدوث الحاجة إلى بعض ما أودعتها ولتقصد فيما تريد حين تريد

إلى موضعه فتستخرجه بعينه أو ما ينوب عنه ويكفيك منه، فإن هذه الأخبار والأشعار وإن كانت عيوناً مختارة أكثر من أن يحاط بها أو يوقف من ورائها أو تنتهي حين ينتهى عنها.

وقد خففت وإن كنت أكثرت، واختصرت وإن كنت أطلت، وتوقيت في هذه النوادر والمضاحك ما يتوقاه من رضي من الغنيمة فيها بالسلامة ومن بعد الشقة بالإياب، ولم أجد بداً من مقدار ما أودعته الكتاب منها لتتمم به الأبواب، ونحن نسأل الله أن يمحو ببعض بعضاً ويغفر بخير شراً وبجد هزلاً ثم يعود علينا بعد ذلك بفضله ويتغمدنا بعفوه ويعيذنا بعد طول الأمل فيه وحسن الظن به والرجاء له من الخيبة والحرمان.

* * *

(٣)
مقدمة اليعقوبي لكتابه (التاريخ) ٢٨٤هـ/٨٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي التوفيق، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

إنه لما انقضى كتابنا الأول الذي اختصرنا فيه ابتداء كون الدنيا وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة والممالك المتفرقة والأسباب المتشعبة، ألفنا كتابنا هذا على ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والأخبار والتأريخات، ولم نذهب إلى التفرد بكتاب نصنفه ونتكلف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا، لكنا قد ذهبنا إلى جمع المقالات والروايات لأنا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمال، وزاد بعضهم ونقص بعض، فأردنا أن نجمع ما انتهى إلينا مما جاء به كل امرئ منهم لأن الواحد لا يحيط بكل العلم، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: العلم أكثر من أن يحفظ، فخذوا من كل علم محاسنه. وقال جعفر بن حرب بن الأشج: وجدت العلم كالمال، وفي يد كل إنسان منه شيء، فإذا حوى الرجل منه جملة سمي موسراً، ويحوي الآخر ما هو أكثر منه فيسمى موسراً، وكذلك العلم لا يحوي منه شيئاً إلا سمي عالماً وإن كان غيره أعلم منه. ولو كنا لا نسمي العالم عالماً حتى يحوي العلم كله لم يقع هذا الاسم على أحد من الآدميين. وقال بعض الحكماء: ليس طلبي للعلم طمعاً في بلوغ قاصيته والاستيلاء على غايته، ولكن التمس شيئاً لا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه. وقال بعض الحكماء إن لم تكن عالماً فتعلم وإنه لم تكن حكيماً فتحكم فإنه قل ما يتشبه

رجل بقوم إلا يوشك أن يكون منهم. وقال بعضهم: العلم روح والعمل بدن، والعلم أصل والعمل فرع، والعلم والد والعمل مولود، وكان العمل بمكان العلم ولم يكن العلم بمكان العمل. وقال بعضهم: من طلب العلم لرغبة أو رهبة أو منافسة أو شهوة كان حظه منه على حسب الرهبة، ومن طلب العلم لكرم العلم والتمسه لفضل الاستبانة كان حظه منه بقدر كرمه وانتفاعه به حسب استحقاقه. وقال بعضهم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى العلم.

وابتدئ كتابنا هذا من مولد رسول الله وخبره في حال بعد حال ووقت بعد وقت إلى أن قبضه الله إليه، وأخبار الخلفاء بعده وسيرة خليفة بعد خليفة وفتوحه، وما كان منه وعمل به في أيامه وسني ولايته. وكان من روينا عنه ما في هذا الكتاب: إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي عن أشياخ بني هاشم، وأبو البختري وهب بن وهب القرشي عن جعفر بن محمد وغيره من رجاله، وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد، ومحمد بن عمر الواقدي عن موسى بن عقبة وغيره من رجاله، وعبدالملك بن هشام بن زياد بن عبدالله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي، وأبو حسان الزيادي عن أبي المنذر الكلبي وغيره من رجاله، وعيسى بن يزيد بن دأب، والهيثم بن عدي الطائي عن عبدالله بن عباس الهمداني، ومحمد بن كثير القرشي عن أبي صالح وغيره من رجاله، وعلي بن محمد بن عبدالله بن أبي سيف المدائني، وأبو معشر المدني، ومحمد ابن موسى الخوارزمي المنجم، وما شاء الله، الحاسب في طوالع السنين والأوقات. وأثبتنا عن غير هؤلاء الذين سمينا جملاً جاء بها غيرهم، ورواها سواهم وعلمناها من سير الخلفاء وأخبارهم، وجعلناه كتاباً مختصراً، حذفنا منه الأشعار وتطويل الأخبار، وبالله المعونة والتوفيق والحول والقوة.

* * *

(٤)

مقدمة الطبري (٣١٠هـ/٩٢٣م)

لكتابه (تاريخ الرسل والملوك)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، والدائم بلا زوال، والقائم على كل شيء بغير انتقال، والخالق خلقه من غير أصل ولا مثال، فهو الفرد الواحد من غير عدد، وهو الباقي بعد كل أحد، إلى غير نهاية ولا أمد، له الكبرياء والعظمة، والبهاء والعزة، والسلطان والقدرة، تعالى عن أن يكون له شريك في سلطانه، أو في وحدانيته نديد، أو في تدبيره معين أو ظهير، أو أن يكون له ولد، أو صاحبة أو كفء أحد، لا تحيط به الأوهام، ولا تحويه الأقطار، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

أحمده على آلائه، وأشكره على نعمائه، حمد من أفرده بالحمد، وشكر من رجا بالشكر منه المزيد، وأستهديه من القول والعمل لما يقربني منه ويرضيه، وأؤمن به إيمان مخلص له التوحيد، ومفرد له التمجيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده النجيب، ورسوله الأمين، اصطفاه لرسالته، وابتعثه بوحيه، داعياً خلقه إلى عبادته، مضرع بأمره، وجاهد في سبيله، ونصح لأمته، وعبده حتى أتاه اليقين من عنده، غير مقصر في بلاغ، ولا وان في جهاد، صلى الله عليه أفضل صلاة وأزكاها، وسلم.

أما بعد، فإن الله جل جلاله، وتقدست أسماؤه، خلق خلقه من غير ضرورة كانت

به إلى خلقهم، وأنشأهم من غير حاجة كانت به إلى إنشائهم، بل خلق من خصه منهم بأمره ونهيه، وامتحنه بعبادته، ليعبدوه فيجود عليهم بنعمه، وليحمدوه على نعمه فيزيدهم من فضله ومننه، ويسبغ عليهم فضله وطوله، كما قال عز وجل: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٥٦) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (٥٧) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين(٥٨)**﴾ (سورة الذاريات)، فلم يزده خلقه إياهم مثقال ذرة، ولا هو إن أفناهم وأعدمهم ينقصه إفناؤه إياهم ميزان شعرة، لأنه لا تغيره الأحوال، ولا يدخله الملال، ولا ينقص سلطانه وجوده، وشملهم كرمه وطوله، فجعل لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، وخصهم بعقول يصلون بها إلى التمييز بين الحق والباطل، ويعرفون بها المنافع والمضار، وجعل لهم الأرض بساطاً ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً، والسماء سقفاً محفوظاً، وبناءً مسموكاً، وأنزل لهم منها الغيث بالإدرار، والأرزاق بالمقدار، وأجرى لهم فيها قمر الليل وشمس النهار يتعاقبان بمصالحهم دائبين، فجعل لهم الليل لباساً، والنهار معاشاً، وخالف ـ منّا منه عليهم وتطولاً – بين قمر الليل وشمس النهار، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة، كما قال جل جلاله، وتقدست أسماؤه: ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً**﴾ (سورة الإسراء: ١٢)، وليصلوا بذلك إلى العلم بأوقات فروضهم التي فرضها عليهم في ساعات الليل والنهار، والشهور والسنين، من الصلوات والزكوات والحج والصيام وغير ذلك من فروضهم، وحين حل ديونهم وحقوقهم، كما قال عز وجل: ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾ (سورة البقرة: ١٨٩)، وقال: ﴿**هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون. إن في اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يوقنون**﴾ (سورة يونس: ٥). إنعاماً منه بكل ذلك على خلقه، وتفضلاً منه به عليهم وتطولاً، فشكره على نعمه التي أنعمها عليهم من خلقه خلق عظيم، فزاد كثيراً منهم من آلائه وأياديه، على ما ابتدأهم به من فضله وطوله، كما وعدهم جل جلاله

بقوله: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (سورة إبراهيم: ٧)، وجمع إلى الزيادة التي زادهم في عاجل دنياهم الفوز بالنعيم المقيم، والخلود في جنات النعيم، في آجل آخرتهم، وأخر لكثير منهم الزيادة التي وعدهم فمدهم إلى حين مصيرهم إليه، ووقت قدومهم عليه، توفيراً منه كرامته عليهم يوم تبلى السرائر. وكفر نعمه خلق منهم عظيم، فجحدوا آلاءه، وعبدوا سواه، فسلب كثيراً منهم ما ابتدأهم به من الفضل والإحسان، وأحل بهم النقمة المهلكة في العاجل، وذخر لهم العقوبة المخزية في الآجل، ومتع كثيراً منهم بنعمه أيام حياتهم استدراجاً منه لهم، وتوقيراً منه عليهم أوزارهم، ليستحقوا من عقوبته في الآجل ما قد أعد لهم، نعوذ بالله من عمل يقرب من سخطه، ونسأله التوفيق لما يدني من رضاه ومحبته.

قال أبو جعفر: وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتدأ ربنا ـ جل جلاله ـ خلق خلقه إلى حال فنائهم، من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله ـ تعالى ـ بآلائه ونعمه فشكر نعمه، من رسول له مرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة مستخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمة في العاجل نعماً، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن أخر ذلك له منهم، وجعله له عنده ذخراً، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمه، وعجل له نقمه، ومن كفر منهم نعمه فمتعه فما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه، وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه، إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر، وتطول به الكتب، مع ذكري مع ذلك مبلغ مدة أكله، وحين أجله، بعد تقديمي أمام ذلك ما تقديمه بنا أولى، والابتداء به قبله أحجى، من البيان عن الزمان: ما هو؟ وكم قدر جميعه، وابتداء أوله وانتهاء آخره؟ وهل كان قبل خلق الله تعالى إياه شيء غيره؟ وهل هو فان؟ وهل بعد فنائه شيء غير وجه المسبح الخلاق، تعالى ذكره؟ وما الذي كان قبل خلق الله إياه؟ وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه؟ وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إياه؟ وكيف يكون فناؤه؟ والدلالة على أن لا قديم إلا الله الواحد القهار، الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، بوجيز من الدلالة غير طويل، إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك، بل لما

ذكرنا من تأريخ الملوك الماضين وجمل من أخبارهم، وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم، وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم، ومبالغ ولاياتهم، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم.

ثم أنا متبع آخر ذلك كله ـ إن شاء الله وأيد منه بعون وقوة ـ ذكر صحابة نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكناهم ومبالغ أنسابهم، ومبالغ أعمارهم، ووقت وفاة كل إنسان منهم، والموضع الذي كانت به وفاته، ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان، على نحو ما شرطنا من ذكرهم، ثم ملحق بهم ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك، وزائد في أمورهم، للإبانة عمن حمدت منهم روايته، وتقبلت أخباره، ومن رفضت منهم روايته، ونبذت أخباره، ومن وهن منهم نقله، وضعف خبره، وما السبب الذي من أجله نبذ من نبذ منهم خبره، والعلة التي من أجلها وهن من وهن منهم نقله.

وإلى الله ـ عز وجل ـ أنا راغب في العون على ما أقصده وأنويه، والتوفيق لما ألتمسه وأبغيه، فإنه ولي الحول والقوة، وصلى الله على محمد نبيه وآله وسلم تسليماً.

وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل على من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس. فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتِ في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا.

* * *

(٥)
مقدمة المؤيد في الدين الشيرازي
(ت القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)
لمذكراته الموسومة (مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل موضوع المقدار، على الجميع بين الصفو والأكدار، واختلاف الليل والنهار، ضمين الأيسار والأعسار.

أحمده حمد الشاكرين لآلائه الذين هو لهم كفيل الجزاء بقوله تعالى: ﴿**وسنجزي الشاكرين**﴾ (سورة آل عمران: ١٤٥). والصابرين على بلائه الأولى الذين حباهم حبه بأفضل الحياء. فقال تعالى: ﴿ **والله يحب الصابرين**﴾ (سورة آل عمران: ١٤٦).

وصلى الله على رسوله المصطفى المبعوث بأهدى السبل "محمد" المخصوص بأرضى الملل، المأمور بقوله: ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل**﴾ (سورة الأحقاف: ٣٥).

وعلى وصيه علي بن أبي طالب صفوة الماشين بعده على الغبراء، وقدوة من عناهم بقوله تعالى: ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء**﴾ (سورة البقرة: ١٧٧).

وعلى الأئمة من ذريتهما سادة الساجدين في زمانهم، وقادة المخاطبين من ربهم كقوله سبحانه: ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين**﴾ (سورة البقرة: ٤٥).

أما بعد فإن بعض الناس خاضوا في حديث الفورة التي جرت بشيراز مما ألف بين عزيمة السلطان الذي كان به المكنى "أبا كاليجار[1]"، وقصد العوام لدفع الدعوة العلوية، وإذلال قدم متوليها، وإثارة الفتن والاجتماع على مد غواشيها، مستعظمين ما جرى منها، ومستهولين خطبها، ومتعجبين من ألطاف لله الخفية في فتح أغلاقها، وكشف أغساقها، وإظهار العلم المعجز فيها قلباً للأعيان، وكسراً لنواجز الشيطان، قائلين: إن دون ذلك مما لم يهل وقوعه كهوله، ولم يرع مسموعه كروعه، دون في الكتب، وأودع بطون الصحف، ليكون للمستبصر تبصرة، وللمستذكر تذكرة. فما يمنع أن يكون هذا الأمر الهائل مثبتاً كثبوت الغير، ليكون في الغابرين باقي الذكر.

فاستخرت الله تعالى في اقتصاص ذلك، وشرح ما تبعه مما غبر في وجهه، وأدى إلى أهوال فاقت ما تقدم، وأدت إلى الجلاء عن الأهل والوطن، على كون عبارة مثلي ممن طحنته نار المحنة، ورمت به في بحار الحيرة، وأنوار الفكر الخامدة.

والله تعالى ولي إحسان المعونة، والتوفيق لجميل العاقبة برحمته.

* * *

---

(١) هو المرزبان ابن سلطان الدولة ابن بهاء الدولة "أبو كاليجار". ولد بالبصرة سنة ٣٩٩هـ. ولي إمارة فارس والأهواز مدة خمس وعشرين سنة، وولي العراق أربع سنين. توفي سنة ٤٤٠هـ

(٦)

مقدمة كتاب (تجارب الأمم)
لأبي علي مسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، وصلواته على محمد النبي وآله أجمعين، قد أنعم الله علينا، معاشر خدم مولانا الملك السيد الأجل، ولي النعم- أطال الله بقاءه، وأكب أعداءه، وحرس ملكه، وأعز سلطانه – لما أخرجنا في زمانه، وأنشأنا في أيامه، وبوأنا ظله، وأنزلنا كنفه، وجعلنا من خاص خدمه. فنحن نتقلب من نعمه فيما لا شكر له غير الدعاء، ولا ثمن له غير الثناء، فنسأل الله بأخلص نية وأصدق طوية، إدامة أيامه، والإمتاع بما خولناه من إنعامه، إنه جواد كريم.

وإني لما تصفحت أخبار الأمم، وسير الملوك، وقرأت أخبار البلدان، وكتب التواريخ، وجدت فيها ما تستفاد منه تجربة في أمور لا تزال يتكرر مثلها وينتظر حدوث شبهها وشكلها: كذكر مبادئ الدول. ونشء الممالك، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، وتلافي من تلافاه وتداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، وإغفال من أغفله واطرحه إلى أن تأدى إلى الاضمحلال والزوال، وذكر ما يتصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان، وجمع كلم الرعية، وإصلاح نيات الجند، وحيل الحروب ومكائد الرجال، وما تم منها على العدو، وما رجع على صاحبه، وذكر الأسباب التي تقدم بها قوم عند السلطان، والأحوال التي تأخر لها آخرون، وما كان منها محمود الأوائل مذموم العواقب، وما كان بضد ذلك، وما استمر أوله وآخره على سنن واحد، وذكر سياسات الوزراء، وأصحاب الجيوش، ومن أسند إليه حرب وسياسة، أو تدبير أو إيالة، فوفى بذلك وتأتى له، أو كان بخلاف ذلك.

ورأيت هذا الضرب من الأحداث، إذا عرف له مثال مما تقدم، وتجربة لمن سلف، فاتخذ إماماً يقتدى به، حذر مما ابتلى به قوم، وتمسك بما سعد به قوم. فإن أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة، وصار جميع ما يحفظه الإنسان من هذا الضرب كأنه تجارب له، وقد دفع إليها، واحتنك بها، وكأنه قد عاش ذلك الزمان كله، وباشر تلك الأحوال بنفسه، واستقبل أموره استقبال الخبر، وعرفها قبل وقوعها، فجعلها نصب عينه وقبالة لحظه فأعد لها أقرانها وقابلها بأشكالها، وشتان بين من كان بهذه الصورة وبين من كان غراً غمراً لا يتبين الأمر إلا بعد وقوعه، ولا يلاحظه إلا بعين الغريب منه، يحيره كل خطب يستقبله، ويدهشه كل أمر يتجدد له.

ووجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تجري مجرى الأسمار والخرافات التي لا فائدة فيها غير استجلاب النوم بها، والاستمتاع بأنس المستطرف منها، حتى ضاع بينهما، وتبدد في أثنائها، فبطل الانتفاع به، ولم يتصل لسامعه وقارئه اتصالاً يربط بعضه بعضاً، بل تنسى النكتة منها قبل أن تجئ أختها، وتتفلت من الذهن قبل أن تقيدها نظيرتها، ويشتغل الفكر بسياقة خبرها دون تحصيل فائدتها.

فلذلك، جمعت هذا الكتاب، وسميته تجارب الأمم. وأكثر الناس انتفاعاً به وأكبرهم حظاً منه، أوفرهم قسطاً من الدنيا، كالوزراء، وأصحاب الجيوش، وسواس المدن، ومدبري أمر العامة والخاصة، ثم سائر طبقات الناس. وأقل الناس حظاً، لا يخلو أن ينتفع به في سياسة المنزل، وعشرة الصديق، ومداخلة الغريب، ولا يعدم مع ذلك، أنس السمر الذي يوجد في القسم الآخر الذي اطرحناه.

وبعد، فلو كان الخادم لا يتقرب إلا بما يعز وجوده عند سلطانه، ولا يلطف في الخدمة إلا بما لا يجد مثله، لانقطعت أسباب الهدايا والتحف، وارتفعت الملاطفات بالآداب والطرف، ولا سيما عند من كان في علو الهامة، وتوقد القريحة، وحفظ الآداب، وسياسة الملك والرعية في الخير، على ما عليه الملك السيد، أدام الله سلطانه.

وأنا مبتدئ بذكر الله ومنته، بما نقل إلينا من الأخبار بعد الطوفان، لقلة الثقة بما

كان منها قبله، ولأن ما نقل (إلينا) أيضاً لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره وضمناه في صدر الكتاب. ولهذا السبب بعينه، لم نتعرض لذكر معجزات الأنبياء - صلوات الله عليهم - وما تم لهم من السياسات بها. لأن أهل زماننا لا يستفيدون منها تجربة فيما يستقبلونه من أمورهم، اللهم إلا ما كان منها تدبيراً بشرياً لا يقترن بالإعجاز.

وقد ذكرنا أشياء مما يجري على الاتفاق والبخت، وإن لم يكن فيها تجربة، ولا تقصد بإرادة، وإنما فعلنا ذلك لتكون هي وأمثالها في حساب الإنسان وفي خلده ووهمه، لئلا تسقط من ديوان الحوادث عنده، وما ينتظر وقوع مثله، وإن لم يستطع تحرزاً من مكروهه إلا بالاستعانة بالله، ولا توقعاً لمحبوبه إلا بمسألته التوفيق، وهو - عز اسمه - خير موفق ومعين.

* * *

(٧)
مقدمة السهمي (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م)
لكتابه تاريخ جرجان أو (كتاب معرفة علماء أهل جرجان)

بسم الله الرحمن الرحيم

قرأت على الشيخ الإمام الحافظ المتقن أبي محمد عبدالغني بن عبدالواحد بن علي المقدسي، قال أخبرنا الإمام مسعود بن علي بن عبيد الله بن النادر العدل، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي قراءة عليه وأنت تسمع، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة بن إسماعيل ابن أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي وأنا أسمع قيل له أخبركم الشيخ أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي قراءة عليه وأنت تسمع في صفر سنة تسع عشرة وأربعمائة قلت.

الحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، والصلاة على نبيه محمد وآله وسلم تسليماً.

أما بعد فإني لما رأيت كثيراً من البلدان تعصب أهلها وأظهروا مفاخرها بدخول (الصحابة...) رضي الله عنهم أجمعين بلادهم، وكون الخلفاء والأمراء وجماعة من العلماء عندهم، حتى أرخوا لذلك تواريخ وصنفوا فيها تصانيف على ما بلغهم، ولم أر أحداً من مشايخنا رحمهم الله صنف في ذكر علماء أهل جرجان تصنيفاً أو أرخ لهم تأريخاً على توافر علمائها وتظاهر شيوخها وفضلائها فأحببت أن أجمع في ذلك مجموعاً على قدر جهدي وطاقتي مع قلة بضاعتي، وعرض لي جمعه حين تفانى العلماء الذين يوثق بعلمهم ويعتمد على معرفتهم، ولم أتمكن من كتبهم فاستمد منها إذ كان أهلها قد

أضاعوها لقلة رغباتهم وفتور نياتهم، فاقتصرت على ما حضر وأخذت بما تيسر وقدمت العذر حتى إن قصرت فيه تقصيراً أو شذ عني شيء كنت في ذلك معذوراً.

وبالله استعنت وعليه توكلت وهو نعم المولى ونعم النصير.

* * *

(٨)

مقدمة أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) لكتابه (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق ابن موسى بن مهران الأصبهاني رحمه الله.

الحمد لله محدث الأكوان والأعيان، ومبدع الأركان والأزمان، ومنشئ الألباب والأبدان، ومنتخب الأحباب والخلان، منور أسرار الأبرار بما أودعها من البراهين والعرفان ومكدر جنان الأشرار بما حرمهم من البصيرة والإيقان، المعبر عن معرفته المنطق واللسان، والمترجم عن براهينه الأكف والبنان، بالموافق للتنزيل والفرقان، والمطابق للدليل والبيان. فألزم الحجة بالقادة من المرسلين، وأبهج المنهج بالسادة من المحققين؛ الذين جعلهم خلفاء الأنبياء، وعرفاء الأصفياء، المقربين إلى الرتب الرفيعة، والمنزهين عن النسب الوضيعة، والمؤيدين بالمعرفة والتحقيق، والمقومين بالمتابعة والتصديق، معرفة تعقب لمعرفتهم موافقة، وتوجب لحكم نفوسهم مفارقة، وتلزم لخدمة مشهودهم معانقة، وتحقق لشريعة رسولهم مرافقة، والصلاة على من عنه بلغ وشرع، وبأمره قام وصدع، ولمتبعيه غرس وزرع، محمد المصطفى المصطنع، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحابته المنتخبين وسلم.

(أما بعد) أحسن الله توفيقك فقد استعنت بالله عز وجل وأجبتك إلى ما ابتغيت، من جمع كتاب يتضمن أسامي جماعة وبعض أحاديثهم وكلامهم؛ من أعلام المتحققين

من المتصوفة وأئمتهم، وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم، من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم؛ ممن عرف الأدلة والحقائق، وباشر الأحوال والطرائق، وساكن الرياض والحدائق، وفارق العوارض والعلائق، وتبرأ من المتنطعين والمتعمقين، ومن أهل الدعاوى من المتسوفين، ومن الكسالى والمتثبطين؛ المتشبهين بهم في اللباس والمقال، والمخالفين لهم في العقيدة والفعال.

وذلك لما بلغك من بسط لساننا ولسان أهل الفقه، والآثار في كل القطر والأمصار، في المنتسبين إليهم من الفسقة والفجار، والمباحية والحلولية الكفار، وليس ما حل بالكذبة من الوقيعة والإنكار، بقادح في منقبة البررة الأخيار، وواضع من درجة الصفوة الأبرار، بل في إظهار البراءة من الكذابين والنكير على الخونة الباطلين نزاهة للصادقين ورفعة للمتحققين.

ولو لم نكشف عن مخازي المبطلين ومساويهم ديانة، للزمنا إبانتها وإشاعتها حمية وصيانة، إذ لأسلافنا في التصوف العلم المنشور، والصيت والذكر المشهور. فقد كان جدي محمد بن يوسف البنا رحمه الله أحد من نشر الله عز وجل به ذكر بعض المنقطعين إليه، وعمر به أحوال كثير من المقبلين عليه.

وكيف نستجيز نقيصة أولياء الله تعالى ومؤذيهم مؤذن بمحاربة الله، وهو ما حدثنا إبراهيم بن محمد بن حمزة حدثنا أبو عبيدة محمد بن أحمد بن المؤمل. وحدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن إسحاق السراج. قالا: حدثنا محمد بن إسحاق بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: "إن الله عز وجل قال من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فلئن سألني عبدي أعطيته، ولئن استعاذني لأعذته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن

يكره الموت وأكره إساءته – أو مساءته-".

وحدثنا القاضي أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن علي بن نصر قال قرأ على أبي محمد بن المثنى. وحدثنا الحسن بن سلمة بن أبي كبشة أن أبا عامر العقدي حدثهما قال حدثنا عبد الواحد عن عروة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ ويروي عن ربه عز وجل : "قال من آذى لي ولياً فقد استحل محاربتي". حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا يحيى بن أيوب حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثني عياش بن عياش عن عيسى بن عبد الرحمن عن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر. قال وجد عمر ابن الخطاب معاذ بن جبل رضي الله عنه قاعداً عند قبر رسول الله ﷺ يبكي. فقال: ما يبكيك؟ قال يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن يسير الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة".

قال الشيخ رحمه الله: وأعلم أن لأولياء الله تعالى نعوتاً ظاهرة، وأعلاماً شاهرة، ينقاد لموالاتهم العقلاء والصالحون ويغبطهم بمنزلتهم الشهداء والنبيون. وهو ما حدثنا محمد بن جعفر بن إبراهيم حدثنا جعفر بن محمد الصائغ حدثنا مالك بن إسماعيل وعاصم بن علي. قالا: حدثنا قيس بن الربيع حدثنا عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل".

فقال رجل: من هم وما أعمالهم؟ لعلنا نحبهم. قال: "قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها بينهم. والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس". ثم قرأ ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا يحزنون**﴾ (سورة يونس: ٦٢).

* * *

(٩)

مقدمة البيروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) لكتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتعالي عن الأضداد والأشباه، والصلاة على محمد المصطفى خير الخلق وعلى آله أئمة الهدى والحق. ومن لطائف تدبير الله تعالى في مصالح بريته وجلائل نعمه على كافة خليقته تقديره النافذ أن لايخلي في عالمه زماناً عن إمام عادل يجعله لخلقه أماناً ليفزعوا إليه في النوائب والحوادث من السوءات والكوارث ويردوا نحوه الأمر إذا اشتبه فيقوم باستنباط نظام العالم ويدوم قوامه مفروضاً ذلك عليهم ومقروناً بما لا ينال الثواب في الآخرة إلا به من طاعته سبحانه وطاعة رسوله بقول الحق العدل وقوله القضاء الفصل:﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ (سورة النساء: ٥٩) فالشكر لله على ما أفاض من مننه على عباده بإقامة مولانا الأمير السيد الأجل المنصور ولي النعم شمس المعالي أطال الله بقاءه وأدام قدرته وعلاءه وحرس على الزمان بهجته وبهاءه وصان عرصته وفناءه وكبت حسدته وأعداءه إماماً عادلاً لخلقه ناصراً لدينه وحقه، ذاباً عن حريم المسلمين، وحامياً حوزتهم عن بوائق المفسدين وأمده بخلق قد أمتن بمثله على نبيه ومؤدي وحيه فقال سبحانه: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (سورة القلم: ٤) تبارك وتعالى كيف جمع إلى مآثر عرقه الصميم محاسن خلقه الكريم وإلى نفسه الأبية جوامع الخصال الرضية من التقى والهدى والصيانة والديانة والعدل والإنصاف

والتواضع والإلطاف والعزم والحزم والسماحة والسجاحة والسياسة والرئاسة والتدبير والتقدير وغير ذلك مما لا تحصره الأوهام ولا يطيق ذكره الأنام وكيف يتعجب من ذلك وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد فأدام الله إمتاع المسلمين بحسن عنايته بهم وجميل رأيه فيهم وظاهر شفقته ورأفته عليهم وزادهم يوماً فيوماً ما تعودوه من كرم ظله الظليل ووفق الخاص والعام للمفترض عليهم من طاعته بمنه وجوده.

وبعد فقد سألني أحد الأدباء عن التواريخ التي يستعملها الأمم والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها والفروع التي هي شهورها وسنوها والأسباب الداعية لأهلها إلى ذلك، وعن الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها مما يعمل عليه بعض الأمم دون بعض، واقترح على الإبانة عن ذلك بأوضح ما يمكن السبيل إليه حتى تقرب من فهم الناظر فيها وتغنيه عن تدوخ الكتب المتفرقة وسؤال أهلها عنها، فعلمت أن ذلك أمر صعب المتناول بعيد المأخذ غير منقاد لمن رام إجراءه مجرى الضروريات التي لا يتخالج قلب الواقف عليها شبهة فيها لكني تأيدت بعلو دولة مولانا الأمير السيد الأجل المنصور ولي النعم شمس المعالي أدام الله قدرته في استفراغ الوسع واستنفاذ الجهد في الإبانة عن ذلك على حسب ما بلغه علمي إن بسماع وإن بعيان وقياس، ثم جرأني ما كنت تلبسته من لباس الخدمة الميمونة على إثبات تلك لعالي المجلس كي يتجدد خدمتي له فألبس بها حلل فخر يبقى لي ذكرها وشرفها تراثاً في الأعقاب على مر الدهور ومضي الأحقاب، فإن رأى أدام الله علو رأيه تشريف العبد بالأغضاء عن تجاسره وقبول عذره فعل صائب الرأي إن شاء الله، وأبتدي فأقول أن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أساً يبنى عليه بعده ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردنة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق وهي كالعادة

المألوفة والتعصب والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك، فإن الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدى إلى حاق المقصود وأقوى معين على إزالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد. على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول إليه لكثرة الأباطيل التي تدخل جمل الأخبار والأحاديث وليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميز وتهذب، لكن ما كان منها في حد الإمكان جرى مجرى الخبر الحق إذا لم يشهد ببطلانه شواهد أُخر بل قد يشاهد وشوهد من الأحوال الطبيعية ما لو حكى مثلها عن زمان بعيد عهدنا به لثبتنا الحكم على امتناعها، وعمر الإنسان لا يفي بعلم أخبار أمة واحدة من الأمم الكثيرة علماً ثاقباً فكيف يفي بعلم أخبار جميعها هذا غير ممكن، وإذ كان الأمر جارياً على هذا السبيل فالواجب علينا أن نأخذ الأقرب من ذلك فالأقرب والأشهر فالأشهر ونحصلها من أربابها ونصلح منها ما يمكننا إصلاحه ونترك سائرها على وجهها ليكون ما نعمله من ذلك معيناً لطالب الحق ومحب الحكمة على التصرف في غيرها ومرشداً إلى نيل ما لم يتهيأ لنا. وقد فعلنا ذلك بمشية الله وعونه ويجب بحسب ما قصدنا أن نبين مادية اليوم والليلة ومجموعهما وابتداءه المفروض إذ هما للشهور والسنين والتواريخ كالواحد للأعداد منه تتركب وإليه تحل وبإحاطة العلم بهما يسهل السبيل إلى درك ما تركّب منهما وبُنى عليهما.

* * *

(١٠)
مقدمة الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) لكتابه (تاريخ بغداد مدينة السلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا الشيخ الإمام العالم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب ـ رحمه الله ـ قراءة عليه ـ وذلك في يوم الاثنين ثامن المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ـ وأراني قد سمعت هذا الجزء الأول كله أو أكثر من أبي الفضل أحمد بن صالح بن شافع المعدل من لفظه، ثنا أبو القاسم هبة الله ـ وقال ابن الخشاب: قرأت على أبي القاسم هبة الله بن عبد الله بن أحمد الواسطي في يوم الأحد رابع عشر من شعبان من سنة ست وعشرين وخمسمائة، ثنا الشيخ الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ، قال:

الحمد لله الأول بلا بداية والآخر إلى غير نهاية وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته وصحابته المرضيين والذين اتبعوهم بالإحسان أجمعين.

هذا كتاب ضمنته ذكر من اشترك في الرواية عنه (من) تباين وقت وفاتيهما تبايناً شديداً وتأخر موت أحدهما عن الآخر تأخراً بعيداً وسميته : كتاب السابق واللاحق إشارة إلى لحاق المتأخر بالمتقدم في روايته وإن كان غير معدود في أهل عصره وطبقته.

وقد كان أبو الحسن علي بن عمر بن محمد الحربي فيما ذكر لنا عنه علي بن أبي علي البصري يقول على سبيل الافتخار لألحقن الصغار بالكبار.

(حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار)، ويجمع هذا الفن بين فضل علو الإسناد

في النفوس وتوجه لذة حلاوته في القلوب، وكان الذي دعاني إلى رسمه وجمع المتفرق منه وضمه.

ما حدثني أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب البرقاني عن أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني، قال: روى عن مالك رجلان بينهما مائة سنة، ربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حذافة السهمي.

فنظرت وإذا جماعة من العلماء قد (ظاهروا) مالكاً في تباين موت الرواة عنهم وفيهم من كانت المدة المتقدمة لتباين موت من روى عنه زائدة على مائة سنة وفيهم من قصرت مدته عنها.

فذكرت جميعهم وألحقت بهم من قاربهم، وجعلت اعتبار أقل مددهم أن تكون زائدة على الستين، دون ما قصر عنها من الستين، لأنها القدر الذي حده رسول الله ﷺ في أعمار أمته والغاية المؤقتة لإعذار الله عز وجل إلى خليقته.

أخبرني أبو نصر أحمد بن محمد بن حسنون النرسي ثنا علي (بن) الفضل بن إدريس (الستوري) ثنا "الحسن بن عرفة العبدي ثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن محمد بن (عمرو) عن أبي (سلمة) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك".

أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران المعدل أنبأ أبو عمرو عثمان بن أحمد بن عبد الله الدقاق ثنا الحسن بن سلام السواق ثنا أبو عبد الرحمن - هو عبد الله بن يزيد المقرئ ثنا سعد - يعني - بن أبي أيوب عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي (سعيد) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله تعالى إليه في العمر".

وقد رتبت أسماء المذكورين في كتابي هذا على نسق حروف المعجم من أوائل أسمائهم، وأوردت ما تيسر إيراده من رواياتهم والله تعالى أسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق لصواب القول والعمل فإن إليه الإنابة وعليه المتكل.

(١١)
مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (ت ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) والمسماة بكتاب (التبيان)

بسم الله الرحمن الرحيم

"[١]... واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس؛ فإن ذلك يولد خشونة اللفظ، الذي تمجه الأسماع.

والكلام، إذا خرج من القلب، وقع في القلب. ولا خير في رام رعش، ولا متكلم هائب؛ فإن الهيبة فرع (من) المخافة، والمخافة فرع (من) الحذر؛ ومن حذر، فقد عقله، ومن خاف، تكدر عيشه، ولا تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان، ويذكى بها الجنان؛ فالنفس، إذا منعت ما تشتهي، ترى مختلطة، وتصير كأنها بطوارق الخبل مختبطة.

ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله: فكل مفتون ملقن حجته، ولا عليه أن يرفض ذلك؛ فيكون بانياً على غير أصل وعاملاً لغير نهاية، وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويفسد حال نفسه، وهو لا يشعر، بل يصرف نفسه على فرقين: يسعى في بلوغ أمله وإدراك مراده دون أن يكون ذلك مخلاً بذكره ولا غرضاً لعدوه. وكل بيان ما لم يكن صواباً، فهذر.

وليس يحمد لواضع كتاب أو ناظم خبر أكثر من جودة التأليف فقط، لأنه إنما وضع

---

(١) راجع مقدمة المحقق لكتاب ابن العبري (تاريخ الزمان)، بيروت، ١٩٩١م، الورقة الأولى من المخطوط تالفة، وواضح أن المؤلف بدأ مقدمته بذكر القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها.

ما قد سبقه إليه غيره؛ وكل أحد ينفق مما عنده. وإن الأول لم يدع للآخر شيئاً. فلو كان نطق الناس إحالة بعضهم على بعض، ما سمع أحد يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، ولا يتبرع في (شيء) ولكن الأولى أن يؤخذ بما نص الله عليه في قوله: ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ (سورة الزمر: ١٨).

وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذكر خبر يوصف ويأتي عليه نادرة مستطرفة، أو حكاية مستغربة، أو معنى يؤدى إلى تأدب وانتفاع، فلعلك -أيها المتأمل كتابنا - أن يكون عندك أو طرأ إليك خبر من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا، فتعجز واضعه: فليس إلا كما قدمناه. اللهم إلا أن يكون حديثاً يؤدى إلى القيام بحجة صاحبه والاعتذار عنه من أمر قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة فنطق هذراً، وساعد عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً، وطعنوا على غائب أو ميت لم يحر الجواب عن نفسه، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه.

أو أبان المؤلف عن نفسه حذقاً ومعرفة تذكر عنه وتنشر بعده: فإن ذلك من آكد ما يجب له السعي فيه وإعمال ذهنه وحواسه في تلخيصه، إن أعانه على ذلك اغتباط بجميل الثناء، وأنفة لسوء المقال، ونشاط على ترفيع الذكر، مع فتو الهمة وصبوة القريحة، وإلا، فالأمر ناقص منه، واللسان عي عنه.

ولا سبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً، ولا في غيره من جميع المخلوقات. فإنه، متى ارتفع أمر، نزل ضده: كالحياة، إذا ارتفعت وجب الموت؛ وإذا ارتفعت الصحة، وجب السقم؛ وإذا ارتفع الكرب، وجب الفرج.

هكذا نسق كل أمر: كالعامل للآخرة محضاً، لا بد له من نقصان دنياه.

ألا ترى أن مؤلف الكتاب، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع اللفظ، كان ذلك ضاراً بالمعنى؛ وإن أتى به، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه، وربما وضعه من غير شكله. وإذا تم المعنى، نقص بعض اللفظ؛ كما قيل: "إذا تم العقل. نقص الكلام".

وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسن خرطاً وأفضل نظماً من تقطيعه. ولهذا نريد إيراده كالحديث "(فالحديث) ذو شجون" ونضرب المثل لبعضه ببعض: فيتفق إيراده دفعة واحدة، ونصه على أكمل ما يمكن.

* * *

(١٢)
مقدمة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
لكتابه (معجم الأدباء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي القدرة القاهرة، والآيات الباهرة، والآلاء الظاهرة، والنعم المتظاهرة، حمداً يؤذن بمزيد نعمه، ويكون حصناً مانعاً من نقمه، وصلى الله على خير الأولين والآخرين من النبيين والصديقين، محمد النبي، والرسول الأمي، ذي الشرف العلي، والخلق السني، والكرم المرضي، وعلى آله الكرام، وأتباعه سرج الظلام، وشرف وعظم وبجل وكرم.

وبعد فما زلت منذ غذيت بغرام الأدب، وألهمت حب العلم والطلب، مشغوفاً بأخبار العلماء، متطلعاً إلى أنباء الأدباء، أسائل عن أحوالهم، وأبحث عن نكت أقوالهم بحث المغرم الصب، والمحب عن الحب، وأطوف على مصنف فيهم يشفي الغليل، ويداوي لوعة العليل، فما وجدت في ذلك تصنيفاً شافياً، ولا تأليفاً كافياً، مع أن جماعة من العلماء، والأئمة القدماء، أعطوا ذلك نصيباً من عنايتهم وافراً، فلم يكن عن صبح الكفاية سافراً، كأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي، وأرى أنه أول من أعارهم طرفه، وسود في تبييض أخبارهم صحفه، لأنه قال في مقدمة كتابه: "وقد اجتهد أبو العباس محمد بن مبرد الأزدي وأبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني في مثل ما أودعناه كتابنا في أخبار النحويين فما وقعا ولا طارا"، هذا مع أن كتابه صغير الحجم قليل التراجم محشو بالنوادر التي رووها، لا يختص بأخبارهم أنفسهم.

ثم ألف بعده في هذا الأسلوب أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه كتاباً فلم يقع إلينا إلا أننا نظنه كذلك.

ثم صنف فيه أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني كتاباً حفيلاً كبيراً على عادته في تصانيفه، إلا أنه حشاه بما رووه وملأه بما وعوه، فينبغي أن يسمى مسند النحويين. وقد وقفت على هذا الكتاب وهو تسعة عشر مجلداً، ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب مع أنه أيضاً قليل التراجم بالنسبة إلى كبر حجمه.

ثم ألف فيه أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي القاضي كتاباً صغيراً في نحاة البصرة نقلنا أيضاً فوائده إلى هذا الكتاب.

ثم جمع في ذلك أبو بكر محمد بن حسن الأشبيلي الزبيدي كتاباً لم يقصر فيه، وهو أكثر هذه الكتب فوائد، وأكثرها تراجم وفرائد، وقد نقلنا فوائده أيضاً إلى هذا الكتاب.

ثم ألف فيه القاضي أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المعري كتاباً لطيفاً نقلنا فوائده.

ثم ألف فيه علي بن فضال المجاشعي كتاباً وسماه (شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب) وقع إلي منه شيء فوجدته كثير التراجم إلا أنه قليل الفائدة لكونه لا يعتني بالأخبار ولا يعبأ بالوفيات والأعمار،

ثم ألف فيه الكمال عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري كتاباً سماه (نزهة الألباء في أخبار الأدباء) نقلنا فوائده أيضاً.

وكنت مع ذلك أقول للنفس مماطلاً، وللهمة معاضلاً، رب غيث غب البارقة، ومغيث تحت الخافقة، إلى أن هزم اليأس الطمع، واستولى الجد على اللعب والولع، وعلمت أنه طريق لم يسلك، ونفيس لم يملك، فاستخرت الله الكريم، واستنجدت بحوله العظيم، وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين، واللغويين، والنسابين، والقراء

المشهورين، والأخباريين، والمؤرخين، والوراقين المعروفين، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، أو جمع في فنه تأليفاً، مع إيثار الاختصار، والإعجاز في نهاية الإيجاز، ولم آل جهداً في إثبات الوفيات وتبيين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم، ومستحسن أخبارهم، والإخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم.

فأما من لقيته أو لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق أموره ما لا أترك لك بعده تشوفاً إلى شيء من خبره، وأما من تقدم زمانه، وبعد أوانه، فأورد من خبره ما أدت الاستطاعة إليه، ووقفني النقل عليه، في ترددي إلى البلاد، ومخالطتي للعباد. وحذفت الأسانيد إلا ما قل رجاله، وقرب مناله، مع الاستطاعة لإثباتها سماعاً وإجازة، إلا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم، والمرجوع في صحة النقل إليهم.

وكنت قد شرعت عند شروعي في هذا الكتاب، أو قبله، في جمع كتاب في "أخبار الشعراء" المتأخرين والقدماء. ونسجتها على هذا المنوال، وسبكتها على هذا المثال في الترتيب، والوضع والتبويب، فرأيت أكثر أهل العلم المتأدبين، والكبراء المتصدرين، لا تخلو قرائحهم من نظم شعر، وسبك نثر، فأودعت ذلك الكتاب كل من غلب عليه الشعر فدون ديوانه، وشاع بذلك ذكره وشأنه، ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها، والآداب وتصنيفها. وأما من عرف بالتصنيف، واشتهر بالتأليف، وصحت روايته، وشاعت درايته، وقل شعره، وكثر نثره، فهذا الكتاب عشه ووكره، وفيه يكون ثناؤه وذكره، واجتزئ به عن التكرار هناك، إلا النفر اليسير الذين دعت الضرورة إليهم، ودلت عنايتهم بالصناعتين عليهم. ففي هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء، من العلماء والشعراء. وقصدت بترك التكرار، خفة محمله في الأسفار، وحيازة ما أهواه من هذا النشوار.

وجعلت ترتيبه على حروف المعجم: أذكر أولاً من أول اسمه ألف، ثم من أول اسمه باء ثم تاء ثم ثاء إلى آخر الحروف، وألتزم ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه

ورابعه، فأبدأ بذكر من اسمه آدم، ألا ترى أن أول اسمه همزة ثم ألف، ثم من اسمه إبراهيم لأن أول اسمه ألف وبعد الألف باء، ثم كذلك إلى آخر الحروف، وألتزم ذلك في الآباء أيضاً فاعتبره، فإنك إذا أردت الاسم تجد له موضعاً واحداً لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه اللهم إلا أن تتفق أسماء عدة رجال وأسماء آبائهم فإن ذلك مما لا حصر فيه إلا بالوفاة، فإني أقدم من تقدمت وفاته على من تأخرت.

وأفردت في آخر كل حرف فصلاً أذكر فيه من اشتهر بلقبه أو نسبه أو كنيته وخفي عن أكثر الناس اسمه فأذكر من لقبه على ذلك الحرف، من غير أن أورد شيئاً من أخباره فيه، إنما أدل على اسمه واسم أبيه لتطلبه في موضعه.

ولم أقصد أدباء قطر، ولا علماء مصر، ولا إقليم معين، ولا بلد معين، بل جمعت البصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان، وتفاوت الأزمان، حسب ما اقتضاه الترتيب، وحكم بوضعه التبويب، لا على قدر أقدارهم في القدمة والعلم، والتأخر والفهم.

وابتدأته بفصل يتضمن أخبار قوم من متخلّفي النحويين والمتقعرين المجهولين.

وإني لجد عالم ببغيض يندد ويزري علي، ويقبل بوجه اللائمة إلي، ممن قد أشرب الجهل قلبه، واستعصى على كرم السجية لبه، يزعم أن الاشتغال بأمر الدين أهم، ونفعه في الدنيا والآخرة أعم؛ أما علم أن النفوس مختلفة الطبائع، متلونة النزائع؟ ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه، ودرس الذي يليه. وإن الله جل وعز جعل لكل علم من يحفظ جملته، وينظم جوهرته، والمرء ميسر لما خلق له. ولست أنكر أني لو لزمت مسجدي ومصلاي واشتغلت بما يعود بعاقبة دنياي في أخراي (لكان) أولى، وبطريق السلامة في الآخرة أحرى، ولكن طلب الأفضل مفقود، واعتماد الأحرى غير موجود. وحسبك بالمرء فضلاً أن لا يأتي محظوراً، ولا يسلك طريقاً مخطوراً.

وقال السري الرفاء:

كن للعلوم مصنفاً أو جامعاً ... يبقى لك الذكر الجميل مخلداً
كم من أديب ذكره بين الورى ... غض وقد أودى به ذكر الردى
وأرى الأديب يهابه أعداؤه ... وتعده السادات فيهم سيداً
ينسى الأواخر والأوائل كلهم ... إلا أخا العلم الذي حاز المدى

وقال بعض الأدباء:

أرى العلماء أطولنا حياة ... وإن أضحوا رفاتاً في القبور
أناس غيبوا وهم شهود ... بما ابتدعوه من علم خطير
كأنهم حضور حين تجري ... محاسن ذكرهم عند الحضور
لئن ملئت قبورهم ظلاماً ... فإن ضياءهم ملء الصدور

وبعد فهذه أخبار قوم أخذ عنهم علم القرآن المجيد، والحديث المفيد (وهم أنهجوا طريق العربية، وأناروا سرجه المضية) وبصناعتهم تنال الإمارة، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان والوزارة، وبعلمهم يتم الإسلام، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام. ألا ترى أن القارئ إذا قرأ إن الله برئ من المشركين ورسوله بالرفع- فقد سلك طريقاً من الصواب واضحاً، وركب منهجاً من الفضل لائحاً، فإن كسر اللام من "رسوله" كان كفراً بحتاً، وجهلاً قحاً؟ وقد روي أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول: لعلم العربية هو الدين بعينه، فبلغ ذلك عبد الله بن المبارك فقال: صدق.

وحسبك من شرف هذا العلم أن كل علم على الإطلاق مفتقر إلى معرفته، محتاج إلى استعماله في محاورته، وصاحبه فغير مفتقر إلى غيره، وغير محتاج إلى الاعتضاد والاعتماد على سواه، فإن العلم إنما هو باللسان، فإذا كان اللسان معوجاً حتى يستقيم

ما هو به؟ وإن أردت إقامة الدليل على شأن أهل هذا الشأن، وإيضاح فضلهم بالدلائل والبرهان، كنت كمن تكلف دليلاً على ضياء النهار، وإشراق الشمس وإحراق النار، فإن ذلك لا يخفى على الصامت من الحيوان فكيف الناطق، وعلى كل كهٍ فهٍ فكيف الحاذق.

فقد جمعت من أخبار هذه الطائفة بين حكم وأمثال وأخبار وأشعار ونثر وآثار، وهزل وجد، وخلاعة وزهد، ومبك ومضحك، وموعظة ونسك:

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم

فهو لا ينفق إلا على من جبل على العلم طبعه، وعمر بحب الفضل ربعه، فظل للآداب خديناً، ولصحة العقل قريناً، قد عجنت بالظرافة طينته، وسيرت باللّطافة سيرته. وأما أهل الجهل والغي، والفهاهة والعيّ، فليس ذا عشك فادرجي. ولا مبيتك فأدلجي. فليعفني المفند البغيض، وليعرض عن التعريض.

على أنني معترف بقول يحيى بن خالد: لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتاباً. وقد كتب جعفر بن يحيى إلى بعض عماله، وقد وقف على سهو في كتاب ورد منه: "اتخذ كاتباً متصفحاً لكتبك، فإن المؤلف للكتاب تنازعه أمور وتعتوره صروف تشغل قلبه وتشعب فكره، من كلام ينسقه وتأليف ينظمه، ومعنى يتعلق به يشرحه، وحجة يوضحها، والمتصفح للكتاب أبصر بمواضع الخلل من مبتدي تأليفه". وأنا فقد اعترفت بقصوري فيما اعتمدت عن الغاية، وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فأسأل الناظر فيه أن لا يعتمد النعت ولا يقصد قصد من إذا رأى حسناً ستره، وعيباً أظهره. وليتأمله بعين الإنصاف لا الانحراف، فمن طلب عيباً وجدَّ وجد، ومن افتقد زلل أخيه بعين الرضى فقد فقد. فرحم الله امرءاً قهر هواه، وأطاع الإنصاف ونواه، وعذرنا في خطأ إن كان منا، وزلل إن صدر عنا، فالكمال محال لغير ذي الجلال، فالمرء غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم. وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب، فقد علم أن كل مجتهد مصيب، فإنا وإن أخطأنا في مواضع يسيرة، فقد أصبنا في مواطن

كثيرة، فما علمنا فيمن تقدمنا من العلماء وأمنا من الأئمة القدماء أحداً إلا وقد نظم في سلك أهل الزلل، وأخذ عليه شيء من الخطل، وهم هم، فكيف بنا مع قصورنا واقتصارنا وصرف جل زماننا في نهمة الدنيا وطلب المعاش، وتنميق الرياش، الذي مرادنا منه صيانة العرض، وبقاء ماء الوجه لدى العرض.

وإنما تصديت لجمع هذا الكتاب لفرط الشغف والغرام، والوجد بما حوى والهيام، لا لسلطان أجتديه، ولا لصدر أرتجيه. غير أني أرغب إلى الناظر فيه أن يترحم عليّ، ويعطف بجيد دعائه علي، فذلك ما لا كلفة فيه عليه، ولا ضرر يرجع به إليه، فربما انتفعت بدعوته، وفزت بما قد أمن هو من معرته.

ومع ما تقدم من اعتذارنا، ومرّ من تنصلنا واستغفارنا، فقد رآني جماعة من أهل العصر وقد نظمت للآلئ هذا الكتاب، وأبرزته في أبهى من الحلي على ترائب الكعاب، فاستحسنوه والتمسوه لينسخوه، فوجدت في نفسي شحاً عليهم، وبخلاً بعطف جيده إليهم، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان، والسوداوين من العين والجنان، مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع، ولا حامد لها على ذلك الصنع، لكنها طبيعة عليها جبلت، وسجية إليها جبرت، حتى قلت فيه مع اعترافي بقلة بضاعتي في الشعر، وعلمي بركاكة نظمي والنثر:

فكم قد حوى من فصل قول محبر ... ومن نثر مصقاع ومن نظم ذي فهم
ومن خبر حلو ظريف جمعته ... على قدم الأيام للعرب والعجم
يرنح أعطافي إذا ما قرأته ... كما رنحت شرابها ابنة الكرم
ولو أنني أنصفته في محبتي ... لجلدته جلدي وصدقته عظمي
عزيز على فضلي بأن لا أطيعه ... على بذله للطائفين على العلم
ولو أنني أسطيع من فرط حبه ... لما زال من كفي ولا غاب عن كمي

وقد قرأت بخط أبي سعد السمعاني لأبي عبد الله محمد بن سلامة المقرئ في هذا النشوار:

إني لما أنا فيه من منافستي ... فيما شغفت به من هذه الكتب
لقد علمت بأن الموت يدركني ... من قبل أن ينقضي من حبها أربي
ومجموعةٍ فيها علوم كثيرة ... تقر بما فيها عيون الأفاضل

ولله در القائل:

ألذ من النعمى وأحلى من المنى ... وأحسن من وجه الحبيب المواصل
حكت روضة حاكت يد القطر وشيها ... ومسك رياها نسيم الأصائل
أطالعها في كل وقت فأجتلي ... عقائل يغلي مهرها كل عاقل
وأمنعها الجهال فهي حبيبة ... جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي

(تضمين نصف بيت للمتنبي).

واعلم أنني لو أعطيت حمر النعم وسودها، ومقانب الملوك وبنودها، لما سرني أن ينسب هذا الكتاب إلى سواي، وأن يفوز بقصب سبقه إلاي، لما قاسيت في تحصيله من المشقة، وطويت في تكميله من طول الشقة، فإنني علم الله لم أقف على باب أحد من العالم أجتديه، ولا أحصي عدد ما وقفت على الأبواب للفوائد فيه، فلا غرو أن أمنعه من ملتمسيه، وأحتجبه من الراغبين يفه. على أني ما زلت أعاتب نفسي على هذا الصنيع، وأعده من الأمر الفظيع والخلق الشنيع، إلى أن وقفت على الكتاب الذي ألفه محمد بن عبد الملك التاريخي في أخبار النحويين، وقد قال في ديباجته : "ولم أقصد بهذا الكتاب لهواً ولا لعباً، ولا سمحت نفسي ببذله، ولا طابت ببثه وإخراجه إلى غير أبي الحسين محمد بن عبد الرحمن الروذباري الكاتب ـ أطال الله بقاءه ـ فإنه لي كما قال معاوية بن قرة في ابنه إياس بن معاوية، وقد قيل له: كيف ابنك؟ فقال: خير ابن كفاني أمر الدنيا

وفرغني لأمر الآخرة". ثم قال: "وما أحصي عدد من انقطع بيننا وبينه من الإخوان في ردنا إياه عن هذا الكتاب". فحينئذ خففت عن نفسي اللوم، إذ كان التأسي من أخلاق القوم، وعلمت أن النفوس بخيلة بالنفائس، شحيحة بإبراز العرائس. هذا وإنما يشتمل كتابه على ثلاث وعشرين ترجمة نقلت زبدها إلى هذا الكتاب، فلم ألام إذا أخفيته عن طالبيه، وحجبته عن خاطبيه؟ وقد أقسمت أن لا أسمح بإعارته ما دام في مسودته لئلا يلح طالب بالتماسه، ولا يكلفني إبرازه من كناسه، فحملهم منعني على احتذائه، وتصنيف شرواه في استوائه، وما أظنهم يشقون غباره، ولا يحسنون ترتيبه وأسطاره، وإن وقفت لنظر الجميع، ستعرف الظالع من الضليع، فإذا هذبته ونقحته وبيضته، فتمتع به فإنه كتاب أسهرت لك فيه طَرْفي، وأنضيت في تحصيله طُرفي وطِرفي. وقد حصلته عفواً، وملكته صفواً، فاجعل جائزتي دعاءً يزكوا غرسه عند ذي العرش، وأحمدني في بسطه والفرش، واذكرني في صالح دعائك: ورب دعوة صادفت إجابة، ورمية حصلت إصابة.

ولو أنصف أهل الأدب، لاستغنوا به عن المأكل والمشرب؛ ولكنني أخاف أن يأتيه النقص من جهة زيادة فضله، وأن يقعد بقيام جده عظم خطره ونبله. واستشعر له أمرين منبعهما من قلة الإنصاف، واجتناب الحق والانحراف: أحدهما أن يقال هل هو إلا تصنيف رومي مملوك، وما عسى أن يأتي به وليس في أبناء جنسه له نظير، وما كان في أمته رجل خطير، لاستيلاء التقليد على العالم والبليد، فهم لا ينظرون ما قيل، إنما يسألون عمن قال، ونعم العون للعالم القؤول، حسن الاعتقاد والقبول. والأمر الآخر قصور الهمم، الغالب على أكثر الأمم، إذ كل همه تحصيل المأكول والملبوس، ولا تسمو همته إلى تشريف النفوس.

واعلم حباك الله بحسن رعايته، وأمدك بفضل هدايته، أن هذا الفن من العلم ليس من بابة من يطلب العلم للمعاش، أو ليحصل الزينة والرياش، ولا من رغبات من ينظر فيه وقلبه يجول في طلب المحصول فهو يسأل عما ينفق. ولا هو مما ينفق في المدارس، أو يناظر به في المجالس، إنما هو علم الملوك والوزراء، والجلة من الناس والكبراء،

يجعلونه ربيعاً لقلوبهم، ونزهة لنفوسهم، ترتاح إليه أرواحهم، وتشتمل عليه أفراحهم، فهو ربيع النفوس النفيسة، ورأس مال العلوم الرئيسة.

وقد سميت هذا الكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ومن الله استمد المعونة، وإياه أسأل التوفيق لما يرضيه، والهداية إلى ما يحبه ويزلف إليه، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.

* * *

(١٣)
مقدمة ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) لكتابه (الكامل في التاريخ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم فلا أول لوجوده، الدائم الكريم فلا آخر لبقائه ولا نهاية لجوده، الملك حقاً فلا تدرك العقول حقيقة كنهه، القادر فكل ما في العالم من أثر قدرته، المقدس فلا تقرب الحوادث حماه، المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواه، مصرف الخلائق بين رفع وخفض، وبسط وقبض وإبرام ونقض، وإماتة وإحياء،وإيجاد وإفناء، وإسعاد وإضلال، وإعزاز وإذلال، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، مبيد القرون السالفة، والأمم الخالفة، لم يمنعهم منه ما اتخذوه معقلاً وحرزاً: **﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾**، بتقديره النفع والضر، **﴿له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾**.

أحمده على ما أولى من نعمه، وأجزل للناس من قسمه، وأصلي على رسوله محمد سيد العرب والعجم، المبعوث إلى جميع الأمم، وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى ومصابيح الظلم، ﷺ.

أما بعد، فإني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها، فلمّا تأملتها رأيتها متباينة في تحصيل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض، فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد

أخل بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات، والمشهور من الكائنات، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أحرى، كقولهم خلع فلان الذمي صاحب العيار، وزاد رطلاً في الأسعار، وأكرم فلان وأهين فلان، وقد أرخ كل منهم إلى زمانه وجاء بعده من ذيل عليه، وأضاف المتجددات بعد تاريخه إليه. والشرقي منهم قد أخلّ بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشرق؛ فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً متصلاً إلى وقته يحتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال.

فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا.

ولا أقول إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، فإن من هو بالموصل لا بد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك.

فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه.

فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعت كل شيء منها موضعه، إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله ﷺ، فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئاً، إلا ما فيه زيادة بيان، أو اسم إنسان، أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله، وإنما اعتمدت عليه من

بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاد وصدقاً.

على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة، والكتب المشهورة، ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه، وصحة ما دونوه، ولم أكن كالخابط في ظلماء الليالي، ولا كمن يجمع الحصباء واللآلي.

ورأيتهم أيضاً يذكرون الحادثة الواحدة في سنين، ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض، ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر. فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضها برقاب بعض.

وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها، فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فإنني أفردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة، فأقول: ذكر عدة حوادث، وإذا ذكرت بعض من نبغ وملك قطراً من البلاد ولم تطل أيامه فإني أذكر جميع حاله من أوله إلى آخره، عند ابتداء أمره، لأنه إذا تفرق خبره لم يُعرف للجهل به.

وذكرت في آخر كل سنة من توفي فيها من مشهوري العلماء والأعيان والفضلاء. وضبطت الأسماء المشتبهة المؤتلفة في الخط المختلفة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ضبطاً يزيل الإشكال، ويغني عن الأنقاط والأشكال.

فلما جمعت أكثره أعرضت عنه مدة طويلة لحوادث تجددت، وقواطع توالت وتعددت، ولأن معرفتي بهذا النوع كملت وتمت.

ثم إن نفراً من إخواني، وذوي المعارف والفضائل من خلاني، ممن أرى محادثتهم نهاية أوطاري، وأعدهم من أماثل مجالسي وسماري، رغبوا إلي في أن يسمعوه مني، ليرووه عني؛ فاعتذرت بالإعراض عنه وعدم الفراغ منه، فإنني لم أعاود مطالعة مسودته ولم أصلح ما أصلح فيها من غلط وسهو، ولا أسقطت منها ما يحتاج إلى إسقاط ومحو.

وطالت المراجعة مدة وهم للطلب ملازمون، وعن الإعراض معرضون، وشرعوا في سماعه قبل إتمامه وإصلاحه، وإثبات ما تمس الحاجة إليه وحذف ما لا بد من اطراحه، والعزم على إتمامه فاتر، والعجز ظاهر للاشتغال بما لا بد منه، لعدم المعين والمظاهر؛ ولهموم توالت، ونوائب تتابعت، فأنا ملازم الإهمال والتواني فلا أقول: أني لأسير إليه سير الشواني.

فبينما الأمر كذلك إذ برز أمر من طاعته فرض واجب، واتباع أمره حكم لازب، من أعلاق الفضل بإقباله عليها نافقة، وأرواح الجهل بإعراضه عنها نافقة؛ من أحيا المكارم وكانت أمواتاً، وأعادها خلقاً جديداً بعد أن كانت رفاتاً، من عم رعيته عدله ونواله، وشملهم إحسانه وإفضاله، مولانا مالك الملك الرحيم، العالم المؤيد، المنصور، المظفر بدر الدين، ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، خلد الله دولته.

فحينئذ ألقيت عني جلباب المهل، وأبطلت رداء الكسل، وألقت الدواة وأصلحت القلم، وقلت: هذا أوان الشد فاشتدي زيم، وجعلت الفراغ أهم مطلب، وإذا أراد الله أمراً هيأ له السبب، وشرعت في إتمامه مسابقاً، ومن العجب أن السكيت يروم أن يجيء سابقاً، ونصبت نفسي غرضاً للسهام وجعلتها مظنة لأقوال اللوام، لأن المآخذ إذا كانت تتطرق إلى التصنيف المهذب والاستدراكات تتعلق بالمجموع المرتب، الذي تكررت مطالعته وتنقيحه، وأجيد تأليفه وتصحيحه فهي بغيره أولى، وبه أحرى، على أني مقر بالتقصير، فلا أقول إن الغلط سهو جرى به القلم، بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم.

وقد سميته اسماً يناسب معناه، وهو: الكامل في التاريخ.

ولقد رأيت جماعة ممن يدّعي المعرفة والدراية، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها، ويعرض عنها ويلغيها، ظناً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، وأصبح مخشلباً جوهره، ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه

صراطاً مستقيماً، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة، وها نحن نذكر شيئاً مما ظهر لنا فيها، ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها.

فأما فوائدها الدنيوية فمنها: أن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء، ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء، فيا ليت شعري! أي فرق بين ما رآه أمس أو سمعه، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين؟ فإذا طالعها فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم.

ومنها: أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، فيرويها خلف عن سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحدوثة، وخراب البلاد، وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها، وأعرضوا عنها واطرحوها. وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالها درت، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء، وخلصوا بها من المهالك، واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً.

ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلاً، ويصبح لأن يقتدى به أهلاً. ولقد أحسن القائل حيث يقول شعراً:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

يعني بالمطبوع العقل الغريزي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، وبالمسموع ما يزداد به

العقل الغريزي من التجربة، وجعله عقلاً ثانياً توسعاً وتعظيماً له، وإلا فهو زيادة في عقله الأول.

ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها، ونقل طريفة من طرائفها، فترى الأسماع مصغية إليه، والوجوه مقبلة عليه، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره، مستحسنة ما يذكره.

وأما الفوائد الأخروية فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها، وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم، فلم تبق على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير، زهد فيها وأعرض عنها، وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص، وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائلاً يقول: ما نرى ناظراً فيها زهد في الدنيا، وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا، فيا ليت شعري ! كم رأى هذا القائل قارئاً للقرآن العزيز، وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام، يطلب به اليسير من هذا الحطام؟ فإن القلوب مولعة بحب العاجل.

ومنها التخلق بالصبر والتأسي وهما من محاسن الأخلاق. فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم، ولا ملك معظم، بل ولا أحد من البشر، علم أنه يصيبه ما أصابهم، وينوبه ما نابهم. شعراً:

وهل أنا إلا من غَزِيّة إن غوَتْ غويتُ وإن تَرْشُدْ غَزيّةُ أرشُدِ

ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ (سورة ق: ٣٧). فإن ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات والأسمار فقد تمسك من أقوال أهل الزيغ بمحكم سببها حيث قالوا: هذه أساطير الأولين اكتتبها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلباً عقولاً ولساناً صادقاً، ويوفقنا للسداد في القول والعمل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١٤)

مقدمة بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) لكتابه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام، وهدانا للإيمان الجاري على أحسن نظام، وأنعم علينا بشفاعة نبينا (محمد) عليه أفضل الصلاة والسلام، وجعل سير الأولين عبرة لأولي الأفهام، وتقلبات الأحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام، كيلا يغتر ذو حال حسن، ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تشفى القلوب من لظى الأوام.

وأشهد أن (سيدنا) محمداً عبده ورسوله، الذي فتح للهداية أبواباً يلج فيها المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة باقية ببقاء الأيام.

وبعد،

فإني لما رأيت أيام مولانا السلطان، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصلبان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين، خادم الحرمين الشريفين، أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي- سقى الله ضريحه صوب الرضوان، وأذاقه في مقر رحمته حلاوة نتيجة الإيمان-، قد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستبعاد، وشهدت بالصحة لما

روى من نوادر الكرام الأجواد، وحققت وقعات شجعان مماليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان، وأرت العيان من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوى بها الإيمان، وعظمت عجائبها عن أن يحويها خاطر أو يجنها جنان، وجلت نوادرها عن أن تحد ببيان لسان، أو أن تسطر في طرس ببنان.

وكانت ـ مع ذلك ـ من قبيل ما لا يمكن الخبير بها إخفاؤها، ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروى عنه أخبارها وأنباؤها، ومسنى من رق نعمتها، وحق صحبتها وواجب خدمتها، ما تعين علي به إبداء ما تحققته من حسناتها ورواية ما علمته من محاسن صفاتها:

رأيت أن أختصر من ذلك على ما أملاه علي العيان، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الإيقان، وذلك جزء من كل، وقل من كل، ليستدل بالقليل على الكثير، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير.

وأسميت هذا المختصر من تاريخها: "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" وجعلته قسمين:

أحدهما : في مولده ـ رحمه الله ـ ومنشئه، وخصائصه، وأوصافه، وأخلاقه المرضية، وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفية. والقسم الثاني : في تقلبات الأحوال/ به، ووقائعه وفتوحه، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته، قدس الله روحه.

والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم، وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم، وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

(١٥)

مقدمة (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)

لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ناشر الأمم، ومقشر الرمم، بارئ النسم، ومبرئ السقم، العائد من فضله بسوابغ النعم، الموعد من عصاه بأليم العقاب والنقم، مخرج الخلائق بلطف صنعه إلى الوجود من العدم، مقدر الأدواء، ومنزل الدواء بأتم الصنع وأتقن الحكم.

وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة خالصة بوفاء الأمم، مخلصة من موبقات الخطل والندم.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، المبعوث بجوامع الكلم، المرسل إلى كافة العرب والعجم، الذي أنار بلألاء نور مبعثه حنادس الظلم، وأباد بسيف معجزه من تجبر وظلم، وقطع ببرهان دلالة نبوته داء الشرك وحسم. صلى الله عليه صلاة دائمة باقية ما لمعت البروق وهمعت الديم، وعلى آله أولي الفضل والكرم، وعلى أصحابه الذين جعلوا شريعته لهم أمم، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين المبرآت من الدنس وشرّف وكرّم.

وبعد: فإنه لما كانت صناعة الطب من أشرف الصنائع، وأربح البضائع، وقد ورد تفضيلها في الكتب الإلهية والأوامر الشرعية حتى جعل علم الأبدان قريناً لعلم الأديان. وقد قالت الحكماء: إن المطالب نوعان: خير ولذة؛ وهذان الشيئان إنما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة، لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا، والخير المرجو في الدار

الأخرى لا يصل الواصل إليهما إلا بدوام صحته وقوة بنيته. وذلك إنما يتم بالصناعة الطبية لأنها حافظة للصحة الموجودة، ورادة للصحة المفقودة، فوجب إذ كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان، وعموم الحاجة إليه داعية في كل وقت وزمان، أن يكون الاعتناء بها أشد، والرغبة في تحصيل قوانينها الكلية والجزئية آكد وأجد؛ وإنه لما كان قد ورد كثير من المشتغلين بها والراغبين في مباحث أصولها وتطلبها منذ أول ظهورها إلى وقتنا هذا، وكان فيهم جماعة من أكابر أهل هذه الصناعة، وأولي النظر فيها والبراعة، ممن قد تواترت الأخبار بفضلهم، ونقلت الآثار بعلو قدرهم ونبلهم، وشهدت لهم بذلك مصنفاتهم، ودلت عليهم مؤلفاتهم، ولم أجد لأحد من أربابها، ولا من أنعم الاعتناء بها كتاباً جامعاً في معرفة طبقات الأطباء، وفي ذكر أحوالهم على الولاء رأيت أن أذكر في هذا الكتاب نكتاً وعيوناً في مراتب المتميزين من الأطباء القدماء والمحدثين، ومعرفة طبقاتهم على توالي أزمنتهم وأوقاتهم، وأن أودعه أيضاً نبذاً من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ومحاوراتهم، وذكر شيء من أسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم، وحباهم به من جودة القريحة والفهم، فإن كثيراً منهم، وإن قدمت أزمانهم، وتفاوتت أوقاتهم، فإن لهم علينا من النعم فيما صنفوه، والمنن فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ووضعوه، ما هو تفضل المعلم على تلميذه، والمحسن إلى من أحسن إليه. وقد أودعت هذا الكتاب أيضاً ذكر جماعة من الحكماء والفلاسفة ممن لهم نظر وعناية بصناعة الطب، وجملاً من أحوالهم ونوادرهم وأسماء كتبهم؛ وجعلت ذكر كل واحد منهم في الموضع الأليق به على حسب طبقاتهم ومراتبهم. فأما ذكر جميع الحكماء وأصحاب التعاليم وغيرهم من أرباب النظر في سائر العلوم، فإني أذكر ذلك - إن شاء الله تعالى - مستقصى في كتاب "معالم الأمم وأخبار ذوي الحكم". وأما هذا الكتاب الذي قصدت حينئذ إلى تأليفه فإني جعلته منقسماً إلى خمسة عشر باباً، وسميته كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وخدمت به خزانة المولى الصاحب الوزير، العالم العادل، الرئيس الكامل، سيد الوزراء، ملك الحكماء، إمام العلماء، شمس الشريعة، أمين الدولة، كمال الدين، شرف الملة، أبي الحسن بن غزال

بن أبي سعيد، أدام الله سعادته، وبلغه في الدارين إرادته.

ومن الله تعالى أستمد التوفيق والمعونة. إنه ولي ذلك، والقادر عليه. وهذا عدد الأبواب:

الباب الأول: في كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها.

الباب الثاني: في طبقات الأطباء الذين ظهرت له أجزاء من صناعة الطب، وكانوا المبتدئين بها.

الباب الثالث: في طبقات الأطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقليبوس.

الباب الرابع: في طبقات الأطباء اليونانيين الذين أذاع أبقراط فيهم صناعة الطب.

الباب الخامس: في طبقات الأطباء الذين كانوا منذ زمان جالينوس وقريباً منه.

الباب السادس: في طبقات الأطباء الإسكندرانيين ومن كان في زمنهم من الأطباء النصارى وغيرهم.

الباب السابع: في طبقات الأطباء الذين كانوا في أول ظهور الإسلام من أطباء العرب.

الباب الثامن: في طبقات الأطباء السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس.

الباب التاسع: في طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، وذكر الذين نقلوا لهم.

الباب العاشر: في طبقات الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة الفراتية وديار بكر.

الباب الحادي عشر: في طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد العجم.

الباب الثاني عشر: في طبقات الأطباء الذين كانوا من الهند.

الباب الثالث عشر: في طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها.

الباب الرابع عشر: في طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر.

الباب الخامس عشر: في طبقات الأطباء المشهورين من أطباء الشام.

* * *

(١٦)

مقدمة ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) لكتابه (وفيات الأعيان)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الفقير إلى رحمة الله تعالى شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الشافعي، رحمه الله تعالى:

بعد حمد الله الذي تفرد بالبقاء، وحكم على عباده بالموت والفناء، وكتب لكل نفس أجلاً لا تجاوزه عند الانقضاء، وسوى فيه بين الشريف والمشروف، والأقوياء والضعفاء.

أحمده على سوابغ النعم وضوافي الآلاء، حمد معترف بالقصور عن إدراك أقل مراتب الثناء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص من جميع الآناء، راج رحمة ربه في الإصباح والإمساء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل الأنبياء وأكرم الأصفياء، والداعي إلى سلوك المحجة البيضاء، صلى الله عليه وعلى آله السادة النجباء صلاة دائمة بدوام الأرض والسماء، ورضي الله عن أزواجه وأصحابه البررة الأتقياء.

هذا مختصر في التاريخ دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر، فوقع لي منه شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع، فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة

بهذا الفن، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما ألم أجده في كتابه، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة، وغلق على خاطري بعضه، فصرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه، إلا بعد التعب في استخراجه لكونه غير مترتب فاضطررت إلى ترتيبه، فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين فعدلت إليه، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثاني حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها على غيره، فقدمت إبراهيم على أحمد لأن الباء أقرب إلى الهمزة من الحاء، وكذلك فعلت إلى آخره ليكون أسهل للتناول، وإن كان هذا يفضي إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر في العصر، وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين، لكن هذه المصلحة أحوجت إليه.

ولم أذكر في هذا المختصر أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم، ولا من التابعين رضي الله عنهم إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم، وكذلك الخلفاء: لم أذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب، لكن ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم ونقلت عنهم، أو كانوا في زمني ولم أرهم، ليطلع على حالهم من يأتي بعدي.

ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته، وأتيت من أحواله بما وقفت عليه، مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب، وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه، ورفعت نسبه على ما ظفرت به، وقيدت من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله، والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفنناً.

وبعد أن صار كذلك لم يكن بد من استفتاحه بخطبة وجيزة، للتبرك بها فنشأ من مجموع ذلك هذا الكتاب، وجعلته تذكرة لنفسي، وسميته كتاب "وفيات الأعيان وأنباء

أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان" ليستدل على مضمون الكتاب بمجرد العنوان.

فمن وقف عليه من أهل الدراية بهذا الشأن ورأى فيه خللاً فهو المثاب في إصلاحه بعد التثبت فيه، فإني بذلت الجهد في التقاطه من مظان الصحة، ولم أتساهل في نقله ممن لا يوثق به، بل تحريت فيه حسبما وصلت القدرة إليه.

وكان ترتيبي له في شهور سنة أربع وخمسين وستمئة بالقاهرة المحروسة مع شواغل عائقة وأحوال عن مثل هذا متضايقة، فليعذر الواقف عليه، وليعلم أن الحاجة المذكورة ألجأت إليه، لا أن النفس تحدثها الأماني من الانتظام في سلك المؤلفين بالمحال، ففي أمثالهم السائرة : لكل عمل رجال، ومن أين لي ذلك، والبضاعة من هذا العلم قدر منزور، والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور، حرسنا الله تعالى من التردي في مهاوي الغواية، وجعل لنا من العرفان بأقدارنا أمنع وقاية بمنه وكرمه آمين.

* * *

(١٧)
مقدمة ابن العبري (ت ٦٨١هـ/١٢٨٦م)
لكتابه (تاريخ مختصر الدول)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال مولانا وسيدنا الأب القديس. الطاهر النفيس. العالم العلامة. ملك العلماء. أفضل الفضلاء. قدوة الزمان. فريد الوقت والأوان. افتخار أهل الفضل والحكمة. المفريان المؤيد ماركريغوريوس أبو الفرج ابن الحكيم الفاضل أهرون المتطبب الملطي تغمده الله برحمته.

الحمد لله الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، ذي الكلمة الأحدية، والحياة الأبدية، معبود العليين في الآفاق، ومسجود السفليين في الأعماق، والسلام على ملائكته المقربين، وأنبيائه المرشدين إلى طاعة الله وتقواه، والسلوك في حفظ مذاهبه ورضاه.

وبعد فهذا مختصر في الدول قصدت في اختصاره الاقتصار على بعض ما أوتي في ذكره اقتصاص إحدى فائدتي الترغيب والترهيب في أمور الحكام والحكماء خيرها وشرها على سبيل الالتقاط من الكتب الموضوعة في هذا الفن بلغات مختلفة سريانية وعربية وغيرها، مبتدئاً من أول الخليقة ومنتهياً إلى زماننا. وهو مرتب على عشر دول داولها الله تعالى بين الأمم فتداولتها تداولاً بعد تداول.

الدولة الأولى: دولة الأولياء من آدم أول البرنساء أي الناس.

الدولة الثانية: الدولة المنتقلة من الأولياء إلى القضاة قضاة بني إسرائيل.

الدولة الثالثة: الدولة المنتقلة من قضاة بني إسرائيل إلى ملوكهم.

الدولة الرابعة: الدولة المنتقلة من ملوك بني إسرائيل إلى ملوك الكلدانيين.

الدولة الخامسة: الدولة المنتقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك المجوس.

الدولة السادسة: الدولة المنتقلة من ملوك المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين.

الدولة السابعة: الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الإفرنج.

الدولة الثامنة: الدولة المنتقلة من ملوك الإفرنج إلى ملوك اليونانيين المتنصرين.

الدولة التاسعة: الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين المتنصرين إلى ملوك العرب المسلمين.

الدولة العاشرة: الدولة المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول.

***

(١٨)

مقدمة ابن عذارى المراكشي (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) لكتابه (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

الحمد لله مصرف الأقدار، ومحيي الآثار، والمتعالي عن الأشباه والأنظار، المتنزه عن تمثيل الأوهام وتكييف الأذكار؛ الذي احتجب بحجاب عزته وقدرته، فلا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار؛ الذي خضعت لهيبته وعظمته رقاب الأكاسرة والجبابرة والأشرار، العالم بالكونين على اختلافها، والحوادث مع تشتيت أوصافها، وكل شيء عنده بمقدار؛ مكور الليل على النهار، والنهار على الليل ما جرى الفلك الدوار، وجعلهما آيتين بينتين للتفكر في العظة والاعتبار؛ وخص الإنسان بفضل النظر والاستبصار، فقال - جل وتعالى -: ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ (سورة الحشر: ٢)، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكرر عليه ما لم يحلق من أنباء القرون الماضية في الأزمان والأعصار، وأراه متقلبهم في هذه الدنيا الفانية التي جعلها لهم دار انتقال، ومفر وزوال، وجعل الأيام بينهم دولاً، والأقوام بعضهم من بعض بدلاً، ذلك تقدير العزيز القهار، نحمده على ما أنعم به علينا من الهداية للنظر في مواقع الأدلة بأنه هو الله الملك الغفار، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، الذي اختاره لرسالته وختم به الرسل الكرام الأبرار، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحبه الأكرمين الأخيار، وسلم كثيراً.

وبعد - جعلنا الله ممن نظر فاعتبر، ووعظ فازدجر، فإن خير ما شغلت به الأذكار

والأفكار، وتحدثت معه بالليل والنهار، حفظ ما أفاد من العلوم والأخبار، وإن أولى ما ريّضنا به النفوس البشرية مجالسة العلماء والأخيار، ومذاكرة الأدباء ذوي الهمم وعلو المقدار، ففي مجالستهم ومذاكرتهم ما يسحر الذهن وينور الأفكار؛ فإن فقدت مجالستهم، فلا عوض منها غير كتاب يتخذه جليسه، ويجده في كل وقت أنيسه، ويتنسمه روضاً يانع الأزهار، وإذا نظر اللبيب بفطنته إلى أصناف العباد، ومختلف الآباد، أغناه ذلك عن المشاهدة وقام له الاستماع مقام المعاينة والاستخبار.

قال المؤلف: ولما كنت كلفت بأخبار الخلفاء والأئمة والأمراء بالبلاد المشرقية والمغربية وما والاهما من الأقطار، وولعت بالمناظرة في ذلك مع الفضلاء والأخلاء ذوي الأقدار والأخطار، وطلب بعضهم إليّ، ممن يجب إكرامه عليّ، أن أجمع له كتاباً مفرداً في أخبار ملوك البلاد الغربية على سبيل الإيجاز والاختصار، ولازمني في طلبه مراراً، فلم يمكنني التوقف في ذلك ولا الاعتذار، وحملني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار: فجمعت له في هذا الكتاب نبذاً ولمعاً من عيون التواريخ والأخبار، مما أجرى الله به تصاريف الأقدار، فيما مرّ من الأزمنة والأعصار، في بلاد المغرب وما والاها من الأقطار: جمعت ذلك من الكتب الجليلة مقتضباً من غير إسهاب ولا إكثار، فاقتطفت عيونها واقتضبت فنونها، ووصلت الحديث بالقديم، والقديم بالحديث، لأنه، إذا اتصل، يستظرف ويستحلى كما قال بعضهم (كامل مجزوء):

وسئمت كل مآربي فكأن أطيبها خبيث
إلا الحديث فإنه عند اسمه أبداً حديث

فنقلت ـ والله ولي التوفيق ـ من تأريخ الطبري، والبكري، والرقيق، والقضاعي، ومن كتاب "الذيل" لابن شرف، ومن كتاب ابن أبي الصلت، ومن "المجموع المفترق" ومن كتاب "بهجة النفس وروضة الأنس"، ومن كتاب "المقياس" و"المقتبس" و"القبس"، ومن مختصري عريب وابن حبيب، ومن "در القلائد وغرر الفوائد"، ومن "القلائد" و"المطمح" لابن خاقان، ومن كتاب ابن حزم، و"ذخيرة" ابن بسام، ومن "أخبار الدولة العامرية" لابن حيان، ومن كتاب "تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء"، ومن

كتاب "الأنوار الجلية في الدولة المرابطية"، ومن "نظم الجمان في أخبار الزمان" لابن القطان، ومن كتابي الأشيري والبيذق، وكتاب يوسف الكاتب، وكتاب ابن صاحب الصلاة أبي مروان، ومن كتاب ابن رشيق، ومن كتاب وجدته أو تعليق، ومن شيوخ أخذت الأخبار الوقتية عنهم بتحقيق. والله الهادي إلى سواء الطريق.

ولما كمل ما قيدته وجردته، جزيته على ثلاثة أجزاء: كل جزء منها كتاب قائم بنفسه، ليكون لمطالعه أوضح بيان، وأسهل مرام لدى العيان. وسميته بالبيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب.

أما الجزء الأول: فاختصرت فيه أخبار إفريقية في حين الفتح الأول، في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ؛ ثم أخبار أمرائها من ولاة الخلفاء الأمويين، ومن دخل الغرب منهم، ومن قام بإفريقية من الصفرية والإباضية، ثم قام بها بالدولة العباسية، ومن ملكها من بني الأغلب، وأخبار بني عبيد الشيعة، وأخبار زناته والصنهاجيين وغيرهم، وكل ما اشتهر من أمرهم، إلى حين انتقال العبيدية إلى البلاد المصرية، واستخلافهم صنهاجة على إفريقية، ثم خلع صنهاجة لهم واستيلائهم على إفريقية. ونذكر فتنة العرب وأسبابها، ودخولهم إلى القيروان وخرابها، وتنقل أمراء صنهاجة إلى المهدية، ومن ملكها منهم، وما اشتهر في ذلك من الأخبار عنهم من ملوك المناديين، والحماديين، إلى حين ظهور الموحدين. ولخصت في ذلك كله أخبار أمراء البلاد الغربية، ومن دخلها... من أخبار الدولة العبيدية، وذكرت أخبار المدراريين السجلماسيين والأمراء الإدريسيين، وأخبار البرغواطيين، والزناتيين، ومن ملك فاساً من زنانة المغراويين، ومن ولاة الخلفاء الأمويين الأندلسيين، على أن أخبار المغرب الأقصى أكثر من أن تحصى، لاكنى نسقتها نسق الأسلاك، وسقت من كان فيه على الولاة من الأملاك، من حين فتحه الأول، إلى حين ابتداء الدولة اللمتونية المرابطية.

والجزء الثاني: اختصرت فيه أخبار جزيرة الأندلس، وأملاكها الغابرين الدرس، من حين الفتح الأول؛ ثم من وليها من الأمراء للخلفاء الأمويين بالمشرق؛ ثم من قام بها من العرب الفهريين، إلى حين دخول الخلفاء الأمويين في ابتداء أمرهم، ومن قام

عليهم من الثوار الأندلسيين. وذكرت بعض أخبارهم وآثارهم في غزواتهم وحركاتهم، إلى انقضاء مدتهم بعد ذكر حجابهم العامريين ومآثرهم إلى حين انقضاء الدولة العامرية، وقيام الفتنة البربرية. وذكرت فيه أخبار ملوك الطوائف، بعد انقضاء دول الخلائف، من الحموديين، والهوديين، والجهوريين، والعباديين، وفتيان العامريين، والصمادحيين، والزناتيين، والبكريين، والأفطسيين، والصنهاجيين، وغيرهم من الرؤساء الأندلسيين؛ وكل ذلك إلى حين دخول لمتونة إلى الأندلس سنة ٤٧٨ هـ.

والجزء الثالث: اختصرت فيه أخبار الدولة المرابطية اللمتونية، وخروجهم من صحرائهم في ابتداء أمرهم، واستيلائهم على مملكة أمراء المغرب والأندلس، وخلعهم لجميعهم، وتغلبهم على مملكة كل منهم، وما تسنى لهم فيها من الفتوحات والمنوحات، إلى حين ابتداء دولة الموحدين وظهورهم، ونبذ من أحوالهم وأمورهم ثم ما كان بين أمراء الدولتين من مقاتلات ومنازلات، وحصر من حصر، ونصر من نصر- سمح الله لهم- وذلك إلى حين انقراض الدولة المرابطية، وابتداء الدولة الموحدية. ثم ما تخلل بعد ذلك للموحدين من النصر والتأييد، ومن فتوح ومنوح، وصنع عجيب في البلاد الإفريقية والأندلسية، إلى حين انقراض دولتهم، وذلك بسبب أحداث حدثت عليهم، وأحوال نسبت إليهم، وذكرت الدولة الحفصية الموحدية الهنتاتية، في البلاد الإفريقية، والدولة الهودية المتوكلية والنصرية الأحمرية، في البلاد الأندلسية، والدولة السعيدة المرينية، في البلاد الغربية؛ اختصرت من ذلك كله ما اشتهر أمره، وأمكنني ذكره. وذكرت بعض البيعات والرسائل السلطانيات، وما تعلق بها، وكان بسببها من الوقائع المذكورات، والأمور المشهورات، وذلك إلى انقضاء الدولة الموحدية، واستيلاء الإمارة اليوسفية المرينية على حضرتهم المراكشية؛ وذلك على مرور السنين إلى عام ٦٦٧ هـ.

قال المؤلف ـ سمح الله له ـ فإن كنت اقتصرت، فيما اختصرت، فعذراً فيما ظهر من تقصير، وباع قصير! فإن الذهن كليل، والقلب شغيل. وكنت قد قدمت نسخة من هذا الكتاب، وربما زدت في هذه الثانية أو نقصت، إن كان الأولى بي والأحرى، ألا أقدم الأولى ولا أوخر الأخرى، ولاكني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً؛ وحسبي الاعتراف، فهو سبيل الإنصاف، أسأل الله الإرشاد إلى سواء السبيل، فهو حسبي ونعم الوكيل.

(١٩)
مقدمة الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)
لكتابه (تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

قال الشيخ الإمام العالم العامل الناقد البارع الحافظ الحجة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي رحمه الله تعالى وأدام النفع به وغفر له ولوالديه.

الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه الكافي من توكل عليه، القيوم الذي ملكوت كل شيء بيديه، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله رحمة للعالمين، وخاتماً للنبيين، وحرزاً للأميين وإماماً للمتقين، بأوضح دليل، وأفصح تنزيل، وأفسح سبيل، وأيسر تبيان وأبدع برهان. اللهم آته الوسيلة، وابعثه مقاماً محموداً، يغبطه به الأولون والآخرون. صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته المجاهدين، وأزواجه أمهات المؤمنين.

أما بعد: فهذا كتاب نافع إن شاء الله ـ ونعوذ بالله من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع ـ جمعته وتعبت عليه، واستخرجته من عدة تصانيف. يعرف به الإنسان مهم ما مضى من التاريخ؛ من أول تاريخ الإسلام على عصرنا هذا: من وفيات الكبار من الخلفاء

(والأمراء)، والقراء والزهاد والفقهاء، والمحدثين والعلماء، والسلاطين والوزراء، والنحاة والشعراء. ومعرفة طبقاتهم وأوقاتهم وشيوخهم وبعض أخبارهم. بأخصر عبارة وألخص لفظ. وما تم من الفتوحات المشهورة والملاحم المذكورة والعجائب المسطورة. من غير تطويل (ولا إكثار) ولا استيعاب. ولكن أذكر المشهورين ومن يشبههم. وأترك المجهولين ومن يشبههم. وأشير إلى الوقائع الكبار؛ إذ لو استوعبت التراجم والوقائع لبلغ الكتاب مائة مجلدة بل أكثر، لأن فيه مائة نفس يمكنني أن أذكر أحوالهم يف خمسين مجلداً.

وقد طالعت على هذا التأليف من الكتب مصنفات كثيرة. ومادته من:

دلائل النبوة للبيهقي.

وسيرة النبي ﷺ لابن إسحاق.

ومغازيه لابن عائذ الكاتب.

والطبقات الكبرى لمحمد بن سعد كاتب الواقدي.

وتاريخ أبي عبد الله البخاري.

وبعض تاريخ أبي بكر أحمد بن أبي خيثمة.

وتاريخ يعقوب الفسوي.

وتاريخ محمد بن المثنى العنزي؛ وهو صغير.

وتاريخ أبي حفص الفلاس.

وتاريخ أبي بكر بن أبي شيبة.

وتاريخ الواقدي.

وتاريخ الهيثم بن عدي.

وتاريخ خليفة بن خياط.

والطبقات له.

وتاريخ أبي زرعة الدمشقي.

والفتوح لسيف بن عمر.

وكتاب النسب للزبير بن بكار.

والمسند للإمام أحمد.

وتاريخ المفضل بن غسان الغلابي.

والجرح والتعديل عن يحيى بن معين.

والجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم.

ومن عليه رمز فهو في الكتب الستة أو بعضها. لأنني طالعت مسودة "تهذيب الكمال" لشيخنا الحافظ أبي الحجاج يوسف المزي. ثم طالعت المبيضة كلها.

فمن على اسمه (ع) فحديثه في الكتب الستة.

ومن عليه (٤) فهو في السنن الأربعة.

ومن عليه (خ) فهو في (٣ ب) البخاري.

ومن عليه (م) ففي مسلم.

ومن عليه (د) ففي سنن أبي داود.

ومن عليه (ت) ففي جامع الترمذي.

ومن عليه (ن) ففي سنن النسائي.

ومن عليه (ق) ففي سنن ابن ماجة.

وإن كان الرجل في الكتب إلا فرد كتاب فعليه (سوى ت) مثلاً. أو (سوى د).

وقد طالعت أيضاً عليه من التواريخ التي اختصرتها:

تاريخ أبي عبد الله الحاكم،

وتاريخ أبي سعيد بن يونس،

وتاريخ أبي بكر الخطيب،

وتاريخ دمشق لأبي القاسم الحافظ.

وتاريخ أبي سعد بن السمعاني، والأنساب له،

وتاريخ القاضي شمس الدين بن خلكان.

وتاريخ العلامة شهاب الدين أبي شامة.

وتاريخ الشيخ قطب الدين بن اليونيني؛ وتاريخه ذيل على "مرآة الزمان" للواعظ شمس الدين يوسف (سبط) ابن الجوزي؛ وهما على الحوادث والسنين.

وطالعت أيضاً كثيراً من :

تاريخ الطبري.

وتاريخ ابن الأثير.

وتاريخ ابن الفرضي.

وصلته لابن بشكوال.

وتكملتها للأبار.

والكامل لابن عدي.

وكتباً كثيرة وأجزاء عديدة، وكثيراً من "مرآة الزمان".

ولم يعتن القدماء بضبط الوفيات كما ينبغي. بل اتكلوا على حفظهم. فذهبت وفيات خلق من الأعيان من الصحابة، ومن تبعهم إلى قريب زمان أبي عبد الله الشافعي. فكتبنا أسماؤهم على الطبقات تقريباً. ثم اعتنى المتأخرون بضبط وفيات العلماء وغيرهم. حتى ضبطوا جماعة فيهم جهالة بالنسبة إلى معرفتنا لهم. فلهذا حفظت وفيات خلق من المجهولين وجهلت وفيات أئمة من المعروفين. وأيضاً فإن عدة بلدان لم يقع إلينا تواريخها؛ إما لكونها لم يؤرخ علماءها أحد من الحفاظ. أو جمع لها تاريخ ولم يقع إلينا.

وأنا أرغب إلى الله تعالى، وأبتهل إليه أن ينفع بهذا الكتاب. وأن يغفر لجامعه وسامعه ومطالعه وللمسلمين. آمين.

* * *

(٢٠)

مقدمة ابن واصل (ت ٧٩٦هـ/١٣٩٨م) لكتابه (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز الغفار، القوي القهار، المتعالي عن أن تدركه الأبصار، أو تحيط به الخواطر والأفكار.

أحمده على نعمه المتوالية الغزار، وأصلي على رسوله محمد المنتخب من أشرف نجار، المخصوص بأعظم فخار، وعلى آله الأكرمين الأطهار، وأصحابه البررة الأخيار.

وبعد: فهذا كتاب أوردت فيه أخبار ملوك بني أيوب، وجملة من محاسنهم ومناقبهم، إذ كانوا أعظم من تقدمهم من الملوك شأناً، وأجلهم سلطاناً، فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أيدي الكافرين، وأذل بسيوفهم أعناق الملحدين، وطهروا الديار المصرية من بدع الباطنية، وشيدوا أركان الملة الحنيفية؛ فشكر الله –سبحانه– سعيهم، وقدّس أرواحهم الشريفة، وأنالهم من الآخرة أعلى الرتب.

وخدمت به خزانة الجناب الكريم المولوي الأميري الكبيري العضدي النصيري الإسفهسلاري العالمي العادلي المظفري المؤيدي، ملك الأمراء، مقدم الجيوش، مبارز الدين، سيد الغزاة والمجاهدين، الملكي المنصوري، أعز الله أنصاره، وضاعف اقتداره، إذ كان الله سبحانه قد خصه من بين سائر أمراء عصره بالرأي الصائب، والفكر الثاقب، والفضل الغزير الباهر، والعقل الرصين الوافر، والأخلاق الكاملة الرضية، والمحاسن الجميلة السنية، ومحبة العلم والعلماء، وإيثار الفضيلة والفضلاء وسميته "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب". وبالله المستعان وعليه التكلان.

(٢١)

مقدمة ابن القنفذ القسنطيني (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م) لكتابه (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية).

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال الشيخ الفقيه العالم العلامة القاضي العدل المحصل المتفنن الخطيب الأكمل أبو العباس أحمد بن الخطيب القسنطيني – رحمه الله تعالى وبرد ضريحه.

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين. وعلى آله وأصحابه أجمعين. ورضي الله عن الإمام المهدي المعلوم القائم بالحق بأنصاره الصادقين. وصلة الدعاء لسيدنا الإمام أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الله المتوكل على رب العالمين. أبي فارس عبد العزيز ابن الأمراء الراشدين بالنصر العزيز والفتح المبين.

وبعد فهذا مختصر فيه ما تتشوف النفوس إليه من الاطلاع على مبادئ الدولة الحفصية، وما يتعلق بها من مهمات الوقائع الجلية، بكلام كلي تحسن المحاضرة به، وتحصل الإفادة بسببه.

ولشرفه برفعه إلى الحضرة العلية، وفخر زمان وضعه بأيام الإمارة العزيزية المجاهدية سميته "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" والله المسؤول في التوفيق والهداية إلى سواء الطريق.

أصل نشأة دولة التوحيد الإمام المهدي أبو عبد الله محمد بن عبد الله رضي الله عنه: ولد بهرغة سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقرأ بقرطبة على القاضي ابن حمدين ثم ارتحل إلى المهدية وأخذ عن الإمام أبي عبد الله المازري ثم انتقل إلى الإسكندرية وأخذ عن الإمام أبي بكر الطرطوشي ثم انتقل إلى بغداد وأخذ عن الإمام أبي حامد الغزالي.

وكان الغزالي لما بلغ كتابه الذي سماه "إحياء علوم الدين" إلى المغرب وأشار من أشار على ملك لمتونة بتمزيقه وبلغ ذلك لمؤلفه الغزالي قال: "اللهم مزق ملكهم" وكان المهدي رضي الله عنه حاضراً في المجلس فقال له: "على يدي يا سيّدي" فقال له: "على يديك". وأكدت هذه الدعوة ما في علم المهدي من ذلك لما يذكر أنه أطلع على "كتاب الملاحم" واقتبس منه ما عول عليه فتوجه الإمام المهدي إلى المغرب وصحبه عبد المؤمن بن علي الكومي طالباً للعلم من بجاية وتوسم فيه ما كان يشير به إليه.

وكان للإمام رضي الله عنه مناظرة ومحاضرة مع فقهاء لمتونة واستند إلى جبل درن وكان يعلم الناس إيمانهم فممن صار من حزبه سمي موحداً.

وكان أمره مرة يتزلزل ومرة يثبت إلى أن آواه الشيخ الجليل المقدس أبو حفص عمر بن يحيى بن عبد الله العمري الهنتاتي فعلا أمره، وسما ذكره، وأظهر ما بطن ولذلك كان يقال له: الشيخ أبو حفص عمر، ثم تم به الأمر المراد.

وبويع الإمام المهدي رضي الله عنه يوم الجمعة الرابع عشر لشهر رمضان من عام خمسة عشر وخمسمائة: وبنى داراً بجبل هنتاتة هي الآن يتبرك بالدخول إليها ودخلتها أنا لهذا الوجه سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وأماكنه للجلوس معلومة لا يسلك الراكب فيها حتى ينزل عن دابته، وقد فعلته أنا ومن كان معي في هذه الزيارة.

ورتب لهم الإمام أحزاباً في التوحيد "كالمرشدة" وغيرها وهي التي أولها "أعلم أرشدنا الله وإياك" بكسر ألف أعلم على صيغة الأمر، وفتحها خطأ وألف لهم الإمام كتباً مشهورة.

وما زال أمر الإمام، في زيادة على ترتيب ونظام، وملازمة أصحاب من الأعلام واعتكاف على قراءة حديث النبي عليه السلام حتى توفي بجبل تينمل غربي جبل هنتاتة يوم الأربعاء الثالث عشر لشهر رمضان المعظم من سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

* * *

(٢٢)
مقدمة المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
لكتاب (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عرّف وفهّم، وعلم الإنسان ما لم يكن يعلم، وأسبغ على عباده نعماً باطنة وظاهرة، ووالى عليهم من مزيد آلائه مننا متظافرة متواترة، وبثهم في أرضه حيناً يتقبلون، واستخلفهم في ماله فهم به يتنعمون، وهدى قوماً إلى اقتناص شوارد المعارف والعلوم، وشوقهم للتفنن في مسارح التدبر والركض بميادين الفهوم، وأرشد قوماً إلى الانقطاع من دون الخلق إليه، ووفقهم للاعتماد في كل أمر عليه. وصرف آخرين عن كل مكرمة وفضيلة، وقيض لهم قرناء قادوهم إلى كل ذميمة من الأخلاق ورذيلة. وطبع على قلوب آخرين فلا يكادون يفقهون قولاً، وثبطهم عن سبل الخيرات فما استطاعوا قوة ولا حولاً. ثم حكم على الكل بالفناء، ونقلهم جميعاً من دار التمحيص والابتلاء، إلى برزخ البيود والبلاء، وسيحشرهم أجمعين إلى دار الجزاء، ليوفى كل عامل منهم عمله، ويسأله عما أعطاه وخوله، وعن موقفه بين يديه سبحانه وما أعد له، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون.

أحمده سبحانه حمد من علم أنه إله لا يعبد إلا إياه، ولا خالق للخلق سواه، حمداً يقتضي المزيد من النعماء، ويوالي المنن بتجدد الآلاء.

وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، ونبيه وخليله، سيد البشر، وأفضل من مضى وغبر، الجامع لمحاسن الأخلاق والسير، والمستحق لاسم الكمال على الإطلاق

من البشر، الذي كان نبياً وآدم بين الماء والطين، ورقم أسمه من الأزل في عليين، ثم تنقل من الأصلاب الفاخرة الزكية، إلى الأرحام الطاهرة المرضية، حتى بعثه الله عز وجل إلى الخلائق أجمعين، وختم به الأنبياء والمرسلين ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين، وعلى آله وصحابته والتابعين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعد، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً، لما يحويه من المواعظ والإنذار، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى.

لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة بها وامقة، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة، وقد صنف فيه الأئمة كثيراً، وضمن الأجلة كتبهم منه شيئاً كبيراً.

وكانت مصر هي مسقط رأسي، وملغب أترابي ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجؤجؤي الذي ربى جناحي في وكره، وعش مأربي فلا تهوى الأنفس غير ذكره. لا زلت منذ شذوت العلم، وآتانى ربي الفطانة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها، وأهوى مساءلة الركبان من سكان ديارها.

فقيدت بخطى في الأعوام الكثيرة، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب. إلا أنها ليست بمرتبة على مثال، ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال. فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية، على الأمم الماضية والقرون الخالية، وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يفنيه البلى والقدم، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم.

وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع، وحوته من المباني البديعة الأوضاع، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل، والتنويه بذكر الذي شادها من سراة الأعاظم والأفاضل. وأنثر خلال

ذلك نكتاً لطيفة، وحكماً بديعة شريفة، من غير إطالة ولا إكثار، ولا إجحاف مخل بالغرض ولا اختصار، بل وسط بين الطرفين، وطريق بين بين.

فلهذا سميته "كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار".

وإني لأرجو أن يحظى – إن شاء الله تعالى – عند الملوك، ولا ينبو عنه طباع العامي والصعلوك، ويجله العالم المنتهي، ويعجب به الطالب المبتدئ، وترضاه خلائق العابد الناسك، ولا يمجه سمع الخليع الفاتك، ويتخذه أهل البطالة والرفاهية سمراً، ويعده أولو الرأي والتدبير موعظة وعبراً، يستدلون به على عظيم قدرة الله تعالى في تبديل الأبدال، ويعرفون به عجائب صنع ربنا سبحانه من تنقل الأمور إلى حال بعد حال.

فإن كنت أحسنت فيما جمعت، وأصبت في الذي صنعت ووضعت، فذلك من عميم منن الله تعالى وجزيل فضله، وعظيم أنعمه عليّ وجليل طوله. وإن أنا أسأت فيما فعلت، وأخطأت إذا وضعت، فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب، إذا لم يعصمه ويحفظه علام الغيوب:

وما أبرئ نفسي أنني بشر ... أسهو وأخطئ ما لم يحمني قدر

ولا ترى عذراً أولى بذي زلل ... من أن يقول مقراً: أنني بشر

فليسبل النظار في هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة، وليغض تجاوزاً وصفحاً إن وقف منه على كبوة أو نبوة، فأي جواد – وأن عنق – ما يكبو؟ وأي عضب مهند لا يكل ولا ينبو؟ لا سيما والخاطر بالأفكار مشغول، والعزم لالتواء الأمور وتعسرها فاتر محلول، والذهن من خطوب هذا الزمن القطوب كليل، والقلب لتوالي المحن وتواتر الإحن عليل:

يعاندني دهري كأني عدوه ... وفي كل يوم بالكريهة يلقاني

فإن رمت شيئاً جاءني منه ضده ... وإن راق لي يوماً تكدر في الثاني

اللهم غفراً ما هذا من التبرم بالقضاء، ولا التضجر بالمقدور، بل أنه سقيم ونفثه مصدور، يستروح أن أبدى التوجع والأنين، ويجد خفاً من ثقله إذا باح بالشكوى والحنين.

ولو نظروا بين الجوانح والحشا   رأوا من كتاب الحب في كبدي سطراً
ولو جربوا ما قد لقيت من الهوى   إذن عذروني أو جعلت لهم عذراً

والله أسأل أن يحلى هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء، كما أعوذ به من تطرق أيدي الحساد إليه والجهلاء، وأن يهديني فيه وفيما سواه من الأقوال والأفعال إلى سواء السبيل. إنه حسبنا ونعم الوكيل، وفيه جلت قدرته لي سلو من كل حادث، وعليه عز وجل أتوكل في جميع الحوادث، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

* * *

(٢٣)
مقدمة المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)
لكتاب (درر العقود الفريدة)

بسم الله الرحمن الرحيم

رب زدني علماً

الحمد لله الذي أحصى الخلائق وعدهم عداً، وضرب لسائرهم آجالاً مقدرة ومددا. وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون. واستخلفهم في أرضه لينظر كيف يعملون، أقامهم جيلاً بعد جيل. واستعمرهم قبيلاً في إثر قبيل. ليبقي الأول للثاني من قصصه مواعظ وعبراً، ويحيى الآخر للمتقدم ذكراً وينشر خبراً، كي يرعوي الفطن عن فعل ما يذم ويستقبح. ويقتدي الأريب بما هو الأحسن من الأخلاق والأصلح. حتى إذا انقضت آماد الحياة الدنيا وزالت. واقتربت من الخلائق الساعة وحانت. حشرهم جميعاً إليه. وأقامهم كافة بين يديه. ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

أحمده حمداً لا يبلغ العاد، وإن استقصى، أقصاه، ولا يدرك الحاسب، وإن دقق، منتهاه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثيل. ولا معاند له، تعالى عن المعاند والعديل. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ونبيه المصطفى وخليله: صلى الله عليه وعلى آله وصحابته، وأزواجه وسائر أهل طاعته. وسلَّم وشرَّف وكرَّم.

وبعد: فإني ما ناهزت من سني العمر الخمسين، حتى فقدت معظم الأصحاب

والأقربين. فاشتد حزني لفقدهم، وتنغص عيشي من بعدهم. فعزيت النفس عن لقائهم بتذكارهم، وعوضتها عن مشاهدتهم باستماع أخبارهم، وأمليت ما حضرني من أنبائهم في هذا الكتاب، ومن ذكرهم فطاب، وسميته (در العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة).

والله أسأل أن يبرد في مقر البلى مضجعهم، ويقر ليوم التناد مهجعهم، ويجمعني وهم بدار كرامته في رحمته. وينعمني وإياهم بالخلود مع الأبرار في جنته، بمنه وكرمه، وفي ذلك أقول:

فقدت لعمري كل ما كان لي يحلو ... و أوحشني قوم بهم كان لي شغل
فلا غائب في الناس أرجو قدومه ... ولا زائر همي بزورته يجلو
ولا صاحب أرجو لدفع كريهة ... إذا محن الأيام ما خطبها سهل
ولا مسعف بالرأي لي هو مرشد ... و لا منجد بالجاه قدري به يعلو
ولا فارج عني الهموم بأنسه ... يطارحني هما يخف به الثكل
ولم يبق لي من صبوة وصبابة ... تلذ بها نفسي ويجتمع الشمل
وقد أعرضت نفسي عن اللهو جملة ... ومَلّتْ لقاء الناس حتى و إن جلّوا
وصار بحمد الله شغلي وشاغلي ... فوائد علم لست من شغلها أخلو
فطوراً يراعي كاتب لفوائد ... بصحتها قد جاءنا العقل والنقل
وآونة للعلم صدري جامع ... فتزكو به نفسي وعن همّها تسلو

ثم إني رأيت بعد ذلك أن أجمع أخبار من أدركته، سواء غاب عني أو رأيته، من أهل مصري كان، أو غيرها من البلدان. فأقيد أخبار الملوك والأمراء، وأعيان الكتاب والوزراء. واذكر رواة الحديث والفقهاء، وحملة سائر العلوم والشعراء. ومن له ذكر شهير، أو قدر نبيه خطير، إما من رجال الدنيا، أو طلاب الأخرى من ابتداء سنة ستين وسبعمائة.

وأورد في اسم كل ملك أولية دولته، ومن سلف من ملوك مملكته، كي يحيط الناظر فيه علماً بدول الزمان، وملوك العصر والأوان، فكأن قد ومضوا، وزالت دولهم وانقضوا: **﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾** (سورة الأحزاب: ٦٢). وحسبي الله وكفى بالله وكيلاً.

* * *

(٢٤)

مقدمة ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) لكتابه (الإصابة في تمييز الصحابة)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا الإمام شيخ الإسلام، ملك العلماء الأعلام، حافظ العصر وممليه، وحامل لواء السنة فيه، إمام المعدلين والمخرجين: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن حجر العسقلاني الشافعي. أبقاه الله في خير وعافيه.

الحمد لله الذي أحصى كل شيء عدداً، ورفع بعض خلقه على بعض، فكانوا طرائق قدداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك ولا يكون أبداً؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، أكرم به عبداً سيداً، وأعظم به حبيباً مؤيداً؛ فما أزكاه أصلاً ومحتداً، وأطهره مضجعاً ومولداً، وأكرمه أصحاباً، كانوا نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء؛ صلى الله عليه وعليهم صلاة خالدة، وسلاماً مؤيداً (وسلم تسليماً).

أما بعد، فإن من أشرف العلوم الدينية علم الحديث النبوي، ومن أجل معارفه تمييز أصحاب رسول الله ﷺ ممن خلف بعدهم.

وقد جمع في ذلك جمع من الحفاظ تصانيف بحسب ما وصل إليه اطلاع كل منهم؛ فأول من عرفته صنف في ذلك أبو عبد الله البخاري؛ أفرد في ذلك تصنيفاً؛ ينقل منه

أبو القاسم البغوي وغيره، وجمع أسماء الصحابة مضموماً إلى من بعدهم جماعة من طبقة مشايخه؛ كخليفة بن خياط، ومحمد ابن سعد، ومن قرنائه كيعقوب بن سفيان، وأبي بكر بن (أبي) خيثمة، وصنف في ذلك جمع بعدهم كأبي القاسم البغوي، وأبي بكر بن أبي داود، وعبدان؛ ومن قبلهم بقليل كمُطيّن، ثم كأبي علي بن السكن، وأبي حفص بن شاهين، وأبي منصور الماوردي، وأبي حاتم ابن حبّان، وكالطبراني ضمن معجمه الكبير، ثم كأبي عبد الله بن منده، وأبي نعيم؛ ثم كأبي عمر بن عبد البرّ، وسمي كتابه الاستيعاب؛ لظنه أنه استوعب ما في كتب من قبله؛ ومع ذلك ففاته شيء كثير؛ فذيل عليه أبو بكر بن فتحون ذيلاً حافلاً، وذيل عليه جماعة في تصانيف لطيفة، وذيل أبو موسى المديني على ابن منده ذيلاً كبيراً.

وفي أعصار هؤلاء خلائق يتعسر حصرهم ممن صنف في ذلك أيضاً إلى أن كان في أوائل القرن السابع، فجمع عز الدين بن الأثير كتاباً حافلاً سماه "أسد الغابة" جمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة، إلا أنه تبع من قبله؛ فخلط من ليس صحابياً بهم، وأغفل كثيراً من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم؛ ثم جرد الأسماء التي في كتابه مع زيادات عليها الحافظ أبو عبد الله الذهبي، وعلم لمن ذكر غلطاً ولم لا تصح صحبته؛ ولم يستوعب ذلك ولا قارب.

وقد وقع لي بالتتبع كثير من الأسماء التي ليست في كتابه ولا أصله على شرطهما؛ فجمعت كتاباً كبيراً في ذلك ميزت فيه الصحابة من غيرهم، ومع ذلك فلم يحصل لنا من ذلك جميعاً الوقوف على العشر من أسامي الصحابة بالنسبة إلى ما جاء عن أبي زرعة الرازي، قال: توفى النبي ﷺ ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان من رجل وامرأة، كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية.

قال ابن فتحون في ذيل "الاستيعاب" بعد أن ذكر ذلك : أجاب أبو زرعة بهذا سؤال من سأله عن الرواة خاصة، فكيف بغيرهم؟ ومع هذا فجميع من في الاستيعاب يعني ممن ذكر فيه باسم أو كنية، وهما ثلاثة آلاف وخمسمائة؛ وذكر أنه استدرك عليه على

شرطه قريباً ممن ذكره.

قلت: وقرأت بخط الحافظ الذهبي من ظهر كتابه "التجريد": لعل الجميع ثمانية آلاف إن لم يزيدوا لم ينقصوا؛ ثم رأيت بخطه أن جميع من في "أسد الغابة" سبعة آلاف وخمسمائة (وأربعة وخمسون نفساً).

ومما يؤيد قولي أبي زرعة ما ثبت في الصحيحين عن كعب بن مالك في قصة تبوك: والناس كثير لا يحصيهم ديوان.

وثبت عن الثوري فيما أخرجه الخطيب بسنده الصحيح إليه. قال: من قدم علياً على عثمان فقد أزرى على اثني عشر ألفاً مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض؛ فقال النووي: وذلك بعد النبي ﷺ باثني عشر عاماً بعد أن مات في خلافة أبي بكر في الردة والفتوح — الكثير ممن لم يضبط أسماؤهم؛ ثم مات في خلافة عمر في الفتوح وفي الطاعون العام وعمواس وغير ذلك ممن لا يحصى كثرة.

وسبب خفاء أسمائهم أن أكثرهم أعراب، وأكثرهم حضروا حجة الوداع، والله أعلم.

وقد كثر سؤال جماعة من الإخوان في تبييضه، فاستخرت الله تعالى في ذلك، ورتبته على أربعة أقسام في كل حرف منه:

فالقسم الأول: فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، سواء كانت الطريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان.

وقد كنت أولاً رتبت هذا القسم الواحد على ثلاثة أقسام، ثم بدا لي أن أجعله قسماً واحداً، وأميز ذلك في كل ترجمة.

القسم الثاني: من ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبيﷺ

لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات ﷺ وهو في دون سن التمييز؛ إذ ذكر أولئك في الصحابة إنما هو على سبيل الإلحاق؛ لغلبة الظن على أنه ﷺ رآهم لتوفر دواعي أصحابه على إحضارهم وأولادهم عنده عند ولادتهم ليحنكهم ويسميهم ويبرك عليهم؛ والأخبار بذلك كثيرة شهيرة: ففي صحيح مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم.

وأخرجه الحاكم في كتاب الفتن في المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال: ما كان يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدعا له — الحديث. وأخرج ابن شاهين في كتاب الصحابة في ترجمة محمد بن طلحة بن عبد الله من طريق محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة عن ظئر محمد بن طلحة، قال: لما ولد محمد بن طلحة أتيت به النبي ﷺ ليحنكه ويدعو له، وكذلك كان يفعل بالصبيان؛ لكن أحاديث هؤلاء عنه من قبيل المراسيل عند المحققين من أهل العلم بالحديث؛ ولذلك أفردتهم عن أهل القسم الأول.

القسم الثالث: فيمن ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ، ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا؛ وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق من أهل العلم بالحديث، وإن كان بعضهم قد ذكر بعضهم في كتب معرفة الصحابة فقد أفصحوا بأنهم لم يذكروهم إلا بمقاربتهم لتلك الطبقة، لا أنهم من أهلها.

وممن أفصح بذلك ابن عبد البر، وقبله أبو حفص بن شاهين، فاعتذر عن إخراجه ترجمة النجاشي بأنه صدق النبي ﷺ في حياته وغير ذلك، ولو كان من هذا سبيله يدخل عنده في الصحابة ما احتاج إلى اعتذار.

وغلط من جزم في نقله عن ابن عبد البر بأنه يقول بأنهم صحابة؛ بل مراد ابن عبد البر بذكرهم واضح في مقدمة كتابه بنحو مما قررناه، وأحاديث هؤلاء عن النبي ﷺ

مرسلة بالاتفاق بين أهل العلم بالحديث؛ وقد صرح ابن عبد البر نفسه بذلك في التمهيد وغيره من كتبه.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط؛ وبيان ذلك البيان الظاهر الذي يعول عليه على طرائق أهل الحديث، ولم أذكر فيه إلا ما كان الوهم فيه بينا. وأما مع احتمال عدم الوهم فلا، إلا إن كان ذلك الاحتمال يغلب على الظن بطلانه.

وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائر فكره عليه، وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب الزاهر، وزبدة ما يمخضه (من هذا) الفن اللبيب الماهر.

والله تعالى أسأل أن يعين على إكماله، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويجازيني به خير الجزاء في دار إفضاله، إنه قريب مجيب.

* * *

(٢٥)

مقدمة ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) لكتابه (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يحيي ويميت، وله اختلاف الليل والنهار، بيده ملكوت كل شيء، يخلق ما يشاء ويختار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولا شريك له، رب الأرض والسماوات وما بينهما العزيز الغفار، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار ﷺ وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار.

أما بعد: فهذا تعليق مفيد جمعت فيه تراجم من كان في المئة الثامنة من الهجرة النبوية من ابتداء سنة إحدى وسبعمئة إلى آخر سنة ثماني مئة من الأعيان والعلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء، وعنيت برواة الحديث النبوي فذكرت من اطلعت على حاله وأشرت إلى بعض مروياته، إذ الكثير منهم شيوخي، وبعضهم أدركته ولم ألقه، وبعضهم لقيته ولم أسمع منه، وبعضهم سمعت منه. وقد استمددت في هذا الكتاب من أعيان العصر لأبي الصفاء الصفدي، ومجاني العصر لشيخ شيوخنا أبي حيان، وذهبية العصر لشهاب الدين بن فضل الله، وتاريخ مصر لشيخ شيوخنا قطب الدين الحلبي، وذيل سير النبلاء للحافظ شمس الدين الذهبي، وذيل ذيل المرآة للحافظ علم الدين البرزالي، والوفيات للعلامة تقي الدين بن رافع، والذيل عليه للعلامة شهاب الدين بن حجي، ومما جمعه صاحبنا تقي الدين المقريزي في أخبار الدولة المصرية وخططها، ومعاجم كثيرة من شيوخنا، والوفيات للحافظ شمس

الدين أبي الحسين بن أيبك الدمياطي، والذيل عليه لشيخنا الحافظ أبي الفضل بن الحسين العراقي، وتاريخ غرناطة للعلامة لسان الدين بن الخطيب، والتاريخ لولي الدين بن خلدون المالكي، وغير ذلك. وبالله الكريم عوني، وإياه أسأل عن الخطأ صوني، إنه قريب مجيب.

* * *

(٢٦)

مقدمة ابن قاضي شهبة (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) لكتابه (الكواكب الدرية في السيرة النورية)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي، الحمد لله مالك الممالك وموضح المسالك، وجاعل العدل نجاة من المهالك. أحمده وهو الحمود المالك. وأوحده وهو الغني عن المشارك. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهاً لا يزول ملكه ولا يفنى، وملكاً تخصص بالصفات الجميلة والأسماء الحسنى. حكم فعدل في حكمه، وعلم ما كان وما يكون، فلم يخف شيء عن علمه. وأشهد أن سيدنا محمداً ﷺ عبده ونبيه ورسوله وصفيه، الذي رفع به منار الحق، وأرسله رحمة للخلق، وزيّنه بالصفات الحسان، وأنزل عليه **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾** (النحل: ٩٠). صلى الله عليه وعلى آله الأمجاد وصحبه الأنجاد الذين جاهدوا في الله حق جهاده، واجتهدوا رضي الله عنهم في مصالح عباده، وبسطوا بساط العدل في بلاده، وسلّم وكرّم، وشرّف وعظّم.

وبعد، فإن العدل قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح المخلوقين. به تألفت القلوب، والتأمت الشعوب. ولاح الفلاح، وظهر النور والصلاح، واتصلت أسباب النجاح. وهو أحسن ما تزين به الملوك الذين مكنهم الله في أرضه، وأوجب عليهم القيام بفرضه، ولا يوفق إلى صراطه القويم إلا من سبقت له العناية في الأزل القديم. ويكفي ملوك العدل من مزيد الكرامة قول رسول الله ﷺ: "المقسطون (عند الله) على منابر من نور". وقوله ﷺ وزاده شرفاً لديه: أحب الناس إلى الله وأدناهم مجلساً منه يوم القيامة إمام عادل، وهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله،

أو كما قـال ﷺ ، وعلى الجملة والتفصيل ففي العدل الخير كله، فسبحان من وفق إليه من سبقت له الحسنى، ومن بوأه لديه المقام الأسنى، فأضفى عليه من ملابس نعمه الفاخرة، وجمع له بين سعادة الدنيا والآخرة.

ولما كان الملك العادل السعيد، نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بن آق سنقر التركي، سقى الله عهده، ووطأ في الفردوس مهده، وشكر في مصالح الإسلام سعيه الناجح، وثقل بعظيم الحسنات ميزانه الراجح، ممن شاع فضله واشتهر، وذاع عدله وظهر، وأشرق نوره الساطع وبهر، وسلك من العدل في الرعايا أحسن السلوك، ويسر الله تعالى له ببركة العدل ما عجز عنه عظماء الملوك، أحببت أن أذكر طرفاً من سيرته الفاضلة، وأحكامه العادلة، ومحاسنه الظاهرة، وسجاياه الطاهرة، وأوصافه الزاهرة المشرقة إشراق الشموس الباهرة، ليقتدى به من نظر إليها ووقف عليها من أعلام سلاطين الإسلام، الذين كرمت سجاياهم، وشرفت مزاياهم، ورغبوا في الذكر الجميل، والثواب الجزيل، وحرصوا على نيل السعادة الكبرى، وأملوا حسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الأخرى.

ورتبت هذا الكتاب على سبعة أبواب مشتملة على أوصافه، وعدله وإنصافه، ونعوته التي فاق بها على الملوك، وحسن أعماله التي سلك بها من مناهج الرشاد أحسن السلوك، وهذه فهرست الأبواب:

الباب الأول: في ذكر مولده وصفاته، وذكر أفعاله الدالة على حسن نياته.

الباب الثاني: في ذكر عدله الدال على رصانة عقله، ووفور كرمه وفضله.

الباب الثالث: في ذكر شجاعته وشهامته، ونجدته، وصرامته، وقوة عزمه، وحسن رأيه وحزمه.

الباب الرابع: في ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح، والمساعي الكفيلة بالمناجح، وما أدخل على المسلمين من المسار، وعمهم به من المبار.

الباب الخامس: في زهده وورعه وعبادته ودينه وعمله المكمل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته.

الباب السادس: في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة، والقصائد البديعة الرائقة.

الباب السابع: في ذكر غزواته العديدة، وفتوحاته السعيدة، وما جرى في زمانه من الأمور الغريبة، والحوادث العجيبة. وسميته الكواكب الدرية في السيرة النورية. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب، المرجو لحسن الثواب، وهو تعالى المؤمل لصلاح الأحوال، وتسديد الأقوال والأفعال.

* * *

(٢٧)
مقدمة كتاب (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم علم التاريخ) لمؤلفه السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا الشيخ الإمام العلامة، شيخ الإسلام، حامل لواء سنة الأنام، خاتمة الحفاظ والمحدثين، قامع المفسدين والمبتدعين، أبو الخير محمد شمس الدين بن الشيخ المفسر المقرئ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي القاهري الشافعي، نفعنا الله والمسلمين بعلومه، وأفاض علينا من بركاته آمين: الحمد لله مصرف الأيام والليالي، ومعرف العباد كثيراً مما سلف في الأزمان الماضية والدهور الخوالي، ومشرف هذه الأمة في سائر الأشهر والأعوام بالضبط التام المتوالي، ومعلم من شاء من العلم العقلي والنقلي ما هو أنفس من الجواهر واللآلي، ومفهم الألباء في التعريف بالإنسان والزمان، الطريق المسند المدرج في العوالي بالعبارة الرائقة، والإشارة الفائقة المنعشة للرمم البوالي، والصلاة والسلام على أشرف الخلق المنزل عليه)وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك(يعني الخالص للمجانب والموالي صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم من السادات والموالي.

وبعد فلما كان الاشتغال بفن التاريخ للعلماء من أجل القربات، بل من العلوم الواجبات المتنوعة للأحكام الخمسة بين أولي الإصابات، ولكن لم أر في فضائله مؤلفاً يشفي الغليل، ويزيل الكربات، بحيث تطرق للتنقيص له ولأهله بعض أولي البليات، ممن هو ممتحن بالجليات فضلاً عن الخفيات، فأردت إتحاف العارفين السادات وكذا

التائقين للأمور المفادات بما لا غناء عنه في هذا الشأن من المهمات، وإن أظهر ما فيه من الفوائد المأثورات، وأشهر كونه من الأصول المعتبرات، فأبدأ بتعريفه (١) لغة و(٢) اصطلاحاً و(٣) موضوعه و(٤) فوائده المعبر عنها بالثمرات و(٥) غايته و(٦) حكمه من الوجوب أو الاستحباب أو الإباحات و(٧) ما استنبط في الأدلة له من الكتاب والسنة وغيرهما بالطرق الواضحات و(٨) تقبيح من ذمه ممن قصر في الطاعات و(٩) ماذا على المعتني به من الشروط المقررات و(١٠) أول من أمر به وابتداء وقته شهراً وهجرة بتكرر الساعات والأوقات، ثم (١١) ما علمته فيه من المصنفات على اختلاف المقاصد في الأشخاص والجهات وغير ذلك من الفنون المتنوعات، ثم (١٢) من صنف فيه، وكذا (١٣) أئمة الجرح والتعديل مع عدم استيعابها وإن كنا أطلنا البحث عن ذلك والتفحصات فهذه عشرة فأزيد سد بها الباب المتطرق به للظلمات وسميته "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ" والله أسأل أن يحمينا جهل الجهال، ويكفينا سائر المهمات بالمغفرة في الماضي والحال والاستقبال، بمنه وكرمه.

* * *

(٢٨)
مقدمة حميد بن رزيق (ت ١٢٧٤هـ/١٨٧٣م) لكتابه (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المسهل لأولي الألباب معرفة السير والأنساب، ومرشدهم لتفصيل تفضيل الطائفة والأحزاب، فتح لهم ما جرى على الملوك من الشأن الذي ما شان، فكشفوا الحجاب، ودخلوا على الصواب بفصل الخطاب من كل باب، ولما أحرزوا الفضائل أمطروا السائل عن اسم ملكهم ونسبه، وحدود مملكته، فكان جوابهم إليه كالسيل السائل مع الانصباب، والصلاة والسلام على أعلا وأعلم الأمم وأفصحهم بالكلام المحكم، سيدنا رسول الله محمد وآله وصحبه الناطقين مع الجواب بفصل الخطاب.

أما بعد، لقد سألني ذو الدراية والاحتشام، والأخلاق الرضية والأكرام السيد حمد بن مولانا سالم بن سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي اليمني الأزدي، أن أشرح له ما سمعته وحفظته عن أهل المعرفة بالأنساب والأخبار المطابقة للصواب عن نسب الإمام الحميد، أحمد بن سعيد، وما جرى في سيرته الجلية، ومملكته العلية، من القضية الرضية، وعن السبب الذي استأصل به من اليعاربة جرثومة السلطان، وأصار ليده ما كان بيدهم من زمام الزمان بعمان، وأن أبين له بعد فراغي من ذكر نسبه وسيرته وحدود مملكته بلا إبهام، سيرة أولاده النجباء الكرام، وما جرى لهم من الشأن الشائع بعمان وغيرهما مع الأعيان.

ولعمري، ما سؤال هذا السيد إلى سؤال جاهل بالثلة، بل سؤال عارف بالتفصيل والجملة، فلا يخفى مرى مراده على من صارت معرفته قاموساً، اقتداء بقوله تعالى: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾ (سورة طه: ١٧)، فأجبته خوفاً لا يقبل اعتذاري، ومواراة أواري لشأن جارى، وأنا يومئذ في غيهب من أزمات الزمان، وفي بؤس عبوس تكاد أن تنقد به جناجني من الأشجان، فاستعنت الله على مرى مراده، فحصل، ولله الحمد، ما يحصل إلى الروض من عهاد.

وسميت هذا الكتاب "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين" ورتبته لأولي الألباب، ثلاثة أبواب، وأنا استغفر الله مما خالفت فيه الشرع، وحرفت فيه الأصل أو الفرع، وبه، لا بغيره، التوفيق، وبه، لا بغيره، يصاب التحقيق.

الباب الأول: في تسلسل نسب السادة الأزديين البوسعيديين العمانيين.

الباب الثاني: في ذكر طوائفهم، وذراريهم الأزديين الأساطين السلاطين.

الباب الثالث: في ذكر أئمة أزد عمان، وما لهم فيها من الشأن، من الجلندا بن مسعود، رحمه الله، إلى الإمام البوسعيدي الحميد، أحمد بن سعيد الأزدي العماني الإباضي، ونسله السادة الأماجد الصناديد.

* * *

المصادر الأصلية والمراجع الحديثة والبحوث

مختارات من المصادر الأصيلة مرتبة حسب الأنماط

المصادر ذات العلاقة بعلم التاريخ عند المسلمين

الكافيجي (٨٧٩هـ/١٤٧٤م)، المختصر في علم التاريخ (نشر مع ترجمة كتاب روزنثال الموسوم علم التاريخ عند المسلمين).

السخاوي (٩٠٢هـ/١٤٩٧م)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، بغداد، ١٩٦٣م.

السيوطي (٩١١هـ/١٥١٦م) الشماريخ في علم التاريخ، القاهرة، د.ت.

ابن الصلاح (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) مقدمة في علم الحديث، الهند، ١٩٣٨م.

ابن خلدون (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) المقدمة، القاهرة، ١٩٥٧م.

الفارسي (١٠٩٦هـ/١٦٨٤م)، زهر الشماريخ في علم التأريخ (مخطوطة في مكتبة الرباط بالمغرب).

مصادر مرتبة حسب أنماط التدوين التاريخي

التاريخ العام العالمي:

خليفة بن خياط (٢٤٠هـ/٨٥٤م) التاريخ (تاريخ حولي) بغداد، ١٩٦٧م.

اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) التاريخ (على الموضوعات)، ليدن، ١٨٨٣م.

الطبري (٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك (تاريخ حولي)، ليدن،١٨٨١م.

ابن قتيبة (٢٧٦هـ/٨٨٩م) المعارف (على موضوعات)، القاهرة، ١٩٦٠م.

أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) الأخبار الطوال (على موضوعات)، القاهرة، ١٩٦٠م.

حمزة الأصفهاني (٣٦٠هـ/٩٧٠م) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (على موضوعات)، ليزبك، ١٨٤٤م.

مسكويه (٤٢١هـ/١٠٣٠م) تجارب الأمم، (تاريخ حضاري)، القاهرة، ١٩١٥م.

المسعودي (٣٤٦هـ/٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر (حضاري)، باريس، ١٨٧٣م.

البيروني (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الآثار الباقية عن القرون الخالية (حضاري)، ليزبك، ١٨٧٨م.

ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ (تاريخ حولي)، بيروت، ١٩٦٥م.

ابن كثير (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية (حولي)، القاهرة، ١٩٣٢م.

أبو الفدا (٧٣٢هـ/١٣٣١م) المختصر من أخبار البشر، مصر، ١٩٠٧م.

نماذج من المصادر المدونة حسب الأسر الحاكمة والدول والعهود:

ابن شداد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٩٦٤م.

ابن حيان القرطبي (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) أخبار الدولة العامرية، د.ت.

ابن عذاري المراكشي (ق ٧هـ/١٣م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، ١٩٥٠م.

المقري (ق ٥٧هـ/١٣م) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، بولاق ١٨٦٢م.

أبو شامة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، ١٢٨٧هـ.

المقريزي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) السلوك في معرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٧٠م.

ابن الجوزي، (٥٩٧هـ/١٢٠١م) المصباح المضيء في خلافة المستضيئ، بغداد، ١٩٧٧م.

نماذج من مصادر مدونة حسب المدن:

ابن أبي طاهر طيفور (٢٨٠هـ/٨٩٣م) تاريخ بغداد، القاهرة، ١٩٤٩م.

أبو زكريا الأزدي (٣٣٤هـ/٩٤٥م)، تاريخ الموصل، القاهرة، ١٩٦٧م.

لسان الدين بن الخطيب التلمساني (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الإحاطة بأخبار غرناطة، القاهرة، ١٩٦٦م.

الأزرقي (٢٥٠هـ/٨٦٤م) أخبار مكة، ليدن، ١٨٥٨م.

ابن النجار (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) الدرة الثمينة في أخبار المدينة (المنورة)، (ملحق كتاب شفاء الغرام)، القاهرة، ١٩٥٦م.

العليمي الحنبلي (٩٢٨هـ/١٥٢١م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، د.ت.

الزشخي (٣٤٨هـ/٩٥٩م) تاريخ بخارى، مصر، ١٩٦٥م.

نماذج من مصادر مدونة على التراجم :

- التراجم على الطبقات (الفئات):

ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات الكبرى، ليدن، ١٩٠٥م.

أبو نعيم الأصفهاني (٤٣٠هـ/١٠٣٨م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م.

ابن الفرضي الأندلسي (٤٠٣هـ/١٠١٢م) تاريخ علماء الأندلس، مدريد ،١٨٩١م.

ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، ١٩٧٣م.

ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الإصابة في معرفة الصحابة، د.م. ١٩٩٢م.

القفطي (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مصر، ١٣٢٦م.

الزبيدي (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) طبقات النحويين.

ابن المرتضى (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) طبقات المعتزلة، بيروت، ١٩٥٢م.

ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، كونسبرك، ١٨٨٤م.

الشيرازي (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) طبقات الفقهاء، بيروت، ١٩٨١م.

ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) معجم الأدباء، بيروت، ١٩٩٣م.

السلمي (٤١٢هـ/ ١٠٢١م) طبقات الصوفية، القاهرة، د.ت.

تاج الدين السبكي (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة، ٦٤-١٩٦٨م.

أبو يعلى (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) طبقات الحنابلة، دمشق، ١٣٥٠م.

ابن المعتز (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) طبقات الشعراء، القاهرة، ١٩٥٥م.

الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء، القاهرة، ١٩٥٧م.

السيوطي (٩١١هـ/١٥١٥م) طبقات الحفاظ، القاهرة، ١٩٧٣م.

التراجم على البلدان (البلدانيون الموسوعيون)

الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) تاريخ بغداد (حسب الحروف الأبجدية) القاهرة، ١٩٣١م.

ابن عساكر (٥٧١هـ/١١٧٥م) تاريخ دمشق، (حسب الحروف الأبجدية) دمشق، ١٣٣٣ه.

التراجم على الوفيات:

أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) مقاتل الطالبيين، النجف، ١٩٦٥م.

ابن خلكان (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وفيات الأعيان، (حسب الحروف الأبجدية)، القاهرة، ١٩٤٨م.

الكتبي (٧٩٤هـ/ ١٣٩١م) فوات الوفيات، القاهرة، ١٢٩٩م.

التراجم على الحروف الأبجدية:

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم الأدباء، ليزك، ١٨٧٣م.

الكشي (القرن ٤ هـ/١٠م) معرفة أخبار الرجال، النجف، ١٩٦٤م.

النجاشي (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) الرجال، بومبي، ١٩١٧م.

التراجم على القرون :

ابن الفوطي (٧٣٢هـ/١٣٣١م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، (منسوب إليه)، بغداد، ١٩٣٢م.

ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

الشوكاني (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) البدر اللامع لمحاسن من بعد القرن السابع،

السخاوي (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) الضوء اللامع في رجال القرن التاسع، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

نماذج من المصادر التي جمعت بين التاريخ والتراجم:

ابن تغري بردي (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٢٩م.

ابن الجوزي (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) المنتظم، حيدر أباد، ١٩٣٨م.

سبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

الذهبي (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، القاهرة، ١٩٧٧م.

نماذج من مصادر المذكرات:

أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) الاعتبار، برنستون، ١٩٣٨م.

أبو بكر الصنهاجي (القرن ٦هـ/ ١٢م)، أخبار المهدي بن تومرت، باريس، ١٩٢٨م.

لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) رسائل.

المؤيد في الدين (ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م) السيرة المؤيدية، القاهرة، ١٩٤٩م.

نماذج من المصادر التي دونت على الأنساب:

المصعب بن عبد الله الزبيري (٢٣٦هـ/٨٥٠م) نسب قريش، القاهرة، ١٩٥٣م.

البلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م) أنساب الأشراف، القدس١٩٣٦م، القدس ١٩٣٨م.

أحمد بن محمد الرازي (٣٣٤هـ/٩٤٥م) الاستيعاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس.

ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) جمهرة أنساب العرب، القاهرة، ١٩٤٨م.

العوتبي الصحاري (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) أنساب العرب، (مخطوط).

مجهول، أخبار العباس وولده (أخبار الدولة العباسية)، بيروت، ١٩٧١م.

السمعاني (٥٦٢هـ/١١٦٦م)، كتاب الأنساب، حيدر أباد الدكن، ١٩٦٦م.

ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) اللباب في تهذيب الأنساب، القاهرة، د.ت.

ابن عنبة (٨٢٨هـ/١٤٢٤م)، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، النجف، ١٩٦١م.

نماذج من المصادر التي دونت على الفتوح:

ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م) فتوح مصر والمغرب، الجزائر ١٩٤٧م.

البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٦م.

ابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/٩٢٦م) الفتوح، بومباي، ١٣٠٠ه.

ابن القوطية (٣٦٧هـ/٩٧٧م)، كتاب تاريخ افتتاح الأندلس،

نماذج من مصادر التاريخ المحلي أو الإقليمي:

ابن الحائك الهمداني (٣٣٤هـ/٩٤٥م) الإكليل، القاهرة، ١٩٦٣م.

الحسين السلامي (٣٧٤هـ/٩٨٤م) أخبار ولاة خراسان.

الأزكوي (١٢٧٤هـ/١٨٧٣م) كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، قبرص، ١٩٨٥م.

السيوطي (٩١١هـ/١٥٠٥م) حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة،

ابن أصفنديار (ق ٦هـ/١٢م) تاريخ طبرستان، طهران، ١٩٤٢م.

المراكشي، المعجب في أخبار المغرب، مصر، ١٩٤٩م.

نماذج من المصادر التاريخية التي دونها مؤرخون مسلمون بلغات غير عربية:

رشيد الدين فضل الله الهمداني (٧١٨هـ/١٣١٨م) جامع التواريخ، (مترجم)، القاهرة، ١٩٦٠م.

عطا ملك الجويني (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، جهنكشاي (فاتح العالم)، (مترجم)، ليدن، ١٩٣٧م.

نماذج من مصادر التاريخ التي دونها مؤرخون غير مسلمين:

دايونيسس التلمحري (ق ٢هـ/٨م)، التاريخ، المنسوب له، باريس، ١٩١٠م.

سعيد بن بطريق (٣٢٨هـ/٩٣٩م)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، ١٩٠٦م.

ابن العبري (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، مختصر تاريخ الدول، بيروت، ١٨٩٠م.

ميخائيل السوري (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) تاريخ، باريس، ١٨٩٩م.

المراجع الحديثة باللغة العربية:

عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٦٠م.

شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، ١٩٧٨م.

سيد عبد العزيز السالم، التاريخ والمؤرخون العرب، القاهرة، د.ت.

عفت الشرقاوي، أدب التاريخ عند العرب، القاهرة، د.ت.

مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، بيروت، ١٩٧٤م.

عثمان موافي، منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الأوروبي، الإسكندرية، د.ت.

عبد الواحد ذنون طه، نشأة التدوين التاريخي بالأندلس، بغداد، ١٩٨٨م.

عبد الواحد ذنون طه، أصول البحث التاريخي، الموصل، ١٩٩٠م (الفصل الثالث).

عبد الله الفياض، التاريخ فكرة ومنهجاً، بغداد، ١٩٧٢م.

روزنتال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، لندن، ١٩٥٢م (مترجم إلى العربية).

-----، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، بيروت، ١٩٦١م.

مارجليوث، دراسات عن المؤرخين العرب، كلكتا، ١٩٣٠م (مترجم إلى العربية).

أسد رستم، مصطلح التاريخ، بيروت، د.ت.

رمضان عبد التواب، مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، القاهرة، ١٩٨٥م.

علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، القاهرة، د.ت.

صبحي الصالح، علوم الحديث مصطلحه، بيروت، ١٩٧١م.

جورج لوكاش، الرواية التاريخية، بيروت، ١٩٧٨م (مترجم).

لانجلوا سينوريوس، النقد التاريخي، (مترجم) القاهرة، ١٩٦٣م.

نوري جعفر، التاريخ مجاله وفلسفته، بغداد، ١٩٥٥م.

نور الدين حاطوم وآخرون، المدخل إلى التاريخ، دمشق، ١٩٦٥م.

ناصر الدين سعيدوني، أساسيات منهجية التاريخ، الجزائر، ٢٠٠٢م.

فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي. (الفصل الخاص بالتراث التاريخي).

فاروق حمادة، مصادر دراسة السيرة النبوية وتقويمها، الرباط، ١٩٨٠م.

هورفتس، يوسف، المغازي الأولى ورواتها، (مترجم)، القاهرة، ١٩٤٩م.

ليث سعود، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ. د.ت.

عبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، القاهرة، ١٩٧٩م.

عبد العزيز عبد المجيد، ابن الأبار حياته وفكره، تطوان، المغرب، ١٩٥١م.

محمد عبد الله عنان، لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مصر، ١٩٦٨م.

ناجية عبد الله إبراهيم، قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي، عمان، ٢٠٠٢م.

أحمد عبد الرزاق أحمد، دراسات في المصادر المملوكية المبكرة، القاهرة، ١٩٧٤م.

محمد عبد الغني حسن، علم التاريخ عند العرب، القاهرة، ١٩٦١م.

------، التراجم والسير، القاهرة، ١٩٥٥م.

أكرم العمري، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، بغداد، ١٩٧٢م.

عمر رضا كحالة، التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، دمشق،١٩٧٢م.

عبد القادر طليمات، ابن الأثير الجزري، القاهرة، ١٩٦٩م.

أحمد محمد الحوفي، الطبري، القاهرة، ١٩٦٣م.

حسين العزاوي، الطبري ومنهجه، بغداد، ١٩٨٣م.

عبد الواحد وافي، عبد الرحمن بن خلدون، القاهرة، ١٩٦١م.

عبد اللطيف حمزة، القلقشندي، القاهرة، ١٩٦٢م.

عبد الحميد العلوجي، مؤلفات ابن الجوزي، بغداد، ١٩٦٥م.

حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، القاهرة، ١٩٥٦م.

عصام سخنيني، عهد إيلياء والشروط العمرية، نموذج تطبيقي، عمان ٢٠٠١م.

محمد المصري، مناهج التأليف عند العرب، جدة، ١٩٩٠م.

أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٤م.

قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، بيروت، ١٩٧٩م.

حكمت أبو زيد، التدوين التاريخي، القاهرة، ١٩٨٤م.

عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المدخل إلى علم التاريخ، الرياض، ١٩٨٤م.

هاري بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، القاهرة، ١٩٨٧م، (مترجم).

هاشم الملاح وآخرون، فلسفة التاريخ، الموصل، ١٩٨٨م (الفصل الأول).

فاروق عمر فوزي، المؤرخ خليفة بن خياط، بغداد، ١٩٨٦م.

فاروق عمر فوزي، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠م، (المقدمة : تحليل المصادر).

فاروق عمر فوزي، مصادر التاريخ المحلي لإقليم عمان، بغداد، ١٩٧٦م.

عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، بغداد، ١٩٥٧م.

محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)، القاهرة، ١٩٤٩م.

محمد محمود الدروبي، رسالة جديدة للجاحظ (في مناقب خلفاء بني العباس)

دراسة وتحقيق، مجلس النشر العلمي، الكويت، ٢٠٠٢م.

-------، فصول مختارة لأبي عثمان الجاحظ، عمان، ٢٠٠٢م.

يوسف سليمان الطراونة، عمر بن شبه ودوره في الكتابة التاريخية عند العرب، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، ١٩٩٥م.

رياض حمودة ياسين، كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي والمنسوب للبلخي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م.

البحوث في الدوريات:

فاروق عمر فوزي، الجاحظ مؤرخاً، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٧٨م.

-----------، المؤرخ ابن النطاح، دائرة المعارف الإسلامية، (بالإنجليزية) ١٩٦٦م.

-----------، أبو زكريا الأزدي وتاريخ الموصل، المكتبة، بغداد، ١٩٧٣م.

-----------، دايونيسس التلمحري وتاريخه، المكتبة، بغداد، ١٩٧٤م.

-----------، الكتابة التاريخية الفارسية وموقف الاستشراق الأوروبي، آفاق عربية، ١٩٨٦م.

-----------، في الكتابات التاريخية العمانية، آفاق عربية، ١٩٨٥م.

-----------، دور التاريخ في التوعية القومية، مجلة الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، ١٩٧٥م.

عبد الجبار ناجي، تتبع تاريخي لمحاولة ابن خلدون إعادة كتابة التاريخ، مجلة آداب البصرة، ١٩٨١م.

جب، هاملتون، مادة (تاريخ) في دائرة المعارف الإسلامية أو دراسات في حضارة

الإسلام، بيروت، ١٩٧٨م.

جواد علي، موارد تاريخ الطبري، مجلة المجتمع العلمي العراقي، ١٩٥٠م، ١٩٥٢م، ١٩٥٤م، بغداد.

حسن عيسى الحكيم، الخطيب البغدادي وأثره في مؤرخي أعلام بغداد، جامعة الكوفة، العراق، ١٩٨٦م.

آمنة بدوي، أهم المؤلفات حول مدينة القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ندوات القدس، عمان، ١٩٩٧م.

صلاح جرار، القدس في رحلات الأندلسيين، ندوات القدس، عمان، ١٩٧٧م.

عصام سخنيني، مكانة السيرة الذاتية والمذكرات في المعرفة التاريخية، ندوة أدب السيرة، جامعة آل البيت، المفرق، ١٩٩٨م.

حازم مشتاق، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، مجلة القضاء، عدد ٣-٤، بغداد، ١٩٨٦م.

أبو القاسم سعد الله، حول أدب الرحلة عند المغاربة، ندوة مصادر تاريخ العرب الحديث، جامعة آل البيت، المفرق، ١٩٩٨م.

نايف القسوس، المسكوكات وثائق رسمية أهملها المؤرخون، ندوة مصادر تاريخ العرب الحديث، جامعة آل البيت، المفرق، ١٩٩٨م.

حسين مؤنس، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٠م.

محمد شفيق غربال، أساليب كتابة التاريخ عند العرب، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٤م.

زكي محمد حسن، دراسات في الموازنة بين المؤرخين في دار الإسلام والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب والعلوم، بغداد، ١٩٥٧م.

-----، دراسات في مناهج البحث في التاريخ الإسلامي، مجلة كلية الآداب، القاهرة، ١٩٥٠م.

عبد الواحد ذنون طه، دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٩م.

المراجع والبحوث الحديثة باللغات الأجنبية:

Tritton, Bar Hebraeus, J.I.H., 1927.

Gibb, H., "Tarikh", e.I.(1), Leiden, 1938.

Richter, Medieval Arabic Historiography.

Lewis, B., and Others, "Historians of the Middle East", London, 1962.

Oberman, J., "The Idea of History in the Ancient Near East", "early Islam" New Haven, 1955.

Fahar, C., "Ibn al- Najjar". J.A.O.S., 1964.

Laoust, H., "Ibn Katir Historien", Arabica, 1955.

٢) e.I مجموعة المقالات عن المؤرخين المسلمين في دائرة المعارف الإسلامية

Ahmad S.M., "A History of Arab-Islamic Geography", Mafraq, 1995.

Rosenthals, F., "History of Muslim Historiography",
(مترجم إلى العربية)

Margoliouth, D., "Lectures on Arabic Historians", Calcutta, 1930,
(مترجم إلى العربية).

Little, D., "Introduction to the History of Mamluks", 1970.

Islamic Historiography

Its beginning and depevolopment until the 10 Century
A.H. 16 Century A.D.

Dr. Farouk Omar Fawzi

Professor of Islamic History ، Univ. of Al-al-Bayt

Amman 1423 A.H. 2003 A.D.